الدكتور المهندس
خالد فائق العبيدي

القرآن منهل العلوم

DKI
دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Title: **AL-QUR'ĀN MANHAL AL-ᶜULŪM**
(The Holy Qur'an fountain of sciences)

Author: Dr. Ḫālid fā'iq al-ᶜUbaydi

Publisher: Dar Al-kotob Al-Ilmiyah

Pages: 496

Year: 2007

Printed in: Lebanon

Edition: 1st

الكتاب: القرآن منهل العلوم

المؤلف: د. خالد فائق العبيدي

الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت

عدد الصفحات: 496

سنة الطباعة: 2007 م

بلد الطباعة: لبنان

الطبعة: الأولى

ISBN 2-7451-5216-5 (10 dig)
ISBN 978-2-7451-5216-9 (13 dig)
90000
9 782745 152169

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
٢٠٠٧ م ـ ١٤٢٨ هـ

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.

هاتف:١٢ / ١١ / ٨٠٤٨١٠ ٥ ٩٦١+
فاكس:٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

أهدي هذا الجهد المتواضع إلى روح من أرسله الله رحمةً للعالمين، إلى خير معلم وأشرف رسول، إلى روح سيد الأولين والآخرين رسول الله المصطفى سيدنا **محمد** صلى الله عليه وسلم. وإلى أرواح إخوانه من الرسل والأنبياء أجمعين وإلى أرواح آله الطيبين الطاهرين وصحابته المجاهدين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وإلى أرواح شهداء الأمة على مر العصور الذين رووا بدماءهم الزكية الأرض لتكون كلمة الله هي العليا، وإلى أمتي ووطني وأهلي، وإلى كل من أعانني في هذا العمل من أخوة أعزاء وأساتذة أفاضل.

إلى من هي نفحة من رحمة الله تعالى التي حملتني من وهن وأعانتني من ضعف، وإلى الوالد الذي كان لي السند في كل الشدائد، عسى الله أن يجعل هذا العمل صدقة جارية لهما وأن يغفر لي تقصيري في حقهما، وإلى كنز الحياة الدنيا الزوجة العزيزة التي كانت لي نعم العون بعد طول عناء، وإلى أولادي الأحباء عسى الله أن يجعلهم من أهل الصلاح والخير.

راجياً من الله أن يتقبله عنده وأن يجعله كله خيراً ويكون ذا فائدة جمّة للناس أجمعين...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته المجاهدين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

إنه لا يخفى على أحد من إخواننا القرّاء الذين لهم بالتأكيد غيرة على دين الله وكتابه المعجز (القرآن الكريم) الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أن كتاب الله الخالد يحوي علوماً عديدة، منها اللغوي والبياني، ومنها التشريعي، وعلوماً أخرى عديدة فصّل فيها علماؤنا الأفاضل من السابقين واللاحقين. لكن القرآن الكريم أثبت على مر العصور أنه متجدد متألق شامخ أمام كل التحديات الفكرية منها والتشريعية وغيرها، وعندما بدأت البشرية عصر العلوم التطبيقية والمعلوماتية، فإذا بكتاب الله الخالد يبهر علماء الدنيا بسبقه لعلومهم، فاستحق فعلاً ما وصفه به علماؤنا السابقين بأنه (كون مقروء)... وما ذاك إلا مصداق قوله - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الذي يرويه لنا سيدنا علي - رضي الله عنه- :**(أَلا إِنَّهَا سَتكُونُ فِتْنَةٌ فَقُلْتُ مَا الْـمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ الله قَالَ كِتَابُ الله فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ الله وَمَنِ ابْتَغَى الْـهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ الله وَهُوَ حَبْلُ الله الْـمَتِينُ ونوره المبين وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْـمُسْتَقِيمُ هُوَ الَّذِي لا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ وَلا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ ولا تَتَشَعَّبُ مِنهُ الآراء وَلا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ ولا يَمَلُّهُ الأتقياء وَلا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ وهُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ﴾ مَن عُلِّم عِلْمُهُ سَبَق وَمَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)**(١)

يناقش هذا الكتاب أموراً عديدة من علوم القرآن الكريم بشكل عام مبتدأ بما حصل على القرآن وأهله من مؤامرات ومحاولات للتشويه والتحريف والقدح وغير ذلك، لأن

(١) أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وأخرجه الدارمي.

ذكر هذه الأمور تجعل من القارئ أمام تسلسل مهم لفهم عظمة هذا الكتاب الذي وقف ويقف كالطود أمام كل الدسائس، وكأن الله تعالى وضع فيه من كوامن العلوم ما يجعلها تظهر في وقت كل مؤامرة فكرية لتدحضها... وما ذاك إلا ليثبت للعالم صدق الوعد الإلهي الخالد في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾، [التوبة:٣٣]، ومن أوفى بعهده من الله؟... بعد ذلك يلخص الكتاب أنواع العلوم اللغوية والبيانية والشرعية التي يضمها الكتاب العزيز والتي فصل فيها الأولون جزاهم الله خيراً. ثم يطرح الكتاب ويركز في بحثه على العلم الجديد الذي ظهر خلال الـ ٣٠ سنة الماضية، ألا وهو الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، تعريفه، تأصيله، تأريخه، ضوابطه وفقهه وشروطه، ما له وما عليه.

وأظن أن الأخوة القراء الأكارم لا يخفى عليهم أهمية موضوع السبق القرآني للعلوم، سيما في عصرنا الراهن عصر العلم المادي والتكنولوجيا والتطور التقني والمعلوماتية. خصوصاً ونحن أمام هذا الكم الهائل من التحديات التي تهدد كياننا كله.. وإن علينا وعلى كل الأخوة والأساتذة ذوي الاختصاصات العلمية المختلفة من الذين يكتبون في هذا الموضوع واجباً مهماً هو التبصير والتنوير والإيضاح لعامة الناس وخاصتهم كيفية العمل على التدبر العلمي للقرآن الكريم وجعله نوراً للصدور والعقول مدعماً بالدلائل العلمية على سبقه لآخر ما توصل إليه العلم الحديث(*)- خصوصاً وأن عدد آيات العلم والأمثلة والإشارات القرآنية المتعلقة به يربوا على خمس القرآن الكريم وجلها ليس لها سبب نزول - ولكن بشرط أن يكون القرآن العظيم هو الحق المطلق، وأن ما نحاول فهمه من العلوم التطبيقية هو جهد لعقول البشر القاصرة أمام قدرة الخالق العظيم جل في علاه، فيكون شعارنا ونحن نعمل في هذا المجال الخطير (**العلم اليقيني يتسلق إلى القرآن**) وليس العكس.

نتطرق في هذا الكتاب الذي جعلناه في ثمان فصول إلى عدة علوم في كتاب الله

(*) العلم التطبيقي اليقيني غير القابل للدحض والتغيير وليس النظري والفلسفي الذي يعتريه التغيير بشكل مستمر.

العزيـز، ولكننا نركز في أكثر فصول الكتاب على موضوع الإعجاز بشكل عام - تعريفه، تأصيله وتأريخه، أهميته، فقهه، شروطه وغير ذلك- مبتدئين بالفصل الأول الذي يتعلق بنـبذة وتوطـئة تاريخـية لمـا مـر بالإسـلام من مؤامرات ودسائس مختلفة، وآخرها الفرية الكبيرة التي صدقها الكثير من أبناء الأمة دون تبصر وتحقق من حقيقة أمرها، ونقصد بها الادعـاء بـأن القـرآن الكريم لا يطابق ما توصل إليه الإنسان من حقائق علمية غير قابلة للـدحض. ثـم تطـرقنا لموضوع الحضارة الإسلامية وأهم فروقها عن حضارة الغرب في الفـصل الـثاني. أمـا الفـصل الثالث فكان ملخصاً لعلوم القرآن الكريم التي فصل فيها الأولـون، فذكـرنا بعض أنواع تلك العلوم وبعض المصطلحات والمعاني في علوم القرآن الكريم، وكذلك مختصر علم أسباب النزول وترتيب وجمع القرآن الكريم، ثم مختصرا في علـم الناسـخ والمنـسوخ. أمـا الفـصل الـرابع فقد خصصناه للحديث عن بعض أوجه الشبهات وأنواع المكابرة من قبل المغرضين وأعداء الإسلام وكيفية التصدي لها. الفصل الخـامس ذكرنا فيه بعض البحوث الحديثة التي تتعلق بالعقل البشري والإثباتات الحديثة بتأثـره بمسائل عديدة، وعلى هذا الأساس فإن كل فكر أو فلسفة بشرية يضعها صاحبها ليصدق بها آخرون تجد أنها تتبدل بتبدل عوامل تكوينها، بينما الفكر الذي يعتمد العقيدة والـشريعة المنزلة من خالق السماوات والأرض لا يمكن لها أن تتبدل لأن ظروف تكونها جاءت من خالق الأكوان فجعل فيها كل مكامن القبول لكل ظرف زماني ومكاني.

فصّلنا موضوع الإعجاز في الفصلين السادس والسابع لنتوصل إلى الاستنتاج المتعلق بمصدرية الإعجاز هل هو علمي أم قرآني في الفصل السابع..

أي إننا في هذا الكتاب سنقتصر على فتح الأبواب أمام القراء الكرام ليتعرفوا على كل ما يتعلق بهذا الموضوع المهم دون الدخول في التفاصيل العلمية وإظهار تفاصيل الإعجاز والـسبق القرآني المتعلق بالحقائق العلمية والعددية وغيرها- عدا بعض الأمثلة البسيطة- كـما فعلـنا في كتبـنا التفـصيلية التطبيقـية الأخـرى مـثل كـتاب (**المنظار الهندسي للقرآن الكـريم**)، الـصادر عـن دار المسيرة بعمّان، وكتاب (**تفصيل النحاس والحديد في الكتاب المجـيد**)، الصادر عن دار الكتب العلمية ببيروت، وسلسلة كتب (**ومضات إعجازية من**

القـرآن والـسنة النـبوية – ١٥ كتاب-)، الصادر عن دار الكتب العلمية ببيروت أيضاً، هذا فضلاً عن كتب أخرى..

ولقـد اعـتمدت في كـتابي هـذا عـلى أهـم المـصادر في علـوم القرآن الكريم قديمها وحديـثها، ولعـل مـن أهـم المـصادر التـي يعـتمدها الباحثون في علوم القرآن المصنفين الـرائعين (البرهان في علوم القرآن)٠للإمام الزركشي رحمه الله تعالى، ومن ثم (الإتقان في علـوم القـرآن) للإمـام الـسيوطي رحمـه الله تعـالى، اللذان يعدان بحق من أهم ما كتب وصـنف في علـوم القـرآن الكـريم ومـنها علم أسباب النزول وعلم المناسبة بين الآيات وغيرهما من علوم الكتاب المجيد. وقد جعلت هذين المصنفين المهمين على رأس المصادر التـي اعـتمدت علـيها في كـل مـؤلفاتي في علـوم القرآن التي تربو على الـ ٢٠ مؤلفاً ولله الفضل والمنة.

ولقـد اسـتعرت بعـض من أجزاء هذا الكتاب لجعله ضمن الباب الأول من مجلدي الـضخم (المنظار الهندسي للقرآن الكريم)، كتوطئة للتسلسل المنطقي مع القارئ الكريم حول ما يتعلق بالإعجاز العلمي وأصنافه، لكن تفصيل الأمور المتعلقة بتعريف وتأصيل وتـأريخ وفقـه وأصـناف وشروط وإنجـازات الإعجـاز جـاءت كاملـة ومـرتبة في هذا الكتاب.

وأود هنا أن أسجل شكري الجزيل للجامعة الإسلامية ببغداد التي وافقت على جعل هـذا الكـتاب ضـمن سلـسلة الكـتب القيمة المسماة (سلسلة الموسوعة العلمية للجامعة الإسـلامية). إذ حـصلت الموافقة على طبع الكتاب وفق الأمر الجامعي الموقر المرقم (٦/ ٧٤٠) والمـؤرخ بـتاريخ ١/ شـعبان/ ١٤٢٣هـــ الموافق ٧/ ١٠/ ٢٠٠٢م بعد مداولات وتعـديلات وتقيـيمات مستمرة من قبل أساتذة ومقيمين متخصصين أكفاء استمرت لمدة تجاوزت العامين ابتداءً من الجلسة الأولى للجامعة بتاريخ ٢٧/ ٩–٤/ ١٠/ ٢٠٠٠م. فتم إدخـال هـذا الكـتاب في مكتـبة الجامعـة الموقرة، فكان شرفاً كبيراً لمؤلفه، وأتوجه أيضاً بالـشكر الجـزيل لكل المقيِّمين اللذين ساهموا بإعطاء الكتاب دفعاً مهماً للكتاب وإظهاره بطبعته الأولى المحلية كي يكون بالشكل المناسب، ولله الفضل والمنة والحمد.

كـما وأتوجه بالشكر الجزيل والكبير للأخوة الناشرين الأكارم والذين شرفوني بتبني طـباعة الكـتاب بطبعـته الدولـية، فساهمت بإعطاء دفع وتزكية مضافة للكتاب وإظهاره بشكله الرائع الجديد، ولله الفضل والمنة والحمد.

وآخـر دعـوانا أن الحمـد لله رب العالمـين والـصلاة والسلام على خاتم أنبيائه وسيد رسـله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته المجاهدين ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته؛

المؤلف

١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م

الفصل الأول

توطئة تاريخية

المبحث الأول

مؤامرات مستمرة ضد القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم

من يتتبع تاريخ دين الإسلام الحنيف منذ بعثة المصطفى صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وحتى يومنا هذا، سيصل إلى نتيجة طبيعية واحدة ألا وهي تتابع المؤامرات بمختلف صنوفها وأشكالها على هذا الدين العظيم الذي تعهد الله تعالى بحفظه رغم أنوف الكارهين والكافرين والمشركين والمنافقين والدجالين. وفي كل نوع من هذه المؤامرات يقف القرآن والإسلام شامخاً كالطود العظيم لا تهزه الرياح العاتيات، ذلك لأن الله تعالى جعل فيه كل الأسباب التي تجعله يناجز كل من يقف أمامه وعلى مر العصور وتنوع أشكال الدسائس والمؤامرات، وهذه الأسباب الكامنة تظهر في وقتها عند تعاظم المؤامرة (١).

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾، [التوبة:٣٣] .. ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾، [الفتح:٢٨] .. ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾، [الصف:٩].

ولعل وقتنا الراهن يشهد نوعاً ليس جديداً في فكرته وإنما في شدة الهجمة وتنوع

---

(١) أرجو من المتقولين بمسألة نظرية المؤامرة والمتشككين بوجودها أن يراجعوا كتابنا (القوانين القرآنية للحضارات) ليجدوا الدليل القاطع غير القابل للنقاش والذي يؤكد حقيقة هذه النظرية لأنه يستند لما أخبر به الله تعالى من جهة، وللوقائع التأريخية من جهة أخرى.

صـورها وخطـورة أسـاليب التنفـيذ، ومـن هذه الصور هو الادعاء بعدم علمية القرآن وعدم مواكبته لما توصل إليه إنسان العصر الراهن من تقنيات وعلوم.

ولغـرضٍ وضع القارئ الكريم أمام التدرج التأريخي لبعض حلقات المؤامرات التي تعرض لها ويتعرض لها دين الله الخالد وكتابه المعجز سنقوم بذكر بعض من هذه السلسلة الطـويلة مـن المكـر والدسائس، ومنها سرد بعض التفاصيل البسيطة من سيرته صلى الله علـيه وسـلم مـع أنهـا ليست من اختصاص الكتاب، لا لشيء إلا محاولة لإكمال الصورة وتوضـيحها للقـارئ الكـريم كـي يستيقن كم كان البشر وما يزالون ظالمين لأنفسهم إذ يجادون الله تعالى ويعادونه ويحاربون رسله الذين بعثوا أصلاً لمصلحتهم، وهذا من ديدن البشر إذ إنهم كما أنبأ خالقهم تبارك وتعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾، [الكهف: ٥٤].. ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ﴾، [الحج:٨]. وقال تعالى أيضاً: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴾، [المؤمنون: ٧٠]. ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝ كَذَ‌ٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝﴾، [الروم].. وقال سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، [يّـس: ٣٠] .

وعلى هذا الأساس بدأت المؤامرة على كتاب الله المجيد منذ بعثه المصطفى صلى الله عليه وسلم حينما عذبه قومه وأهانوه واتهموه بأنواع التهم فتارة مجنون وتارة كذاب وتارة ساحر (حاشاه صلى الله عليه وسلم).. واتخذت المؤامرات أشكالاً عديدة ومحاور شتى فكان منها التشكيك في مصدر الإسلام نفسه، والحطّ من مقام صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم، وتشويه سير الصحابة والأبطال والقادة والخلفاء، واستغلال الخلافات المذهبية في رمي الفريقين بالكفر.. فظهر الدّس الإسرائيلي، والدُخلاء على الإسلام من الديانات القديمة، والصليبية العالمية، والشعوبية والتعصب للجنس من الفرس والروم

ضد العرب، والاستعمار الأوربي وصنائعه من المستشرقين وغيرهم[١].. ولا ننسى الحقد اليهودي القديم الحديث بأشكاله الجديدة كالماسونية والعلمانية والإعلام والعولمة وغير ذلك[٢].

ومن هذه المؤامرات الطعن بنسبه والأمة التي جاء منها بقولهم أنه أتى من أمةٍ همجية لا صلة لها بالحضارة والعلوم فأنّى له أن يأتي بعلوم الأنبياء السابقين؟ فإذا كانت كثرة الحاسدين تدل على امتياز المحسود وتفوقه. وإذا كانت زيادة عدد الحاقدين ترشد إلى عظمة المحقود عليه وعلو همته، فإن أمة العرب تبدو – على هذا القياس- أعظم الأمم وأرفعها شأناً. ولكن لمّا كان واقع أمتنا ليس كذلك، فنتساءل كيف نفسر هذه الظاهرة ونفهم معناها؟

يبدو أنه ميراث ورثناه من أجدادنا، يوم أن كانت أمة العرب تسود، وكان دينها يسيطر، وكانت حضارتها هي قمة الحضارات.. من يومها، والقلوب الحاقدة تنفث سمومها، وتلقي حقدها في تاريخ العرب، ولم تكتف بما حاولته وصنعته في تاريخ الإسلام: من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتدليس على أصحابه رضي الله عنهم، وتسويد كل الصحائف البيض في دولة الإسلام.. لم تكتف بكل ذلك، بل تجاوزت افتراءاتها إلى عرب الجاهلية، لينالوا من الأرومة القديمة، حتى يظهروا للناس أن أصل العرب فاسد، وأن ماضيهم حقير.. ومن العجيب أن هذه الدعوى انطلت على بعض علماء العرب، فدونوها حتى صارت حجة علينا.. وهذه الآراء كتبها كثير من المستشرقين وأصحاب الغرض السيء لينالوا من نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على أن هناك بعض المنصفين من المستشرقين ممن ردوا هذه الفرية وتكلموا عن العرب قبل الإسلام وبعده وفضائلهم على الأمم الأخرى.. حتى أن أحدهم ليمثل ذلك بقوله: يكفي أن نذكر أنه كان للعرب قبل ظهور محمد صلى الله عليه وسلم ، آداب ناضجة ولغة راقية، وأنهم كانوا ذوي صلات تجارية بأرقى الأمم في العالم، منذ قديم، فاستطاعوا في

---

(١) أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، د. إبراهيم علي شعوط، الأستاذ بجامعة الأزهر، ص ٥٠-٥٢، بتصرف.

(٢) سنتحدث عن بعض الأمثلة على الشبهات التي أثيرت حول الإسلام تشريعاً وفكراً، والمكابرة في قبول الحق من قبل المعاندين في فصول لاحقة.

أقل من مائة سنة بعد الإسلام أن يقيموا حضارة من أنضر الحضارات التي عرفها التاريخ(١).

ومن افتراءاتهم أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم لم يأت بمعجزات مادية كما جاء بها الأنبياء من قبله، كعدم الاحتراق بالنار التي وضع بها سيدنا إبراهيم عليه السلام، وشق البحر لسيدنا موسى عليه السلام وتسخير الرياح والجن لداود وسليمان عليهما السلام، وإحياء الموتى لسيدنا عيسى عليه السلام، وغيرها من معجزات الأنبياء والرسل -عليهم السلام جميعاً-.. ونسي هؤلاء المدعون أن هذه المعجزات المادية يصدقها أهل زمانها من الذين رأوها بأعينهم بينما يظل الذين يأتون من بعدهم بين مصدق وشاك ومكذب. بينما الإسلام ومعجزته الخالدة -القرآن الكريم- كانا وسيظلان على مر العصور مناراً ونبراساً يحكي لكل الناس عظمة هذا الدين ورسوخ جذوره في الأرض وشموخ أغصانه في عنان السماء، هذا الكتاب المعجز الذي لا يقتصر على مجرد كلمات في سطور بل هو كون مقروء ونور يخرج الناس من ظلمات الجهل والظلم إلى نور الله. وفي هذا المعنى يقول صلى الله عليه وسلم: (**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ...**)(٢).

ومع ذلك إذا أردنا أن نعمل إحصائية بالمعجزات المادية لأنبياء الله عليهم السلام، سنجد أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو أكثر إخوانه من الأنبياء عليهم السلام تأييداً بالمعجزات المادية ولا يدانيه أي نبي من قبله في ذلك من حيث عدد المعجزات أو عظمتها فلا يكاد يمر يوم من حياته الشريفة وسيرته العطرة إلا وله معجزة أو أكثر، وإليك بعض من هذا المحيط:

---

(١) أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، د. إبراهيم علي شعوط، الأستاذ بجامعة الأزهر، ص ١٧-٢٠، بتصرف... وللوقوف على تفاصيل أكثر حول المدنية التي وصل إليها العرب قبل الإسلام بإمكان القارئ الكريم الرجوع إلى مصادر عديدة منها (السيرة النبوية) لأبو الحسن الندوي، و(السيرة النبوية) لابن هشام، و(أخبار مكة) للإمام الأزرقي، و(بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب) للآلوسي، و(تاريخ مكة) للسباعي، وكتاب (مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول) للأستاذ أحمد إبراهيم الشريف، وغيرها .

(٢) رواه البخاري كما في الفتح ٩/ ٣.

- فهو صاحب المعجزة العظيمة في الإسراء والمعراج.
- وهو الذي أشر بإصبعه الشريف فشق القمر إلى نصفين. إذ جاءت القصة بهذا الشكل على عدة روايات وجاءت بروايات أخرى أن القمر شق إلى نصفين في عهده صلى الله عليه وسلم عندما سأله أهل مكة أن يأتهم بآية فنزلت: ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾، [القمر:١].
- وهو الذي تكلم مع البعير الذي اشتكى إليه مالكه يحمل عليه كثيراً ويطعمه قليلاً.
- وهو الذي نبع الماء من يديه الشريفتين فشرب وتوضأ منه جيش المسلمين بكامله في إحدى المعارك.
- وهو الذي تكلم مع البنت الميتة بعد دفنها حيث أرادت أمها إرجاعها إلى الحياة لتراها للمرة الأخيرة، فسألها صلى الله عليه وسلم مخيراً إياها بين العودة إلى الحياة أو البقاء فأجابته البنت أن لبيك يا رسول الله، إني وجدت ربي أحن علي من أمي، فقالت الأم دعها يا رسول الله.
- وهو الذي رمى بحفنة من تراب على وجوه الذين تجمعوا حول داره في مكة ليقتلوه وكانوا من جميع قبائل العرب، فجعلهم لا يرون وخرج من بينهم مهاجراً إلى المدينة هو ورفيق دربه أبو بكر الصديق رضي الله عنه.
- وهو الذي أرجع العين المفقوءة لقتادة الصحابي الجليل، واليد المبتورة لمعاذ بن الجارح التي قطعت في إحدى المعارك.
- وهو الذي دعا النخلة إليه لتشهد أنه رسول الله بعد أن تحداه أحد الأعراب، فجاءت ملبية بعد أن اهتزت وخلعت نفسها من الأرض وجاءته تمشي على جذورها وتكلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله.
- وهو الذي وضعت له اليهودية زينب بنت الحارث السم في الشاة إبان معركة خيبر حتى إذا جاء ليأكلها تكلم معه اللحم المطبوخ بالسم فقال صلى الله عليه وسلم: «**إن هذا العظم لينبأني أنه مسموم**» .أو كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أَبو هُرَيْرَةَ قَالَ: (**كَانَ رَسُولُ الله** صلى الله عليه وسلم **يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ**)..

و عَـنْ أَبِي سَـلَمَةَ قَـالَ: (كَـانَ رَسُـولُ الله صـلى الله عليه وسلم يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ زَادَ فَأَهْدَتْ لَهُ يَهُودِيَّةٌ بِخَيْبَرَ شَاةً مَصْلِيَّةً سَمَّتْهَا فَأَكَلَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم مِنْهَا وَأَكَلَ الْقَوْمُ فَقَالَ: ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ فَإِنَّهَا أَخْبَرَتْنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ فَمَاتَ بِشْرُ بْنُ الْـبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ الْأَنْصَارِيُّ فَأَرْسَلَ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ مَا حَمَلَكِ عَلَى الَّذِي صَنَعْتِ قَالَتْ إِنْ كُـنْتَ نَبِـيًّا لَمْ يَضُرَّكَ الَّذِي صَنَعْتُ وَإِنْ كُنْتَ مَلِكًا أَرَحْتُ النَّاسَ مِنْكَ فَأَمَرَ بِهَا رَسُولُ الله صـلى الله علـيه وسـلم فَقُـتِلَتْ ثُـمَّ قَـالَ فِي وَجَعِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ مَا زِلْتُ أَجِدُ مِنَ الْأَكْلَةِ الَّتِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ فَهَذَا أَوَانُ قَطَعَتْ أَبْهَرِي) [١].

- وهـو الـذي أراد الـيهود قتله قبيل موقعة بني النضير بأن يرموا عليه الحجر من فوق أحد الدور، جاءه الوحي ليخبره بالقصة، فسلم ثم دارت المعركة وفتح الله للمسلمين موقع اليهود.
- وهـو الـذي اهتـز جـبل أحـد تحـت قدميه الشريفتين ترحيباً به وحباً له، وحن جذع الـنخلة إلـيه فسمع له أنيناً من قبل كل الصحابة عندما وضع جانباً في المسجد بعد أن كان يرتقي عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصعد المنبر.

وغير ذلك مما لا يتسع المجال للتوسع فيه فقد ألف وكتب الكثير حول هذا الموضوع المهـم[٢]، فهـذا النبـي الأمـي هو بشارة جميع الأنبياء والكتب السماوية السابقة فهو دعاء سـيدنا إبـراهيم علـيه الـسلام، وهو (الماد ماد) أي محمد الذي جاء ذكره في توراة سيدنا موسى عليه السلام ، وهو الترنيمة التي كان يترنم بها سيدنا داود عليه السلام في الزبور، وهـو (الفارقلـيط) الكلمـة اليونانية التي تعني بالعربية (كثير الحمد) أي أحمد وهو أحد أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بشر به سيدنا عيسى عليه السلام وأمر باتباعه قـائلاً «وإن عـندي كثـيراً أقـوله لكـم ولكـنكم لا تطـيقون حملـه الآن، ولكن متى جاء

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم (٣٩١٢)، والدارمي برقم (٦٧).

(٢) مـن أراد التفـصيل فهـناك كتب كثيرة حول المعجزات المحمدية ألفها القدماء والمحدثون منهم البيهقي والـسيوطي والـترمذي وغـيرهم، ومـن المحدثين الحاج وليد الأعظمي، وكذلك كتاب الصحيح من معجزات المصطفى صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من المراجع.

الفارقلـيط ذاك روح الحـق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بما يأتي، هو يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم»[١].

وقد ترجمت هذه الكلمة إلى العربية ترجمة غير صحيحة ومغرضة حيث عربوها بكلمة (المعزي)، وأوهموا الناس من أهل الديانة النصرانية على أن هذا المعزي لم يأت بعد، ثم ما لبثوا أن غيروا كلمة المعزي أيضاً في الطبعات الأخيرة من الإنجيل إلى كلمة (المخلص)، وذلك بعد ما علموا أن المسلمين قد اكتشفوا التزوير الأول وأصبحوا يحاجوهم به، ولا أدري كم من الذنوب سيحملون جراء تزويرهم هذا؟

وهذا القول لسيدنا عيسى عليه السلام الذي جاء في الإنجيل هو مصداق قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾، [الصف: ٦]، فلو لاحظنا أن المعنى لكلمة الفارقليط هو كثير الحمد، وكلمة أحمد هي صيغة مبالغة على وزن أفعل لكلمة الحمد، فنجد النصين متطابقين وهذا يعني أن المصدر واحد.

فقد وصفت الكتب السماوية السابقة الحبيب صلى الله عليه وسلم شكلاً وهيئة، حياةً وجهاداً، دعوة وتحملاً، وما سيعاني وما سيكون من أمره، بل وصفت حتى صحابته ومعاركه وهجرته وصفاً دقيقاً، وهذا ما أنبأ به الله تعالى في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾، [البقرة:١٤٦]، أي يعرفون علاماته وصفاته وشكله وكل ما يخص أمور دعوته كما يعرفون أنفسهم ودينهم وأولادهم لدقة الوصف الذي وصفه الله تعالى لحبيبه صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم في كتبهم[٢].

---

(١) إنجيل يوحنا، الفصل السادس عشر، المقطع ١٢-١٥، ص١٨٨، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٥١.

(٢) من أراد التفصيل في هذا الموضوع فبإمكانه الرجوع إلى كتب مقارنة للديانات السماوية ألفت مستندة إلى مـا جـاء في الـتوراة والإنجـيل والـزبور مما هو متوفر لعامة الناس مثل كتاب موريس بوكاي وكذلك =

ومن يقرأ قصة سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه وكيف أسلم لَيعلم علم اليقين ما تعنيه هذه الآية الكريمة، إذ أنه كان في أهله على دين الزرادشتية ثم أصبح نصرانياً وتدرج في دراسة العلم النصراني فهاجر إلى الشام ليدرس على يد كبار البطارقة والقساوسة، وكان كلما يموت أحدهم يوصيه أن يذهب إلى آخر ممن عرف عنه غزارة العلم حتى إذا وصل إلى آخرهم وكان على فراش الموت سأله أن يدله على عالم أو راهب آخر يذهب إليه، فقال له هذا العالم: لا داعي لأن تذهب لأي عالم آخر فلقد آن أوان نبي آخر الزمان، فاذهب إليه فهو في أرض العرب، وأعطاه ثلاث علامات ليتعرف عليه وهي أنه لا يقبل الصدقة ويقبل الهدية وعنده خاتم النبوة على ظهره كما وصف له أرض يثرب مع أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن قد هاجر إليها بعد، فذهب الرجل إلى المدينة المنورة بعد أن سأل عنها وكان صلى الله عليه وسلم في طريقه إليها وعند وصوله صلى الله عليه وسلم واستقبال أهل المدينة له فجاءه أحدهم عارضاً عليه بعض التمرات من باب التصدق فرفض صلى الله عليه وسلم ثم أهدى إليه أحدهم هدية فقبلها، فلم يبق إلا العلامة الثالثة فتقدم صلى الله عليه وسلم من سلمان وكان لا يعرفه، فقال له: عمّ تبحث؟، عن الخاتم؟، فكشف عن ظهره الشريف وأراه الخاتم فخر سلمان صعقاً لهول الموقف، وبعد أن أفاق أسلم وحسن إسلامه وظل من كبار الصحابة حتى موته..... ومثال آخر نضربه في هذا المجال كي يعرف من يقرأ هذا الكتاب من أهل الديانة النصرانية كم كان رجال الدين النصارى في عهد البعثة النبوية الشريفة يوقنون بأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نبي آخر الزمان المنتظر، فها هو بطريارك القدس لا يرضى أن يسلم مفتاح المدينة إلا لخليفة المسلمين، وكان ذلك عندما فتح المسلمون القدس الشريف على عهد سيدنا عمر رضي الله عنه، لأنه وجد في العهد القديم صفات الرجل الذي سيفتح المدينة من المسلمين، فكان يريد أن يرى هذه الصفات بعينه، وكان له ما أراد إذ أرسل إلى خليفة المسلمين بالأمر ولبى النداء فأتى من المدينة المنورة إلى القدس بلباس فيه ثماني عشرة رقعة

=

بعض النسخ من الكتب السماوية التي منع الناس من قراءتها مثل إنجيل برنابا.

وخادم كان يرافقه ودابة حملت الخليفة عمر رضي الله عنه ثلث الطريق والخادم ثلث الطريق وارتاحت ثلثه، وعندما وصل إلى المدينة ورآه البطريارك سلمه المفتاح حالاً لأن مواصفاته كانت كما جاء عندهم في التوراة وهو مصداق لقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾، [الفتح:٢٩].

وهكذا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته معلومون عند أهل الكتاب وكانوا ينتظرون قدومه وظهوره ولكنهم أنكروه بعد بعثته وحاربوه وكذّبوه، وبذلك فقد تخلوا عما أؤتمنوا عليه وما أمروا أن يفعلوه.

ثم توالت المؤامرات عبر التأريخ ومنها مؤامرات جاءت بعد عصر التابعين رضوان الله تعالى عنهم أجمعين، من أصحابها الوجوديون والباطنيون والملحدون والزنادقة وفرق من المعتزلة أصحاب فكرة خلق القرآن والتي تصدى لها الكثيرون ومنهم الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه.. وبعدها مؤامرات الفلاسفة والباطنيون التي كشف زيفها وفندها فيلسوف الإسلام الإمام محمد أبو حامد الغزالي في القرن الرابع والخامس الهجريين وكانت له نظرته الثاقبة التي أصلح بها المجتمع الإسلامي مما كان يسوده ويشوبه من الفتن والأفكار الدخيلة، فعالج رحمه الله القضايا الأساسية التي أدخلها الفلاسفة في عقول الناس متأثرين بأفكار مستوردة كأفكار سقراط، وأرسطوطاليس وغيرهم حتى وصل بهم الأمر إلى أنهم ألغو دور الخالق وساووا بين الفلاسفة والأنبياء و ادعوا إن الدين لا علاقة له بمجريات الحياة وإدارة شؤونها، كما جعلوا في التكاليف الشرعية والعبادات كالصلاة والصوم والزكاة أموراً تثقل كاهل الناس، فقام رحمه الله بتفنيدها جميعاً بأسلوب علمي رائع قل نظيره فجعل بضاعة هؤلاء الفلاسفة الذين أغروا الناس بأقوالهم تكسد وتبور. وركّز على القضايا الأساسية الخمسة التي أُثير النقاش حولها وهي قضية الخالق (الله) تعالى، وقضية المخلوق (العالم)، وقضية العلم (علم الله وعلم الإنسان)، وقضية الإنسان، وقضية الفناء والبعث...

وهنا أُشير إلى أن الحقبة التي عاش فيها الغزالي رحمه الله تعالى تشبه في كثير من أحوالها أحوال ما تمر بها الأمة في هذا العصر من هجوم فكري شرس وغريب عليها ومن تشبه عجيب لمثقفين مسلمين بالنموذج المستورد وعزوفهم عن الفهم الحقيقي لدينهم، وكذلك ظهور فئتين منفصلتين، فئة علماء الدين الخلَّص الصادقين وفئة الفلاسفة والعلماء الدنيويين الوجوديين البعيدين عن الدين ومنهم الملحدون وأشباه الملحدين.

ومما كان من أنواع المؤامرات محاولة خلط الأوراق على عامة الناس بالقول أن هناك تناقض في القرآن – حاشا لله وكتابه–، وهو المدخل الذي دخلوا منه ليدلسوا ويلبسوا على عامة الناس وبسطاءهم، فتلاعبوا بالألفاظ ليوحوا أن علم الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول إنما هي أساليب وحجج واهية وضعها المسلمون ليدافعوا عن ضعف حجج القرآن وتناقضاته، وهذا لعمري هو الجهل بعينه.. فالإنسان العلمي الذي لا يحكم بعاطفة مسبقة يعود لهذه العلوم ليفهمها أولاً ويعرف أساليب بحثها وتفاصيلها ثم يحكم عليها أباطل هي أم حق؟!.. والمتتبع لهذه العلوم العظيمة ليجد أنها من أروع العلوم التي أرخت وأصّلت وفصّلت في مواضيع مهمة من علوم القرآن، كان لها السبب الرئيسي في حفظه وفهم أصول تدوينه وتفسيره وتدبره، وكانت وما زالت المفتاح والبوابة التي يدخل منها كل باحث في علوم القرآن الواسعة الذي لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد(١).

واستمرت المؤامرات واستمر معها صمود الإسلام والقرآن الكريم، وظل عصياً على أعدائه. وسيظل كذلك كما وعد الله تعالى. ترى ما السبب؟. إن أي عاقل يستطيع الإجابة عن هذا السؤال ببساطة، إذ لو كان الأمر موكلاً بالبشر لحرِّف الإسلام وكتابه كما حرِّفت الأديان السابقة، فهذا ديدن البشر وما جبلوا عليه، إلا أن الأمر مودع عند رب البشر الذي تعهد بحفظ القرآن والإسلام من التحريف والتغيير، فالإسلام آخر الأديان والقرآن آخر الكتب، فلو تم تحريفهما لضاعت البشرية وعادت إلى غياهب الجهل

---

(١) لأهمية هذا الموضوع ارتأينا أن نجعل ثلاث ملاحق مهمة في نهاية الكتاب، أحدها لأنواع علوم القرآن ومصطلحات مهمة فيها، والآخر في أسباب النزول وجمع القرآن، والثالث لعلم الناسخ والمنسوخ وأصنافهما.

والضلالة التي كانت عليها قبل مبعث النبيين. فكان عهد الله الذي لا يُخلف بأن يحفظ هذا الدين والكتاب من كل ما يشوههما إلى قيام الساعة، فجعل فيهما كل الأسباب التي تجعلهما يعجزون البشر في كل الأوقات والأزمان مهما اختلفت وتنوعت الصور، فكانت في القرآن أسباب كامنة تظهر في وقتها عند كل مؤامرة باختلاف أشكالها. وهذا العهد سيظل هو السمة والشرف للإسلام في نفس الوقت، بل هو السر العظيم لهذا الدين العظيم.

سردت هذه التفاصيل البسيطة من سيرته صلى الله عليه وسلم مع أنها ليست من اختصاص الكتاب، لا لشيء إلا لأضع القارئ الكريم أمام التدرج التأريخي لبعض حلقات المؤامرات التي تعرض لها ويتعرض لها دين الله الخالد وكتابه المعجز، وهذا من ديدن البشر إذ إنهم كما أنبأ خالقهم: ﴿...وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾، [المؤمنون: من الآية ٧٠].

المبحث الثاني

المؤامرة الحديثة ضد الإسلام وكتابه

المطلب الأول

مؤامرة إلغاء الأديان

كل هذه المؤامرات التي لخصناها آنفاً وما بعدها باءت بالفشل الذريع على اختلاف أنواعها ومناهجها لأن الله تعهد بحفظ القرآن ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، [الحجر:٩].. وتوالت العصور والدهور ومعها تنوعت هذه المؤامرات على هذا الدين الخالد محاولة قتله وإجهاضه ومع كل محاولة يزداد الإسلام قوة ومنعة ورسوخاً في النفوس، حتى جاءت مؤامرة هذا العصر ومنذ مطلع القرن العشرين الميلادي حيث كان التقدم التقني والعلمي يغزو العالم بعد الثورة الصناعية التي بدأت منذ القرن السابع عشر الميلادي، وبدأت مع هذا الغزو محاولات التقليل من شأن هذا الكتاب العظيم وهذا الدين المتين وهي من أكبر المؤامرات التي حيكت ضد الدين والكتاب، إذ اتُهم القرآن الكريم والسنة المطهرة بأنهما في واد وما وصل إليه العلم والإنسان في واد آخر،

وطغت محاولات الإلحاد والعلمانية(*).

ولكـي نفهم المؤامرة وأبعادها علينا أن نفهم التأريخ وحركته والخيوط المحركة لهذه اللعبة الجديـدة والتـي كـان هـدفها تهديم الدين من الداخل وإخراج القرآن من قلوب المسلمين بحجـة أنه لا يتناسب مع التقدم العلمي والإنجازات العلمية في شتى العلوم، وأن الـدين خـرافة لا يحـتاجها الإنـسان في هذا العصر.. وهذا بالضبط الأسلوب الذي أراده الـيهود بمؤامـرتهم الخبيثة القديمة الحديثة ضد الإسلام حيث إنهم اقتنعوا تماماً أن المـواجهة المـباشرة ستعني خسارتهم بالتأكيد، فلجأوا إلى أساليب أخرى، منها أن الغيب والأمـور الغيبية أشياء لا تدرك بالحواس فهي أمور غير مادية لا يمكن البت في صحتها، وأن الإيـمان الحقيقـي هـو مـا يـدرك بالحـواس تحـت شعار (أؤمن بما أرى Seeing is believing).. فهـوت تحـت هـذا الـشعار المدرسـة الغربية في الإيمان المستندة إلى كتابهم المقدس، لا سيما أن العلماء الغربيين لمسوا صحة هذا الشعار بعد أن اقتنعوا بأن ما موجود لـديهم في كـتابهم المقـدس لا يـتطابق مـع العلم الحديث وحقائقه المستندة إلى التجارب والتحلـيلات والبحوث. وبعد أن تفتت الدولة العثمانية وذهب شباب الأمة للدراسة في الغـرب تأثـروا بهذه المدرسة وأساتذتها وأسلوب تعليمها، فاعتقدوا أن الأمر ينطبق على الإسـلام والقـرآن مما أدى إلى اعتقادهم وقناعتهم المطلقة بأن هذا الأمر هو سبب تخلف الأمـة عـن اللحاق بالغرب وحضارته!، فعادوا إلى ديارهم ونشروا هذه الأفكار مما أدى إلى التداعيات التي أدت بالأمة إلى الابتعاد عن كتاب ربها.

ومـن يقـرأ بروتوكولات حكماء صهيون(١) وما نصت عليه من أنه يجب خلع القرآن مـن قلـوب المسلمين وإلهاءهم بشتى أنواع الملاهي والأساليب المفسدة والمضللة لتحل

(*) بفـتح العـين ولـيس بكـسرها فهناك فرق من حيث اللغة والمظان بين العَلمانية بالفتح والعِلمانية بالكسر فـالأولى تطلـق على إقصاء الدين ومأخوذة من العالم أي الناس، بينما الثانية مأخوذة من العلم والقرآن كله علم.

(١) وهي البروتوكولات التي كشف عنها بعد قيام الثورة البلشفية في روسيا القيصرية عام ١٩١٧ وانهيارها وفـتح ملفـات وزارة الخارجـية فكانـت هـذه الوثائـق الخطيرة وهي أحد الوثائق التي انتشرت بفعل الغوغاء وأعمال الشغب ثم طبعت من جديد فكانت صدمة للعالم.

محـل القرآن وعندئذٍ يمكن السيطرة عليهم، فبعدما أثر الإسلام بنوره في كل أرجاء العالم ولا سـيما أوربـا إبـان الحكم الإسلامي الذهبي، تقهقر المسلمون في نهاية الحكم العثماني، وابـتعد علماء الدين المسلمون عن متابعة أخبار الثورة الصناعية وتقدم العلوم في القرون الـثلاثة الأخـيرة، وتـنافس العلـماء في النظـريات والاكتشافات العلمية في شتى صنوف العلـم، مـرتباً عـلى ذلـك ابـتعاد المـسلمين ومدارسـهم وأسـاليب تدريسهم عن التقدم الحاصـل حـولهم، فبدأت أصابع الدس والخبث اليهودي والماسوني اللعين بلعب لعبتها ضـد الأجـيال الجديدة للمسلمين فظهرت طبقة من المثقفين المسلمين بعد النصف الثاني مـن القرن التاسع عشر وبداية القرن العشـرين الميلادي ممن زاروا أوربـا وأعجبوا بتقدم الغـرب التـقنـي والاجتمـاعـي مقارنـين ذلـك بالواقـع المتخلف لأراضي وبقاع الدولة العثمانية العلية(١) الإسلامية مما شكل رد فعل نفسياً مضاداً لهذه الدولة بوصفها المسؤولة عـن تخلفهـم عـن بقية العالم وبما أن الدولة تحكم باسم الإسلام فقد علقوا هذا التخلف عـلى الـدين مطالبـين بـأن يعـزل الدين عن الحكم كما فعل الأوربيون مع الكنيسة، وقد درس هـؤلاء عـلى يد علماء غربيين أثروا فيهم وزرعوا فيهم حب أوربا وكراهية انتمائهم إلى أمـتهم وديـنهم وغرسوا فيهم القناعة بأن أصابع الاتهام تلقى على الدين أولاً وأخيراً وجعلـوا مـنه المسؤول المباشر عن حالهم المريض، وقد صدّق هؤلاء المساكين هذه الفرية وهـذا الكلام غير الصحيح بسبب ابتعادهم عن الفهم الصحيح للدين وعظمته حتى أن أحدهم يصرح بأن العقبة التي تحول بيننا وبين الوصول إلى مصاف الأمم الراقية والدول المتقدمة في أوربـا وأمريكا هو الإسلام؟!.. وهكذا صار الإسلام والالتزام به من حيث المظهر والسلوك رديفاً للرجعية والتخلف، وصار الإنفلات والعشوائية والتخبط واتباع منهج الغرب وزيه وأسلوب كلامه أسماء للحرية والتحرر والتمدن والتحضر، وأضحى (الأتيكـيت) بـديلاً عـن سـنة المـصطفى صلى الله عليه وسلم. فتعمقت هذه السموم في الأفكـار والعقـول للأجـيال الجديـدة وصـارت جـزءاً مـن الشخـصية الجديـدة

---

(١) في بـيان حقائـق الدولـة العلـية وأثـرها في بقـاء اللغة العربية لغة القرآن وحفظ الإسلام، يراجع كتاب الحرية الجامعية للدكتور عبد الله مصطفى.

بمـرور الوقت وتعاظم الهجمة، وتناسى هؤلاء المساكين أن الإسلام هو المسؤول المباشر والأول عن النهضة الحديثة في أوربا، بل أنه الثورة العلمية الأولى في التأريخ الذي نقل به العـالم مـن الظلمات إلى النور والذي بحضارته العظيمة وصل العالم إلى مرتبة أهلته للبدء بالتطبـيق التقنـي والعلمـي الهائلـين وهـذا مـا يشهد به الأوربيون والغربيون المنصفون أنفسهم..

المطلب الثاني

أثر الاستشراق

لـن ننـسى دور المستـشرقين وما فعله معظمهم بعامة الناس من الأمة الإسلامية من خـلال كتاباتهم فعملوا نفس تأثير الأساتذة على المثقفين الجدد فكانت منهم هجمة عنيفة لم يـستعد لهـا علـماء الـدين المـسلمون لأنهـا هجمـة خارجية وداخلية معاً على الإسلام والقـرآن ولغـة القـرآن، اللغـة العـربية العظيمة -لغة أهل الجنة- هذه اللغة التي أثبتت الإحـصائيات الحديـثة أنهـا اللغـة الأولى في العالم من حيث المصطلحات، ومن ثم اللغة الأولى في العالم التي تستطيع التطور مع العصر لما لها من آفاق واسعة لا نهاية لها فظهر هذا الجيل من المثقفين المسلمين وأنصاف المثقفين والعوام ممن كانت لكتاباتهم التهجمية على الإسـلام والعـرب ولغـتهم الأثـر الكبير في أن صدّق الكثير من أبناء الأمة هذه المؤامرة وهـذا البهـتان المبـين، لا سيما وأن درجة الفكر والتعليم والثقافة كانت ضعيفة لديهم أو غير محصنة، ومن ثم هم فارغون ذهنياً وطيِّعون لدرجة صار معها من الممكن صيرورتهم بالـشكل المناسـب، وهـذا فـضلاً عـن أن الجانب الآخر أي الدين كان غير مرغوبٍ فيه بسبب ما ذكرنا.. يلخص الدكتور محسن عبد الحميد نتائج الاستشراق بما يأتي:

١- تـرجمة القـرآن تـرجمات مـشوهة إلى اللغات الاوربية مع تحريف مقصود في كثير من الاحـيان لعقائـده وشرائعـه وأخلاقـياته، الأمـر الذي شوه الإسلام أمام الغربيين تشويها مكثفا وقوى التربية الكنيسية التي تعرض لها الغربيون، وركزها في الأجيال المتلاحقة.

٢- دراسـة الإسـلام مـن خـلال الأحقاد الصليبية الخالية من الإنصاف العلمي والحياد

الموضـوعي في إطـار مـن التظاهـر بمـنطلقات الـبحث العلمي الحديث، وتزييف الحقائق التي وردت حوله بشكل مقصود.

٣- الحكـم عـلى الإسـلام مـن خـلال المناهج المادية الغربية التي كانت تعبر عن التغيير الحـضاري داخل نمطية الحياة الغربية، والتي أدت إلى عد الإسلام حلقة في سلسلة الـثقافة الإنـسانية مـن خلال الآراء المتنوعة التي نتجت عن الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والفلسفية في الغرب.

٤- الاهـتمام الـبالغ بمظاهـر الانحـرافات الدينـية والثقافـية التـي ظهرت عبر التأريخ الإسـلامي والتـي أدت في المـاضي إلى تمـزيق المـسلمين فكـراً وواقعـاً وطعـنت في وحـدتهم العقـيدية وانـسجامهم الفكـري. أي أن المستـشرقين في إطـار مخططات الـسياسة الاستعمارية الغربية أرادوا نقل الصراع الفكري الدموي الميت من الماضي إلى الحـاضر لإشـغال المـسلمين عـن واقعهـم والحـيلولة دون الاجتماع على مبادئ الإسلام الفطرية القائمة على الوحي الإلهي.

٥- شـن غـزو فكـري عـام على الإسلام عقيدة وشريعة وحضارة واتهامه بالقصور عن مـسايرة الحـياة الحديـثة ومحاولـة تغيـيره بما ينسجم مع الحياة الغربية الحديثة. يعبر المستـشرق ك. كـراج رئـيس تحريـر مجلـة العالم الإسلامي عن ذلك فيقول (إن على الإسلام إما أن يعتمد تغييراً جذرياً أو يتخلى عن مسايرة الحياة الحديثة).

٦- التخطيط لإيجاد أديان جديدة في بلاد الإسلام في ظل الحكومات المستعمرة تقوم على أساس نسخ المبادئ الأساسية في الشريعة الإسلامية التي كانت تشكل عقبة أساسية أمـام مطامـع المستعمرين والتي تجلت في ظهور البهائية والقاديانية في الهند. وهكذا كـان للاستشراق اثراً كبيراً جداً على خلق أزمة المثقفين المحدثين في العالم الإسلامي من خلال تطبيق مناهجه في مدارس وجامعات العالم الإسلامي ومؤسساته الثقافية والإعلامـية، ومـن خـلال تلمذة عشرات الآلاف من الطلبة على يد المستشرقين في الجامعـات الغـربية، وكـذلك مـن خـلال الاحـتكاك الثقافي العام بين المجتمعات

الإسلامية والمجتمعات الغربية[١].

على أن هناك من المستشرقين ممن أنصفوا المسلمين وأعطوهم حقهم في تأثيرهم البالغ الأهمية في الحضارة العالمية، وسنستشهد ببعض آراء هؤلاء في كتابنا هذا، كما وسيجد القارئ الكريم في الفصول القادمة ما يرتبط بهذا الموضوع .

المطلب الثالث

دور الإعلام

ثم جاء دور الإعلام الغربي بكل صنوفه المقروءة والمسموعة والمرئية كالسينما والإذاعة والتلفزيون وأفكارها الهدامة التي أثرت على الجانب السلوكي والخلقي لدى المجتمع الإسلامي وأدت إلى انحراف المسلمين عن أخلاقهم الحقيقية فابتعدوا عن الحياء والأدب والأخلاق الحميدة وتحولوا تدريجياً إلى الانحلال والتسيب والإنفلات، كل ذلك تحت شعار المدنية والتحضر والانتقال إلى روح العصر والحرية الشخصية، فكان أن أصبح غالبية العامة في العالم الإسلامي متقبلاً لفكرة ترك الدين والقرآن والسنة المطهرة، وإحلال النموذج الغربي محله فكانت النكسة الكبرى التي تركت الأمة فيها شخصيتها وسبب عزتها ومجدها، باعته بثمن بخس، ولكن الله حافظ لدينه لأن الله وعد بذلك رغم شراسة الهجمة والله لا يخلف الميعاد. فقيض الله لكل عصر رجالاً وقفوا كالجبال ضد هذه الهجمة الفكرية الشرسة وتصدوا لها وجاهدوا وصابروا حتى فرج الله بعض الكرب وانزاحت غيمة من غيوم هذه المؤامرة القذرة كما سنرى لاحقاً.

وإذا أردنا أن نتعمق في هذا الأمر فعلينا معرفة تعريفات معينة مثل العلمانية والعولمة، وكذلك الحضارة في المفهوم الإسلامي والمفهوم الغربي فدعونا نناقش الحضارة في مفهوم الإسلام والحضارة في المفهوم الغربي الذي يريد أن يجعلنا أمة مسخاً لا كيان لها ولا انتماء، وأن يجعلنا نسخة منه ليقضي بذلك على شخصيتنا الإسلامية وديننا القويم..

---

(١) (أزمة المثقفين تجاه الإسلام في العصر الحديث)، الدكتور محسن عبد الحميد، ص٢٦-٢٧.

المطلب الرابع

العِلمانية والعَلمانية

إن كلمة العِلمانية بالكسر تعني العلم، والقرآن كله علم بل هو المصدر الذي يشتق منه العلم بكل صنوفه، والعَلمانية بالفتح تعني نقيض الدين وهي مشتقة من العالم أي الاستعانة بالبشر دون الخالق(*).. يفسر لنا الدكتور محسن عبد الحميد في كتابه «صراع الأفكار في المجتمع الإسلامي» مفهوم العلمانية كتعريف علمي نقلاً عن كتب عدة مثل العلمانية لسفر عبد الرحمن الحوالي والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة والعلمانية والدولة الدينية لشبلي العيسمي، فيقول ما نصه:

«العلمانية ترجمة غير دقيقة، بل غير صحيحة لكلمة Secularism. وهي كلمة لا صلة لها بلفظ العلم ومشتقاته، لأن العلم يعبر عنه في اللغة الإنجليزية والفرنسية بكلمة Science والنسبة إليه بكلمة Scientific. والترجمة الحقيقية هي كلمة «اللادينية» أو «الدنيوية». تقول دائرة المعارف البريطانية في مادة Secularism: «هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها»، ويقول قاموس العالم الجديد «لويستر» شرحاً للعلمانية نفسها:

١ - الروح الدنيوية أو الاتجاهات الدنيوية ونحو ذلك وهو على الخصوص نظام من المبادئ والتطبيقات يرفض أي شكل من أشكال الإيمان والعبادة.

٢ - الاعتقاد بأن الدين وشؤون الكنيسة لا دخل لها في الدولة ولاسيما التربية العامة، ويقول معجم اكسفورد شرحاً لكلمة Secular:

أ- دنيوي أو مادي، ليس دينياً ولاروحياً مثل التربية اللادينية أو الموسيقى اللادينية، الحكومة المناقضة للكنيسة.

ب- الرأي الذي يقول: إنه لا ينبغي أن يكون الدين أساساً للأخلاق والتربية.. ويقول المعجم الدولي الثالث الجديد في مادة Secularism: «اتجاه في الحياة أو

(*) أوردت هذا الفرق لأنه خطأ دارج بين العامة.

في شـأن خـاص يقـوم عـلى مـبدأ أن الـدين أو الاعتبارات الدينية يجب أن لا تـتدخل في الحكـومة، أو اسـتبعاد هـذه الاعتـبارات الدينية استبعاداً تاماً عن شؤون الدولة، فهي تعني مثلاً السياسة اللادينية البحتة للحكومة، وهي نظام اجتماعـي في الأخلاق مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والخلقية عـلى اعتـبارات الحياة المعاصرة والتضامن الاجتماعي دون النظر إلى الدين».. والعلمانـية عـلى ذلـك لـيست عقيدة إيجابية فلسفية تعتمدها الدولة وتبشر بها وتعلمها وتثقف بها في وجه المعتقدات الدينية، أي أن الدولة تكون محايدة تجاه كـل الأديـان كـما وردت في مناقشات البرلمان الفرنسي للدستور في ٢٧ تشرين الأول ١٩٦٤»[١].

وهكـذا دخلـت هـذه المفاهيم إلى العالم الإسلامي وتم تبنيها من قبل جهات عديدة فاعتـبرتها المـنقذ الحقيقـي مـن ما وصلت إليه الأمة من تخلف جراء تشبثها بالـ (الدين) والـ (الحكومة الدينية)!، ومن أراد التفصيل فبإمكانه الرجوع إلى كتب وأبحاث عديدة فصّلت هذا الموضوع[*].

المطلب الخامس

مؤامرة العولمة

قد يقول البعض: (اتق الله يا رجل، هل العولمة مؤامرة أيضاً؟!).. نقول وبكل تأكيد نعـم، فلقـد توصـل القوم إلى حقيقة مفادها أن الإنسان والمجتمعات البشرية تسير وفق قوانـين ونوامـيس تتشابه بل تتطابق مع قوانين المادة والطبيعيات التي وضعها الله تعالى، وهـذه الحقـيقة لم يتوصـل إلـيها حديـثاً بـل جاءت نتيجة قرون من الخبرات والتجارب الطـويلة مـع المؤامـرات والدسـائس والخـبث ضد كل سمو للإنسانية، وهكذا نضجت خبراتهم عن ثمرات خبيثات ولكنها ذات تأثير رهيب ينم عن تفكيرهم الشيطاني.. فبعد

(١) صراع الأفكار في المجتمع الإسلامي، د. محسن عبد الحميد، ص٩-١٠.

(*) نخـص بالذكر هنا كتاب (صراع الأفكار في المجتمع الإسلامي)، للدكتور محسن عبد الحميد لأنه كتاب مختصر ومفصل في آن واحد.

بحوث ودراسات جرت ومؤتمرات عقدت ولا زالت تعقد بين الآونة والأخرى توصلوا إلى ثمرتهم الكبيرة ألا وهي (العولمة).

نعم، فهؤلاء القوم علميون حقاً فهم لا يخطون خطوة واحدة إلا بعد دراسة وبحث وتطبيق فعلي تجريبي، ثم تنقيح وتقييم ثم وضع القانون ثم التطبيق على الواقع، إلا أن أفكارهم وتطبيقاتهم ليست في صالح البشرية بل يسعون إلى هدف آخر هو استعبادها بشكل خبيث يوحي لها أنها حرة وأنها متطورة وأنها تحمل قمة الحضارة التي وصلت إليها البشرية منذ خلقت.

العولمة ترجمة للكلمة الإنكليزية (Globalization)، وكلمة (Global) تعني الكل أو الشامل أو الكروي أو العالمي[(١)]، وهي عكس الجزئي أو الموقعي أو المحلي وهي ترجمة لكلمة (Local). وهذه الشمولية أو الكلية للعالم هي عملية إدخال العالم بكل أجناسه وثقافاته ودياناته ومعتقداته تحت لواء واحد هو لواء الفكر اللاديني واللامنتمي إلى ثقافة محددة أو معتقد محدد سوى المعتقد (الحر) المطلق الذي يحرر الإنسان من قيود الارتباط بجنسية أو دين أو معتقد كما يزعم أصحاب هذه الفلسفة. وهي بلا شك استمرار للفكر اللاديني والعلماني والماسوني الذي ظهر في بداية القرن العشرين وأواسطه، ولكن بتقنيات أوسع وأسس أيديولوجية أخبث. يقول (د. ريتشارد هيجوت) في كتابه العولمة والأقلمة عن تعريفه لهذه المصطلحات:

العولمة (Globalization) هي أحد المصطلحات المحددة للوعي الاجتماعي في أواخر القرن العشرين، وهي ليست مرادفة للتدويل. وخلافاً للجغرافية الدولية، فإن الفضاء الكوني عالم لا تشكل الحواجز الحدودية أمامه أي عائق يذكر، وتقطع فيه المسافة في زمن لا يكاد يذكر.. والعولمة ليست مذهب العالمية (Globalism) الذي يشير إلى طموحات الوصول إلى حالة من الأوضاع تصبح فيها القيم شراكة، أو تكون متاحة للبشر كافة في العالم البالغ عددهم حتى الآن قرابة ستة مليارات نسمة على اختلاف بيئاتهم وأدوارهم كمواطنين، مستهلكين أو منتجين، يجمعهم اهتمام العمل الجماعي المقصود به حل المشكلات المشتركة، ولا هي مذهب الكونية (Universalism)؛ أي القيم التي تحتضن

---

(١) المورد، منير البعلبكي، ص٣٩٠.

كل البشرية، على سبيل الافتراض أو من منطلق الأمر الواقع.

تعتبر العولمة مزيجاً متبايناً من الروابط والعلاقات المتداخلة التي تتجاوز الدولة القومية (وضمناً المجتمعات) وهو ما يصنع النظام العالمي الحديث. إنها تحدد عملية يمكن أن يترتب عليها أن تكون للأحداث والقرارات والأنشطة في جزء ما من العالم، نتائج مهمة بالنسبة إلى الأفراد والجماعات في أجزاء أخرى بعيدة من الكرة الأرضية.. والعولمة هي ما اعتدنا في العالم الثالث ولعدة قرون أن نطلق عليه (الاستعمار).

اكتسبت فكرة العولمة بصورة ما وضعاً أشبه بالأسطورة في نهايات القرن العشرين؛ إذ يرى بعض الباحثين مثل كنيتشي أوهماي (Kenichi Ohmae) أن العولمة تمثل تطوراً طبيعياً وثاباً نحو (عالم بلا حدود)، معلناً عن قرب زوال نظام الدولة العالمي الحديث كما نعرفه، واستند تحليله إلى إيمان بالمستقبل وحث عليه. وبالنسبة إلى باحثين آخرين، فإن المفهوم لا يتسم بأنه مبالغ فيه وفضفاض فحسب، وإنما بكونه خطيراً يبعث على الخوف ويستدعي أن يقاوم؛ وهذا ما أدى إلى إثارة الجدل بين هؤلاء الذين يصفون العالم بأنه (يتعولم) وبين أولئك الذين يرون أنه ما يزال باقياً على نمطه الدولي إلى حد كبير. ويكمن جوهر هذا النزاع بين هؤلاء الذين يرون بروز عدد من هياكل السلطة البديلة الجلية التي تتنافس (في نجاح مطرد) مع الدول في تحديد اتجاهات الاقتصاد السياسي العالمي -أي القائلين بالعولمة- وأولئك الذين ما يزالون ينظرون إلى الدول على أنها الأطراف الرئيسية في النظم السياسية والاقتصادية العالمية، وهم القائلون بالتدويل.

وحين يبلغ كلا الموقفين من الحماس أشده، فإن كلا الموقفين يبدو هزلياً. فمن جهة يقول أصحاب اتجاه حتمية العولمة بأن الدولة ستنهار في نهاية الأمر. أما أوهماي فيرى الدولة القومية على أنها «... وحدة غير طبيعية، بل مختلة وظيفياً، لدرجة تجعلها أعجز من أن يناط بها تنظيم النشاط الإنساني». ومن جهة أخرى، لا يرى دعاة التدويل - المتخفون وراء قناع واقعي فج على نحو مفرط- تغييراً يذكر في مركزية الدولة في النظام الدولي. وبينما يتسم الفريقان بالمبالغة، فإنهما لا يخلوان من بعض النقاط القابلة للنقاش، والأدق هو النظر إلى سلطة الدولة أو اللادولة على أنها قائمة في صورة الاعتماد المتبادل؛ ذلك أن الشركات التجارية والقوى الاجتماعية والأنظمة الدولية والمؤسسات والمنظمات

غير الحكومية لا تعمل دائماً في غفلة من الدولة أو تحدياً لها. وشبيه بهذا أن الدولة لا تبلغ دائماً درجة من الوهن الشديد تحول بينها وبين مقاومة الأنشطة التي لا تروق لها.

ويعد مصطلح الأقلمة (Regionalization) أيضاً مصطلحاً جدلياً؛ فالباحثون والمتمرسون في العلاقات الدولية والاقتصاد الدولي يفهمون الأقلمة على أنها نشاط بين الدول يتراوح بين تنسيق قوي للسياسة -وإن يكن أولياً كالنموذج القائم في آسيا- في المحيط الهادي، الذي سبق الإنهيار الاقتصادي في المنطقة، وبين التكامل التام للدول في إطار سوق مشتركة على نمط الاتحاد الأوربي. إلا أنه بالنسبة إلى معظم المتمرسين في أنظمة الحكم، ولاسيما الأغلبية التي ليس لها صلة بالعلاقات الدولية والدبلوماسية، فإن الأقلمة تمثل نشاطاً دون نشاط الدولة أو دون الأنشطة الوطنية، والذي يصبح فيه (المحلي) أكثر ارتباطاً بالإقليمي، أي العمليات السياسية والاقتصادية دون الوطنية.

ويؤدي هذا التشعب إلى مشكلة في مستويات التحليل، وهو ما ينبغي علينا الآن أن نواجهه بشكل متواصل في عالم سريع التغير. ومنذ فترة طويلة كانت مستويات التحليل المحلية والدولية تعامل على أنها مجالات عمل منفصلة إلى درجة كبيرة تختص بالمتمرسين فيها. نحن لا نعيش في عالم بلا حدود، ولكننا نعيش في عالم لم تعد الحدود تمثل فيه حواجز مادية أو فكرية في وجه فيض من التأثيرات العالمية في وجودنا اليومي. ولهذا، إن لم يكن لشيء سواه، فإن ظهور خطاب العولمة يجعل من مثل هذه الممارسات -في التمييز بين الحدود- مجرد كلام لا معنى له(١).

وهكذا جاءت النتيجة النهائية والحصيلة الكبرى لكل خبراتهم المؤامراتية، تلك العولمة التي هزت العالم وضجت لها الدنيا وكثر حولها الكلام والجدل بين مؤيد ومعارض ومتفرج.. الفكرة هي فكرة هندسية وهي كالآتي:

إذا أتينا بمجموعة من الألوان وخلطناها خلطاً جيداً بصورة تمكننا من التحكم بالنسب الداخلة بالخلط، وكذلك عوامل أخرى كالحرارة والضوء والزمن وغيرها، لتمكنا من الحصول على لون جديد لا ينتمي إلى مجموعة الألوان الأولى إلا بتأريخه

---

(١) العولمة والأقلمة، اتجاهان جديدان في السياسة العالمية، د. ريتشارد هيجوت، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ص٣-٥.

الجزيئي (التركيبات الذرية التي دخلت في التفاعل)، وهذا اللون الجديد هو الصنف الذي تتشكل منه ألوان أخرى تبتعد تدريجياً عن أصولها حتى تضيع نهائياً.

وهذه هي فكرة العولمة ببساطة.. مزج وخلط لكل شعوب الأرض بحجج شتى منها الإنفتاح وغاية التطور ومستقبل أبهى للبشرية بعيدة عن التعصبات المختلفة والتكامل الاقتصادي وعالمٍ خالٍ من الحروب وغير ذلك من الفلسفات السقيمة التي تقنع السذج من البشر، وهم الذين هيؤوا نفسياً بالأصل لتَقبُل هذه الأفكار بعد أن جُرِّدوا من فكرهم بسبب العوامل التي ذكرناها في المطالب السابقة. فكانت النتيجة أن تقبلوا هذه الهدية (الصفعة) برحابة صدر وكانت الأصوات المعارضة كالعادة تتهم بالرجعية تارة، وعدم مواكبة العصر تارة، والإنغلاق الذهني تارة أخرى لتصبح عدوة للشعوب.

إذن فكرة العولمة هي خلط المجتمعات البشرية بشكل مسيطر عليه من قبل القوى الاقتصادية والسياسية والعسكرية في العالم (اليهودية العالمية) لمحو كل ارتباط يربط أي شعب في العالم ولاسيما الشعوب المتمسكة بتقاليدها وجذورها، بهذه التقاليد والجذور.. وهكذا يمكن جعل كل شعوب الأرض طوعاً لهذه القوى ولكن ليس بالشكل الذي يفهمه البسطاء من الناس أي (السيد والعبد)، وإنما بشكل ينم عن رضى المستعبد والمسترق فيأتي طائعاً ملئه السعادة بأن الذي يفعله هو عين العقل وقمة النضج وأساس الصواب.

وكانت أذرع هذا الاخطبوط الهائل متعددة ومتنوعة، فسياسياً نرى ما يعرف (النظام العالمي الجديد)، واقتصادياً منظمات عديدة لا حصر لها منها منظمة التجارة العالمية (GAT)، وفكرياً وثقافياً الفضائيات والإنترنيت، ودينياً (حوار الأديان)، واجتماعياً (حوار الحضارات) وغيرها من التسميات، ومن بينها ما يعرف بالعولمة الهندسية المتمثلة بالنظرية التفكيكية (Deconstruction)، وفكرتها مبنية على الفكرة الأساسية للعولمة: لا انتماء، لا شخصية هندسية، لا تراث، لا فلسفة واضحة، كل شيء قابل للتفكيك والتركيب بأطر هندسية عشوائية[1]، وغير ذلك من التصنيفات التي ستؤدي بمجموعها

---

(١) تطرقنا لهذا الموضوع في كتابنا (المنظار الهندسي للقرآن الكريم).

حسب الخطة إلى الحصول على الجيل المطلوب، وهو الجيل الخليط التائه الضائع اللامنتمي الذي يبغون.

وقد يتصور القارئ الكريم أن مؤلف الكتاب من الذين يقفون ضد التطور العلمي والتقني وضد الإنفتاح الحضاري - المزعوم هذا- وهذا لعمري هو بعينه الخلط لأوراق المسألة وبالشكل المطلوب من العملية سابقة الذكر. وقد يقول آخر: كيف تعادي الإنترنيت والفضائيات والتطور التقني وأنت نفسك تعتمد عليها في كتبك وبحوثك.

وهذا أيضاً ضمن النظرة السطحية للمسألة والمطلوبة أصلاً ضمن الغرض الأساسي من العملية برمتها. فنحن كمسلمين تركنا العمل بقوانين الله تعالى التي أمرنا بها في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم سواء كانت المادية منها أو الروحية وأصبحنا أمة إمعة، بينما هم التزموا القوانين المادية للكون دون الروحية فسيرونا بها، إذ لابد للبشر أن يسير وفق قانون رباني كان أو وضعي. وحيث إننا تركنا قوانينا التي حكمنا بها الدنيا بالعدل والحق ومنها قوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، [آل عمران: ١٢٠]. فكان مكرهم قانوناً لنا ونحن سائرون به ولا نستطيع إلا أن نعمل ضد ما يسعون له من خراب ودمار لنا وبنفس التقنيات التي يتبعون، بل نعمل على تقويتها وتطويرها لصالحنا فنكون بذلك اللون الذي لا تتفاعل جزيئاته مع بقية الألوان لتكوين الخليط المطلوب فلا تتحلل جزيئاتنا ولا تنحل بل تحافظ على استقرارها ثم تتطور لتحلل بقية الجزيئات المجاورة معها، فينقلب السحر على الساحر، وهذا بالضبط ما فهمته بعض العقول النيرة من أبناء هذه الأمة وسعت وتسعى له فأسست الرد المقابل لهذه الهجمة من قنوات فضائية ومحطات معلومات دولية (أنترنيت) تمتاز بالسمة الإسلامية وتعطي المعلومات المطلوبة عن الإسلام لكل سائل وبدون مقابل ومنها محطات إسلام ومسلمون وإسلام على الخط وغيرها من الذين يتسابقون لنيل شرف هذا الجهاد.

المطلب السادس

الأمراض الفتاكة

وبعد فإن لكل نبتة ظرف لإنباتها، ونبتة هذه المؤامرة الحديثة على القرآن والإسلام كان الجهل والفقر، فالجهل والابتعاد عن الإسلام والقرآن بمعناها الشمولي أورث تشبثاً وتشبهاً بالغرب عجيب، ومحاولة تقليده تقليداً يكاد يكون مطابقاً بل وإننا زدنا عليه أموراً كثيرة ويا ليت شعري هل كان تقليداً جوهرياً؟، فهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بعد أن صهروا جميع حضارات الأمم السابقة وعلى رأسها الحضارة الإسلامية وطبقوا روح الإسلام ولبه في تصرفاتهم وأعمالهم وتعاملاتهم، بل أنه كان تقليداً ظاهرياً مقتصراً على القشرة مع جوهر فارغ أو شبه فارغ أو متخبط على أحسن تقدير.

وأما الفقر فقد نتج عن الجهل وعدم معرفة توزيع ثروات الأمة بالصورة الصحيحة وابتعاد الأمة عن روح دينها وأساس ملكه وبقائه، فكان أن دخلت الدولة الإسلامية إبان العهد العثماني في حروب عديدة في آخر عهدها دفعتها إليها جمعية الاتحاد والترقي المكونة من أناس يمكن أن تقول عليهم أي شيء إلا أنهم مسلمون. ومن هذه الحروب حرب البلقان الأولى والثانية بين ١٩١٢-١٩١٤ ثم الحرب العالمية الأولى وقبل ذلك حروب عديدة خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي كل ذلك بسبب صعود جيل من الملحدين من هذه الجمعية وغيرها ومن بعدهم الملحد الأكبر اليهودي الدونومي «مصطفى كمال أتاتورك» الذي يعود له ولحزبه الأحمق السبب بكل المآسي والبلاء الذي حصل للأمة إلى يومنا هذا بعد أن ساروا وراء وعود اليهود والماسونيين والمستشرقين، فهم الذين فسدوا وأفسدوا وضلوا وأضلوا وفرقوا الأمة حتى أصبحت الأجيال اللاحقة أجيالاً لا تنتمي إلى الإسلام إلا باسمه فقط، فهم إما كانوا يهوداً أو صليبيين أو ماسونيين أو عبيداً للفكر الغربي إلى حد الثمالة، وهم أصحاب قنبلة القومية الطورانية «أو القومية التركية الكبرى» والتي بانفجارها أدت إلى أن تصيب كل شعوب الدولة العثمانية نفس الأعراض فظهر بسببها التعصب التركي المقيت ومجازر الأتراك للعرب وللأكراد والقوميات الأخرى التي عاشت في ظل الإسلام متآخية متحابة طيلة

أكثر من ١٣٠٠ عام[١]، فظهرت أثر ذلك كرد فعل طبيعي حركات القوْمية العربية والكردية وغيرها فقامت الأحزاب القومية المتعصبة لقومياتها وهكذا نجحت المؤامرة وتفتتت الأمة الإسلامية إلى قوميات والقوميات إلى أوطان والأوطان إلى أحزاب وقبائل وعشائر وعدنا إلى عصر الجاهلية الأولى، وصدق فيهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال في الحديث الذي يرويه أبي أمامة الباهلي ﷺ: «**لينتقضن عرى الإسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها وأولهن نقضاً الحكم وآخرهن الصلاة**»[٢]، ونسوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أمر بترك العصبية والقبلية والتعصب بقوله صلى الله عليه وسلم «**دعُوها فإنها منتنة**»[٣]، فكل تعصب مرفوض إلا الولاء لله ولرسوله وكتابه. كما نسوا قول الله تعالى قبل ذلك: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، [آل عمران: ١٠٣]. وقوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، [الأنفال: ٦٣].

هؤلاء العرب القوم المخاطبون بالآيات المباركات السابقات الذين تصارعوا لعشرات السنين بل وأكثر من ذلك لم يؤلف بينهم إلا الإسلام برحمة الله وفضله.

فما بالنا لا نفقه هذه الحقيقة الحاسمة بأننا لا يمكن أن نجتمع إلا بالإسلام الحقيقي الخالص الذي سبق أن كان علامة مجدنا وعزتنا وما بالنا نطلب الأخوة والألفة والمحبة فيما بيننا بأساليب نظرية فقط غير قابلة للتحقيق كما أثبتت ذلك عملياً على أرض الواقع. هذه الأساليب التي لا تمت إلى الإسلام بصلة تتستر تحت حجج شتى منها روح العصر والتقدم وحرية الفكر وغير ذلك من أساليب مسخ هويتنا، وكأن الإسلام ينفع لزمان

---

(١) من يرغب بالدخول في تفصيلات هذه الحقبة العصيبة فليراجع الكتب الرصينة التي ألفت حولها.

(٢) انفرد به أحمد من التسعة (باقي مسند الأنصار ٢١١٣٩) والحديث حسن.

(٣) أخرجه البخاري (تفسير القرآن ٤٩٠٥) ومسلم (البر والصلة والأدب ٢٥٨٤)، وللترمذي (تفسير القرآن ٣٣١٥)، وأحمد (باقي مسند المكثرين ١٤٠٥٨).

ولا ينفع لآخر، وإني لأرأف لحال هؤلاء المساكين الذين يجادلون الإسلام ودستوره بما يملكون من أفكار، ونسوا أن الإسلام هو الأسلوب الذي أرسله إلينا ملك الملوك العالم بكل شيء وأثبت نجاحه ميدانياً طيلة ١٣٠٠ عام فكنا به أمة عزيزة كريمة لا ينال منها أحد. فصدق فينا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها فقال قائل ومن قلة نحن يومئذٍ؟ قال بل أنتم يومئذٍ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن قال قائل يا رسول الله وما الوهن قال حب الدنيا وكراهية الموت**»[(١)]، وقوله صلى الله عليه وسلم: «**إن بين يدي الساعة الهرج قالوا وما الهرج قال القتل قالوا أكثر مما نقتل إنا لنقتل كل عام أكثر من سبعين ألفاً قال إنه ليس بقتلكم المشركين ولكن قتل بعضكم بعضاً قالوا أو معنا عقولنا يومئذ قال أنه لتنزع عقول أهل الزمان ويخلف له هباء من الناس يحسب أكثرهم أنهم على شيء وليسوا على شيء**»[(٢)].

كل ذلك كان من صنع أيدينا لأننا ارتكبنا جريمة أبشع من جريمة بني إسرائيل حين استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير حينما كان الطعام ينزل إليهم من السماء (المن والسلوى) ولكنهم تبطروا وطلبوا بدلاً منه العدس والبصل والثوم وغيرها كما جاء في قصتهم مع سيدنا موسى ﷺ، إذ إننا استبدلنا كنز الكنوز القرآن المعجز والعزة العظيمة لأكثر من ١٣٠٠ عام من الحكم الإسلامي على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم - عدا بعض الشطحات القليلة نسبياً - بأفكار دنيوية زائلة وضعها البشر فكان ما كان من تشتتنا وانهيارنا وذلنا وهو أننا لمئة عام خلت ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.. ولا أُريد هنا التطرق إلى الأسباب التي أُدت بمثقفي الأمة وعلمائها إلى الابتعاد عن القرآن والسنة لأن هذا يتطلب تفصيلاً كثيراً وهو خارج حدود غرض هذا الكتاب ولكني سأذكر سبباً واحداً أظنه من أهم الأسباب ألا وهو التعصب الضيق للمذهب

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (الملاحم ٤٢٩٧)، وأحمد (باقي مسند الأنصار ٢١٨٩١).

(٢) أخرجه البخاري (الفتن ٧٠٦٣)، ومسلم (العلم ٢٦٧٢)، والترمذي (الفتن ٢٢٠٠)، ابن ماجه (الفتن ٣٩٥٩)، وأحمد (مسند الكوفيين ١٨٩٩٨)، والدارمي (الأطعمة ٢٠٥٥).

الـواحد عـلى حـساب الـسعة الكبيرة والنظرة الشمولية للدين متمثلاً بالكتاب والسنة. وهـذه الظاهـرة يمكننـا أن نطلـق علـيها كـما أطلـق عليها كثير من مفكرينا الإسلاميين المعـاصرين «الحـزبية المذهبـية»، وفي هـذا استشهد برأي الدكتور ماجد عرسان الكيلاني الـذي أكـد أن هـذه الظاهرة ليست جديدة على الأمة بل هي تطفوا على السطح كلما عمّ الجهل، فنراه يقول:

«لقـد أدى حـدوث هـذه الظاهـرة إلى تعطـيل الفكر الإسلامي عن الإبداع والجهاد ولـيس صحيحاً أن الاجتهاد توقف في التاريخ الإسلامي لأن فئة من العلماء أغلقوا باب الاجـتهاد وكـما يـشاع، ولكن الاجتهاد تعطل لأن المختصين تحولوا من الاتصال المباشر بالكتاب والسنة إلى الالتزام بكتابات أئمة المذاهب والإنغلاق عن التفاعل مع الآخرين. ذلـك أن الاجـتهاد هـو ثمـرة النظـر في مـصدرين: الأول الكـتاب والـسنة وفي مظاهر إعجازهما من تجديد معانيهما بتجدد الأزمنة وتنوع الأمكنة ومن الطبيعي أن كتابات أئمة المـذاهب لـيس لهـا مـثل هذا الإعجاز وإنما هي إفهام بشرية محدودة. والمصدر الثاني هو الآفاق والأنفس أي البيئة الطبيعية والاجتماعية وهذه انقطع عنها أتباع المذاهب وتحددوا بحـدودهم المذهبـية. لذلك جفت أفهام الذين توقفوا عند الآثار المذهبية والبيئة المذهبية ولم يملكـوا أن ينتجوا إلاّ الشروح والمختصرات والحواشي.. ولقد تجددت هذه الظاهرة المذهبية في فترات مختلفة من التاريخ الإسلامي. وفي عصر ابن تيمية وصفها بأنها نوع من الكهانـة وأضاف إنّ هذه الفئات لم يكن اتصالها بالقرآن إلا مجرد التلاوة بدون فهم، وأن أمـثال هـؤلاء وصـفهم القـرآن الكـريم بأمـية التفكير عند قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، [البقـرة: ٧٨]، وذكـر أن معنى الأماني هـو الـتلاوة.. والواقع أن هذه الظاهرة تتكرر في كل عصر تشيع فيه المذهبية المتعصبة أو الحـزبية البعـيدة عـن الـدين، فيهـبط الفكـر الإسلامي إلى الانغلاق والجمود والتطرف ويمضي دون تبصر فكري في ميادين السياسة والاجتماع والثقافة والعلوم وغيرها..»(١).

وقد قدم الدكتور الكيلاني عرضاً مفصلاً عن الآثار السلبية لهذه الظاهرة في المجتمع

---

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، د. ماجد عرسان الكيلاني، ص٢٠-٢١.

الإسلامي في عصور تاريخية مظلمة مر بها الإسلام شبيهة بالذي نعيشه الآن، ومنها الآثار التربوية والفكرية والتعليمية والاجتماعية والنفسية والسياسية وغيرها.. وهكذا فإن في عصرنا هذا نرى كثيراً من الناس يقرؤون القرآن لفظا ولا يفهمونه أو يتدبرونه أو يطبقونه، ونرى منهم من يستعير آيات قرآنية ليجمّل بها بيتاً من الشعر، أو قصة درامية، أو فيلماً سينمائياً، أو حكمة دون أن يعطيها المعنى الحقيقي الذي له أثره في نفوس الأجيال الأولى والمعاصرة أيما تأثير، أو يعلقها على الحائط كزينة، أو يستل منها اسماً لمحل تجاري أو عنواناً لسلعة أو اسماً لمغنية أو غير ذلك من الأمثلة المؤلمة التي يعجّ بها عصرنا هذا. وبات واضحاً انشغال عامة الناس بسطحيات بسيطة من الدين واهتمامهم بالمظاهر وسفاسف الأمور، وكذلك اهتمامهم بالتعصب المذهبي الضيق حتى أنهم صبوا جل عنايتهم إن لم تكن كلها لصالح هذا الأمر دون النظر حولهم بما يحيق بالأمة من مؤامرات شاملة هدفها تحطيم كل شيء إسلامي وكل نزعة للعودة إلى أحضان المجد الشامخ الذي تركناه وراءنا وهو القرآن العظيم حبل الله المتين. وأما الدارسون والمثقفون فجعلوا اهتمامهم منصباً على الدراسات العلمية والفلسفية المحضة وغيرها على أساس أن الدين لا يواكب العصر وتقدمه المادي والتقني، وكما فصلنا في بداية هذا الفصل.

لذلك فإن الرجوع إلى الدين وأصوله وروحه العظيمة التي أوصلتنا إلى عزتنا ومجدنا في الدنيا والآخرة يكون بالقضاء على أسباب نمو هذه النبتة الخبيثة وهي الجهل والفقر، والسلاح ضدهما هو العلم الديني والدنيوي وكذلك خلق حالة اقتصادية مستقرة متزنة لأفراد الأمة بالرجوع إلى نظرية الإسلام الاقتصادية والتي طبقت خلال حقب عديدة وأثبتت نجاحها الفائق.

المطلب السابع

الفرية الكبرى

وكان جراء كل الذي استعرضناه آنفاً أن تم اتهام القرآن والإسلام ورسول الله صلى الله عليه وسلم باتهامات عديدة منها التخلف، والأسطورية، وعدم الصلاح لزمن الاختراعات والاكتشافات والتطور العلمي الهائل، وغير ذلك من التهم. فكان أن تم تبني هذا الموقف من أناس لهم وزنهم الكبير في الساحة العربية والإسلامية سياسياً

واقتصادياً واجتماعياً وفكرياً، فأثروا في الملأ وصار الناس يعتادون على كلمات واصطلاحات تصل بالإنسان إلى درجة الكفر والخروج من الملة لم تكن إلى وقت قريب مقبولة ومستساغة في قاموس المصطلحات الدارج(*).. وسنحاول تفصيل موضوع الفرية الكبرى باعتبارها المؤامرة الحديثة التي أريد بها سلخ الأمة عن كتابها ودينها.

التسلسل التاريخي لمؤامرة الطعن بعلمية القرآن الكريم:

لما استيأس الأعداء من مواجهة الأمة الموحدة مباشرةً، هذه الأمة التي يجمعها رباط القرآن الكريم ومحبة الله ورسوله ودينه، خلصوا نجياً إلى حقيقة مفادها أن لا سبيل أمامهم إلا بالقضاء على هذه الآصرة ألا وهي كتاب الله المجيد، فكانت المؤامرة الكبرى في العصر الحديث، ولكن كما قلنا إن الله تعالى حافظ لدينه وهذا وعده الذي لا يخلف.. وسنسرد الآن التطور التأريخي لرد الأمة على هذه الفرية الحقيرة والمؤامرة الخسيسة حول القرآن والإسلام:

- في عصرنا الحالي وتحديداً عام ١٨٩٥ أطلق وزير المستعمرات البريطانية وليم جلادستون هجومه المستطير على الإسلام وكتاب الله بقوله: «ما دام هذا القرآن موجوداً في يد المسلمين فلن نستطيع أن نحكمهم، فإما أن نأخذه من يد المسلمين أو نقطع صلته بهم»، كان هذا التحدي السافر مستفزاً لمشاعر المسلمين في كل بلادهم وتصدى له الكثيرون ولعل أبرزهم وعلى رأسهم بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله تعالى، فأطلق شعاره وعهده المأثور الذي قضى حياته كلها دفاعاً عنه: «لأبرهنن للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها»(١)، كما برز آخرون دافعوا عن كتاب ربهم وكما استعرضناهم آنفاً.
- في مؤتمره المشهور بمدينة بال في سويسرا عام ١٨٩٧م، قام المجمع اليهودي بتحديد آلية العمل للقضاء على المارد الإسلامي، وهي أنه يجب إزالة القرآن وتأثيره الروحي

(*) ليس من اختصاص الكتاب الدخول في سرد هذه الشخصيات وبالإمكان الرجوع إلى مصادر بحثت في هذا الموضوع ومنها كتاب الدكتور محسن عبد الحميد (صراع الأفكار في العالم الإسلامي).

(١) عن كتاب (سعيد النورسي رجل القدر في حياة أمة) لأورخان محمد علي، ص٢٦-٢٧.

من قلوب المسلمين بما في ذلك العاطفة الجياشة التي يكنها المسلمون لله ورسوله وكتابه وإحلال كل أنواع اللهو والمجون والفراغ الفكري والتقليد الأعمى للنموذج الغربي محل ذلك، وكذلك نزع الحجاب من رؤوس المسلمات وإزالة الحياء من أخلاقهن وإحلال محبة التأثر بالغرب وموضاته وتقليعاته بدل التأسي بالسنة المطهرة لنساء النبي صلى الله عليه وسلم وبناته ونساء المسلمين الأوائل رضوان الله عليهن جميعاً.

- وبناءاً على ما ذكر في النقطتين السابقتين حصلت المؤامرة على البلدان الإسلامية في بداية هذا القرن الذي شهد بالمقابل انفتاحاً علمياً وتقدماً تقنياً كبيرين، فحصل ما ذكرناه في المطالب السابقة من بون شاسع بين الواقع الملموس للبلدان الغربية والواقع المزري للبلدان الإسلامية، وما بني عليه من ابتعاد أبناء الأمة عن الاهتمام بدينهم وقرآنهم، وانغماسهم في العلوم المادية البحتة.
- امتازت فترة العشرينات والثلاثينات وبداية الأربعينات بما بيناه سابقاً من هجمة شرسة تدعوا إلى نبذ الإسلام وتركه وإحلال النموذج الغربي محله وكان الرد عليها بسيطاً لا يوازي حجمها وذلك لانعدام الوعي والنضج الكافي لدى الجيل في حينه للرد عليها للأسباب التي سبق وأن ذكرناها.
- في أربعينات وخمسينيات القرن العشرين الميلادي بدأ المفكرون والمثقفون المسلمون ممن حملتهم غيرتهم على دينهم بالرد على هذا الافتراء والكذب ومنهم العقاد وعبد الفتاح طبارة وغيرهم الكثير إلا أن دفاعهم كان عمومياً وفيه من الثغرات مما لا يوازي حجم الهجمة، وقد تميزت أيضاً بعدم تقبل علماء الدين لهذه الفكرة أي حشو أي نظرية وربطها بالقرآن على أساس أن ذلك تقليل لشأن كتاب الله وكانت لهم وجهة نظر كما سنرى لاحقاً.
- في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين الميلادي وبعد أن تسلحت الأمة بسلاح العلم وأنهى شبابها دراساتهم التخصصية الدقيقة برز الشباب الغيور على دينه مدافعاً وبأسلوب علمي متخصص ضد هذه الهجمة فكانت كتاباتهم وأجوبتهم مقنعة قوية مدوية مدحضة للرأي الآخر وتبين أن هذا الرأي ضعيف إلى درجة الهشاشة أمام

عظمـة القـرآن الكـريم وبـدأ هـذا الـصوت يـسمع لـدى الكثيرين من شباب الأمة وتحمـس له الكثيرون بل وأن علماء الغرب أنفسهم بدءوا يهتمون بالنصوص القرآنية ويتتـبعونها لمـا رأوا فـيها مـن دقـة عظيمة في التعبير والتصوير غير موجودة بالكتب الـسماوية الأخـرى فـبرز علـماء مـثل (مـوريس بـوكاي) وغـيرهم، ومن علمائنا برز الكثـيرون مـن أمـثال عـبد المجيد الـزنداني ومـصطفى محمـود وأورخان محمد علي وغـيرهم الكثـير.. وبـدأ مـا يعرف منذ حينه بالإعجاز العلمي في القرآن باستقطاب الكثـيرين وقد خفت حدة المعارضة لهذا الاتجاه أبان هذه المرحلة بعد النتائج الكبيرة التي تحققت.

- جـاءت مـرحلة الثمانينيات التي كانت بحق نقطة التحول في هذا الأمر حيث عقدت المؤتمـرات في أمـريكا وأوربـا والعديـد مـن الـدول الإسـلامية بل وأن الموضوع بدأ يتخـصص ويـتحول مـن الإطـار العـام إلى التخصص بالعلوم وبدأ الإعجاز الطبي والفلكي والرياضي وهكذا بدأ باحثون عالميون كبار وعلماء مشهود لهم بحضور هذه المؤتمـرات ومـنهم مـن أعلن إسلامه ومنهم من اعتبر القرآن كتاباً ذا أهمية عظيمة في تـأريخ البـشرية قل نظيره واعترفوا أن هذا الكتاب لا يمكن أن يكتبه بشر وأن العلم الـذي فيه من الدقة بحيث أنها تطابقت مع آخر الحقائق العلمية والمكتشفات الحقلية الحديثة.

- تميـزت مـرحلة التـسعينات بأنهـا المـرحلة الحاسـمة التي حولت مجرى الصراع ضد أصحاب المؤامرة الحقيقيين وبدءوا يتخبطون أمام الإنتصارات العظيمة للقرآن وأهله في كل مجالات العلوم حتى أصبح القرآن هو القائد للعلم وليس تابعاً له، وهو المكان الطبيعـي لكـتاب الله المعجـز، فكانـت الـبداية في الإعجاز الرقمي الذي بدأ في نهاية الثمانيـنات ولكـنه تألـق وتـلألأ في التسعينات تماماً مع ثورة الحاسبات والاتصالات فكانـت المؤتمـرات العالمـية في أوربا وأمريكا وروسيا وآسيا وأفريقيا قد أثبتت أرقاماً وحقائق مذهلة صدمت الكثيرين وأراحت صدور قوم مؤمنين، فكان اكتشاف سرعة الضوء في القرآن والأعداد الذرية للمواد وإحصائيات وأنظمة ومتسلسلات رياضية وحقائـق كثيرة دخلت الحاسبات وعلومها، وأسلم تبعاً لذلك علماء عديدون من كل

العالم متخصصون بعلوم شتى ومنها علوم الحاسبات وتحول الصراع من مجرد كلام عام فلسفي إلى كلام ذي أرقام ومعادلات وحسابات وأشكال وجداول وإحصائيات ورسوم فكانت الضربة القاضية التي جعلت أصحاب المؤامرة يتخبطون ولا يعرفون ماذا يفعلون أمام هذا المد الهائل للإسلام والقرآن وأمام هذا المدد الإلهي العظيم لدينه وقرآنه الذي لن ينال منه أحد لأنه محفوظ بسر ملك الملوك العزيز العلام الخالق العظيم. فأصبح القرآن والعلم الدنيوي معاً ضد همجية الغرب وحيونته، وأضحى هذا التوجه هو الرد الفكري المناسب ضد حملات أعداء الإسلام - التي أوردناها آنفاً - والذي يسلب العقول والألباب - لا بالسيف كما اتهمونا سابقاً - والتي ستقض مضاجعهم إن شاء الله تعالى. فمن كان يتوقع أن تدخل مواد الفقه وعلم الحديث في كليات القضاء والقانون في الجامعات الأمريكية والأوربية، ومن كان يتوقع أن ٦٠٪ من القضاء البريطاني يعتمد في روحه وبعض نصوصه على التشريع الإسلامي باعتراف الأمير تشارلز خلال مؤتمر عقد بلندن عام ١٩٩٦م[١]، وأن في الولايات المتحدة الأمريكية يسلم يومياً أربعة أشخاص على الأقل. وأما الأصوات التي تصدر من هذا اليهودي أو ذلك الحاقد فقد أصبحت أصواتاً مضحكةً ونشازاً تنفر الغريب قبل القريب ولا يسمعها إلا الجهلة من أمثال أرباع البشر هؤلاء، ومن هذه المحاولات تلك التي تبثها بعض شبكات الإنترنت الأمريكية واليهودية مثل منظمة "أمريكا على الخط" ومنظمة "القلم يواجه السيف" التي اسمها أكثر إضحاكاً من أفعالها[٢].

- إن السنين القادمة ستشهد بحول الله وقوته تحولاً إسلامياً هائلاً من داخل أوربا وأمريكا خصوصاً بعد مرحلة الثقافات المباشرة المرئية باستخدام شبكات الإنترنت رغم تحول الأعداء إلى مرحلة المواجهة المباشرة بالقتل والتجويع والإبادة والحصارات وإن غداً لناظره قريب. وإن كل ما علينا هو التمسك بكتاب الله لأنه نور

---

(١) أنظر سلسلة كتبنا (ومضات إعجازية ‐ ١٥ جزءاً)، كتاب (الاقتصاد والاجتماع)، ففيه تفاصيل أكثر عن هذا الموضوع.

(٢) أنظر الفصل الرابع، ففيه أمثلة عن هذا النمط من التخرصات.

القلوب والأرواح والأجسام والعقول وكذلك بالعلم الدنيوي لأنه سلاحنا باليد الأخرى لتقدمنا ومجاراتنا للعصر، وعلينا قبل ذلك التوكل على الله وأن نسأله القوة والعون فهو حسبنا وملاذنا ولا عزة ولا قوة ولا منفعة إلا بالله العزيز الحكيم.. فعندما سأل السياسي الأمريكي المعروف روبرت كرين الذي أسلم وأبدل اسمه إلى فاروق عبد الحق، ماذا تتوقع بشأن الإسلام في أمريكا والعالم؟، أجاب: لقد أصبح العالم الآن أصغر ويمكن الوصول إلى الإسلام الحقيقي بوساطة وسائل الإعلام وتحسن الاتصالات لذا لا يمكن حجب الإسلام بعد اليوم فلقد أنشأت الحضارة الإسلامية الأسلوب العلمي كطريقة للتفكير ولالتماس الحقيقة ولقد استعار الغرب منها ما رآه ينقصه ولكن دون العامل الروحي وهنا يكمن الخطأ.. وضرب مثلاً أنه ألقى محاضرة عن الإسلام في جامعة جورج تاون وكان نتيجتها أن من ٢١ طالباً أسلم ٧ وأما الباقون فقد قالوا إنها أحسن دورة شاركوا فيها... وحتى بعد أحداث أيلول وما كان يراد به من ضرب الإسلام، فإذا به رغم قساوة الإجراءات يزداد قوة ويزداد الدخول إليه والرغبة في فهمه كما بينت ذلك الإحصاءات والبيانات.

المطلب الثامن

الردُّ الفصل للقرآن الكريم

وهكذا فإن الله تعالى حافظ لكلماته حتى أصبح هذا الأمر بعد أن تصدى له علماء الأمة وشبابها وبالاً عليهم وانقلب السحر على الساحر وبدلاً من طعنهم في الدين إذا بكبار علمائهم يدخلون الإسلام أو يعلنون على الأقل أن القرآن يعطي حقائق علمية بالغة الدقة والإعجاز كما سنبين لاحقاً في كتابنا هذا بدءاً من الفصل الثاني.

وهكذا أصبحت آيات الله المعجزات السلاح الذي قتل كل الطاعنين بالقرآن واستمر تأثير هذا الباب العلمي العظيم حتى أنه أصبح يدخل أيضاً في موضوع تزكية الأنفس وليس فقط في إثبات عظمة القرآن وأنه من عند الله العزيز العليم. وعموماً نقول إنه إذا كانت الكتب السماوية السابقة قد نزلت بألسنة أقوامها فإن القرآن العظيم قد نزل بألسنة كل العصور ولكل الأمكنة فمن لسان اللغة إلى لسان الأدب إلى لسان الحكمة إلى لسان الأخلاق إلى لسان علم الاجتماع إلى علم الطب والعقل والجسد إلى الفلك

والطبيعيات والرياضيات والهندسة والكيمياء وغيرها، فهو بحر بل محيط من الخيرات فكل من يستطيع أن يغرف منه ما يشاء فليفعل بشرط أن يجعله منهلاً ومصدراً ومنهجاً وليس تابعاً، وبهذا نكون قد قمنا بجزء يسير جداً من خدمة كتاب الله المجيد، وهذا ما سنسأل عنه يوم القيامة تصديقاً لقوله ﷻ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾، [الزخرف: ٤٤]. إذ أننا سنسأل أمام الله عما عملنا لهذا القرآن العظيم في أنفسنا وأهلينا وإخواننا من المسلمين ضد أعدائنا الكافرين والمشركين والمنافقين وضد كل من أوهمته هذه الدنيا وغرته هذه الحضارة بزخرفها الزائل حتى نسوا ما ذكروا به ونسوا دينهم وغرتهم الأماني وغرهم بالله الغرور، فاستهزأوا بهذا الدين وأصبحوا لا منتمين مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء..

ويقينا إننا سنسأل هل اتخذنا القرآن ظهرياً أم مهجوراً؟، هل جعلناه على الرفوف في البيوت كزينة فقط؟، هل قرأناه ورتلناه وفهمناه وتدبرناه وعملنا به وأمرنا به؟، هل خدمناه ودعونا إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، أم ماذا كنا به فاعلين؟

الفصل الثاني

الحضارة الإسلامية

ما الحضارة؟ وهل للغرب حضارة؟ وما الفرق بين حضارتنا وحضارتهم؟ وما تأثير حضارتنا على الحضارة العلمية؟ وما السبيل إلى إعادة الروح في تأثيرنا الحضاري؟ وأسئلة أخرى عديدة علينا أن نجيب عليها، ولكن علينا قبل ذلك أن نفهم التعريف العلمي لكلمة الحضارة [١].

المبحث الأول

تعريف الحضارة

يعرف ول ديوارنت الحضارة أنها نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وهي تتألف من أربعة عناصر: الموارد الاقتصادية، النظم السياسية، التقاليد الخلقية، متابعة العلوم والفنون. كما وأن لها عوامل عدة منها العوامل الجيولوجية والجغرافية والاقتصادية والثقافية[٢].

إنَّ الحضارة مفهوم يبحث في النشاط الإنساني وإنجازاته في فترة زمنية بما يحقق ذاته وسعادته ويكيفه مع بيئته ويميزه من غيره، باعتباره مخلوقاً اجتماعياً مختلفاً عن الحيوان، وعليه فإن عناصر هذا المفهوم هي الإنسان - البيئة - الزمن.. محصلة الحضارة البشرية هو المزج بين مصطلحات الحضارة والمدنية والثقافة مع إضافة مصطلح المعرفة الإنسانية (Knowledge) لتلك النشاطات كلها، ولعل مصطلح العمران قد يكون بديلاً يعطي المعنى الصحيح للمفهوم الغربي لهذه الكلمة بدلاً من كلمة الحضارة[٣].

---

(١) لتفاصيل واسعة حول الحضارة بإمكان القارئ الرجوع لكتابنا (القوانين القرآنية للحضارات).

(٢) انظر قصة الحضارة لـ وول ديورانت، ج١، ص٣، ط ٣، الصادرة عن الإدارة الثقافية للجامعة العربية.

(٣) عن بحث سبيل إخراج الأمة للدكتور محسن عبد الحميد المنشور ضمن كتاب الدور الحضاري للأمة الإسلامية في عالم الغد، ص (٤٦٩-٤٧٠) نقلاً عن كتب (قصة الحضارة) لـ وول ديورانت و(روح =

يقـول الأستاذ خالد أبو الفتوح في بحثه الموسوم (الحضارة) ما نصه: (إن الكلام عن الحـضارة يتـشعب في كتب التاريخ والفلسفة والآداب والسياسة والجغرافية والعلوم، إذ أحـصى عالمـي الأنثروبولوجـي (علـم الإنـسان) ألفـريد كوبـر وكلايد كلوكوهون عام ١٩٥٢م مـا يـزيد عـن ١٦٤ تعـريفاً للحضارة في اللغات).. وقد ذكر الباحث أن كلمة الحـضارة نقلـت إلى العـربية من اللغات الأوربية فانتقل المفهوم الغربي إلى لفظ الحضارة العـربي وأيـضاً إلى لفظـي المدينة والثقافة عبر ترجمة لفظ (Civilization) والتي تعود إلى اللفـظ اللاتينـي (Civits)، وأيـضاً عـبر تـرجمة لفـظ (Culture) والتـي تعود إلى الجذر اللاتينـي (Cultura). وقـدم الـباحث بحـثاً مفـصلاً في هـذين المفهومين وتطورهما عبر العـصور بـدءاً مـن العـصر الـيوناني والـروماني وانـتهاءً بالعـصور اللاحقـة الوسـطى والمتأخـرة، وكيفـية انـتقالها في اللغـات الأوربية الإنكليزية والألمانية والفرنسية وغيرها، فمـثلا في الإنكليـزية وحـسب معجم أوكسفورد يعود أول استعمال لهذه الكلمة إلى سنة ١٨٠٥م. ثـم انـتقلت إلى العربية عبر التراجم العربية للكتب الأجنبية في عهد محمد علي باشـا أوائـل القـرن التاسـع عـشر الميلادي وتأثر الكتّاب اللاحقين بهذه الكلمة في نهاية القـرن التاسـع عـشر وبداية القرن العشرين.. ثم عرج على نقد المفهوم الغربي ومناقشته فذكـر مـا نـصه: أن المفهـوم الغـربي خرج من كلمتين تدل إحداهما في أصل معناها على الفلاحـة (غـرس ثـم إنـماء ثـم حصد)، وتدل الأخرى على النسبة إلى المدينة، بينما خرج المـصطلح العـربي (حضارة) من منطلق أن الحضر هم خلاف البدو فكلمة الحضارة تدل عـلى الاستقرار الذي تنشأ عنه المدينة، الأمر الذي لا تحققه البداوة.. وناقش هذا المفهوم مناقـشة علمـية مفـصلة لخـصها في خمس نقاط ثم أعطى الاقتراحات اللازمة لتمحيص المصطلح العربي إذ إنَّ الحضارة مفهوم يبحث في النشاط الإنساني وإنجازاته في فترة زمنية بـما يحقـق ذاته وسعادته ويكيفه مع بيئته ويميزه من غيره، باعتباره مخلوقاً اجتماعياً مختلفاً عـن الحيوان، وعليه فإن عناصر هذا المفهوم هي الإنسان - البيئة - الزمن.. وناقش هذه

=

الحضارة الإسلامية ومميزاتها) للـدكتور محمد -عبد الهادي أبو ريدة، وكتاب (التغيير الحضاري وتنمية المجتمع) للدكتور محي الدين صابر... وبحث الأستاذ خالد أبو الفتوح، بعنوان الحضارة، مجلة البيان، العدد ١٤٦، شوال ١٤٢٠هـ-يناير/ فبراير ٢٠٠٠م، ص١٢٨-١٣٧.

العناصر مناقشة متعددة الجوانب وذكر أن مصطلح العمران قد يكون بديلاً يعطي المعنى الصحيح للمفهوم الغربي لهذه الكلمة بدلاً من كلمة الحضارة(١).

وقد مرت بالبشرية حضارات عظيمة التأثير وأخرى أقل تأثيراً، وكل واحدة لها مميزاتها وسماتها. ولعل أبرز حضارة تعدى تأثيرها الزمني في حقب حكمها ومجدها إلى وقتنا الراهن تبرز الحضارة الإسلامية كعلامة فارقة في تاريخ البشرية... ولقد ثبّت القرآن الكريم قوانين عامة لحضارة البشر على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم وأفكارهم، وبمراجعة عامة للتاريخ البشري تجد أن هذه القوانين فعلاً كانت السمة البارزة لدورة حياة الحضارات البشرية. هذه القوانين استعرضناها في كتابنا (القوانين القرآنية للحضارات)، فإليه أحيل القارئ الكريم لمزيد من التوضيح.

المبحث الثاني

الحضارة الإسلامية وبعض خصائصها

الحضارة الإسلامية ينطبق عليها هذا المفهوم أو القانون الاجتماعي والحيوي، فهي لا تخرج عن الأنشطة الإنسانية وتفاعلها لأداء خلافة الله في الأرض من أجل تحويل الوحي الإلهي عقيدة وشريعة ونظام وأخلاق إلى تغيير وبناء وعمران في مجالات الحياة كافة، مستفيدة من حركة الأمم والشعوب الحضارية لخدمة بني البشر، مسلمين وغيرهم، من مبدأ أن الخالق هو رب العالمين وليس رب المسلمين وحسب(٢)، على أن الخلافة للبشر على الأرض تكون عبر شروط استحقوها دون بقية المخلوقات ألا وهي سمة العقل الذي يؤدي بالإنسان إلى الإيمان ومن ثم التقوى والصلاح لكل بني جنسه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ ، [الحجرات:١٣].

---

(١) خالد أبو الفتوح، بحث بعنوان الحضارة، مجلة البيان، العدد ١٤٦، شوال ١٤٢٠هـ-يناير/ فبراير ٢٠٠٠م، ص١٢٨-١٣٧.

(٢) عن بحث سبيل إخراج الأمة للدكتور محسن عبد الحميد المنشور ضمن كتاب الدور الحضاري للأمة الإسلامية في عالم الغد، ص (٤٦٩-٤٧٠).

يلخص علماؤنا الأفاضل المفهوم الصحيح للحضارة إسلامياً بما يأتي:

١- الحضارة بمفهومنا الإسلامي هو أن تكون الحاكمية في المجتمع لله تعالى رب العالمين إلـه واحـد يتوحد إليه الجميع، ودينهم واحد يحكم الجميع هو الإسلام. وأما التقدم الصناعي أو العمراني فلا يسمى في الإسلام حضارة إلا إذا كان هدفه خدمة للإسلام والمسلمين وقـوة لهـم وتوجـيهاً للإنسان كي يعرف طريق السمو الروحي والخلقي وكـل مـا يؤهله كي يكون خليفة حقيقياً لله في الأرض، ويكون خالصاً لله بعيداً عن أشـكال المجـون والفـسوق والانحـلال، وقـد أخبر الله تعالى عن مجتمعات جاهلية كانـت على مستوى رفيع في البناء والتصنيع. فقبيلة عاد لم يخلق مثل بلدتهم في زمنهم لقـوتهم وشـدتهم وعظم تركيبهم... وقد كان للمودودي رحمه الله تعالى ولكثير من المفكـرين والعلـماء كالقرضـاوي وجابـر العلواني رأي في موضوع الحاكمية منها أن الـشريعة قد ختمت بالأحكام العامة التي بينها القرآن والسنة، وأما الفقه وهو جهد بـشري لفهـم الـشريعة فهـو مفتوح للفهم والاستنباط لكل الأحكام وخصوصاً ما يستجد في حياة الأمة من الشريعة الكاملة دون المساس بأصل التشريع ومقاصده.

٢- أمـا الـتقدم المـادي فهـو تيسير للإنسان في عمله وحركته ولا يشفع لصانعه إذا كان كافراً: سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ابن جدعان كان يطعم ويصل الرحم فهـل ذلك نافعه؟، فقال: «لا ينفعه أنه لم يقل يوماً ربي اغفر لي خطيئتي يوم الدين»، وقوله صلى الله عليه وسلم لابنة حاتم الطائي: «لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه».

وعـلى هـذا الأسـاس فـإن للغرب باتجاهاته المختلفة (الأمريكية، الأوربية، المعسكر الشرقي) مفهوماً مختلفاً للحضارة عنا معشر المسلمين لأسباب أهمها:

أ- إنه لا يحتكم إلى منهج الله تعالى بل إلى مناهج أخرى من رأسمالية وشيوعية والله يقول: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾، [المائدة: ٥٠]. فالرأسمالية تسحق المجموع لأجل الفرد والشيوعية تسحق الفرد لأجل المجموع وكلاهما مصادمة للفطرة.

ب- لأن الغرب لا يقيد حركته ويوجهها توجيها في الحق وسلام الإنسان، والشبه بينهم وبـين قبـيلة عاد كبير فقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم: «**كان الرجل منهم يأتي**

على الصخرة فيحملها على الحي فيهلكهم»، (أخرجه ابن أبي حاتم مرفوعاً)، والغرب أيضاً في تفجيره للقنبلة الذرية وقذفها على هيروشيما وناكازاكي وحروبه على أهل آسيا من الكوريين والفيتناميين ومساندته لليهود بذبحهم لأهلنا في فلسطين ولبنان ودعمه للاقتتال بين الاخوة في أفغانستان ومذابحهم في الصومال، ثم ضربهم وقتلهم وتشريدهم للمسلمين في السودان وأفغانستان والبوسنة والهرسك وكوسوفا والشيشان، وكان آخرها جريمتهم الكبرى بحق الأهل والأحباب في العراق وما فعلوه من دمار وقتل وتجويع وتشريد لم يسبقهم به حتى التتار لتبقى هذه الجرائم شاهداً على حيوانيتهم وهمجيتهم وخروجهم عن دائرة الإنسانية إلى دائرة مصاصي الدماء وآكلي لحوم البشر.

ج- لأن تجمعه تجمع قطيعي على أساس من اللون أو الجنس أو الأرض وهكذا البهائم في تمايزها لا تجتمع إلا مع بني جنسها، أما إسلامنا فليس فيه فضل لصاحب لون على لون للحديث: «**اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشي أقام فيكم كتاب الله**»، (أخرجه البخاري)، ولا فضل لصاحب جنسية على غيره لأن أول لبنة بناها رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تتكون من أبي بكر القرشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي جنسيات متعددة جمعتها كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

د- لأنه مجتمع لا يعترف بالأسرة قاعدة للمجتمع وإنما يقوم على العلاقات الجنسية المحرمة والنسل غير الشرعي: ففي أمريكا يولد ربع مليون طفل غير شرعي سنوياً، وقد كتب تقرير عن نسبة الطلاق هناك أنه كلما دار عقرب الساعة ثانية هوى بيت أمريكي وفي كل يوم كان القضاء يمنح ألف حكم بالطلاق. أما في إسلامنا فأساس العلاقة بين الرجل وزوجته الرحمة والمودة قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، [الروم:٢١]. مودة في بداية الزواج حيث الشهوة والرغبة ورحمة أكبر إذا كبر العيال وبردت الشهوة وكبرا في السن كانت الرحمة بها من أن يتركها. جاء رجل إلى عمر رضي الله عنه يقول أريد أن أطلق زوجتي، قال: لِمَ ؟، قال: لا أحبها فقال عمر: وهل تبني البيوت إلا على الحب، فأين الرعاية وأين الترحم – أي الرعاية

لهم والرحمة بهم- وأين الغيرة من أن يضيعوا بعدك وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ذواق مطلاق ممن يتزوج مرات لا تعنيه إلا شهوة ولا يفكر في إبتناء أسرة أو تربية ولد.. بل حتى توجههم الفكري مبني على ثلاثة أسس : هي الجنس، النفوذ ويشمل الأملاك والجاه والسلطان، والدم وكلها أسس حيوانية غريزية لا تسمو بالإنسان بل تدفعه نحو رذائل الأمراض والعقد النفسية، وهذا ما نلحظه في أفلامهم وأغانيهم، ومع الأسف بدأت خطواتنا تتبع خطواتهم في هذا المجال ويأتي ذلك مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراع بذراع حتى إذا سلكوا جحر ضب لسلكتموه قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى، قال فمن**»(١).

وفي هذا يقول أنور الجندي: إن محاولة الدعوة إلى المزج بين الحضارتين والثقافتين الإسلامية والغربية لها خطر كبير يؤثر على إيمان المسلم وعقيدته من الداخل، فهي تقود المسلم إلى الوقوع في الخطر الشديد وكالآتي:

أولاً: محاولة أن تكون الهيمنة للعلم التجريبي لا للعلم المنزل.

ثانياً: محاولة إلغاء مفهوم العلاقة بين الخالق والمخلوق.

ثالثاً: محاولة إلغاء ثبات الشريعة الإسلامية واعتناق الفلسفة النسبية التي تقرر أن كل شيء يتغير ويتبدل بتغيير الزمان والمكان بما في ذلك حقائق العلوم ومبادئ الشريعة أصول الأخلاق.

رابعاً: محاولة الإيمان بالحرية ونبذ عقيدة القضاء والقدر، ومعنى هذا التضحية بالآخرة في سبيل الدنيا.. وليتذكر المسلم أن هناك خمس عقائد إسلامية ثابتة بآيات محكمات وهي: هيمنة الوحي على العلم، خلود العقيدة والشريعة، طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، الإيمان بالقضاء والقدر، وإيثار الآخرة على الدنيا(٢).

---

(١) أخرجه البخاري وأحاديث الأنبياء ٣٤٥٦، مسلم (العلم ٢٦٦٩)، أحمد (باقي مسند المكثرين ١١٣٩١، ١١٤٣٣، ١١٤٨٧). عن كتابنا (المنظار الهندسي للقرآن الكريم)، ص ٥١- ٥٢. وانظر كتاب (المنهاج)، للشيخ هاشم محمد، ج/ ٢، ص١١٢.

(٢) المجتمع على طريق الإسلام، بقلم أنور الجندي، جريدة حديث الصائم الإماراتية، الثلاثاء ١٨ رمضان =

بينما يقول الدكتور أحمد شلبي: لعل الجانب الأكثر خطورة هو أن التعليم الجامعي غير الموجه يزيد الهوة بين الطالب ودينه، وأشهد الله أن الطالب في كليات الطب بجامعات أوربا يعرف عن الرازي وابن سينا أكثر من طالب الطب بجامعة القاهرة وغيرها من الجامعات الإسلامية، والنماذج كثيرة في سائر الكليات الجامعية.. نريد أن نضع الأسس الإسلامية ولابد أن ننشئ الكليات المتخصصة في الإسلاميات، وأنا أقول أن الكليات الإسلامية القائمة لا تدرس أهم علوم الإسلام مثل الحضارة الإسلامية ومقارنة الأديان وغيرها، وهي علوم مهمة جداً ترفع شأن الإسلام وتبرزه، فلابد أن يعرف الشباب رأي الإسلام في الشورى والمرأة والعلاقات الدولية وفي سائر جوانب الحياة(١).

ومن مرتكزات الإمكان الحضاري لهذه الأمة نقاط عدة تمثل الوراثة الحقيقية والتاريخية للنبوة والمؤهلة لاستيعاب التجربة الحضارية للبشر منها:

١. امتلاك النص السماوي السليم وخلوده الذي يرسخ عقيدة التوحيد في نفس الإنسان.

٢. إنسانية الخطاب وعالمية الدعوة من منطلقات رئيسية منها تأسيس الشورى ومعرفة الآخر وسنة الحوار واحترام المقابل فلا إكراه في الدين: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، [البقرة:٢٥٦].

من خصائص هذه الحضارة أنها إنسانية النزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة، فالقرآن الكريم أعلن وحدة النوع الإنساني رغم تنوع أعراقه ومنابته ومواطنه كما تخبر الآية ١٣ من سورة الحجرات التي ذكرناها آنفاً. وحين أعلن القرآن الكريم هذه الوحدة الإنسانية العالمية على صعيد الحق والخير والكرامة جعل حضارته عقداً تنتظم عنده جميع

=

١٤١٩هـ، ٥ يناير ١٩٩٩م، ص٢.

(١) الدكتور أحمد شلبي، مقالة في جريدة حديث الصائم الإماراتية، الثلاثاء ١٨ رمضان ١٤١٩هـ - ٥ يناير ١٩٩٩م، ص٦.

العبقريات للشعوب والأمم التي خفقت فوقها راية الفتوحات الإسلامية، ولذلك كانت كـل حضارة تستطيع أن تفاخر بالعباقرة من أبناء جنس واحد وأمة واحدة، إلا الحضارة الإسـلامية، فإنهـا تفاخر بالعباقرة الذين أقاموا صرحها من جميع الأمم والشعوب، فأبو حنـيفة ومالـك والـشافعي وأحمـد وسـيبويه والكـندي والغـزالي والفـارابي وابـن رشد والخوارزمـي، وأمثالهم ممن اختلفت أصولهم وتباينت أوطانهم، ليسوا إلا عباقرة قدمت فيهم الحضارة الإسلامية إلى الإنسانية أروع نتائج الفكر الإنساني السليم.

وإذا كانـت الحـضـارة الـرومانيـة قـد اشـتهرت بالطـرق التـي تـربط بين أجـزاء الامـبراطورية، فإنهـا قـد عـرفت كـذلك بالحواجـز التـي أقامتها بين الطبقات والفئات المخـتلفة مـن رعاياها. إذ فرقت في الحقوق بين سكان روما وسكان سائر إيطاليا، ثم بين الـرومان وغـيرهم مـن سائر البلدان التابعة لها، ثم بين الذين خضعوا لنفوذها وبين من كانـوا خارجها الذين دعتهم برابرة. أما حضارة الإسلام فقد أزالت الحواجز والمسافات بـين البشر فهم سواء بسواء، وكانت مراكز البريد تعين على التنقل في أرجاء دار الإسلام المترامـية، ووجـدت فـيما بعـد مـا يعـرف بالأربطـة أو الرباطات بفعل الجماعة ذاتها، إذ يستـضـاف العـابـرون ويقـدم لهـم ولدوابهم الطعـام والمأوى، ويذكر الجغرافي المسـلم الاصـطخري مـثلاً عـن مسلمي بلاد ما وراء النهر (وأما سماحتهم فإن الناس في أكثر ما وراء النهـر كـأنهم في دار واحـدة مـا ينـزل أحد بأحد إلا كأنه داخل دار نفسه). وهكذا أزالـت الحـضارة الإسلامية الحواجز النفسية والمكانية بين أبنائها في مختلف أنحاء العالم، فكانت بحق إنسانية عالمية[١].

ولئن كانت السنين الأولى قد تطلبت فتوحات عسكرية، إلا أن السمة الأبرز للمتتبع لهذه الحضارة أنها حضارة عقل ومنطق وحجة، لا حضارة همجية وسفك دماء كما يدعي أعـداؤها. والدلـيل أن الفـترة الزمنية اللاحقة وإلى اليوم شهدت وتشهد إقبالاً على هذه الحضارة رغم كل العوائق التي وضعت أمامها للحيلولة دون ذلك.

٣. الوحي مصدر القيم والمبادئ والعقل أداة البرمجة.

٤. الطاقة الروحية المتجددة.

---

(١) موسوعة الحضارة الإسلامية- أقراص مدمجة / الدولة الأموية / القيم.

٥. امتلاك الطاقة المادية المطلوبة لنمو الحضارة ومنها الرصيد الكبير من الموارد البشرية كالعقول والسواعد.

٦. العمل وفق الأسباب والسنن والنواميس الإلهية في الكون والأنفس والمجتمعات.

٧. إطلاق حرية الاجتهاد الفكري وفق الضوابط الإنسانية.

٨. ضبط العواطف والحماس على وفق مرضاة وتقوى الله تعالى وليس وفق التعصب للأنا والذات والانتماء العشائري والقبلي والقومي... فالشريعة بنيت على أساس يحث الناس على الحكم بالعدل حتى على من هم عدو لهم أو أناس بينهم عداء فكري، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾، [المائدة:٨]، وقول الحق ولو على النفس، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾، [النساء:١٣٥][(١)].

فيما يذكر المفكران الإسلاميان الدكتور يوسف القرضاوي والدكتور محسن عبد الحميد عن ميزات هذه الحضارة ما مختصره:

أنها حضارة ربانية وحدانية بامتلاكها النص السماوي السليم وخلوده الذي يرسخ عقيدة التوحيد في نفس الإنسان، أي أن الله تعالى هو الإله المعبود والرب المالك والحاكم الملك.. أنها قدوة لكل حضارة تسمو بالبشر ولا تحط منهم.. شمولية في نظام الحياة للبشر بكل أطوارهم واختلافاتهم وثقافاتهم لكل زمان ومكان ولكل تفاصيل الحياة للدنيا والآخرة من العقيدة والعبادة والأخلاق والتشريع والالتزام... عادلة... متسامحة... منفتحة مفتوحة على كل البشر... منطقية وموضوعية واقعية واضحة في كل

---

(١) عن بحث عمر عبيد حسنة (الوراثة الحضارية.. شروط ومقومات) ضمن كتاب الدور الحضاري للأمة الإسلامية في عالم الغد، ص (٤٠٠-٤٣٦)، بتصرف.

التطبيقات التشريعية والتكليفية للفرد والمجتمع من باب كونها قابلة للتطبيق ولكل البشر حتى المعاقين والمرضى منهم، إطلاق حرية الاجتهاد الفكري وفق الضوابط الإنسانية... قيمية خلقية...علمية...عقلية...مبدعة وخلاقة...وسطية ومتوازنة تمزج بين العقل والروح والاستقامة على الشرع الحنيف... خالدة...داعية للسلام والحق...أصيلة[١].

يمكننا حصر الفرق الرئيس بين التوازن الذي جاء به الإسلام وبين إما الإفراط أو التفريط الذي جاءت به المدارس الأخرى، سواء أكانت العلمانية منها أو مدارس الأديان السماوية – المحرفة - الأخرى، أو حتى المدارس الفلسفية الأخرى قديمها وحديثها، بمسألة المفهوم الإسلامي للدنيا، وهل هي جديرة بأن تكون محل الحب المطلق فيصرف من أجل عيونها كل شيء، ويسحق الناس لأجل مجموعة معينة بذاتها تنعم برغد العيش، أم أن في الأمر مسألة أخرى؟!.. لنأخذ كل فريق وما جاء به:

١. أهل الديانات الرئيسية (اليهود والنصارى): تقول اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه فالجنة لنا وهي مضمونة، وتقول النصارى جاء عيسى (عليه السلام) فأخذ كل ذنوبنا فمهما أذنبنا فنحن من أهل الفردوس ولن ندخل النار، هذا طبعاً زعمهم بعد أن حرفوا دينهم الحق، والأنبياء عليهم السلام من قولهم هذا براء، وقد بين القرآن الكريم زعمهم الباطل هذا: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، [المائدة:١٨].. ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، [التوبة: ٣٠]... وعلى أساس اعتقادهم الباطل هذا يقولون: (ما دامت الآخرة مضمونة فعلينا أن نعمل للدنيا فقط، فنأكل ونتمتع ونفعل ما نشاء)، فأباحوا كل شيء ومنه قتل كل من يقف أمام سيطرتهم المطلقة على المال والنفوذ والجاه وغيره من

(١) مختصر عن كتابي الخصائص العامة للإسلام للدكتور يوسف القرضاوي.. ومذهبية الحضارة الإسلامية للدكتور محسن عبد الحميد – صفحات مختلفة، بتصرف.

الشهوات. وقد يستثنى من ذلك بعض الراسخين بالعلم منهم ممن عرفوا الحق فأنكروا التحريف وعملوا بها كان عندهم من الدين قبل تحريفه، وقليل ما هم.

٢. اللادينيون والعلمانيون والوجوديون والملاحدة: وهؤلاء وإن اختلفت اتجاهاتهم إلا أنهم يشتركون بنكران الغيب والآخرة ويفسرون الوجود على أساس الملموس من الحياة التي نعيش، فلا اعتراف لديهم بحساب بعد الموت أو جنة أو نار إنما يقودهم الفكر البشري، فترى فيهم الطيب، وترى فيهم اللئيم وكل أصناف البشر، منهم العالم ومنهم الجاهل المتبع ومنهم الضال، وقد صنفتهم الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ﴾، [الحج: ٨].. ولا يعتقد هؤلاء بأن الموبقات مثل الخمر أو الزنا أو الكذب وغيره من سوء الخلق، بل يظنون أنها من موجبات الحياة الحديثة، لأن تعاريفهم أصلاً لا تقر إلا بما هو دنيوي مرئي أو ملموس.. وعلى هذا الأساس فنظرتهم للدنيا مقدسة، يعملون من أجلها ومن أجل شهواتهم وملذاتهم الخاصة أو العائلية، ولا يهمهم غيرهم أيجوع أم يذل أم يموت؟، فتراهم يستهزئون ويتهكمون بالمؤمنين ويسمعوهم مر الكلام وقبيح التعابير بقلوب حاقدة وعقول ميتة وأفواه ضاحكة.. على أن فيهم ممن تحس أنه ذو فطرة سليمة إلا أنه يحتاج لإزالة الغشاوة والشك عن قلبه، وذلك بالحجج الدامغات والمنطق السليم لأن منهم أهل علم ومنطق وحجة.

٣. هناك فئة ثالثة هي فئة الفوضويين واللامنتمين والعشوائيين الذين يهتزون مع كل ريح ويصفقون لكل آت كما يصفهم سيدنا الإمام علي كرم الله وجهه.. وهؤلاء كالأنعام بل هم أضل، وهم من الجهلة والعوام وعبدة الهوى وغيرهم من الأصناف الكثير، ويشكلون الأغلبية من سكان العالم، وصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾، [الفرقان:٤٣].. ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، [الجاثية:٢٣].. وقد تجد فيهم من هو مسلم بالهوية، ولكنه لا يفقه شيئاً عن عظمة وروعة دينه. فتجد هؤلاء يهرعون للتقليد الأعمى لكل صيحة وتقليعة، ويتبعون كل ما تأمرهم به أحلامهم حتى وإن

كانت الحيوانات نفسها تعافه وتنفر منه.

أما الإسلام فيبين للناس أنهم ميتون يوماً ما مهما طالت بهم الآجال، فمقبورون فمبعوثون للحساب.. والدنيا هذه التي يعيشون هي مزرعة الآخرة، فمن يعمل فيها صالحاً يوف إليه ما عمل وهو لا يبخس بل يضاعف له الأجر، وأما من يعمل سوءاً فلا يجز إلا بمثله، ورحمة الله فوق ذلك، ولا ضمان لأحد من عقاب أو ثواب، ولا يزكى على الله أحد إلا أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.. وقد حبَّب الإسلام العمل الصالح للناس من عبادات ومعاملات وأخلاق كي يجدوا نتيجته في الدنيا أو في الآخرة أو في الاثنين معاً، لكن مشكلة الناس أنهم يعجلون النتائج، وقد ذكرنا صفة العجالة هذه ضمن صفات النفس البشرية التي شخصها القرآن الكريم. والمسلم المؤمن يتوسط بعمله بالأخذ بالأسباب المادية من السعي للرزق والإخلاص بالعمل وغيره مع كل ما يتعلق بها تتطلبه الآخرة من عمل، فيجعل كل سعيه في الدنيا لأجل نيل الآخرة التي يؤمن بأنها الدائمة الباقية التي لا موت بعدها ولا تبديل، وعلى هذا فحب الدنيا عنده ليس لذاتها وعلى حساب تعاسة الآخر، بل هي إن كان ولا بد منها فإن ذلك لأجل أسباب معينة، ومنها أنها مخلوق من مخلوقات الله. ومنها أنها دار امتحان لا تكره فتكوّن الإحباط واليأس، ولا تعبد لذاتها فيهون أمام ملذاتها كل شيء، بل هي مكان وزمان محددين بأمد طال أم قصر، والسعيد من استغله بالصالحات من العبادة والمعاملة والأخلاق. فعمل صالح يجلب الابتسامة لبشر مثلك، أو يروي عطشاً أو يدفع جوعاً، أو يحل مشكلة لملهوف، فيها سعادة نفسية لا توصف، قد يفهمها العلماني بأنها شفافية في المشاعر، ولكن المسلم له بعد آخر في التفكير وهو الأهم، فمطلبه مرضاة الله تعالى، ومنها منبع كل السعادات.

ولا يطلب المسلم الصادق من الدنيا جاهاً أو مالاً أو نفوذاً أو سلطاناً أو شهرة أو غير ذلك، وإنما همه أن يخرج منها ليستقبل في عالم الخلود استقبالاً مرضياً يؤهله لنيل الفوز الأكبر الذي يحلم به وهو مرضاة ربه ومن ثم نيله الجائزة ألا وهي الخلود في الجنة، فلا تعب بعدها ولا نصب، وهنيئا لمن نال ذلك: ﴿... فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾، [البقرة].. ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ

ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، [النساء:١٣٤].

وعلى أساس هذا الفرق الرئيسي في المفاهيم والذي تتفرع منه فروقاً تفصيلية كثيرة، تجد الصراع بين الثقافات والحضارات موجوداً ومستمراً حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فللجنة أهلها وللنار أهلها.. وقانون الصراع هذا والذي سنفصله في الباب القادم هو من ضمن القوانين التي سنها الله لعباده ليس حكماً تنزيلياً مسيراً له الناس، ولكنه اختيار الناس في الاختلاف والابتعاد عن منهج الله الذي أنزله لهم ليعلمهم حقيقة الوجود، ولكن أكثر الناس للحق كارهين وللهوى متبعين وللدنيا عابدين إلا عباد الله العالمين المتقين: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾، [البقرة:٢١٤].

وباختصار فإن من مقومات حضارتنا أنها إيمانية خلقية تسمو بالبشر ولا تحط من قدرهم، شمولية إنسانية لا تنحصر بقوم أو مجموعة، عقلانية ومنطقية وعلمية لا مجال للخرافة فيها، عادلة إصلاحية تنموية تعطي لكل ذي حق حقه، تؤمن بالتعددية واحترام الرأي المقابل(١)، فهذا توماس آرنولد أحد كبار المفكرين الغربيين يعترف للحضارة الإسلامية بأنها أول حضارة تعترف وتمارس التعددية في الرأي والفكر والقضاء والتطبيق والسياسة والمذهب الديني، في الوقت الذي لم تقبل أوربا بالرأي الآخر حتى في الدين الواحد، وحصلت فيها مذابح راح ضحيتها ١٠ مليون شخص في حين لم تحصل في تاريخ المسلمين مذابح أو حروب دينية الطابع وانتشر الإسلام في الجزيرة بأقل من ٤٠٠ ضحية، وفي العالم القديم بعدة آلاف فقط (٢).

ولقد اعترفت البشرية بنخبتها المثقفة لهذه الأمة بدورها في تطورها، وهو ما تقرؤه في آراء نذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر مثل الدكتور شيرل عميد كلية الحقوق

---

(١) عن بحث الدكتور أحمد كمال أبو المجد (الإعداد للدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد) ضمن كتاب الدور الحضاري للأمة الإسلامية في عالم الغد، ص (٦٩-٧٦)، بتصرف.

(٢) لمزيد من التفاصيل حول خصائص الحضارة الإسلامية يراجع كتابنا (القوانين القرآنية للحضارات).

بجامعة فينا، المؤرخ البريطاني توينبي، أستاذ الفلسفة البريطاني بجامعة هارفرد الدكتور هوكنج، الرئيس الفرنسي شارل ديغول، الأمير تشارلز، العالم الإسباني فيلاسبازا وغيرهم الكثير. هذا فضلاً عن العدد الهائل ممن أسلم من مفكري وعلماء الغرب كروجيه غارودي ومراد هوفمان ومحمد أسد (ليوبولد فايس) والقس كلداني وعالم الأجنة كيث أيل مور وغيرهم الكثير.

على أساس تعريف الحضارة السابق الذكر فإن كل الدول التي حملت لواء الإسلام بكل مسمياتها وعناوينها واختلاف ظروفها المكانية والزمانية رغم بعض المآخذ التي أخذت عليها فإنها تدخل تحت تعريف الحضارة الإسلامية. فهذه الحضارة قدر لها الله أن تستمر، فهي إن خبت في مكان ما تلبث أن تصعد في مكان آخر حتى انتهت عند انتهاء الخلافة العثمانية.. كما وإن هذه الحضارة لم تنتهي بانتهاء الدولة الجامعة لأن تعريفها هو كل النشاطات المختلفة للبشر الذين يحملون مسئوليتها وينضوون تحت لواءها، وهم اليوم كثر رغم تفرقهم في أقطار شتى. فميزة هذه الحضارة أنها استوعبت كل حضارات ومميزات الأمم التي دخلتها وأذابتها فيها بشكل رائع لم يفقدها رونقها وبريقها بل زادها روعة وتميزاً، لذلك لا يمكن أن تنتهي فقدرها أن تستمر لينضوي تحت لواءها كل بيت وبر ومدر من كل لون ولغة وجنس لأنها حضارة خلق وسمو.

لكن بعض المتعصبين من أهل الغرب ظلموها فقالوا، وقد يقول معهم قائلون آخرون، أليست هذه عولمة من نوع قديم ؟!. الجواب كلا بالتأكيد، لأن مفهوم العولمة هذا غرضه أمركة تحول العالم إلى مستهلك للبضاعة الأمريكية بفكرها وإعلامها وصناعتها وملابسها وأسلوب كلامها كي تستفيد الرساميل الكبرى هناك على حساب الثكالى واليتامى والأرامل والمعوقين والجوعى من أكثر من ٥٠ ٪ من سكان الأرض.. بينما الإسلام أراد للناس كلهم دون تمييز في عرق أو لون أو لغة أو جنس أو عمر كل الخير والعدل والراحة والأمان والعافية في الدنيا والآخرة، كل ذلك لأمر الله الذي أراد به خيراً لخير من خلق "الإنسان"[(١)].

---

(١) عن كتابنا (القوانين القرآنية للحضارات)، ص ٣٣-٤٣، بتصرف.

وأما السبيل إلى الحضارة الإسلامية فهو:

١- أن نعود إلى فهم إسلامنا وقرآننا بشكل صحيح، فلا عزة لنا إلا به يقول عمر ﷺ: «أيها العرب لقد أعزكم الله بالإسلام فمهما تطلبوا العزة في غيره يذلكم الله».. ولنا في تجربتنا منذ أن خلعنا الإسلام عنا وما صاحب ذلك من هوان لنا التجربة والعظة حتى ليقول أحدهم: «العرب صراصير متى شئنا دسناهم بأقدامنا».

٢- أن نستقل بشخصيتنا الإسلامية فلا تقليد ولا تبعية في المظهر والمخبر والاقتصاد والسياسة والاجتماع والعادات والتقاليد، وقد قالﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، [آل عمران:١١٨].

٣- أن نقوم على خدمة ديننا وكتاب ربنا وسنة رسولنا صلى الله عليه وسلم بكل صنوف الخدمة وأنواعها التعليمية منها أو الفكرية والمالية والنفسية والاجتماعية والعسكرية وغيرها، وكذلك بقية حدود الله المنسية والبعيدة عن واقعنا حتى يعلم أعداء الله إنا امتداد لذلك السلف الذين أذلوا الكفر وأهله ولم يتجرأ يهودي أو صليبي أن يرفع رأسه متجبراً علينا إلا في عصرنا الأسود الذليل هذا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[١]. كما وأن الأمر لله من قبل ومن بعد، فكما أن الله تعالى قد هيأ الظروف عند بداية الدعوة الشريفة في كل أمم الأرض لنشرها بالكلمة والسيف، فإن الظروف في بقية العصور خصوصاً في عصرنا الراهن وإن قصرت في أن تكون مهيأة لنشر الدعوة بالسيف فإن الله تعالى قد أبدلنا بظروف علمية وتقنية تكون الدعوة فيها مهيأة للنشر حسب مقتضيات عصرنا الرقمي هذا، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس عن هذه الحقيقة لغافلون[٢].

لقد مرت بنا نكسات كثيرة وصعاب عديدة بسبب ابتعاد بعضنا عن الدين

---

(١) عن كتاب المنهاج مع بعض التحوير والإضافة، الشيخ هاشم محمد / الجزء الثاني/ ص١١٢ ، بتصرف.

(٢) لمزيد من التفاصيل في هذا الموضوع يراجع كتابنا (القوانين القرآنية للحضارات).

وانغماسهم في ملذات الدنيا أو الهوى والآراء وضعية، ولعل أبرز هذه الحالات كانت في الأندلس وصقلية وشرق أوربا وشرق وأواسط آسيا ثم تركيا ففلسطين فأفغانستان، وأخيراً قيامهم بغزو العراق.. وكأن هذه المحطات كانت تحدث دائماً لنفس الأسباب ليرينا الله بها أن لا مفر لنا الا الرجوع إليه لننتصر، فهل نحن فاعلون؟

وأن ما حدث ويحدث في فلسطين من انتفاضة مباركة، وما حدث في الولايات المتحدة من أحداث ١١/ أيلول ٢٠٠١م، وما تلاها من تكالبهم على الإسلام والمسلمين في كل مكان ومنهم شعب أفغانستان المسلم الشقيق، وغزوهم العراق، وإعلانهم أنها حرب صليبية جديدة، كل ذلك يؤشر بداية النهاية لدولتهم المتغطرسة، وزوال ملكهم البائس، لأن الله تعالى سيجعل من ذلك بإذنه فتحاً ونصراً وعزاً للأمة قريب إذا ما أعدنا النظر في أسلوب تعاملنا مع ديننا ودستور حياتنا.

ليس هذا الكلام من باب الأماني والأحلام، وإنما وقائع وثوابت وحقائق تأريخية تؤكدها سنة الله في الأرض وقانون التاريخ الذي رسم قيام وزوال الدول والامبراطوريات عبر الحقب الزمنية المتعاقبة من تاريخ البشرية. هذه الحقائق ذكرها أيضاً كبار منظري السياسة الأمريكية من أمثال صامويل هنتغتون وغيره، وكذلك كبار الاقتصاديين الأمريكان الذين أشروا العجز الاقتصادي الأمريكي والمصير الأسود الذي ينتظره، فضلاً عن التنبؤات الفلكية والجيولوجية التي تم تأشيرها من قبل العلماء المختصين من أن هناك كوارث مدمرة ستقع بالولايات المتحدة الأمريكية في العشرين سنة القادمة ستحيلها إلى خراب ودمار هائلين، ولله جنود السماوات والأرض[1].

كما وأن رسم الدالة الرياضية للتاريخ الإسلامي وما بها من صعود ونزول يحدثنا عن

---

(١) للمزيد من هذه التفاصيل المهمة راجع كتابنا (القوانين القرآنية للحضارات)، وكتابنا (آخر الزمان)، وهو الكتاب الأخير من مسلسلنا (ومضات إعجازية المكونة من ١٥ جزء)... وكذلك ما جاء من حقائق مهمة وخطيرة في كتاب الأستاذ الفاضل سفر الحوالي (يوم الغضب هل بدأ بانتفاضة رجب ؟قراءة تفسيرية لنبوءات التوراة عن نهاية دولة إسرائيل)، والحاوي أيضاً على تنبؤات توراتية عن نهاية أمريكا، هذا الكتاب الذي ترجم وأرسل عبر الإنترنت فأرعب كبار حاخامات ودهاقنة اليهود والصهاينة في إسرائيل وأمريكا وروسيا.

حقيقة مهمة مفادها أن الإسلام كلما تعرض لنكسة تعصف به في مرحلة ما، أدى ذلك إلى زيادة صلابته وقوته فيعود إلى مسرح الأحداث أكثر قوة ومنعة في المرحلة اللاحقة، وهذا لعمري ما يحدث اليوم بالضبط، فهذه العاصفة ستنتهي بانتصار الإسلام في نهاية المطاف كما انتصر عقب هجمات الروم والمغول والتتار والحملات الصليبية والغزوات الاستعمارية وغيرها، لأن ذلك هو وعد الله الذي لا يخلف(١).

المبحث الثالث

الفكر الإسلامي

يقول المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ الدكتور محسن عبد الحميد في تحليله لبعض جوانب هذا الموضوع(٢):

«وضع الإسلام خطاً واضحاً بين عالم الغيب وعالم الشهادة، ففي عالم الغيب قدم للإنسان المسلم الكليات الأساسية ودعاه إلى اليقين الكامل بها من خلال براهينها القاطعة، وحذره من التمادي في الانجراف العقلي وراء تفصيلاتها التي لا يبنى عليها عمل، ولا ترتبط بها حركته الحضارية في الأرض.

كان الصحابة الكرام وتابعوهم منسجمين عقائديا موحدين فكريا لأنهم آمنوا بالله ﷻ وأسمائه الحسنى آمنوا برسوله وآمنوا بالحياة الأخرى، جنتها وجحيمها، دون أن يكلفوا أنفسهم وراء الهواجس والظنون والخيالات. فصبوا بعد ذلك طاقاتهم المعنوية والمادية كلها لإعادة صياغة الإنسان وبناء مجتمعه الواقعي الربّاني وإنشاء الحضارة الإسلامية وإلحاق الهزيمة بالطواغيت والظالمين ورفع منار الحق والقوة والحرية في العالم. كانوا يتعاملون مع دنياهم من خلال منهجية الإسلام في الفهم والتخطيط والتوجيه ولذلك فتح الله على أيديهم البلاد وقلوب العباد ونقلوهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، كما قال المسلم

---

(١) كل هذه المسائل والتفاصيل وغيرها ستجدها أخي القارئ الكريم في كتابنا (القوانين القرآنية للحضارات).

(٢) (أزمة المثقفين تجاه الإسلام في العصر الحديث)، الدكتور محسن عبد الحميد، ص٩-١٦.

الصادق ربعي بن عامر ﷺ أمام طاغية الفرس قبيل معركة القادسية الفاصلة.. لقد تفرغ الجيل الأول الصافي العقيدة المنسجم الفكر إلى نشر الإسلام ومواكبة تغيير الحياة وتربية الإنسان وتخطيط المدن وشق الأنهار وزرع الأشجار وبناء المعامل وتوسيع العمران فكان واقعياً يتفاعل مع الأرض ويتسابق مع الزمن.. غير أن الرياح الهوجاء قد عصفت بهدوء البحر الإسلامي الهادىء، فجرت بما لا تشتهيه السفن الإسلامية عندما واجهت المجتمع الإسلامي بعد فتوحات الإسلام الكبرى حضارة وثنية وأديانا محرفة وفلسفات جاحدة، لها أسلحتها ودفاعاتها في الفكر ومنطقها في النقاش، فشنت هجوماً فكرياً مركزاً شاملاً على أصول العقائد الإسلامية ووضعت أمام المسلمين أسئلة ضخمة في عالم الشريعة تبغي زعزعة العقائد والتشكيك في أحكام الشريعة والوقوف أمام نور الإسلام وجهاد المسلمين لإنشاء الحياة الكريمة في الأرض.

كان خوف أمراء المسلمين وعلماؤهم و مفكروهم عظيماً، كادوا أن يفقدوا توازنهم - بل فقدوه بعد حين - غيرةً على الإسلام وتفكيراً في مصير عقائد المسلمين.. تساءل هؤلاء: ماذا نفعل وكيف ندافع؟ وما الخطط التي تجعلنا نرد كيد الأعداء فجاءهم الجواب من عقلائهم، لا بد أن ندرس ما يدرس الأعداء كي نتسلح بحججهم ومنطقهم ونطلع على تفاصيل شغبهم. فاستقر رأي الخلفاء وجمع من العلماء على ترجمة كتبهم وتفاصيل مقالاتهم وفلسفاتهم فأنشأوا دور الترجمة وشجعوا المترجمين.. لقد كانت الحاجة ماسة يومئذ إلى عقلية واعية ومنطق جديد يفهم القرآن الكريم والسنة النبوية يغوص في معانيها ويستخلص منها النظر العقلي لمواجهة الخطر الداهم وإنقاذ المسلمين من البلبلة الفكرية والشكوك المطروحة والشبهات الكثيرة، ولا سيما أنها بدأت تجد أعواناً وعقولاً ومسارب في حياة المسلمين.. وعلى الرغم من أن المواجهة قد أدت دورها وحطمت آراء وفلسفات تلك الأديان والنحل والفلسفات، واستطاعت أن تنقذ العقائد الإسلامية من الانحرافات، إلا أنها لم تستطع أن تتفادى ردود الفعل القوية في حومة الصراع الفكري العنيف، فوقعت اخطاء منهجية وموضوعية وأسلوبية تحولت إلى ترف فكري وسراء ذاتي، تداخلت العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية على تأجيج ناره، بحيث غدا عامل اضطراب فكري وتمزق اجتماعي، زعزع أمن المجتمع الإسلامي وشتت أبناءه حيث فقدوا صفاء العقيدة وانسجام الفكر والرؤية الإسلامية الواضحة في

الوجود كله، وكان من أسباب سقوط الحضارة الإسلامية وكيانها السياسي أمام الأعداء والحضارات المهاجمة. ولم يستطع علم الكلام في القرون الأخيرة أن يؤدي دوره الحاسم في الصراع الفكري مع الفلسفات المادية في الغرب من جهة. وأما من جهة أخرى فقد حول التوحيد القرآني الفطري إلى عمليات وقضايا منطقية مركبة وأحاجي عقلية غاية في التعقيد قطع صلته بأوضاع التغيير الحضاري وإمداد الإنسان المسلم بقاعدة فكرية واقعية يعيشها ويروي من خلالها آماله وأحلامه ويدرك في ضوئها حياته المتطورة ويحفظ عليه توازنه وسط تيارات انسانية مادية واقعية تهتم بكفاح الإنسان ومشاكله المتولدة من ملامح العصر الصناعي الجديد الذي يعتمد الواقعية والتنظيم وحسابات الأرقام وتسخير قوانين المادة.

لم يدرك علماء الإسلام في القرون الأخيرة طبيعة الظروف التي ظهر فيها علم الكلام القديم وظلوا ينظرون إلى موضوعاته ومصطلحاته نظرة تقديسية، وكأنها هي الممثلة الوحيدة للعقيدة الإسلامية في صورتها المثلى الثابتة، فلم يدخلوا عليه التغيير شكلاً ومضموناً، حتى يرفد الحياة الحديثة بقاعدة فكرية رصينة تشترك في استنباط المذهبية الإسلامية من واقع القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.. لا شك أن هذا الموضوع لم يستمر بكليته ابتداء من القرن الرابع عشر الهجري، غير أن بدء الشعور بالتغير ومواكبة الحياة جاء متأخراً بعد أن أوقف الجمود الزمن مئات من السنين.

لم تكن الغاية من نزول القرآن الكريم الاشتغال بفك ألفاظه وإعراب كلماته والحديث عن بلاغة تشبيهاته واستعاراته ومجازه ومحاولة العثور على دقائق مصطلحات الكلام الفلسفية بين ثنايا آياته والذهاب بعيداً وراء الفجوات التي تركها في أخبار السابقين وقصص الأنبياء والمرسلين. بل نزل الكتاب الكريم هداية للعقل الإنساني ووضعه في الطريق الحقيق به الذي يوصله إلى خالق الكون ومبدع الوجود، ويستشعر من خلاله عظمة الخلق وموقعه من العبودية له سبحانه. نزل القرآن الكريم مهذباً للنفس الإنسانية ومربياً لها وموازناً بين متطلباتها الروحية والحيوانية مانعاً لها من الزيغ والانحراف واتباع الهوى وعبادته.. نزل القرآن الكريم من حيث هو كل لا يتجزأ على طريق فطرته السليمة، يقدم لها مذهبية شاملة متكاملة الوجود، تستجيب لها كي تستطيع أن تتحرك في الإطار السليم من أجل الاستجابة لأداء الأمانة الحقة في الاستخلاف

الإلهي. نزل القرآن الكريم لكي يضع أمام الإنسان الأصول والقواعد الاجتماعية والسلوكية لضبط حركته الحضارية في الأرض مستشيراً عقله إلى مجال النظر والاستدلال والاستقراء من أجل تنظيم الحياة وبناء العمران. نزل القرآن لكل هذا ولغير هذا من التفصيلات والتفريعات، ولكن ظروف الحياة البشرية لم تدع الأمور تسري في مجالها الواضح.

فدخول الأمم غير العربية إلى الإسلام ومؤامرات الباطنية لإلغاء مدلولات ألفاظه ومطاعن الشعوبية في تراكيبه واحتياج الفقهاء إلى تحليل عباراته واستنباط أحكامه وحرص الفلاسفة والمتكلمين على تياراتهم للاستدلال في مسائلهم بآياته وتأويلها قد فرض في ميدان التفسير الاهتمام الواسع بتفسيره في إطار تلك المحاولات.. وهكذا بمرور الزمن تراكمت علوم كثيرة حول آياته وظهرت الشروح والحواشي حتى تحولت كتب التفسير إلى ميادين للعلوم العقلية والنقلية. بحيث يمكن أن نستخرج عشرات المجلدات في علوم شتى من تلك التفاسير الضخمة.

وزاد بعض المتأخرون على كل ذلك تعقيداً شديداً في الألفاظ وضغطاً متعمداً في العبارات، بحيث تحولت التفاسير إلى حجب كثيرة حالت دون إدراك المسلمين لمقاصد القرآن الكريم فابتعدوا عن مواطن هدايته، فقل في ذلك تاثيره في عقولهم وقلوبهم ونفوسهم ومجتمعهم.. ولقد واكب ذلك عامل آخر على حجب الهداية القرآنية عن النفوس هو أن المسلمين بالغوا في التفسير التجزيئي للآيات ولم ينتبهوا إلى التفسير الموضوعي، فحرموا أنفسهم من الحقائق الموضوعية القرآنية الموحدة في مسائل الكون والمجتمع والحياة والإنسان، فلم يقدروا على استنباط نظريات متكاملة فيها من خلال تطور عصورهم فلما واجهوا الوحدات الموضوعية في عالم الثقافة الغربية انهاروا أمامها وتزعزعوا فلم يكونوا واقفين على أرضية صلبة ولم يستطيعوا الانطلاق الواضح بهداية القرآن الكريم لمواجهة التيارات الحديثة والمبادئ الدخيلة. وكان من الطبيعي أن ينتهي أمر المثقفين الجدد إلى تصديق تلك الوحدات من الأفكار الغربية في غيبة المعرفة الصحيحة للإسلام الحق ومذهبيته المتوازنة في الوجود كله.

وهنالك أمر آخر نتج عن التفسير التجزيئي، وهو عدم اهتمام المسلمين في القرون

الأخيرة بمعالجة ظاهرة (السببية في التأريخ) إذ عدّوا التأريخ الماضي حتماً وجبراً، فلم يتعمقوا من خلال القرآن الكريم ووحدته الموضوعية في هذا المجال وراء الأسباب والحوادث حتى يدركوا السنن الإلهية في الوجود فسقطوا لعدم معرفتهم بعوامل النهوض وقانون الاستجابة والتحدي في قيام الحضارات، الأمر الذي دفع المثقفين الجدد إلى الاعتقاد بأن اللجوء إلى الثقافة الأوربية الحديثة غدا أمراً حتمياً لإنقاذنا مما وقعنا فيه من الجبرية وسكون العقل وتعطيل القوى والطاقات والجهل بحركة التأريخ.. ولو كانت حركة القرآن الكريم حاضرة في عقول المسلمين، وسننه الكونية واضحة أمام أبصارهم لاستطاعوا منذ زمن بعيد أن يدركوا الخلل ويتعمقوا في الأسباب الكامنة وراء حركة التأريخ كما أخبرهم بها القرآن الكريم، ولما انهزموا أمام الحضارة الغربية كل هذه الهزيمة، ولما تركوا دينهم وقرآنهم وكأنهم لا صلة لهم بالإسلام.

ترك الإسلام المساحة العظمى في عالم الشهادة والواقع لحركة العقل الإنساني تواجه متغيراته من منطلق الكليات والأصول العامة في الشريعة الإسلامية، النقلية منها والعقلية.. لقد تكونت من تلك المواجهة المتلاحقة المضبوطة حركة الفقه الإسلامي بمذاهبه ونظرياته وقواعده العامة، فشكلت ثورة فقهية هائلة أخصبها الواقع المتنوع المتغير المستمر فغدا الفقه الإسلامي ومبادئه العامة وتطبيقاته يشكل ضوابط حركة المجتمع، كما يعبر عن واقعيته أحسن تعبير في مجالات الحياة كلها.. ومرت الحركة الفقهية بأدوار متلاحقة من عصر النمو إلى عصر التأسيس والازدهار إلى عصر التنسيق والاستدلال إلى عصر التجميع والاحتفاظ إلى عصر الخمود والجمود تعبيراً عن فترة التوقف الحضاري والانحطاط السياسي والاجتماعي، فحدث فراغ كبير، وتوقف الإبداع العقلي التشريعي، لغلبة عوامل السكون والموت وتسلط الاستبداد والجهل وانتهاء عصر التفكير والاجتهاد(*). وزاد الأمر صعوبة وفساداً أن كتب الشريعة

(*) هناك من قسم عصور الفقه الإسلامي الخالد بترتيب رائع وهي عصر الوحي والتلقي، عصر الرؤية والتقنين، عصر التقيد، وعصر الاستعاضة والجمود، كما جاء في كتاب الحرية الجامعية للدكتور عبد الله مصطفى.

الإسلامية وموضوعاتها الضخمة باختلافها واستدلالاتها ونصاعة أسلوبها وسهولة تناولها للقضايا قد ضغطت ولخصت في أساليب ركيكة جامدة تعبر تمام التعبير عن جمود العصور التي ظهرت فيها.. وبعد أن كان الفقيه يقدم موضوعاته الموحدة ونظرياته المتكاملة وتطبيقاتها المستقرأة التي تربط بين أصول واحدة، تحول إلى دراسة تجزيئية كانت تفتقر إلى الوحدة والشمولية ومعرفة القواعد والاصول العامة المرتبطة بها.. وبعد أن كان الفقه والأصول والقواعد علماً واحداً متشابكاً، يثير العقل ويدفعه إلى الإبداع ومتابعة قضايا الحياة تحول إلى أجزاء مبعثرة تدرس وتحفظ بمعزل كل جزء عن الآخر دون حركة حياة وواقع.. وانتهى الأمر بالفقه في القرون الأخيرة إلى قطيعة مع الحياة، لا سيما بعد احتكاكنا بالمجتمعات الحضارية الغربية الحديثة.

فحدث عند ذلك فراغ كبير فيه انهارت ثقافتنا التشريعية أمام القوانين الغربية الحديثة التي كانت قد اتجهت إلى الحركة الاجتماعية الواقعية والنظرة التي استنبطت النظريات المتنوعة والممارسة الحيوية المستمرة في الحياة الإنسانية كلها. وبما أن مجتمعاتنا بدأت تخرج من عصور السكون إلى عصر الحركة، وبما أنها نتيجة لعوامل الاحتكاك والتوجيه بدأت تتاثر بالواقع الغربي، ولما لم تكن عندنا حلول تشريعية واضحة ومواجهة إسلامية جادة، استسهلت الأجيال الحديثة الأخذ المباشر والنقل المحدد من التشريعات الغربية ففقدت مجتمعاتنا -أو جلّها- الأصالة والتخطيط والواقعية، وظن الظانون أن كل ذلك حدث لافتقارنا إلى الحياة التشريعية، ولم يعلموا أن أمتنا تمتالك أضخم ثروة تشريعية تبلورت عبر أكثر من ثلاثة عشر قرناً وأنها قد عبرت منذ أيام نابليون إلى التشريعات الأوربية فأثـّرت في اتجاهاتها وأثرْت ثراءً عظيماً في الوقت الذي كانت تلك الثروة العظيمة عندنا تغط تحت أغطية القرون السميكة وتقدم في المساجد ومجالس العلم المحدود، أشلاءً مبعثرة، جامدة معدومة الصلة بالمتغيرات الجديدة.

المبحث الرابع

أثر حضارة الإسلام على الحضارة البشرية

أثّر الإسلام على الإنسانية تأثيراً يشهد له القريب والبعيد، وكان هذا التأثير شاملاً

بكـل مـا يسمو بالإنسان من عدل وعلم وعمل وخُلق وعبادة وحكم وسياسة واقتصاد وكـل شـؤون الحياة، إضافة إلى أنه جعل الإنسان يعمل كل هذا وعينه ترنوا إلى رضا ربه كـي يفـوز بالـدار الباقـية، دار الخلـود، ويجعـل الدنيا سلماً للوصول إلى هذا المنال. فبنى حـضارة عظـيمة امتدت جغرافياً لتشمل جلّ العالم القديم، وغطت بشمس عدالتها كل الأرجـاء، فكانت بحق الحضارة المثالية التي أشاد بها علماء التاريخ غربيّوهم وشرقيوّهم بمخـتلف اتجاهـاتهم -عدا النفر الذي له أغراض معروفة- كما أوردنا وسنورد في كتابنا هذا.

منذ بدء الرسالة الكريمة وبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يعاني من قساوة وظلم المشركين في مكة ومن بعدها محنة بناء المجتمع المسلم في المدينة، فإنه ﷺ كان يفكر في عالمية الدعـوة لأنـه بعث للناس كافة. من هذا المنطلق ووفق الأمر الإلهي بعالمية الدعوة أرسل رسـول الله ﷺ الرسـائل لكبار الملوك والرؤساء في العالم القديم.. وقد بين توماس أرنولد وغـيره مـن المنـصفين مـن المؤرخـين والمستـشرقين من أن الرسول الكريم ﷺ بعث هذه الرسـائل في وقـت عـصيب كـان يمـر به في داخل الجزيرة العربية لإيمانه بحتمية انتصار الدعـوة وانتـشارها في كـل أرجـاء الأرض لأنهـا تخاطـب فطـرة البشر بغض النظر عن ثقافـاتهم وانـتماءاتهم، ويـؤيد ذلك قوله ﷺ متنبئاً أن بلالاً (أول ثمار الحبشة)، وأن صهيباً (أول ثـمار الـروم)، وكذلك ما كان من أمر سلمان الفارسي[١]، رضي الله عنهم وعن بقية الصحابة والقرابة ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وهكـذا أراد الله تعالى لهذا الدين أن يكون للناس كافة ينقلهم من الظلمات إلى النور، فالعـالم إذ ذاك كـان يغـط في ظلـمات ومظـالم عمـيقة كثـيفة في كـل المجـالات، الخلقية، الاقتـصادية، الاجتماعـية، العلمـية وغيرها، وهناك كثير من المصادر التي فصّلت في هذا الموضـوع [٢].. لذلك كان الإسلام فعلاً نقطة التحول في مسار البشرية، فهو بحق الثورة

---

(١) راجع كتاب (تاريخ الإسلام)، للدكتور حسن ابراهيم حسن، ج١/ ص ١٣٦-١٤١.

(٢) للوقـوف عـلى تفاصيل أكثـر حـول الظلـمات التـي كان مخيماً على كل الدول والأمم قبل الإسلام بإمكـان القـارئ الكـريم الـرجوع إلى مـصادر عديـدة مـنها (السيرة النبوية) لأبو الحسن الندوي،

=

العلمـية الأولى في تاريخ البشرية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وهذا ما أقره المنصفون من علماء الغرب.

وهـنا نستشهد بكـل فخـر واعتـزاز بتجـربتين رائدتين في إفهام الغرب حقيقة دور العـرب والمسلمين في الحضارة العالمية. الأولى ما قام به الدكتور الطبيب المسلم العراقي العـاني المقـيم في بـريطانيا والأخـوة الآخـرون القائمـون على مشروع الإرث الحضاري الإسـلامي (Muslim heritage) التـي تبـناه موقع إسلام أون لاين باللغة الإنجليزية، والـذي يبـين للعـالم إسـهامات العلماء المسلمين الرائعة في كل مجالات العلوم والمعارف بـشكل عـصري مـتطور، ذلك الدور الذي شهد لها المنصفون من أهل الغرب.. فوضح هـذا الفـريق جـزاهم الله خـيراً كـيف أن الريادة في العلوم الهندسية والطبية والاجتماعية والـزراعية والـصناعية كانـت لعلمائـنا رحمة الله عليهم أجمعين، ومنهم نقلت تلك الثورة المعلوماتـية لأوربـا والتي كانت بدورها السبب الرئيس في حصول الثورة الصناعية التي أسست لعصر العلم والتقنيات الحالية[1].

التجـربة الثانـية هـي الجهد الخلاق والرائع للأستاذ الدكتور المسلم السوري الحلبي بهجـت قبيسي الذي يبين في بحوثه الرائعة التي تعتمد على البحث الآثاري الموقعي وفقه اللغـات وتتـبع الأصـول والأنـساب وكتب الأقدمين حقيقة كون أن العرب الكنعانيين انتـشروا قـبل الإسلام ومنذ حقب زمنية سحيقة في كل من العراق– ومنهم الآشوريون والآكاديـون والكلدانـيون–، والـشام، وشـمال أفريقيا – ومنهم الأمازيغ والبربر–، بل

=

و(الـسيرة النـبوية) - لابن هشام، و(أخبار مكة) للإمام الأزرقي، و(بلوغ الإرب في معرفة أحوال العـرب) للآلـوسي، و(تـاريخ مكـة) للـسباعي، وكتاب (مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول) للأستاذ أحمد إبراهيم الشريف، وغيرها .

(١) موقـع (Muslim heritage) هـذا يوفـر لـك معلومات مهمة حول الموضوع.. وانظر أيضاً كتابنا (المـنظار الهـندسي للقـرآن الكـريم)، الـباب الـثاني/ الفصل الأول والثاني، للتعرف على إسهامات العلـماء المسلمين في الرياضيات والهندسة.. كذلك ارجع إلى موسوعة تاريخ العلوم العربية بأجزائه الثلاثة لتعلم قدر إسهامات أجدادك العظام في رفد الحضارة البشرية..

وحتى شبه جزيرة أيبيريا (أي إسبانيا والبرتغال)، والأباطرة في روما. وعندما جاء الإسلام وصعد العرب العدنانيون لنشره التقوا مع أقوام لم يختلفوا عنهم كثيراً فكانت تلك الوحدة الرائعة .. ويستدل الرجل بألواح آثارية تبين لغة هذه الأقوام، وكيف أن الخط لا يشبه خطنا العربي الحاضر ولكن اللهجة واللفظ هو عربي صرف، فجزاه الله خير الجزاء إذ يبين للعالم هو وكل من يعمل بحقله حقيقة حضارة وامتداد هذه الأمة.. وكي يفهم الغرب مدى الخديعة التي أوقعتهم بها الصهيونية العالمية والدوائر المتجحفلة معها في موضوع السامية ومظالم اليهود المزعومة وما إلى ذلك من تخاريف أملاها عليهم حقدهم على أهل الحق.

تنقل الأستاذة الفاضلة زيغريد هونكه في كتابها القيم (شمس العرب تشرق على الغرب)، شهادات حقة في عدة مجالات تعطي الدليل القاطع على أثر العلماء المسلمين والحضارة الإسلامية على العالم عموماً والحضارة الغربية خصوصاً، وبإمكان القارئ الكريم أن يعود لكتابها القيم هذا ليرى شهادة امرأة عالمة صادقة أبت إلا أن تنقل الصورة الحقيقية التي يريد الكثيرون أن يمنعون الناس من رؤيتها.. لكننا سننقل بعض المقتطفات البسيطة من هنا أو هناك لبعض ما نقلته اختصاراً.

تنقل في الفصل الأول بعض الكلمات العربية التي أصبحت مفردات في لغات الغرب المختلفة، وكيف أنها نقلت عن العرب ولغتهم التي كانت في عهد الدولة الإسلامية لغة الثقافة والعلوم الأولى التي لا تنازع، فكان المثقف الغربي إذا ما جمّل كلامه ببعض تلك المفردات فإنه يعتبر من أهل القول السديد والثقافة العالية.. وتقول بنص منقول عنها: (أجل إن في لغتنا كلمات عربية عديدة، وإننا لندين والتاريخ شاهد على ذلك في كثير من أسباب الحياة الحاضرة للعرب.. وكم أخذنا عنهم من حاجات وأشياء زينت حياتنا بزخرفة محببة إلى النفوس، وألقت أضواء باهرة جميلة على عالمنا الرتيب، الذي كان يوماً من الأيام قاتماً كالحاً باهتاً، وزركشته بالتوابل الطيبة النكهة، وطيبته بالعبير العابق، وأحياناً باللون الساحر، وزادته صحة وجمالاً وأناقة وروعة)[1]... إليك أخي الكريم

(١) كتاب (شمس العرب تشرق على الغرب)،المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه، ص ٢٠.

بعض تلك الكلمات[١]:

المفردة باللغة الإنجليزية	الأصل باللغة العربية	المفردة باللغة الإنجليزية	الأصل باللغة العربية
Coffee	المقهى	Aprikosen	البرقوق
Sofa	الصفة	Banana	بنان الموز
Matraz	المرتبة	Orange	نارنج
Karmin	القرمزية	Artischoken	الأرضي شوكة
Konditor	القندي، (صانع الحلوى)	Rise	الرز
Tasse	طاسة	Spinetch	سبانج
Sugar	السكر	Diwan	الديوان
Karaffe	غرّافة	safran	الزعفران
limonade	ليموناضة	Atlas	أطلس
Cotton	القطن	Tafta	تفتة
Alkohol	الكحول	Arrak	عرق التمر

وتـنقل الأستاذة الفاضلة في الفصل الرابع شهادة مهمة وغريبة يعجب لها الكثيرون ممـن لا يعـرفون قـدر أمـتهم ودورهـا. تنقل هذه الباحثة كيف أن البشرية بأسرها تدين للمـسلمين بهندسـة الـصواريخ والـبارود!!.. نعم أيها الأخوة، فهاتان التقنيتان أول من بدأها هم أجدادنا العظام.. فبعد أن تسرد قصة معركة بين – كنغ عام ١٢٣٢م بين المغول والصينيين، وكيف استعمل الصينيون فجأة الأسهم النارية الطائرة المندفعة بقوة البارود، ثـم في عـام ١٢٧٠م اسـتعمل المغـول أنفسهم البارود في معركة حول مدينة فان-تشينغ المحـاصرة، وبواسـطة هـذا الـسلاح تمكـن قبلاي خان من التغلب على آخر مقاومة من الـصين القديمـة.. ولكـن بمساعدة من يا ترى؟!، تقول الباحثة، يجيب عن ذلك المؤرخ

(١) هـناك المـزيد مـن هذه الكلمات التي أوردتها المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه في كتابها (شمس العرب تشرق على الغرب)، راجع الفصل الأول.

رشيد الدين من قصر السلطان العربي : (إن قبلاي خان كان قد تقدم إلى البلاط العربي بطلب يرجو فيه إيفاد مهندس كان قد قدم من بعلبك ودمشق، وقد بنى ابناء هذا المهندس الثلاثة، أبو بكر وإبراهيم ومحمد، مع الجماعة سبع آلات ضخمة وأتوا بها إلى المدينة المحاصرة).. وبينت الباحثة مخطط لرعادة (طوربيد) مزودة بمادة متفجرة وبصاروخ دافع مع رعادة أخرى متفجرة مزودة بثلاث أشرطة نارية، وهذا المخطط كان قد رسم من قبل علماء المسلمين حوالي عام ١٢٧٥م.. ثم تبين الباحثة الدلائل الدامغة في أن الكيميائيين المسلمين هم أول من وضع نظرية تركيب البارود، ومنهم كتاب (حسن الرماح) الذي وضح فيه تقنيات المواد المتفجرة والأسلحة النارية والرعادات (الطوربيدات) والقذائف النارية القاصفة كالرعد وأولى النماذج للمحركات الصاروخية.. ومن العلماء المسلمين والعرب انتقلت هذه التقنيات إلى أوروبا وشرق آسيا، فانتقلت أخبارها إلى أسماع روجر باكون والبرتس ماغنوس والنبيل الألماني فون بولشتاد الذي أمد المدعي باختراع البارود برتولد شفارس الفرنسيسكاني في مدينة فرايبورغ بمعلوماته الفذة (١).

يروي الدكتور عادل البكري في بحثه ((خزائن الكتب في عصر الحضارة العباسية ومصيرها عبر العصور المختلفة))، أن عدد المؤلفات والمخطوطات العربية والإسلامية التي تحويها مكتبة هذه الأمة العظيمة يربو على ثلاثة ملايين مخطوطة عربية وهو عدد لم تصل إليه أية حضارة أخرى، وقد يكون مثل هذا العدد قد تلف وضاع بسبب تدمير بغداد ودمشق والنكبة في الأندلس ونهاية الدولة العثمانية، وهذا دليل واضح على عظم تأثير هذه الأمة القرآنية على سائر أمم الأرض، وأشار الباحث إلى أن عدداً كبيراً من هذه المخطوطات قد سرق وتحول إلى الدول الغربية.. فهناك في جامعة بريستون بالولايات المتحدة الأمريكية لوحدها عشرة آلاف مخطوطة، وثلاثون ألف مخطوطة في نيويورك ومكتبة جامعة بيل في نيوهافن ومكتبة الكونغرس ومكتبة الجيش الطبية في كليفلاند.. ثم هناك مكتبات للمخطوطات العربية القديمة في دول أخرى من أوربا ففي غوتة بألمانيا

---

(١) كتاب (شمس العرب تشرق على الغرب)،المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه، ص ٤٩- ٥١ .

٣٣٠٠ مخطوطة، ومكتبة صوفيا ببلغاريا حوالي ٣٠٠٠ مخطوطة، وأضعاف ذلك في روسيا ودول الشرق الأوربية وفرنسا وإيرلندا، وفي المتحف البريطاني لوحده ما يربو على سبعة آلاف مخطوطة(١).. وإذا أردنا أن نضرب مثلاً واحداً من ضمن أمثلة عديدة فسنختار مثلاً كثر عنه الحديث في عصرنا هذا وهو أدب شكسبير الذي أقام الدنيا ولم يقعدها والذي سقط في فخه الكثير من أدبائنا وفنانينا ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن خلفيات هذا الأدب. فقد أثبت العلامة الدكتور عبد الله مصطفى في كتابه الموسوم (البرد النضير لسونيتات شكسبير) أن هذا الأدب وغيره من الشعر والنثر الإنكليزي الذي ذاع صيته في تلك الفترة لم يكن في حقيقته إلا تقليداً للأدب والشعر الإيطالي والذي بدوره استنبط واستنسخ مقوماته من الأدب الأندلسي الإسلامي(٢).. وإذا أردنا أن نتوسع في الموضوع فسيتطلب الأمر مجلدات تأخذنا بعيداً عن غرض الكتاب الأساسي.

يقول الأستاذ محمد أحمد الراشد في معرض تعليقاته على إبداعات المسلمين العلمية ما نصه: « الإبداع في مجال العلم كذلك، أوله إبداع الشافعي في تدوين أصول الفقه عبر (الرسالة)، وإبداع البخاري في تجريد الحديث الصحيح عن الضعيف، وإبداع السرخسي في جمع شوارد وأقوال أبو حنيفة وأصحابه، وإبداع علماء قواعد الفقه في رؤية الأشباه والنظائر، وإبداع القرافي في الانتباه للفروق، وإبداع ابن تيميه في التجديد والإحاطة والمقارنة، حتى تركها مدرسة مسلسلة مازالت دائبة التفسير حتى يومنا هذا. ومثل ذلك إبداع فؤاد سزكين الآن في مجال تاريخ العلوم الإسلامية والكشف عن إبداع أجيال المسلمين في أبواب الفلك والكيمياء والفيزياء والرياضيات والطب والصيدلة، حتى غدت هذه المخطوطات التي عرف بها وروج لها شمسا ساطعة شاهدة لفضل الحضارة الإسلامية على الإنسانية»(٣).

---

(١) بغداد مدينة السلام، خزائن الكتب في عصر الحضارة العباسية ومصيرها عبر العصور المختلفة، د. عادل البكري، ص٤٣-٤٤، بتصرف.

(٢) ننصح بقراءة هذا الكتاب بالكامل لمن يشك في دقة هذه المعلومة، فالكتاب بحث علمي وتاريخي متكامل يثبت بما لا يقبل الشك هذا التوجه.

(٣) «صناعة الحياة»، محمد أحمد الراشد، ص٧٠-٧١.

لقد جاء كتاب الإسلام بين الشرق والغرب لمؤلفه الرئيس البوسني (علي عزت بيجوفيتش) ليناقش أبرز الأفكار العالمية في تاريخ البشرية المعاصرة، وللإجابة على كثير من الأسئلة التي تهم الجيل الجديد، والهدف من الكتاب هو إنارة الطريق للبشرية التي تتجه إلى مُرَكَّب جديد وموقف وسطي جديد في عصر المعضلات الكبرى والخيارات، وقد أصبحت الأيديولوجيات المتضاربة بأشكالها المتطرفة لا يمكن فرضها على الجنس البشري، ومن هنا فإن الإسلام هو مستقبل الإنسان، لأنه يدعو إلى خلق إنسان متسق مع روحه وبدنه، وكما كان الإسلام في الماضي الوسيط الذي عبرت من خلاله الحضارات القديمة إلى الغرب فإن عليه اليوم مرة أخري أن يتحمل دوره كأمة وسط في عالم منقسم، وذلك هو معنى الطريق الثالث - طريق الإسلام - الذي يحتل موقعًا وسطًا بين الشرق والغرب. وعن طبيعة هذا الكتاب يقول مؤلفه في مقدمته أن هذا الكتاب ليس في اللاهوت ولا مؤلفه من رجال اللاهوت إنه على الأرجح محاولة لترجمة الإسلام إلى اللغة التي يتحدث بها الجيل الجديد ويفهمها؛ إنه كتاب يتناول عقائد الإسلام ومؤسساته وتعاليمه بقصد اكتشاف موقع الإسلام في إطار الفكر العالمي ... ومن خلال الكتاب، ناقش (بيجوفيتش) عددا من الأفكار العالمية التي تهم البشرية من خلال دراسة متعمقة وموسوعية موجزة . فكتاب الإسلام بين الشرق والغرب هو في حقيقته كما قال البعض موسوعة علمية أو عدة كتب كبيرة في مجلد صغير... ونظرا لكثرة الموضوعات التي ناقشها المؤلف فسوف نقتصر على إلقاء الضوء على بعض القضايا العلمية التي تتعلق بقضية أصل الإنسان بين المادية والإسلام وقضية التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ويشتمل الكتاب على قسمين رئيسين: القسم الأول: يحمل عنوان المقدمات ويتناول نظرات حول الدين بصفة عامة من خلال مناقشة موقف كل من الدين والإلحاد من قضية أصل الإنسان والقضايا الأخرى المتعلقة بها، ومنها : الخلق والتطور، الثقافة والحضارة، ظاهرة الفن، الأخلاق، الثقافة والتاريخ، والدراما والطوبيا.

أما القسم الثاني من الكتاب، فإنه مخصص للإسلام، فالإسلام كما يقول المؤلف ليس مجرد دين أو طريقة حياة فقط، وإنما هو بصفة أساسية مبدأ تنظيم الكون، فكما أن الإنسان هو وحدة الروح والجسد، فالإسلام وحدة بين الدين والنظام الاجتماعي، وكما أن الجسم في الصلاة يمكن أن يخضع لحركة الروح، فإن النظام الاجتماعي يمكن أن يخدم بدوره

المثل العليا والأخلاق هذه الوحدة الغريبة عن المسيحية وعن المذهب المادي معا، ميزة في الإسلام، بل هي من أخص خصائص الإسلام .

يبدأ الرئيس البوسني السابق الدكتور (علي عزت بيجوفيتش) رحمه الله تعالى في الفصل الأول من كتابه (الإسلام بيت الشرق والغرب مناقشة قضية أصل الإنسان؟ وماهيةالحياة؟ وهي القضية التي تعد حجر الزاوية لكل أفكار العالم، فأية مناقشة تدور حول كيف ينبغي أن يحيا الإنسان؟، تأخذنا إلى الوراء إلى حيث مسألة أصل الإنسان، وفي ذلك تتناقض الإجابات التي يقدمها كل من الدين والعلم، كما هو الشأن في كثير من القضايا يقول الماديون: إن الإنسان هو الحيوان الكامل، وأن الفرق بين الإنسان والحيوان إنما هو فرق في الدرجة وليس في النوع، فليس هناك جوهر إنساني متميز، بينما يقول (دارون): الإنسان مجرد حيوان نشأ عبر عملية تطور طويلة ويقول (جوليان هكسلي) إن الإنسان مجرد حيوان متفرد. إن علم الحفريات وعلم هيئة الإنسان وعلم النفس، كلها علوم تصف من الإنسان فقط الجانب الآلي الذي لا معنى له. الإنسان مثله كمثل اللوحة الفنية والمسجد والقصيدة، أكثر من مجرد كمية ونوعية المادة التي تكونه، الإنسان أكثر من جميع ما تقوله عنه العلوم الحديثة ويمضي الرئيس (علي عزت بيجوفيتش) إلى محاورة مع علماء البيولوجيا يستنطقهم في مقولة كيف تطور الإنسان؟ ولماذا توقف عن التطور بعد أن أصبح إنسانا بزعمهم؟ ماهية الحياة ويكشف علي عزت بيجوفيتش كيف أن العلماء على جهل بحقيقة ماهية الحياة وبدخائل النفس البشرية إلى حد لا يمكن معه أبدًا الجزم بشئ على أية درجة من المصداقية... في سنة ١٩٥٠م، وضع أندريه جورج سؤالاً واحدًا لعلماء البيولوجيا والأطباء وعلماء الطبيعة هو: ما هي الحياة؟ وكانت جميع الإجابات التي تلقاها حذرة وغير محددة . ولنأخذ في ما يلي إجابة كل من (بيير لايان) و(جان روستاند) كنموذجين: (يظل السر كاملاً، فنقص معلوماتنا تجعل كل تفسير للحياة أقل وضوحا من معرفتنا الغريزية بها)... (حتى الآن لا نعرف على وجه التحديد ماهية الحياة نحن لا نستطيع حتى الآن أن نقدم تعريفا كاملاً دقيقاً لظاهرة الحياة) ويصل (علي عزت) إلى حقيقة مهمة وهي أن آفة من تعرضوا لهذا السؤال هي الوقوف بعيدا عن نقطة الوسط. فمما لا مراء فيه أن في الإنسان جانباً حيوانياً في احتياجاته المادية وفي رغائبه الجسدية، ولكنه من الخطأ تمامًا اعتبار الجزء كلاً، فالإنسان

أكثر من الجانب الجسدي، ثم إن دعاة التصوف يزعمون أن الإنسان على حد المقولات الكنسية ما هو إلا ضمير معنوي روحي، وهذا أيضا يصدق بشكل جزئي ولكن الذي يصدق بشكل كلي هو أن الإنسان توليفة من هذه وتلك ويؤكد (بيجوفيتش) أن الإنسان ليس مفصلا على طراز (داروين) ولا الكون مفصلاً على طراز (نيوتن)، و يقول: الإسلام هو الاسم الذي يطلق على الوحدة بين الروح والمادة، وهو الصيغة الأسمى للإنسان نفسه . الإنسان في منظور الإسلام مخلوق كرمه الله، إنه الإنسان المكون من جسد وروح والمسيطر بمنهج إلهي على الطبيعة التي سخرها الله له، وهو في كل هذا يسجد لله وحده، فهو سيد في علاقته مع الله، ولا تقتصر الرؤية الإسلامية الوسطية في فكر (بيجوفيتش) على ما ذكر من قبل ولكنه يرى أن هناك منظومة فكرية تحرك القدرات العقلية للإنسان إلى ما هو أبعد من العلاقات الطبيعية البسيطة المنظورة لبحث ما وراء الطبيعية والغرض ليس فك هذه الرموز وإنما اكتساب التواضع والوعي بالجهل بمعنى أن تحول الجهل الذي لا ندركه. إلى الذي ندركه.

كما يؤكد (علي عزت بيجوفيتش) على أن وسطية الإسلام يمكن إدراكها من خلال حقيقة أن الإسلام كان دائما موضع الهجوم من الجانبين المتعارضين الدين والعلم، ومصطلح دين يشير به المؤلف إلى معنى محدد وهو المعنى الذي تنسبه أوربا إلى الدين وتفهمه على أنه تجربة فردية خاصة لا تذهب أبعد من العلاقة الشخصية بالله، والدين بهذا المفهوم الأوربي اتهم الإسلام بأنه أكثر لصوقاً بالطبيعة والواقع مما يجب، وأنه متكيف مع الحياة الدنيا، واتهم الإسلام من جانب العلم المادي أنه ينطوي على عناصر دينية وغيبية ويفند المؤلف هذا الهجوم بقوله في الحقيقة يوجد إسلام واحد فحسب، ولكن شأنه كشأن الإنسان له روح وجسم، فجوانبه المتعارضة تتوقف على اختلاف وجهات النظر نحو الإسلام، فالماديون لا يرون في الإسلام إلا أنه دين وغيب أي اتجاه يميني بينما يراه المسيحيون فقط كحركة اجتماعية سياسية، أي اتجاه يساري.. ويوضح الرئيس (علي عزت بيجوفيتش) حقيقة مهمة من حقائق الإسلام بقوله من أجل مستقبل الإنسان ونشاطه العلمي، يعني الإسلام بالدعوة إلى خلق إنسان متسق مع روحه وبدنه، ومجتمع تحافظ قوانينه ومؤسساته الاجتماعية والاقتصادية على هذا الاتساق ولا تنتهكه، إن الإسلام هو البحث الدائم عبر التاريخ عن حالة التوازن الجواني والبراني أو الداخلي

والخارجي هذا هو الإسلام اليوم، وهو واجبه التاريخي المقدر له في المستقبل، إن الإسلام لم يكـن مجـرد أمـة إنما هو على الأرجح دعوة إلى أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر أي تؤدي رسالة أخلاقية.

وفي القسم الثاني من الكتاب يتناول معجزة الإسلام كوحدة ثنائية القطب، ويتناول جوانب من إعجاز كتاب الإسلام في صيغته المكتوبة، وهو القرآن الكريم، ويصف القرآن بأنه حياة ويوضح ذلك قائلا: إن التعليق الوحيد الأصيل عن القرآن هو القول بأنه حياة وكما نعلم كانت هذه الحياة في نموذجها المتفرد هي حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، إن الإسلام في صيغته المكتوبة أعني القرآن قد يبدو بغير نظام في ظاهره، ولكنه في حياة محمد - صلى الله عليه وسلم - قد برهن على أنه وحدة طبيعية من الحب والقوة، المتسامي والواقعي، الروحي والبشري، هذا المركب المتفجر حيوية من الدين والسياسية يبث قوة هائلة في حياة الشعوب التي احتضنت الإسلام، في لحظة واحدة يتطابق الإسلام مع جوهر الحياة .

وحول موقف القرآن من العلم يقول (علي عزت): لا يحتوي القرآن على حقائق علمية جاهزة، ولكنه يتضمن موقفا علميا جوهريا ... اهتماما بالعالم الخارجي، وهو أمر غير مألوف في الأديان، يشير القرآن إلى حقائق كثيرة في الطبيعة، ويدعو الإنسان للاستجابة إليها، فالأمر بالعلم (بالقراءة) لا يبدو هنا متعارضا مع فكرة الألوهية، بل إنه قد بدأ باسم الله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾، [سورة العلق:١]. بمقتضى هذا الأمر لا يلاحظ ويبحث ويفهم (طبيعة خلقت نفسها) ولكن الكون الذي أبدعه الله . وليست الملاحظة بلا هدف أو لا مبالية أو خالية من الشوق، وإنما هي مزيج من العلم وحب الاستطلاع والإعجاب الديني. وكثير من أوصاف الطبيعة في القرآن على درجة عالية من الشاعرية ويستشهد الرئيس (علي عزت) بالعديد من الآيات القرآنية التي تحتوي على (موقف علمي جوهري) كما عبر هو ومنها الآيات التالية:

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ

دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾، [البقرة ١٦٤].

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾، [الأنعام ٩٥-٩٩].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾، [سورة النحل ١٢-١٤].

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾، [الغاشية ١٧-٢٠].

يقول (علي عزت) معلقا على تلك الآيات: في هذه الآيات التي اتجهت بكليتها إلى الطبيعة نجد فيها تقبلا كاملا للعالم ولا أثر فيها لأي نوع من الصراع مع الطبيعة، فالإسلام يبرز ما في المادة من جمال ونبل كما هو الحال بالنسبة للجسم في موقف الصلاة، والممتلكات في الزكاة، إن العالم المادي ليس مملكة للشيطان، وليس الجسم مستودعًا للخطيئة، حتى عالم الآخرة، وهو غاية آمال الإنسان وأعظمها، صوره القرآن مغموسا بألوان هذا العالم، ويرى المسيحيون في هذا حسية تتنافى مع عقيدتهم ولكن الإسلام لا يرى العالم المادي مستغربا في إطاره الروحي ويضيف الرئيس (علي عزت) إن آيات

القرآن توقظ الفضول الفكري وتعطي قوة دافعة للعقل المكتشف. قال الله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ﴾، [الرعد: ٤]. هذه الآية الكريمة تستفز الفكر، فهي تطرح مشكلة تكمن في أعماق علوم الكيمياء والنتيجة أن المسلمين هم الذين وضعوا النهاية للجدل الذي دار حول قضايا جوهرية استحوذت على المسيحية عندما اتجهوا إلى الكيمياء، وكان هذا تحولا من الفلسفة الصوفية إلى العلم العقلاني. وفي جميع الآيات التي سبق اقتباسها من القرآن عنصر مشترك وهو الدعوة إلى الملاحظة، وهي فاعلية بواسطتها بدأت قدرة الإنسان على العالم والطبيعة.

ولقد أثبت الرجل أن أسباب القوة الغربية مستمدة من تراث المسلمين، فهذه القوة لا تكمن في أسلحتها واقتصادها، فهذا هو المظهر الخارجي للأشياء فقط، وإنما يكمن في الملاحظة والمنهج التجريبي، في التفكير الذي ورثته الحضارة الغربية عن(بيكون) الذي استمد هو بدوره المنهج التجريبي من المسلمين .

ويرى (علي عزت بيجوفيتش) أن المواقف العلمية الجوهرية التي تضمنتها آيات القرآن قد أثرت في تقدم العلوم لدى المسلمين في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية ويعبر عن هذا قائلا: هذا الاهتمام الفذ بعلم الفلك وبالعلوم الطبيعية خلال القرون الأولى للإسلام؛ كان نتيجة مباشرة لتأثير القرآن . لقد تحول الدين نحو الطبيعة فبدأت مرحلة عظيمة في تطور العلوم، وكان هذا من أعظم الإنجازات التي تحققت في التاريخ ويضرب مثالا على ذلك فيقول: لقد كان هذا أكثر وضوحا، فيما يتعلق بتطوير علم الفلك، حيث نجد في كتاب (جنسر) تاريخ العلوم الطبيعية حقائق تؤكد فاعلية العالم الإسلامي وإنجازاته في مجال هذا العلم ويقول (بيجوفيتش) موضحاً: وجد المسلمون في وادي الفرات علم التنجيم مزدهرا وقد جمع معرفة هامة عن الظواهر الفلكية عبر ثلاثة آلاف سنة، ولكن لأن الاعتقاد بارتباط مصير الإنسان بالنجوم – وهو ميدان اهتمام علم التنجيم – كان غريباً عن الإسلام، فإن التوحيد الإسلامي والعقلانية الإسلامية استطاعت أن تحول علم التنجيم إلى علم فلك، وقد أنشئت لهذا الغرض مدرسة بغداد لعلوم الفلك وسميت باسم مرصدها الشهير، ويتحدث (سيديلوت) عن ذلك فيقول:

كان من أخص خصائص مدرسة بغداد لعلم الفلك منذ نشأتها روحها العلمية بأن تنتقل من المعلوم إلى المجهول عن طريق الملاحظة [١].

يبين الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد باشا، أستاذ الفيزياء بكلية العلوم جامعة القاهرة، عضو المجمع العلمي المصري، أنه من المآثر العلمية للمسلمين تأسيس منهجية البحث العلمي.. وقد بين ذلك بعدة محاور:

١ - تأسيس منهجية البحث العلمي: أوجه النشاط أن البحث العلمي واحد من أوجه النشاط المعقدة التي يمارسها العلماء باستقصاء منهجي في سبيل زيادة مجموع المعرفة العلمية وتقنياتها، ويطلق على العلم المعني بطرائق وأساليب البحث في العلوم الكونية للوصول إلى الحقيقة العلمية أو البرهنة عليها اسم (علم مناهج البحث) (Methodology) كما يطلق على منهج البحث في العلوم الكونية التي تبحث في الظواهر الجزئية للكون والحياة اسم (المنهج التجريبي الاستقرائي)، ويقصد به منهج استخراج القاعدة العامة (النظرية العلمية) أو القانون العلمي من مفردات الوقائع استنادا إلى الملاحظة والتجربة . وينسب الكثير من المؤرخين وعلماء المناهج الفضل في اكتشاف هذا المنهج إلى العالم الإنجليزي (فرنسيس بيكون) الذي وضع إبان عصر النهضة الأوربية الحديثة كتابه المشهور "الأورجانون الجديد" ويعنى به منهج البحث التجريبي، ليعارض به أرسطو في كتابه " الأورجانون القديم" ويشهد استقراء تاريخ الفكر البشري بأن علماء الحضارة الإسلامية كانوا أسبق من الغربيين إلى نقض منطق أرسطو النظري واتباع المنهج التجريبي قبل بيكون بعدة قرون فقد استطاعوا أن يميزوا بين طبيعة الظواهر العقلية الخالصة من جهة، والظواهر المادية الحسية من جهة أخرى، وفطنوا إلى أن الوسيلة أو الأداة التي تستخدم في هذه الظواهر يجب أن تناسب طبيعة كل منها، ويعتبر شيخ الإسلام (ابن تيمية) من أوائل العلماء المسلمين الذين نقدوا منطق أرسطو الصوري حيث هاجمه بعنف في كتابه (نقد المنطق) ودعا إلى الاستقراء الحسى الذي يصلح للبحث

---

(١) الإسلام بين الشرق والغرب، الرئيس البوسني السابق الأستاذ الدكتور علي عزت بيجوفيتش، صفحات مختلفة أعدها الأستاذ خالد خلاوي على صفحة الويب الخاصة بموقع هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

في الظواهر الكونية ويوصل إلى معارف جديدة.

٢- سبق المسلمون : اتجه علماء الحضارة الإسلامية إلى المنهج التجريبي الاستقرائي عن خبرة ودراية بأصوله وقواعده، وأحرزوا على أساسه تقدما ملموساً في حركة التطوير العلمي والتقني فهذا هو (الحسن بن الهيثم) - على سبيل المثال لا الحصر - يصف ملامح المنهج التجريبي الاستقرائي الذي اتبعه في بحث ظاهرة الإبصار بقوله (... رأينا أن نصرف الاهتمام إلى هذا المعنى بغاية الإمكان ونخلص العناية به ونوقع الجد في البحث عن حقيقته ونستأنف النظر في مباديه ومقدماته ونبتدئ باستقراء الموجودات وتصفح أحوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الإبصار وما هو مطرد لا يتغير، وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس... ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدريج والترتيب مع انتقاد المقدمات والتحفظ من الغلط في النتائج، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقرئه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى ونتحرى - في سائر ما نميزه ونتنقده - طلب الحق لا الميل مع الآراء... فلعلنا ننتهي بهذا الطريق إلى الحق الذي به يثلج الصدر ونصل بالتدرج والتلطف إلى الغاية التي عندها يقع اليقين ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم بها مواد الشبهات... وما نحن من جميع ذلك براء مما هو في طبيعة الإنسان من كدر البشرية ولكننا نجتهد بقدر مالنا من القوة الإنسانية... ومن الله نستمد العون في جميع الأمور) .

٣- مقومات المنهج العلمي : يوضح هذا النص بما لا يدع مجالا للشك أن القواعد العامة التي وضعها (ابن الهيثم) لمنهج الاستقراء تتميز عن قواعد المنهج (البيكوني) بأنها ليست مجموعة من التعليمات والإرشادات التي تلتزم ترتيبا محددا لا ينبغي تجاوزه مما يضفي عليها قدرا كافيا من المرونة يحول دون جمودها أمام حركة العلم وتطوره. كذلك تعكس عبارات (ابن الهيثم) كثيرا من خصائص العلم التجريبي ومقومات نجاح البحث العلمي التي افتقدها كل من (المنطق الأرسطي) و(المنهج البيكوني) وتوضح المقارنة أن التجريبية خطوة مقصورة في أسلوب البحث العلمي عند علماء المسلمين. من ناحية أخرى يتضح من القراءة المتأنية للنصوص العلمية في التراث الإسلامي أن الفضل في اكتشاف المنهج العلمي (التجريبي الاستقرائي) لا ينسب إلى عالم إسلامي بعينه على غرار ما يقال عادة عن منهج (أرسطو) أو (بيكون) أو (ديكارت) بل إنه يعزى إلى علماء

كثيرين مهدوا له في مختلف فروع العلم. فها هو (جابر بن حيان) يلقى مزيدا من الضوء على خصائص المنهج التجريبي الذي اتبعه فيؤكد أن "لكل صنعة أساليبها الفنية" ويحذر من الإفراط في الثقة بنتائج تجاربه بالرغم من موضوعيته في البحث العلمي فيقول: (إنا نذكر في هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط - دون ما سمعناه أو قيل لنا أو قرأناه - بعد أن امتحناه وجربناه وما استخرجناه نحن قايسناه على أقوال هؤلاء) ويقول أيضاً: (ليس لأحد أن يدعي بالحق أنه ليس في الغائب إلا مثل ما شاهد أو في الماضي والمستقبل إلا مثل ما في الآن)، ونجد في مؤلفات (الرازى) و(البيرونى) و(البتانى) و(البوزجانى) و(التيفاشى) و(الخازنى) و(ابن النفيس) و(ابن يونس) وغيرهم ما يؤكد إيمانهم بالمنهج الجديد في تحصيل الحقيقة العلمية وممارستهم لهذا المنهج عن إدراك وفهم دقيق لكل مسلماته وأدواته وخصائصه وغاياته وفي هذه الحقيقة الهامة يكمن السر - الدافع - وراء نجاح هذا المنهج ومواكبته لحركة التقدم العلمي التي حثت عليها تعاليم الإسلام الحنيفة ومبادؤه السامية متمثلة في آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة التي تكرم العلم والعلماء، وتحث على إعمال العقل، ومداومة البحث في ملكوت السموات والأرض وتحرر التفكير من القيود والأوهام المعوقة للكشف والإبداع، وتحارب التنجيم والتنبؤ العشوائي والتعصب للعرق والعرف وتحذر من الاطمئنان إلى كل ما هو شائع أو موروث من آراء ونظريات . ولا شك أن هذا كله أوسع وأشمل مما يعرف بأوهام الكهف والسوق والمسرح والجنس وهي الأوهام الأربعة المنسوبة (لبيكون) والتي كثيرا ما يباهي بها فلاسفة العلم وشراح المنهج العلمي.

٤ - القرآن الكريم... نقطة الانطلاق: وتدلنا قراءة التراث الإسلامي على أن المسلك الذي اتبعه علماء الأصول وعلماء الحديث في الوصول إلى الصحيح من الوقائع والأخبار والأقوال قد انسحب على أسلوب التفكير والتجريب في البحث العلمي فنرى على سبيل المثال - أن (الحسن بن الهيثم) يستعمل لفظ الاعتبار (وهو لفظ قرآني) ليدل على الاستقراء التجريبي أو الاستنباط العقلي ويستخدم قياس الشبه في شرحه لتفسير عملية الإبصار وإدراك المرئيات كذلك نجد (أبا بكر الرازي) يستخدم الأصول الثلاثة: الإجماع، والاستقراء، والقياس في تعامله مع المجهول، فهو يقول: (إنا لما رأينا لهذه الجواهر أفاعيل عجيبة لا تبلغ عقولنا معرفة سببها الكامل لم نر أن نطرح كل شيء لا

تدركه ولا تبلغه عقولنا لأن في ذلك سقوط جل المنافع عنا بل نضيف إلى ذلك ما أدركناه بالتجارب وشهد لنا الناس به ولا نحل شيئاً من ذلك محل الثقة الا بعد الامتحان والتجربة له.. ما اجتمع عليه الأطباء وشهد عليه القياس وعضدته التجربة فليكن أمامك).

ولقد استند علماء الحضارة الإسلامية على اختلاف تخصصاتهم - في ممارستهم للمنهج العلمي - إلى مبادىء أساسية استمدوها من تعاليم دينهم الحنيف ويمكن إيجازها فيما يلي:

١- عقيدة التوحيد الإسلامي هي نقطة الانطلاق في رؤية الإنسان الصائبة لحقائق الوجود قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾، [سورة العلق: ١ - ٥] فالله سبحانه وتعالى هو الحق المطلق وهو مصدر كل الحقائق المعرفية الجزئية التي أمرنا بالبحث عنها واستقرائها في عالم الشهادة باعتبارها مصدرا للثقة واليقين وليست ظلالا أو أشباحا كما نظرت إليها الثقافة اليونانية قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾، [سورة فصلت:٥٣].

٢- الإيمان بوحدانية الله سبحانه وتعالى يستلزم بالضرورة العقلية أن يرد الإنسان كل شيء في هذا الوجود إلى الخالق الحكيم الذي أوجد هذا العالم بإرادته المباشرة المطلقة على أعلى درجة من الترتيب والنظام والجمال، وأخضعه لقوانين ثابتة لا يحيد عنها، وحفظ تناسقه وترابطه في توازن محكم بين عوالم الكائنات، وقد شاءت إرادته تعالى أن تبين لنا من خلال نظام الكون ووحدته اطراد الحوادث والظاهرات كعلاقات سببية لنراقبها وندركها. وننتفع بها في الحياة الواقعية بعد أن نقف على حقيقة سلوكها ونستدل بها على قدرة الخالق ووحدانيته، والانطلاق في التفكير العلمي في إطار المفهوم الإيماني يجعل الطريق مفتوحا دائما أمام تجدد المنهج العلمي وتطوره بما يناسب مع مراحل تطور العلوم المختلفة كما أنه يضفي على النفس الاطمئنان والثقة اللازمين لمواصلة البحث والتأمل وينقذ العلماء من التخبط في التيه بلا دليل كالإحالة على الطبيعة أو العقل أو المصادفة أو ما إلى ذلك من التصورات التي طرحتها الفلسفات الوضعية المتصارعة قديماً

وحديثاً وأصابتها بالعجز والعطب . قال تعالى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝ ﴾، [سورة الملك آية : ٣-٤].

٣- منهج البحث والتفكير يقوم في المفهوم الإسلامي على التأليف بين العقل والواقع ويعوِّل في اكتساب المعرفة على العقل والحواس وباقي الملكات الإدراكية التي وهبها الله للإنسان. وقد حملنا الله سبحانه وتعالى مسئولية استخدام وسائل العلم وأدواته في مواضع كثيرة من القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، [سورة النحل: ٧٨]. وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾، [سورة الاسراء: ٣٦] وقوله عز من قائل: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝ ﴾، [سورة البلد: ٨-١٠]. وهكذا نجد أن علماء الحضارة الإسلامية قد تشربوا تعاليم دينهم الحنيف واصطنعوا لنفسهم منهجا علميا إسلاميا تجاوزوا به حدود الآراء الفلسفية التي تميزت بها علوم الإغريق وانتقلوا إلى إجراء التجارب واستخلاص النتائج بكل مقومات الباحث المدقق مدركين أن لمنهجهم الجديد شروطا وعناصر نظرية وعملية وإيمانية يجب الإلمام بها، وتكشف قراءتنا المتأنية لعلوم التراث الإسلامي عن سبق علماء المسلمين إلى تحديد عناصر المنهج العلمي بما يتفق مع كثير من المسميات والمصطلحات الجديدة التي يتداولها اليوم علماء المنهجية العلمية مثل أنواع الملاحظة والتجربة (الاستطلاعية الضابطة الحاسمة) ومقومات الفرض العلمي واستخدام الخيال العلمي في المماثلة بين الظواهر المختلفة والكشف عن الوحدة التي تربط بين وقائع متناثرة. وليس هناك من شك في أن الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى تعتبر حلقة هامة في تاريخ العلم والحضارة بما قدمه علماؤها من تأسيس لمنهج علمي سليم ساعد على تطوير معارف جديدة، لكننا في عالمنا الإسلامي لا نزال بحاجة ماسة إلى إعادة قراءة تراثنا بأسلوب العصر ومصطلحاته ليس فقط من أجل تحديث الثقافة العلمية الإسلامية بل أيضا من أجل أسلمة طرق التفكير العلمي طبقاً لخصائص التصور الإسلامي ومقوماته، إن إسلامية المعرفة بعامة والمعرفة العلمية بخاصة يجب أن

تكون من الروافد الأساسية للصحوة الإسلامية المنشودة[١] .

المبحث الخامس

الإسلام حاضر ومستقبل

لقد حلل المحلل الأمريكي الكبير «صامويل هنتجتن»[٢] موضوع الصحوة الإسلامية في كتابه «صِدَامُ الحضارات» تحليلاً مبنياً على إحصائيات ورسوم وبيانات، وتوصل فيه إلى أن الصحوة الإسلامية الهائلة تفوق في التحدي الديموغرافي في كل من روسيا والغرب، وإن الأجيال الصاعدة في الدول الإسلامية بدأت تعود إلى أصول دينها وأسسه القوية كأعظم بديل عن كل القوانين الأرضية شرقيها وغربيها وحياديها، وبدأت الكليات الأكثر تأثيراً كالطب والهندسة والقانون وغيرها تعج بالشباب الملتزم بل تعدى الأمر إلى ولوجهم في القوات المسلحة لتلك الدول. وأكد الباحث أن هذا التأثير سيستمر تبعاً للأرقام التي بينها خلال القرن الحادي والعشرين الميلادي ليشمل كل البلاد الإسلامية ويتوسع أفقياً وعمودياً.. كما أن وسائل الاتصال والسفر والتطور والاجتماعي والمعاشي والنمو الاقتصادي لدى الدول الإسلامية ساهمت كثيراً في توسع «أسلمة الحضارة» عند هذه الدول على عكس ما كان يريده الغربيون من عولمتها، فقد بدأت هذه الدول بالعودة إلى أقوى جذر يربطها مع بعضها ألا وهو الدين الإسلامي الحنيف[٣].

أما جورج سارتن المفكر الإنجليزي فيراهن على أن العالم الإسلامي سيعود ويحكم العالم وأن عوامل استمراره وقوته أكثر بمراحل من عوامل تحلله لو تمسك المسلمون به وفعلوا ما في كتابه[٤].

---

(١) بقلم أ.د. أحمد فؤاد باشا، أستاذ الفيزياء بكلية العلوم جامعة القاهرة، عضو المجمع العلمي المصري.

(٢) واحد من كبار محللي ومخططي السياسة الأمريكية في العصر الحديث.

(٣) لتفاصيل أكثر وأروع راجع المصدر الأصلي ((صدام الحضارات- إعادة صنع النظام العالمي))، صامويل هنتجتون، ترجمة طلعت الشايب، ١٩٩٨، (موضوع الصحوة الإسلامية، ص١٨٠، موضوع الإسلام وفي، ص٢٨٤).

(٤) د. أحمد شلبي، مقالة في جريدة حديث الصائم الإماراتية، الثلاثاء ١٨ رمضان ١٤١٩هـ- ٥ يناير ١٩٩٩م، ص٦.

وهنا أحب أن أؤكد أن هذا الأمر مرصود رصداً كبيراً من قبل أعداء الإسلام لما يعرفونه من قوة هذا الدين وإمكانية تأثيره على العقول والقلوب بما يجعل شعوب العالم تعيش عيشة رغيدة، فلا تكاد تمضي ساعة من زمن إلا ويرفع أحد عملاء وكالة المخابرات الأمريكية (C.I.A.) وغيرها من المخابرات الدولية الأخرى تقريراً عن الإسلام وزيادة نشاطه في كل العالم. إذن هم يعلمون علم اليقين أن الإسلام قادم وبقوة ولن يقف أمامه شيء من مؤامراتهم مهما عظم شأنها، وهذا هو تصديق وعد الله تعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم لهذه الأمة بأن يبلغ دينها مبلغاً يشمل كل أرض تطلع عليها شمسٌ (*).

وقد يظن القارئ الكريم أن المؤلف مفرط في التفاؤل، فالأمة تمر بأحلك أيامها، قتل وسبي واحتلال وتدمير ونهب للثروات وهضم للحقوق وتكبيل للحريات والأفكار - وحدث ولا حرج -، فنقول وبالله التوفيق:

الذي يراجع تاريخ الأمة يجد أنه بعد كل نزول لها يشتد التضييق عليها كما لم يشتد من قبل فيقيض الله تعالى لها رجالاً يعيدونها لمسارها الصحيح الذي يرتضيه لها سبحانه فتنهض من جديد. كما وإن من سنن الله تعالى أن يمتحن عباده المؤمنين بشيء من الجوع والخوف ونقص بالأموال والأنفس والثمرات، ليصبروا ويجاهدوا بالكلمة والفكر والعلم والقلب والروح واليد والعدة والعتاد، لتكون نهاية صبرهم في الدنيا يسراً وفرجاً وعزاً ومجداً ومخرجاً، وفوزاً عظيماً في الآخرة ورضا من ربهم.

ويكفي أن نذكّر القارئ الكريم بأن رسل الله تعالى عليهم السلام وهم من هم من الدرجة والمنزلة يصابون ويمتحنون حتى يقول الرسول والذين معه متى نصر الله، فيأتيه النصر بعد سنين طويلة من المعاناة والمصابرة والمطاولة، فكيف بالبشر العاديين!.. وتأمل بقوله تعالى :﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ

(*) ينصح بقراءة كتب مهمة تتعلق بمستقبل الإسلام مثل (المبشرات بانتصار الإسلام) للقرضاوي، و(الإسلام قوة الغد العالمية) للمسلم البوسني علي عزت بيغوفيتش، و(الإسلام كبديل) للمسلم الألماني مراد هوفمان، و(الإسلام في مفترق الطرق)، للمسلم محمد أسد، وكتب المسلم الفرنسي روجيه غارودي.

نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾، [يوسف:١١٠]... ولتفاصيل أكثر أحيل القارئ الكريم إلى كتابنا (القوانين القرآنية للحضارات)، ففيه تحليل واسع في هذا الأمر.

الفصل الثالث

مختصر في علوم القرآن الكريم

المبحث الأول

مقدمة في علوم القرآن الكريم

نبدأ بادئ ذي بدء مع تعريف القرآن لغة واصطلاحاً:

القرآن لغة: قرأ تأتي بمعنى الجمع والضم. والقراءة ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، والقرآن، في الأصل كالقراءة، مصدر قرأ قراءة وقرأنا. قال تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾، [سورة القيامة: آية ١٧، ١٨] أي قراءته. والقرآن مصدر على وزن فعلان بالضم كالغفران والشكران.

القرآن اصطلاحاً: هو كلام الله تعالى المعجز بلفظه ومعناه، المنزل على النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – المبدوء بسورة الفاتحة المختوم بسورة الناس، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المتحدى بأقصر سورة منه.

وأما أسماؤه وأوصافه، فهو:

أما عن سبب تسمية القرآن الكريم بهذا الاسم وفرقه عن الحديث القدسي، فإن العلماء يفرقون بين القرآن الكريم والحديث النبوي بأن القرآن، لفظه ومعناه من عند الله، أما الحديث النبوي فمعناه من عند الله تعالى ولفظه من النبي – صلى الله عليه وسلم – على الرأي الصحيح.

والفرق بين القرآن والحديث القدسي بأنهما وإن كان كل منهما لفظه ومعناه من عند الله على الصحيح إلا أن الحديث القدسي لم يقصد بلفظه التحدي والإعجاز ولم يتعبد بتلاوته.

فالقول في تعريف القرآن بأنه كلام ال له المعجز يخرج الحديث النبوي والحديث القدسي.

والجدير بالذكر أن القرآن يطلق على مجموع القرآن المكتوب في المصحف ويطلق على بعضه أي على كل آية من آياته، فإذا سمعت من يتلو آية من القرآن صح أن تقول: إنه يقرأ القرآن. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾، [سورة الأعراف: آية ٢٠٤].

أما سبب تسمية هذا الكتاب بالقرآن، فقد ذكر بعض العلماء أن تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله لكونه جامعاً لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾، [سورة النحل: آية ٨٩].

أسماء القرآن:

للقرآن الكريم أسماء كثيرة أوصلها البعض إلى نيف وتسعين إسما، اعتماداً على إطلاقات وصفات وردت في بعض الآيات كلفظ (كريم) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾، [سورة الواقعة: آية ٧٧]. ولفظ مبارك في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [سورة الأنبياء: آية ٥٠]. لكن المشهور من أسمائه على الترتيب: - القرآن – الفرقان – الكتاب – الذكر – التنزيل. ودليلها:

١- القرآن:إشارة إلى حفظه في الصدر: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾، [الإسراء: ٩].

٢- الكتاب: إشارة إلى كتابته في السطور: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾، [البقرة:١-٢].

٣- الذكر: في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، [الحجر: ٩].

٤- الفرقان: إشارة إلى أنه يفرق بين الحق والباطل: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾، [الفرقان: ١].

أما أوصافه:

١- هدى: في قوله تعالى: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾، [لقمان: ٣].

٢- نور: في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾، [النساء: ١٧٤].

٣- شفاء: في قوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ ﴾، [الإسراء: ٨٢].

٤- حكمة: في قوله تعالى: ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ﴾، [القمر : ٥] .

٥- موعظة: في قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾، [يونس: ٥٧] .

٦- وحي: في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ﴾، [الأنبياء : ٤٥] .

وهناك خمس وخمسون اسماً للقرآن .راجع: البرهان في علوم القرآن " للزركشي " .

وقد نزل القرآن تعالى وحياً من عند الله تعالى لرسوله عليه أفضل الصلاة والسلام بواسطة سيد الملائكة جبريل عليه السلام. والوحي هو:

أ- تعريفه لغة: الإعلام في خفاء بسرعة، تقول: أوحيت إلى فلان إذا كلمته خفاء. ومن معناه اللغوي:

- الإلهام الفطري للإنسان، كالوحي إلى أم موسى. قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾، [القصص:٧]
- الإلهام الغريزي للحيوان، كالوحي إلى النَّحل . قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ ، [النحل: ٦٨].
- الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء. قال تعالى عن زكريا: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾، [مريم: ١١].
- وسوسة الشيطان وتزيينه الشرَّ في نفس الإنسان. قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ﴾، [الأنعام:١٢١].
- أمر الله إلى الملائكة في قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾، [الأنفال: ١٢].

وأما شرعاً فالوحي هو كلام الله المنزل على نبي من أنبيائه بطريقة خفية سريعة، غير معتادة للبشر.

وأما كيفية وحي الله تعالى إلى رسله فهو على عدة أشكال:

١ – بواسطة جبريل عليه السلام .

٢– بغير واسطة.

أ– مثل الرؤيا الصالحة في المنام. عن عائشة رضي الله عنها قالت أول ما بدئ به صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. (انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقم : ٣).

ب– التكليم الإلهي من وراء حجاب يقظة . قال تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾، [النساء: ١٦٤].

جـ– التكليم ليلة الإسراء والمعراج مباشرة بلا واسطة [فتح الباري ١/ ١٩].

٣– الدليل للحالة (أ) و (ب): ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾، [الشورى: ٥١].

جـ– كيفية نزول جبريل عليه السلام على الرسول صلى الله عليه وسلم.

الحالة الأولى: يأتيه مثل صلصلة الجرس[١]، وهو أشده على الرسول صلى الله عليه وسلم، لأن هذه الحالة: انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملكية الروحانية.

الحالة الثانية: أن يتمثل له الملك رجلاً، ويأتيه في صورة بشر[٢] وهذه الحالة أخف على الرسول صلى الله عليه وسلم، لأنها عكس الحالة الأولى، فهي الملك من الروحانية المحضة إلى البشرية الجسمانية.

دليل الحالتين: روت السيدة عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليَّ فَيَفْصم عني (أي

---

(١) هو في الأصل صوت وقوع الحديد بعضه على بعض ، ثم أطلق على كل صوت له طنين [فتح الباري ١ / ٢٠] .

(٢) فإن جبريل عليه السلام قد تمثل في صور كثيرة ، منها : في صورة دِحية الكلبي ، وصورة أعرابي . [فتح الباري ١/ ١٩ بتصرف].

يقطع ويتجلى ما يغشاني) وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول" . [فتح الباري شرح صحيح البخاري رقم: ٢] .

الحالة الثالثة: النفث في الرُّوْع (أي الإلقاء في القلب والخاطر). ودليل هذا ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم: " إن روح القدس نفث في رُوْعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجَلها، وتستوعب رزقها ... "

الحالة الرابعة: دوي النَّحْل(صوت النحل). ودليل هذا ما قاله سيدنا عمر بن الخطاب: كان إذا نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحيُ يُسمَع عند وجهه دويٌّ كدوي النَّحْل ...

د- آثار الوحي ومظاهره على النبي صلى الله عليه وسلم .

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ [القيامة: ١٦]، قال:كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة وكان يحرك شفتيه... فأنزل الله عز وجل: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ [القيامة: ١٦-١٧]، قال: جمعه لك في صدرك. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع ، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما كان قرأ.

ومن آثار الوحي أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل عليه الوحي سُمع عند وجهه دويٌّ كدوي النحل. ومنها أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل عليه الوحي ثقل جسمه حتى يكاد يرضّ فخذه فخذ الجالس إلى جنبه.

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى عليه:

﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٩٥].

فجاء ابن مكتوم وهو يُمِلُّها عليّ، قال: يا رسول الله. والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت- وكان أعمى فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم وفخذه على فخذي،

فثقلت عليَّ حتى خفت أن ترضّ فخذي، ثم سُرِّيَ عنه فأنزل الله: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥].

ومنها أنه صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي بركت به راحلته. عن عائشة رضي الله عنها قالت:إن كان يوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على راحلته فتضرب، بِجِرانها (الجِران : باطن عنق الناقة).

ثم نقرأ أسطراً من بعض ما وصف به القرآن الكريم وعلومه الغزيرة من أهل العلم:

إعلم أن علوم القرآن الكريم بحار لا شاطيء لها ولا قرار، فهي من لدن حكيم خبير، والإحاطة بكل أسرارها وأخبارها من الصعوبة بمكان لأهل التقوى والراسخون في العلم، فكيف لعامة الناس.. على أن القرآن الكريم سهّله الله تعالى لفهم البسطاء والعلماء على حد سواء، فيقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، (القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠).. وهذا لعمري من سره المذهل وإعجازه المبهر، إذ كيف يمكن الجمع بين السهولة واليسر من جهة، وبين عمق وعظم الأسرار والأغوار من جهة أخرى، لكنه القرآن الكريم الذي ليس كمثله كتاب، فحارت في بلاغته الألباب، وأصبح منهلاً لكل باحث متبحر في علوم الله العزيز الوهاب.

والقرآن الكريم هو معجزة الإسلام الخالدة، أنزله الله تعالى على محمد – صلى الله عليه وسلم – ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى الصراط المستقيم، فكان الرسول – صلى الله عليه وسلم – يتلقاه من جبريل – عليه السلام – ويبلغه إلى الصحابة – رضوان الله عليهم – وهم من العرب الخلص، فكانوا يفهمونه بسليقتهم، وإذا التبس عليهم فهم آية من الآيات القرآنية رجعوا بها إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – وسألوه عنها.

فكان يجيبهم على أسئلتهم، كما ورد في الحديث الشريف الذي رواه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود قال: ((لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ...﴾ [آية ٨٢ من سورة الأنعام]. قال: شق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله وأينا لا يظلم

نفسه؟ قال: إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة لقمان آية: ١٣٤]، إنما هو الشرك)).

وختم الله تعالى بهذا القرآن الكتب السماوية التي أنزلها على رسله، كما ختم بمحمد - صلى الله عليه وسلم- الأنبياء والرسل وامتاز القرآن عن سائر الكتب السماوية السابقة بأن تولى الله بنفسه حفظه وصيانته فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يتطرق إليه تحريف ولا تبديل قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [سورة الحجر آية: ٩]. وقال تعالى:﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيد ﴾ [سورة فصلت: ٤٢،٤١] . وقد جاء القرآن الكريم وافياً بجميع مطالب الإنسانية، حيث عالج مشكلاتها في شتى مرافق الحياة الروحية والعقلية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية علاجاً حكيماً يتناسب مع الفطرة، لأنه من لدن حكيم خبير. وقد أتم الرسول – صلى الله عليه وسلم – تبليغه إلى أصحابه ومن ثم إلى الناس جميعاً.

يقول صاحب الإتقان الإمام السيوطي رحمه الله تعالى (ج١/ ص٢١-٢٤) وقد سمى باباً في كتابه الإتقان في علوم القرآن بعنوان (التحبير في علوم التفسير) قسّم فيه أنواع علوم القرآن الكريم منها ما يتعلق بالقراءات ومنها ما يتعلق بأسباب النزول أو مكان النزول وغير ذلك، وهذه فهرست الأنواع:

١. النوع الأول والثاني المكي والمدني.
٢. الثالث والرابع الحضري والسفري.
٣. الخامس والسادس النهاري والليلي.
٤. السابع والثامن الصيفي والشتائي.
٥. التاسع والعاشر الفراشي والنومي.
٦. الحادي عشر أسباب النزول.
٧. الثاني عشر أول ما نزل.

٨. الثالث عشر آخر ما نزل.
٩. الرابع عشر ما عرفت وقت نزوله.
١٠. الخامس عشر ما أنزل فيه ولم ينزل على أحد من الأنبياء.
١١. السادس عشر ما أنزل منه على الأنبياء.
١٢. السابع عشر ما تكرر نزوله.
١٣. الثامن عشر ما نزل مفرقا.
١٤. التاسع عشر ما نزل جمعا.
١٥. العشرون كيفية إنزاله وهذه كلها متعلقة بالنزول.
١٦. الحادي والعشرون المتواتر.
١٧. الثاني والعشرون الآحاد.
١٨. الثالث والعشرون الشاذ.
١٩. الرابع والعشرون قراءات النبي.
٢٠. الخامس والسادس والعشرون الرواة والحفاظ.
٢١. السابع والعشرون كيفية التحمل.
٢٢. الثامن والعشرون العالي والنازل.
٢٣. التاسع والعشرون المسلسل وهذه متعلقة بالسند.
٢٤. الثلاثون الابتداء.
٢٥. الحادي والثلاثون الوقف.
٢٦. الثاني والثلاثون الإمالة.
٢٧. الثالث والثلاثون المد.
٢٨. الرابع والثلاثون تخفيف الهمزة.
٢٩. الخامس والثلاثون الإدغام.
٣٠. السادس والثلاثون الإخفاء.
٣١. السابع والثلاثون الإقلاب.

٣٢. الثامن والثلاثون مخارج الحروف وهذه متعلقة بالأداء.
٣٣. التاسع والثلاثون الغريب.
٣٤. الأربعون المعرب.
٣٥. الحادي والأربعون المجاز.
٣٦. الثاني والأربعون المشترك.
٣٧. الثالث والأربعون المترادف.
٣٨. الرابع والخامس والأربعون المحكم والمتشابه.
٣٩. السادس والأربعون المشكل.
٤٠. السابع والثامن والأربعون المجمل والمبين.
٤١. التاسع والأربعون الاستعارة.
٤٢. الخمسون التشبيه.
٤٣. الحادي والثاني والخمسون الكناية والتعريض.
٤٤. الثالث والخمسون العام الباقي على عمومه.
٤٥. الرابع والخمسون العام المخصوص.
٤٦. الخامس والخمسون العام الذي أريد به الخصوص.
٤٧. السادس والخمسون ما خص فيه الكتاب السنة.
٤٨. السابع والخمسون ما خصت فيه السنة الكتاب.
٤٩. الثامن والخمسون المؤول.
٥٠. التاسع والخمسون المفهوم.
٥١. الستون والحادي والستون المطلق والمقيد.
٥٢. الثاني والثالث والستون الناسخ والمنسوخ.
٥٣. الرابع والستون ما عمل به واحد ثم نسخ.
٥٤. الخامس والستون ما كان واجبا على واحد.
٥٥. السادس والسابع والثامن والستون الإيجاز والإطناب والمساواة.

٥٦. التاسع والستون الأشباه .

٥٧. السبعون والحادي والسبعون الفصل والوصل.

٥٨. الثاني والسبعون القصر .

٥٩. الثالث والسبعون الاحتباك.

٦٠. الرابع والسبعون القول بالموجب.

٦١. الخامس والسادس والسابع والسبعون المطابقة والمناسبة والمجانسة.

٦٢. الثامن والتاسع والسبعون التورية والاستخدام .

٦٣. الثمانون اللف والنشر .

٦٤. الحادي والثمانون الالتفات.

٦٥. الثاني والثمانون الفواصل والغايات.

٦٦. الثالث والرابع والخامس والثمانون أفضل القرآن وفاضله ومفضوله .

٦٧. السادس والثمانون مفردات القرآن .

٦٨. السابع والثمانون الأمثال.

٦٩. الثامن والتاسع والثمانون آداب القارئ والمقرئ.

٧٠. التسعون آداب المفسر .

٧١. الحادي والتسعون من يقبل تفسيره ومن يرد .

٧٢. الثاني والتسعون غرائب التفسير.

٧٣. الثالث والتسعون معرفة المفسرين.

٧٤. الرابع والتسعون كتابة القرآن .

٧٥. الخامس والتسعون تسمية السور.

٧٦. السادس والتسعون ترتيب الآي والسور.

٧٧. السابع والثامن والتاسع والتسعون الأسماء والكنى والألقاب.

٧٨. المائة المبهمات .

٧٩. الأول بعد المائة أسماء من نزل فيهم القرآن .

٨٠. الثاني بعد المائة التاريخ .

٨١. بينما جعل الإمام الزركشي في كتابه البرهان سبعون وأربعون نوعاً من العلوم، وفي كل نوع فصول وتنبيهات وفوائد، ومن العلوم التي صنفها رحمه الله تعالى ضمن علوم القرآن الكريم :

٨٢. معرفة سبب النزول.

٨٣. معرفة المناسبات بين الآيات.

٨٤. معرفة الفواصل.

٨٥. معرفة الوجوه والنظائر.

٨٦. علم المتشابه.

٨٧. علم المبهمات.

٨٨. في أسرار الفواتح.

٨٩. في خواتم السور.

٩٠. في معرفة المكي والمدني.

٩١. في معرفة أول ما نزل.

٩٢. معرفة على كم لغة نزل.

٩٣. في كيفية إنزاله.

٩٤. في بيان جمعه ومن حفظه من الصحابة.

٩٥. معرفة تقسيمه.

٩٦. معرفة أسمائه.

٩٧. معرفة ما وقع فيه من غير لغة الحجاز.

٩٨. معرفة ما فيه من لغة العرب.

٩٩. معرفة غريبه.

١٠٠. معرفة التصريف.

١٠١. معرفة الأحكام.

١٠٢. معرفة كون اللفظ أو التركيب أحسن وأفصح.

١٠٣. معرفة اختلاط الألفاظ بزيادة أو نقص.

١٠٤. معرفة توجيه القراءات.

١٠٥. معرفة الوقف والابتداء.

١٠٦. علم مرسوم الخط.

١٠٧. معرفة فضائله.

١٠٨. معرفة خواصه.

١٠٩. هل في القرآن شيء أفضل من شيء.

١١٠. في آداب تلاوته.

١١١. في أنه هل يجوز في التصانيف والرسائل والخطب استعمال بعض آيات القرآن.

١١٢. معرفة الأمثال الكائنة فيه.

١١٣. معرفة أحكامه.

١١٤. في معرفة جدله.

١١٥. معرفة ناسخه ومنسوخه.

١١٦. معرفة توهم المختلف.

١١٧. في معرفة المحكم من المتشابه.

١١٨. في حكم الآيات المتشابهة الواردة في الصفات.

١١٩. معرفة إعجازه.

١٢٠. معرفة وجوب تواتره.

١٢١. في بيان معاضدة السنة للكتاب.

١٢٢. معرفة تفسيره.

١٢٣. معرفة وجوب المخاطبات.

١٢٤. بيان حقيقته ومجازه.

١٢٥. في الكيان والتعريض.

١٢٦. في أقسام معنى الكلام.

١٢٧. في ذكر ما يتيسر من أساليب القرآن.

١٢٨. في معرفة الأدوات.

يقول الزركشي رحمه الله تعالى في كتابه (البرهان في علوم القرآن):

«واعلم أن ما من نوع من هذه الأنواع إلا ولو أراد الإنسان استقصاءه، لاستَفرَغ عُمرَه، ثم لم يُحكِم أمرَه، ولكن اقتصرنا من كل نوع على أصوله، والرمز إلى بعض فصوله، فإن الصناعة طويلة والعمر قصير، وماذا عسى أن يبلغ لسان التقصير!»(١).

ويقول رحمه الله تعالى في فصل خاص في علوم القرآن (ج١/ ص ١٦ - ٢١) ما نصه:

(ذكر القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب قانون التأويل إن علوم القرآن خمسون علما وأربعمائة وسبعة آلاف علم وسبعون ألف علم على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة، قال بعض السلف إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد ومقطع وهذا مطلق دون اعتبار تراكيبه وما بينها من روابط وهذا ما لا يحصى ولا يعلمه إلا الله عز وجل .. قال وأم علوم القرآن ثلاثة أقسام توحيد وتذكير وأحكام فالتوحيد تدخل فيه معرفة المخلوقات ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله والتذكير ومنه الوعد والوعيد والجنة والنار وتصفية الظاهر والباطن والأحكام ومنها التكاليف كلها وتبيين المنافع والمضار والأمر والنهي والندب، فالأول ﴿ وَإِلَـٰهُكُمۡ إِلَـٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾، فيه التوحيد كله في الذات والصفات والأفعال، والثاني ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾، والثالث ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم ﴾، ولذلك قيل في معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»، يعني في الأجر وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وقيل ثلثه في المعنى لأن القرآن ثلاثة أقسام كما ذكرنا وهذه السورة اشتملت على التوحيد، ولهذا المعنى صارت فاتحة الكتاب أم الكتاب لأن فيها الأقسام الثلاثة: فأما التوحيد فمن أولها إلى قوله: ﴿يَوۡمِ

(١) البرهان في علوم القرآن، للإمام الزركشي، ج/ ١، ص ٩ - ١٢.

ﱡﭐﱿﱠ، وأما الأحكام فـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، وأما التذكير فمن قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ﴾، إلى آخرها، فصارت بهذا أما لأنه يتفرع عنها كل نبت. وقيل صارت أما لأنها مقدمة على القرآن بالقبلية والأم قبل البنت. وقيل سميت فاتحة لأنها تفتح أبواب الجنة على وجوه مذكورة في مواضعها، وقال أبو الحكم بن برجان في كتاب الإرشاد وجملة القرآن تشتمل على ثلاثة علوم علم أسماء الله تعالى وصفاته ثم علم النبوة وبراهينها ثم علم التكليف والمحنة قال وهو أعسر لإغرابه وقلة انصراف الهمم إلى تطلبه مكانه، وقال غيره القرآن يشتمل على أربعة أنواع من العلوم أمر ونهي وخبر واستخبار وقيل سنة وزاد الوعد والوعيد .. وقال محمد بن جرير الطبري يشتمل على ثلاثة أشياء التوحيد والأخبار والديانات ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»، وهذه السورة تشمل التوحيد كله، وقال علي بن عيسى القرآن يشتمل على ثلاثين شيئا الإعلام والتنبيه والأمر والنهي والوعد والوعيد ووصف الجنة والنار وتعليم الإقرار باسم الله وصفاته وأفعاله وتعليم الاعتراف بإنعامه والاحتجاج على المخالفين والرد على الملحدين والبيان عن الرغبة والرهبة الخير والشر والحسن والقبيح ونعت الحكمة وفضل المعرفة ومدح الأبرار وذم الفجار والتسليم والتحسين والتوكيد والتفريع والبيان عن ذم الإخلاف وشرف الأداء.. قال القاضي أبو المعالي عزيزي وعلى التحقيق أن تلك الثلاثة التي قالها محمد بن جرير تشمل هذه كلها بل أضعافها فإن القرآن لا يستدرك ولا تحصى غرائبه وعجائبه، قال تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾.. وقال غيره علوم ألفاظ القرآن أربعة الإعراب وهو في الخبر والنظم وهو القصد نحو: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ﴾، معنى باطن نظم بمعنى ظاهر وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ﴾، كأنه قيل قالوا ومن يبدأ الخلق ثم يعيده فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول الله يبدأ الخلق، لفظ ظاهر نظم بمعنى باطن، والتصريف في الكلمة كأقسط عدل وقسط جار وبعد ضد قرب وبعد هلك والاعتبار وهو معيار الأنحاء الثلاثة وبه يكون الاستنباط والاستدلال وهو كثير منه ما يعرف بفحوى الكلام ومعنى اعتبرت الشيء طلبت بيانه عبرت الرؤيا بينتها قال الله

تعالى: ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ ﴾، بعد ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ ﴾، دل على أن انتقامه بالخروج من الدار من أعظم الوجوه وأول الحشر دل على أن لها توابع لأن أول لا يكون إلا مع آخر وكان هذا في بني النضير ثم أهل نجران ﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ﴾، إلا بنبأ وأنهم يستقلون عدد من كان مع النبي صلى الله عليه وسلم، ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ ﴾، فيه دليل على أن الإخراج مثل العذاب في الشدة إذ جعل بدله.. وقد يتعدد الاعتبار نحو أتاني غير زيد أي أتياه أو أتاه غير زيد لا هو لو شئت أنت لم أفعل أمرتني أو نهيتني قال الله تعالى: ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا ﴾، رد عليهم بأن الله لا يأمر بالفحشاء بدليل قوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾، ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ﴾، فالاعتبار إباحة ومن الاعتبار ما يظهر بآي أخر كقوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾، فهذه تعتبر بآخر الواقعة من أن الناس على ثلاثة منازل أي أحل كل فريق في منزلة له والله بصير بمنازلهم. ومنه ما يظهر بالخبر كقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ ﴾، بمعنى الحديث إن اليهود قالوا لو جاء به ميكائيل لاتبعناك لأنه يأتي بالخير وجبريل لم يأت بالخير قط وأي خير أجل من القرآن، ومن ضروب النظم قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ﴾، إن حمل على أن يعتبر أن العزة له لم ينتظم به ما بعده وإن حمل على معنى أن يعلم لمن العزة انتظم).

أما عن علم المناسبة فقد قال رحمه الله تعالى (ج١/ ص٣٥- ٣٦) ما نصه: (معرفة المناسبات بين الآيات، وقد أفرده بالتصنيف الأستاذ أبو جعفر بن الزبير شيخ الشيخ أبي حيان وتفسير الإمام فخر الدين فيه شيء كثير من ذلك. واعلم أن المناسبة علم شريف تحزر به العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول والمناسبة في اللغة المقاربة وفلان يناسب فلانا أي يقرب منه ويشاكله ومنه النسيب الذي هو القريب المتصل كالأخوين وابن العم ونحوه وإن كانا متناسبين بمعنى رابط بينهما وهو القرابة ومنه المناسبة في العلة في باب القياس الوصف المقارب للحكم لأنه إذا حصلت مقاربته له ظن عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم ولهذا قيل المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها ومرجعها والله أعلم إلى معنى ما رابط بينهما

عـام أو خاص عقلي أو حسي أو خيالي وغير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني كالـسبب والمسبب والعلـة والمعلـول والنظـيرين والضدين ونحوه أو التلازم الخارجي كالمـرتب عـلى تـرتيب الوجـود الواقـع في باب الخبر وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخـذا بأعـناق بعـض فـيقوي بـذلك الارتـباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجـزاء، وقـد قـل اعتـناء المفسرين بهذا النوع لدقته وممن أكثر منه الإمام فخر الـدين الـرازي وقال في تفسيره أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط، وقال بعـض الأئمـة مـن محاسـن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض لئلا يكون منقطعا وهذا النوع يهملـه بعـض المفـسرين أو كثـير مـنهم وفوائده غزيرة قال القاضي أبو بكر بن العربي في سراج المـريدين ارتـباط آي القـرآن بعـضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله عز وجل لنا فيه فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه ، وقال الشيخ أبو الحسن الشهراباني أول من أظهر ببغداد علم المناسبة ولم نكن سمعناه من غيره هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري وكان غزير العلم في الـشريعة والأدب وكان يقول على الكرسي إذا قرىء عليه الآية لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة ..انتهى).

وتأمـل أخي القارئ الكريم هذا التصنيف العجيب الذي أورده صاحب الإتقان في علوم القرآن في معرض تعداده لبعض أوجه الإعجاز وأصناف العلوم القرآنية(١):

١ – قـال ابـن مـسعود إذا حدثـتكم بحـديث أنـبأتكم بتـصديقه من كتاب الله تعالى أخرجهما ابن أبي حاتم.

٢ – وقال الشافعي أيضا ليست تنزل بأحد في الدين نازلة إلا في كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها فإن قيل من الأحكام ما ثبت ابتداء بالسنة قلنا ذلك مأخوذ من

(١) الإتقان (ج: ٢ ص: ٣٣١-٣٣٩).

كتاب الله في الحقيقة لأن كتاب الله أوجب علينا اتباع الرسول وفرض علينا الأخذ بقوله. وقال الشافعي مرة بمكة سلوني عما شئتم أخبركم عنه في كتاب الله فقيل له ما تقول في المحرم يقتل الزنبور فقال بسم الله الرحمن الرحيم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا. وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن حراش عن حذيفة بن اليمان عن النبي أنه قال اقتدوا باللذين من بعدي أبو بكر وعمر. وحدثنا سفيان عن مسعر بن كدام عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب أنه أمر بقتل المحرم الزنبور. وأخرج البخاري عن ابن مسعود أنه قال لعن الله الواشمات والمتوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله تعالى فبلغ ذلك امرأة من بني أسد فقالت له إنه بلغني أنك لعنت كيت كيت فقال ومالي لا ألعن من لعن رسول الله وهو في كتاب الله تعالى فقالت لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه كما تقول قال لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه أما قرأت وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا قالت بلى قال فإنه قد نهى عنه. وحكى ابن سراقة في كتاب الإعجاز عن أبي بكر بن مجاهد أنه قال يوما ما شيء في العالم إلا وهو في كتاب الله فقيل له فأين ذكر الخانات فيه فقال في قوله ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم فهي الخانات.

٣- وقال ابن برجان ما قال النبي من شيء فهو في القرآن به أو فيه أصله قرب أو بعد فهمه من فهمه وعمه عنه من عمه وكذا كل ما حكم به أو قضى وإنما يدرك الطالب من ذلك بقدر اجتهاده وبذل وسعه ومقدار فهمه. وقال غيره ما من شيء إلا يمكن استخراجه من القرآن لمن فهمه الله حتى أن بعضهم استنبط عمر النبي ثلاثا وستين سنة من قوله في سورة المنافقين ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها فإنها رأس ثلاث وستين سورة وعقبها بالتغابن ليظهر التغابن في فقده.

٤- وقال ابن الفضل المرسي في تفسيره جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علما حقيقة إلا المتكلم بها ثم رسول الله خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى ثم ورث ذلك عنه معظم سادات الصحابة وأعلامهم مثل الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن

عباس حتى قال لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى ثم ورث عنهم التابعون بإحسان ثم تقاصرت الهمم وفترت العزائم وتضاءل أهل العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه فنوعوا علومه وقامت كل طائفة بفن من فنونه فاعتنى قوم بضبط لغاته وتحرير كلماته ومعرفة مخارج حروفه وعددها وعدد كلماته وآياته وسوره وأحزابه وأنصافه وأرباعه وعدد سجداته والتعليم عند كل عشر آيات إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة والآيات المتماثلة من غير تعرض لمعانيه ولا تدبر لما أودع فيه فسموا القراء.

٥- واعتنى النحاة بالمعرب منه والمبني من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها وضروب الأفعال واللازم والمتعدي ورسوم خط الكلمات وجميع ما يتعلق به حتى إن بعضهم أعرب مشكله وبعضهم أعربه كلمة كلمة.

٦- واعتنى المفسرون بألفاظه فوجدوا منه لفظا يدل على معنى واحد ولفظا يدل على معنيين ولفظا يدل على أكثر فأجروا الأول على حكمه وأوضحوا معنى الخفي منه وخاضوا في ترجيح أحد محتملات ذي المعنيين والمعاني وأعمل كل منهم فكره وقال بما اقتضاه نظره.

٧- واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية مثل قوله تعالى لو كان فيهما ءالهة إلا الله لفسدتا إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله ووجوده وبقائه وقدمه وقدرته وعلمه وتنزيهه عما لا يليق به وسموا هذا العلم بأصول الدين.

٨- وتأملت طائفة منهم معاني خطابه فرأت منها ما يقتضي العموم ومنها ما يقتضي الخصوص إلى غير ذلك فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز وتكلموا في التخصيص والإخبار والنص والظاهر والمجمل والمحكم والمتشابه والأمر والنهي والنسخ إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة واستصحاب الحال والاستقراء وسموا هذا الفن أصول الفقه.

٩- وأحكمت طائفة صحيح النظر وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام فأسسوا أصوله وفرعوا فروعه وبسطوا القول في ذلك بسطا حسنا وسموه بعلم الفروع وبالفقه أيضاً.

١٠- وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة والأمم الخالية ونقلوا أخبارهم ودونوا آثارهم ووقائعهم حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء وسموا ذلك بالتاريخ والقصص.

١١- وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ التي تقلقل قلوب الرجال وتكاد تدكدك الجبال فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد والتحذير والتبشير وذكر الموت والمعاد والنشر والحشر والحساب والعقاب والجنة والنار فصولا من المواعظ وأصولا من الزواجر فسموا بذلك الخطباء والوعاظ.

١٢- واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير مثل ما ورد في قصة يوسف في البقرات السمان وفي منامي صاحبي السجن وفي رؤياه الشمس والقمر والنجوم ساجدة وسموه تعبير الرؤيا واستنبطوا تفسير كل رؤيا من الكتاب فإن عز عليهم إخراجها منه فمن السنة التي هي شارحة للكتاب فإن عسر فمن الحكم والأمثال ثم نظروا إلى اصطلاح العوام في مخاطباتهم وعرف عاداتهم الذي أشار إليه القرآن بقوله وأمر بالعرف.

١٣- وأخذ قوم مما في آية المواريث من ذكر السهام وأربابها وغير ذلك علم الفرائض واستنبطوا منها من ذكر النصف والثلث والربع والسدس والثمن حساب الفرائض ومسائل العول واستخرجوا منه أحكام الوصايا.

١٤- ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحكم الباهرة في الليل والنهار والشمس والقمر ومنازله والنجوم والبروج وغير ذلك فاستخرجوا منه علم المواقيت.

١٥- ونظر الكتاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ وبديع النظم وحسن السياق والمبادئ والمقاطع والمخالص والتلوين في الخطاب والإطناب والإيجاز وغير ذلك فاستنبطوا منه المعاني والبيان والبديع.

١٦- ونظر فيه أرباب الإشارات وأصحاب الحقيقة فلاح لهم من ألفاظه معان ودقائق جعلوا لها أعلاما اصطلحوا عليها مثل الفناء والبقاء والحضور والخوف والهيبة والأنس والوحشة والقبض والبسط وما أشبه ذلك هذه الفنون التي أخذتها الملة الإسلامية منه.

١٧- وقد احتوى على علوم أخرى من علوم الأوائل مثل الطب والجدل والهيئة والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة وغير ذلك أما الطب فمداره على حفظ نظام الصحة واستحكام القوة وذلك إنها باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة وقد جمع ذلك في آية واحدة وهي قوله تعالى وكان بين ذلك قواما وعرفنا فيه بما يعيد نظام الصحة بعد اختلاله وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله تعالى شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ثم زاد على طب الأجسام بطب القلوب وشفاء الصدور.

١٨- وأما الهيئة ففي تضاعيف سوره من الآيات التي ذكر فيها ملكوت السموات والأرض وما بث في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات.

١٩- وأما الهندسة ففي قوله انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب، الآية.

٢٠- وأما الجدل فقد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج والقول بالموجب والمعارضة وغير ذلك شيئا كثيرا ومناظرة إبراهيم نمرود ومحاجته قومه أصل في ذلك عظيم.

٢١- وأما الجبر والمقابلة فقد قيل إن أوائل السور فيها ذكر مدد وأعوام وأيام لتواريخ أمم سالفة وإن فيها تاريخ بقاء هذه الأمة وتاريخ مدة أيام الدنيا وما مضى وما بقي مضروب بعضها في بعض.

٢٢- وأما النجامة ففي قوله أو أثارة من علم فقد فسره بذلك ابن عباس.

٢٣- وفيه أصول الصنائع وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها كالخياطة في قوله وطفقا يخصفان والحدادة آتوني زبر الحديد وألنا له الحديد، الآية، والبناء في آيات والنجاة واصنع الفلك بأعيننا والغزل نقضت غزلها والنسج كمثل العنكبوت اتخذت بيتا

والفلاحة أفرأيتم ما تحرثون الآيات. وكذا الصيد في آيات والغوص كل بناء وغواص وتستخرجوا منه حلية، والصياغة واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا، والزجاجة صرح ممرد من قوارير المصباح في زجاجة، والفخارة فأوقد لي يا هامان على الطين والملاحة أما السفينة الآية، والكتابة علم بالقلم، والخبز أحمل فوق رأسي خبزا، والطبخ بعجل حنيذ، والغسل والقصارة وثيابك فطهر، قال الحواريون وهم القصارون، والجزارة إلا ما ذكيتم والبيع والشراء في آيات. والصبغ صبغة الله جدد بيض وحمر، والحجارة وتنحتون من الجبال بيوتا، والكيالة والوزن في آيات، والرمي وما رميت إذ رميت وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، وفيه من أسماء الآلات وضروب المأكولات والمشروبات والمنكوحات وجميع ما وقع ويقع في الكائنات ما يحقق معنى قوله ما فرطنا في الكتاب من شيء انتهى كلام المرسي ملخصا.

٢٤- وقال ابن سراقة من بعض وجوه إعجاز القرآن ما ذكر الله فيه من أعداد الحساب والجمع والقسمة والضرب والموافقة والتأليف والمناسبة والتنصيف والمضاعفة ليعلم بذلك أهل العلم بالحساب أنه صادق في قوله وأن القرآن ليس من عنده إذ لم يكن ممن خالط الفلاسفة ولا تلقى الحساب وأهل الهندسة.

٢٥- وقال الراغب إن الله تعالى كما جعل نبوة النبيين نبينا محمد مختتمة وشرائعهم بشريعته من وجه منتسخة ومن وجه مكملة متممة جعل كتابه المنزل عليه متضمنا لثمرة كتبه التي أولاها أولئك كما نبه عليه بقوله يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة وجعل من معجزة هذا الكتاب أنه مع قلة الحجم متضمن للمعنى الجم بحيث تقصر الألباب البشرية عن إحصائه والآلات الدنيوية عن استيفائه كما نبه عليه بقوله ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله فهو وإن كان لا يخلو للناظر فيه من نور ما يريه ونفع ما يوليه كالبدر من حيث التفت رأيته يهدي إلى عينيك نورا ثاقبا كالشمس في كبد السماء وضوءها يغشى البلاد مشارقا ومغاربا.

٢٦- وأخرج أبو نعيم وغيره عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قال قيل لموسى عليه السلام يا موسى إنما مثل كتاب أحمد في الكتب بمنزلة وعاء فيه لبن كلما مخضته أخرجت زبدته.

٢٧- وقـال القـاضي أبـو بكـر بـن العربي في قانون التأويل علوم القرآن خمسون علما وأربعمائـة علـم وسـبعة آلاف علـم وسـبعون ألف علم على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة إذ لكل كلمة ظهر وبطن وحد ومطلع وهذا مطلق دون اعتبار تركيب وما بينها من روابـط وهـذا ما لا يحصى ولا يعلمه إلا الله قال وأما علوم القرآن فثلاثة توحيد وتذكير وأحكـام فالتوحـيد يـدخل فيه معرفة المخلوقات ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله والتذكـير مـنه الـوعد والوعـيد والجـنة والـنار وتـصفية الظاهر والباطن والأحكام منها التكاليف كلها وتبيين المنافع.

٢٨- والمـضار والأمـر والنهـي والـندب ولـذلك كانت الفاتحة أم القرآن لأن فيها الأقـسام الـثلاثة وسورة الإخلاص ثلثه لاشتمالها على أحد الأقسام الثلاثة وهو التوحيد. وقـال ابن جرير القرآن يشتمل على ثلاثة أشياء التوحيد والإخبار والديانات ولهذا كانت سـورة الإخـلاص ثلثه لأنها تشمل التوحيد كله. وقال علي بن عيسى القرآن يشتمل على ثلاثين شيئا الإعلام والتشبيه والأمر والنهي والوعد والوعيد ووصف الجنة والنار وتعلم الإقـراء بـسم الله وبـصفاته وأفعالـه وتعليم الاعتراف بأنعامه والاحتجاج على المخالفين والـرد عـلى الملحـدين والبـيان عن الرغبة والرهبة والخير والشر والحسن والقبيح ونعت الحكمة وفضل المعرفة ومدح الأبرار وذم الفجار والتسليم والتحسين والتوكيد والتقريع والبـيان عـن ذم الأخـلاق وشرف الآداب. وقـال شـيذلة وعلى التحقيق إن تلك الثلاثة التـي قالهـا ابـن جريـر تـشمل هـذه كلهـا بل أضعافها فإن القرآن لا يستدرك ولا تحصى عجائبه.

٢٩- ويقـول صـاحب الإتقان أن كتاب الله العزيز قد اشتمل على كل شيء أما أنواع العلـوم فلـيس مـنها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها وفيه عجائب المخلـوقات وملكـوت السموات والأرض وما في الأفق الأعلى وتحت الثرى وبدء الخلق وأسـماء مـشاهير الرسـل والملائكـة وعـيون أخبار الأمم السالفة كقصة آدم مع إبليس في إخـراجه من الجنة وفي الولد الذي سماه عبد الحارث ورفع إدريس وغرق قوم نوح وقصة عاد الأولى والثانية وثمود والناقة وقوم يونس وقوم شعيب الأولين والآخرين وقوم لوط

وقوم تبع وأصحاب الرس وقصة إبراهيم في مجادلة قومه ومناظرته نمرود ووضعه إسماعيل مع أمه بمكة وبنائه البيت وقصة الذبيح وقصة يوسف وما أبسطها وقصة موسى في ولادته وإلقائه في اليم وقتل القبطي ومسيره إلى مدين وتزوجه بنت شعيب وكلامه تعالى بجانب الطور ومجيئه إلى فرعون وخروجه وإغراق عدوه وقصة العجل والقوم الذين خرج بهم وأخذتهم الصعقة وقصة القتيل وذبح البقرة وقصته مع الخضر وقصته في قتال الجبارين وقصة القوم الذين ساروا في سرب من الأرض إلى الصين وقصة طالوت وداود مع جالوت وفتنته وقصة سليمان وخبره مع ملكة سبأ وفتنته وقصة القوم الذين خرجوا فرارا من الطاعون فأماتهم الله ثم أحياهم وقصة ذي القرنين ومسيره إلى مغرب الشمس ومطلعها وبنائه السد وقصة أيوب وذي الكفل وإلياس وقصة مريم وولادتها وعيسى وإرساله ورفعه وقصة زكريا وابنه يحيى وقصة أصحاب الكهف وقصة أصحاب الرقيم وقصة بخت نصر وقصة الرجلين اللذين لأحدهما الجنة وقصة أصحاب الجنة وقصة مؤمن آل يس وقصة أصحاب الفيل. وفيه من شأن النبي دعوة إبراهيم به وبشارة عيسى وبعثه وهجرته ومن غزواته سرية ابن الحضرمي في البقرة وغزوة بدر في سورة الأنفال وأحد في آل عمران وبدر الصغرى فيها والخندق في الأحزاب والحديبية في الفتح والنضير في الحشر وحنين وتبوك في براءة وحجة الوداع في المائدة ونكاحه زينب بنت جحش وتحريم سريته وتظاهر أزواجه عليه وقصة الإفك وقصة الإسراء وانشقاق القمر وسحر اليهود إياه. وفيه بدء خلق الإنسان إلى موته وكيفية الموت وقبض الروح وما يفعل بها بعد وصعودها إلى السماء وفتح الباب للمؤمنة وإلقاء الكافرة وعذاب القبر والسؤال فيه ومقر الأرواح وأشراط الساعة الكبرى وهي نزول عيسى وخروج الدجال ويأجوج ومأجوج والدابة والدخان ورفع القرآن والخسف وطلوع الشمس من مغربها وغلق باب التوبة وأحوال البعث من النفخات الثلاث نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفخة القيام والحشر والنشر وأهوال الموقف وشدة حر الشمس وظل العرش والميزان والحوض والصراط والحساب لقوم ونجاة آخرين منه وشهادة الأعضاء وإتيان الكتب بالأيمان والشمائل وخلف الظهر والشفاعة والمقام المحمود والجنة وأبوابها وما فيها من الأنهار والأشجار والثمار والحلي والأواني والدرجات ورؤيته تعالى

والنار وأبوابها وما فيها من الأودية وأنواع العقاب وألوان العذاب والزقوم والحميم. وفيه جميع أسمائه تعالى الحسنى كما ورد في حديث ومن أسمائه مطلقا ألف اسم ومن أسماء النبي جملة، وفي شعب الإيمان البضع والسبعون وشرائع الإسلام الثلاثمائة وخمسة عشر.

وهذا الذي ذكرناه لكم غيض من فيض ما بينه أهل العلوم القرآنية من سلفنا الصالح فأين المعترضين اليوم على العاملين في هذا الباب من قول هؤلاء الأئمة المهتدين.

نشأة علوم القرآن وتطوره:

استمر الصحابة رضوان الله عليهم – يتناقلون معاني القرآن الكريم وتفسير بعض آياته على تفاوت فيما بينهم، لتفاوت قدرتهم على الفهم، وتفاوت ملازمتهم لرسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وتناقل عنهم ذلك تلاميذهم من التابعين. وما روى عن الصحابة والتابعين يتناول:

علم التفسير، وعلم غريب القرآن، وعلم الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، إلى غير ذلك مما له صلة بالقرآن الكريم. ويطلق على هذه العلوم (علوم القرآن).

ولقد ظلت علوم القرآن تروى بالتلقين والمشافهة على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، ثم على عهد أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما –.

وفي خلافة عثمان بن عفان – رضي الله عنه – بدأ اختلاط العرب بالأعاجم، فاقتضت الدواعي جمع المسلمين على مصحف واحد فتم ذلك، واجتمعوا على مصحف إمام حيث نسخ منه عدة مصاحف للأمصار، وأمر الخليفة عثمان رضي الله عنه – وباتفاق– مع الصحابة حرق كل ما عداها دفعاً للخلاف والفتنة.

ويمكن القول: إن الممهدين لعلم التفسير هم الخلفاء الأربعة، وابن عباس، وابن مسعود، وزيد بن ثابت، وأبيّ بن كعب، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير. وكلهم من الصحابة – رضوان الله عليهم – ومما تجدر الإشارة إليه أن ما روى عنهم لا يتضمن تفسيراً كاملاً للقرآن، وإنما يقتصر على معاني بعض الآيات، بتفسير غامضها وتوضيح مجملها.

ثم جاء دور التابعين حيث اشتهر منهم جماعة أخذوا عن الصحابة واجتهدوا في

تفسير بعض الآيات وعلى رأسهم: مجاهد بن جبر المكي، وعطاء بن يسار، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، وزيد بن أسلم وعنه أخذ ابنه عبد الرحمن وغيرهم. وهؤلاء جميعاً هم الواضعون لما نسميه علم التفسير، وعلم أسباب النزول وعلم المكي والمدني وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم غريب القرآن.

وفي القرن الثاني الهجري جاء عصر التدوين فألفت كتب في أنواع علوم القرآن وفي مقدمتها التفسير باعتباره أم العلوم القرآنية لما فيه من التعرض لها في كثير من المناسبات عند شرح الكتاب العزيز.

أول من كتب في التفسير:

يعتبر شعبة بن الحجاج وسفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح أول من كتبوا في التفسير، وكانت تفاسيرهم جامعة لأقوال الصحابة والتابعين. وهم من علماء القرن الثاني الهجري.

ثم تلاهم ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ ويعتبر تفسيره من أجل التفاسير وأعظمها.

وإلى جانب هذا التفسير المأثور عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وعن الصحابة والتابعين - رضي الله عنهم - نشأ التفسير بالرأي حيث فسر القرآن الكريم كله.

أما علوم القرآن الأخرى ففي مقدمة المؤلفين فيها علي بن المديني شيخ البخاري، إذ ألف في أسباب النزول، وأبو عبيد القاسم بن سلام إذ كتب في الناسخ والمنسوخ. وكلاهما من علماء القرن الثالث الهجري. ثم تتابع العلماء في التأليف.

ويرى بعض الباحثين: أن اصطلاح (علوم القرآن) بالمعنى الجامع الشامل لم يبدأ ظهوره إلا بكتاب البرهان في علوم القرآن لمؤلفه علي بن إبراهيم بن سعيد المشهور بالجوفي والمتوفى سنة ٤٣٠هـ، ويقع هذا الكتاب في ثلاثين مجلداً.

ثم تتابع العلماء من بعده حتى عصرنا الحاضر يكتبون ويؤلفون في هذا الفن خدمة للقرآن الكريم.

ومن أهمهم وأشهرهم ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ الذي ألف كتابه (فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن)، ثم بدر الدين الزركشي المتوفى سنة ٨٢٤هـ ألف كتابه (البرهان في علوم القرآن)، ثم جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ ألف كتابه المشهور (الإتقان في علوم القرآن).

ولم يكن نصيب علوم القرآن من التأليف في هذا العصر أقل من العلوم الأخرى، فقد أقبل كثير من العلماء على تصنيف الكتب حول القرآن وتاريخه وعلومه، واتجهوا اتجاهاً سديداً في معالجة الموضوعات القرآنية بأسلوب العصر أمثال مصطفى صادق الرافعي في كتابه إعجاز القرآن، والشيخ محمد العظيم الزرقاني في كتابه مناهل العرفان في علوم القرآن، بالإضافة إلى مؤلفات أخرى لا يتسع المجال إلى ذكرها.

المبحث الثاني

مصطلحات ومعاني في علوم القرآن الكريم(١):

١- **النص**: هو في اللغة الظهور والارتفاع، وفي الاصطلاح هو ما دل على معنى واحد لا يحتمل غيره (أنظر القاموس ٢/ ٣١٩، والتعريفات للجرجاني ١٢٦، وشرح التنقيح للقرافي ص٣٦، وانظر أمالي الدلالات للشيخ عبد الله بن بيه ص٨٣). ومثاله قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، [الاخلاص:١]، وقوله تعالى: ﴿ ...فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ... ﴾، [البقرة: من الآية١٩٦] – أنظر الرسالة للإمام الشافعي فقرة ٥٦،٩٨–.

٢- **الظاهر**: الواضح البارز، وفي الاصطلاح هو المعنى الذي يسبق إلى فهم السامع من المعاني التي يحتملها اللفظ (أنظر لسان العرب لابن منظور ٤/ ٥٢٣، والتعريفات للجرجاني ١٤٣، وسلاسل الذهب للزركشي بتحقيق الدكتور محمد المختار بن محمد

(١) عن كتاب الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (تأريخه وضوابطه)، عبد الله بن عبد العزيز المصلح، ط/ ١ ، هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة بمكة المكرمة، ١٤١٧هـ.

الأمين ص١٩٦). وكمثال (الأسد) لأنه متردد بين الرجل الشجاع والحيوان المفترس، ولا أنه في الأخير أرجح وأقرب. ولاشتراك النص والظاهر في الظهور والانكشاف لغة، وقع الخلاف بينهما اصطلاحاً، والفرق بينهما أن النص يدل على غاية الظهور، بينما الظاهر يدل على مطلق الظهور.

يقول عبد الله بن بيه في كتابه (أمالي الدلالات ص٩٠) ما نصه: (إن الإظهار المتعدي أقوى من الظهور اللازم، والنص من الأول والظاهر من الثاني، فالأول أعم من الثاني ويدل على أقصى غاية الظهور ومنتهاه، والظاهر يدل على مطلق الظهور).

٣- **المؤول**: من آل يؤول، تقول آل الأمر إلى كذا إذا رجع إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿...فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، [آل عمران: من الآية٧]، أي طلب ما يرجع إليه معناه. وفي الاصطلاح هو إخراج اللفظ عن ظاهره إلى وجه مرجوح يحتمله لدليل وقرينة أو قياس (أنظر التعريفات للجرجاني ص٢٨، وتقريب الأصول إلى علم الأصول ص١٦٢). وهذا التأويل إن كان قوياً فهو الصحيح، وإن كان ضعيفاً فهو الفاسد، وهذا يعني أن ليس كل تأويل مقبول. وكمثل على التأويل الصحيح حمل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ... ﴾، [المائدة: من الآية٦]، على أنها تعني العزم على القيام إليها كما في نظيرها وهو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، [النحل:٩٨]. وكذلك حمل الجار الوارد في حديث (الجار أحق بصقبه) على الجار المشارك لحديث (**إذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفاعة**).

٤- **المنطوق**: لغة اسم مفعول وهو الملفوظ، واصطلاحاً ما دل عليه اللفظ في محل النطق (أنظر نشر البنود على مراقي السعود ١/ ٨٩). ومثاله الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري – ٣/ ٢٩٨– ومسلم –٤/ ٢١٣– : (الولاء لمن أعتق)، فمنطوق إثبات الولاء للمعتق، ولا خلاف بين أهل العلم في الاحتجاج بالمنطوق (أنظر شرح

الكوكب المنير ٣/ ٤٧٣، إرشاد الفحول للشوكاني، ص١٧٨).

٥- المفهوم: لغة اسم مفعول من الفهم، واصطلاحاً ما دل على اللفظ في غير محل النطق، وهو أربعة أقسام:

أ- مفهوم موافقة: وهو إثبات حكم المنطوق به للمسكوت عنه، وينقسم إلى نوعين أولهما ما يعرف بـ (الأولى من المنطوق) مثل قوله تعالى: ﴿...فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا...﴾، [الإسراء: من الآية٢٣]، فالنهي عن الضرب المفهوم أولى من النهي عن التأفيف المنطوق. أما الآخر فهو المساوي مثل مساواة إتلاف مال اليتيم بأكله أو حرقه المنهي عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾، [النساء: ١٠]، وهو حجة وإن وقع الخلاف في تسميته (أنظر شرح الكوكب المنير ٣/ ٤٨٣، إرشاد الفحول للشوكاني، ص١٧٩-١٨٣).

ب- مفهوم المخالفة: ويطلق عليه المفهوم غالباً، وهو إثبات نقيض حكم المنطوق به للمسكوت عنه (مذكرة الشيخ محمد أمين الشنقيطي ص٢٣٧، وإرشاد الفحول ص١٧٩، تقريب الأصول ص١٦٩)، وهو حجة عند جمهور العلماء على خلاف في ترتيبه، وهو عشرة أنواع:

- مفهوم العلة نحو: (ما أسكر فهو حرام)، أنظر البخاري ٣/ ٢٢٣.
- مفهوم الصفة نحو: (في سائمة الغنم الزكاة) أنظر البخاري ١/ ٢٥٣.
- مفهوم الشرط نحو قوله تعالى: ﴿...وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ...﴾، [الطلاق: من الآية٦].
- مفهوم الاستثناء نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾، [العنكبوت: ١٤].
- مفهوم الغاية نحو قوله تعالى: ﴿...ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ...﴾، [البقرة: من

الآية١٨٧].

- مفهوم الحصر ومثاله الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم: (إنما الولاء لمن أعتق)، وهو أقواها.
- مفهوم الزمان نحو: ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾، [المزمل:٢].
- مفهوم المكان نحو: ﴿ ...وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِ... ﴾، [البقرة: من الآية١٨٧].
- مفهوم العدد نحو: ﴿ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً ﴾، [النور: من الآية٤].
- مفهـوم اللقـب نحـو (في الغنم زكاة)، وهو أضعفها، وهو تعليق الحكم على أسماء الذوات.

على أن ترتيب وتفصيل هذه الأنواع قد يختلف في مصادر أخرى وله شروط وقرائن.

٦- **العام**: هو الشامل، وفي الاصطلاح، هو اللفظ المستغرق لجميع ما يصلح له دفعة بلا حصر (القاموس ٤/ ١٩٤، سلاسل الذهب للزركشي، ص١٥٠). وأدوات العموم هي: (كل، جميع، أجمع والمعرف بالألف التي هي للجنس، وكذلك اسم الجمع مثل القوم، الرهط). والنكرة في سياق النفي كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَ فِيهِ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾، [البقرة:٢]. وفي سياق النهي كقوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا ﴾، [الإنسان:٢٤]. أو في سياق الشرط مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِنۡ أَحَدٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٌ لَّا يَعۡلَمُونَ ﴾، [التوبة:٦]. أو في سياق الامتنان مثل قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾، [الفرقان:٤٨]. (راجع تقريب الأصول، ص ١٣٨– ١٣٩، والمذكرة، ص٢٠٤–٢٠٧).

والأسماء الموصولة مثل (الذي، التي، وثنيهما وجمعهما، من، ما، أي، متى في الزمان، أين وحيث في المكان، مهما).. (أنظر إرشاد الفحول للشوكاني ص١١٥، والمذكرة ص٢٠٥).

٧- **الخاص**: لغة ضد العام، واصطلاحاً هو قصر العام على بعض أفراده لدليل، والتخصيص هو جعل الشيء خاصاً، وعرف اصطلاحاً بأنه: إخراج بعض ما يتناوله

للفظ من الحكم بما يدل على ذلك قبل العمل به (راجع البرهان ١/ ٤٠٠).. والمخصص هو الدليل الذي يتم به ذلك (شرح الكوكب المنير ٣/ ٢٧٧، بيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب ٢/ ٢٣٦).. ومخصصات العموم نوعان:

أ- متصلة وهي:

أولاً: الاستثناء، ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾، [النور: ٤-٥].

ثانياً: الشرط، مثاله قوله تعالى: ﴿ ...وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ... ﴾، [النساء من الآية: ١١].

ثالثاً: الصفة، ومثاله قوله تعالى: ﴿ ...مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ.. ﴾، [النساء من الآية: ٢٥].

رابعاً: الغاية، مثل قوله تعالى: ﴿ ...وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ... ﴾، [البقرة من الآية: ٢٢٢].

ب- منفصلة وهي:

أولاً: العقل: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾، [الزمر: ٦٢].

ثانياً: الحس، وهو الدليل المأخوذ من الحواس.

ثالثاً: منطوق الكتاب، كقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ... ﴾، [البقرة من الآية: ٢٢٨]. حيث خص بعمومه بقوله تعالى: ﴿ ...وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ... ﴾، [الطلاق: من الآية ٤].

رابعاً: مفهوم الكتاب، كمفهوم قوله تعالى: ﴿ ....فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ... ﴾، [الإسراء: من الآية ٢٣]. وهو منع حبس الوالد في الدين، فيكون مخصصاً لقوله صلى الله عليه وسلم: «**لي الواجد ظلم يحل عرضه وعقوبته**».

خامساً: منطوق السنة، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «**ليس فيما دون خمس أوسق صدقة**»، فإنه مخصص لقوله صلى الله عليه وسلم: «**فيما سقت السماء العشر**».

سادساً: فعل النبي صلى الله عليه وسلم: مثل ما ثبت من أنه كان يأمر بعض نسائه أن تشد إزارها ثم يباشرها وهي حائض، فعلم أن هذا مخصص لقوله تعالى: ﴿...وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَ...﴾، [البقرة: من الآية ٢٢٢].

سابعاً: إقراره صلى الله عليه وسلم: مثل استبشاره بقول مجزز المدلجي ﷺ (هذه الأقدام بعضها من بعض).

ثامناً: الإجماع على تحريم المملوكة إذا كانت أختاً من الرضاع، فيكون مخصصاً لقوله تعالى: ﴿....أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُكُمۡ....﴾، [النساء: من الآية ٣].

تاسعاً: القياس، مثل قياس العبد على الأمة في حد الزنا الوارد في قوله تعالى: ﴿...فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَـٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ...﴾، [النساء: من الآية ٢٥]. فيكون هذا مخصص لقوله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ...﴾، [النور: من الآية ٢].

وهناك مخصصات وقع الخلاف فيها.. (عن كتاب روضة الناظر ص١٢٧، والمذكرة ص٢١٨).

٨- **المطلق**: مأخوذ من الإطلاق وهو الإرسال، وفي الاصطلاح: اللفظ المتناول لواحد لا بعينه باعتبار الحقيقة الشاملة لجنسه.

٩- **المقيد**: المقيد لغة ضد المطلق، واصطلاحاً هو :(اللفظ الدال على الماهية الموصوفة بأمر زائد عليها). مثالها قوله تعالى: ﴿....وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ....﴾، [البقرة: من الآية ٢٨٢]. فقوله تعالى (شهيدين) مطلق، قيده قوله تعالى: ﴿.... وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ....﴾، [الطلاق: من الآية ٢].

١٠- **المجمل**: المجمل لغة المجموع من قولهم: أجمل الحساب إذا جمعه، (اللسان ١١/ ١٢٧)، (بيان المختصر ٢/ ٣٥٩)، وفي الاصطلاح هو: (ما لا يفهم المراد من لفظه، ويفتقر في بيانه إلى غيره)، (أنظر تقريب الوصول ص١٦٢، وبيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب ٢/ ٣٥٩). مثاله القرء الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ

بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ....﴾، [البقرة: من الآية٢٢٨]، لأنه متردد بين الحيض والطهر (أنظر شرح المختصر ٢/ ٣٦٢).

١١- **المبين**: لغة الموضح، وفي الاصطلاح: (إخراج الشيء من الإشكال إلى الوضوح والتجلي)، (أنظر القاموس ٤/ ٢٠٤، الرسالة للإمام الشافعي ص٢١ فقرة ٥٣ فما بعد، تقريب الأصول ص١٦٣). مثاله قوله تعالى: ﴿.... أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾، [الحجر: من الآية٦٦]، بعد قوله تعالى في بداية الآية: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ....﴾، حيث أن هذا الأمر كان مجملاً ثم بين بها بعده. وأكثر البيان وقوعاً البيان بالقول، ومنه البيان بالفعل، وبالكتابة، وبالإشارة، وبالعقل، وبالحس، (أنظر أمالي الدلالات ص ١٥٨).

١٢- **الإفراد والاشتراك**: مثل لفظ النكاح فإن جعل معناه مفرداً وهو الوطأ أرجح من جعله مشتركاً بينه وبين العقد، (أنظر نشر البنود على مراقي السعود ١/ ١٣٤).

١٣- **التأصيل على الزيادة**: التأصيل هو جعل الشيء ذا أصل، ومثال تقديم التأصيل على الزيادة قوله تعالى: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾، [البلد:١]. قيل إن لا هنا زائدة، فيكون أصل الكلام (أقسم بهذا البلد، وقيل أنها غير زائدة، فيكون التقرير:(لا أقسم بهذا البلد وأنت لست فيه بل لا يعظم ويصلح للقسم إلا إذا كنت فيه، وهذا أولى، (أنظر الجامع لأحكام القرآن٢٠/ ٦٠). ثم إن القول بوجود زيادة في القرآن ولو بحرف مردود لعدة أسباب بينها العلماء الأفاضل ومنهم الدكتور أحمد الكبيسي، فيكون معنى (لا) هنا زيادة في التوكيد، والله أعلم.

١٤- **الترتيب على التقديم والتأخير**: مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ....﴾، [المجادلة: من الآية٣]. فظاهره أنه لا تجب الكفارة إلا بالوصفين المذكورين قبلها وهما (الظهار) و(العود)، وقيل فيهما تقديم وتأخير وتقديره(والذين يظاهرون من نسائهم فتحرير رقبة ثم يعودون لما كانوا من قبل الظهار، سالمين من الإثم بسبب الكفارة، وعليه فلا يكون العود شرطاً في كفارة الظهار. (أنظر تقريب الوصول ص ١٧٦)، فيقدم الترتيب على احتمال معنى التقديم والتأخير.

١٥- التأسيس والتأكيد: مثاله قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾، [الرحمن: ١٣]. فقد كررت هذه الآية تأكيداً ومبالغة، وهذا على مقتضى ظاهر اللفظ، ويلزم من ذلك أن تكون تكررت أكثر من ثلاث مرات، والتأكيد لا يزيد على ثلاث مرات، (أنظر التسهيل ٤/ ٨٣، ٨٤)، فيحمل الآلاء في كل موطن على ما تقدم قبل لفظ التكذيب، ويكون التكذيب ذكر باعتبار ما قبل ذلك اللفظ خاصة، وعلى ذلك فلا تأكيد في السورة وإنما يعتبر كل لفظ تأسيس، وكذا الحال فيما شابه ذلك في القرآن.(أنظر تقريب الوصول بتحقيق الدكتور محمد المختار ص١٧٦ هامش ٣، والجامع لأحكام القرآن ١٧/ ١٥٩-١٦٠).

١٦- البقاء على النسخ: مثال قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ....﴾، [الأنعام: من الآية١٤٥]. فالحصر في الآية يقتضي إباحة ما عدا المذكور، ومنه كل ذي ناب من السباع وذي مخلب من الطير، وقد ثبت النهي عن ذلك، فقيل إن هذا النهي ناسخ لإباحة ما زاد عن المذكور، وهو المفهوم من الحصر. وقيل إن الآية ليس فيها نسخ، وإنما زيدت عليها محرمات أخرى كالمنخنقة والموقوذة والمتردية وغيرها كما في قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، [المائدة:٣]، وعلى هذا أكثر أهل العلم. ونظيرتها نكاح المرأة على عمتها وخالتها، وهو زيادة على ما في قوله تعالى: ﴿.... وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ....﴾، [النساء: من الآية٢٤]، ونحو ذلك. (أنظر الجامع لأحكام القرآن بتصرف ٧/ ١١٥-١١٦). فالقول ببقاء الإباحة المفهوم من الحصر أولى من القول بنسخه، وهكذا.

١٧- الحقيقة وترتيب الحقائق: الحقيقة في اللغة هي ما قرأ في الاستعمال على أصل

وضعه، والمجاز ضد ذلك، (اللسان ١/ ٥٢). والحقيقة في الاصطلاح فهي اللفظ المستعمل في وضعه الأول في الاصطلاح الذي به التخاطب، (التعريفات ص ٨٩)، وأما المجاز فهو لغةً الجواز، واصطلاحاً هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له أولاً، لمناسبة بينهما مع قرينة صارفة عن المعنى الحقيقي. (أنظر اللسان ٥/ ٣٢٦، أساس البلاغة ص ٦٩، التعريفات ص٢٠٢- ٢٠٣، تقريب الوصول ص١٣٣).

١٨- **تقديم الحقيقة على المجاز**: الحقيقة مقدمة على المجاز، مثاله قول القائل: (رأيت أسداً)، فإنه متردد بين الحيوان المفترس والرجل الشجاع، فحمله على الحيوان المفترس مقدم على الرجل الشجاع ما لم توجد قرينة صارفة. والحقيقة ثلاثة أنواع هي (شرعية، عرفية، لغوية)، والشرعية مقدمة على العرفية، وهذه مقدمة على اللغوية. يقول الشيخ سيدي عبد الله في المراقي:

واللفظ محمول على الشرعي ... إن لم يكن فمطلق العرفي
فاللغوي على الجلي ولم يجب ... بحث عن المجاز في الذي انتخب

١٩- **المتشابه**: هو الذي يشبه بعضه بعضاً، إما من وجهة اللفظ أو من وجهة المعنى (أنظر المفردات في غريب القرآن ص ٢٥٤). وعرف بأنه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه، وذلك مثل وقت قيام الساعة وخروج يأجوج ومأجوج والدجال ونزول سيدنا عيسى ﷺ، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور. (القرطبي ٤/ ٩-١٠، التعريفات للجرجاني ص ٢٠٠).

٢٠- **الإسرائيليات**: وهي القصص والأخبار المنسوبة لبني إسرائيل، وهي على ثلاثة أقسام:

١- ما علمنا صحته مما بأيدينا بما يشهد له بالصدق فذلك صحيح.

٢- ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

٣- ما هو مسكوت عنه، ولا نعلم صدقه من كذبه فلا نؤمن به ولا نكذبه. (أنظر محاسن التأويل ١/ ٤٠، الإسرائيليات والموضوعات للشيخ أبي شهبة ص١٢، ابن كثير ١/ ٨).

٢١- **الظـن**: هـو الاعـتقاد الراجح مع احتمال النقيض. (أنظر التعريفات للجرجاني ص ١٤٤).

٢٢- **اليقين**: هو العلم الذي لا شك معه، وفي الاصطلاح: اعتقاد الشيء بأنه كذا مع اعـتقاد أنـه لا يمكـن إلا كـذا مطابقاً للواقع غير ممكن الزوال، أو هو العلم الحاصل بعد الشك (أنظر التعريفات للجرجاني ص ٢٥٩).

٢٣- **الـصحابة**: جمـع صـحابي وهـو من لقي النبي ﷺ مؤمناً به ومات على الإسلام. (أنظـر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر١/ ٤، مقدمة ابن الصلاح ص ١٤٦، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨/ ٢٣٥).

٢٤- **الـتابعون**: جمـع تابعي وهو من صحب الصحابي وحفظ عنهم الدين والسنن. (أنظـر كـتاب الـثقات لابـن حـيان ٤/ ٣، مقدمـة ابن صلاح ص١٥١، الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٢٣٨-٢٣٩).

المبحث الثالث

تنزلات و الكريم

عدد تنزلات القرآن الكريم[1]:

إن القـرآن الكـريم هـو دستور الحياة الدنيوية والأخروية، شرعه الله تعالى لصالحها، وكـان لا بـد من واسطة تقوم بإبلاغ هذا الدستور، حتى يؤتي ثماره، إذ من غير الممكن أن يـبلغ الله هـذا الدستور مباشرة لكل فرد فرد، وكان من الممكن أن يتلقى الرسول – صلى الله علـيه وسـلم – القـرآن عـن ربـه مرة واحدة، ودون واسطة، كما تلقى موسى – عليه الـسلام – ألـواح الـتوراة. وكـان مـن الممكـن أن ينـزل القرآن الكريم من الله تعالى على جـبريل – علـيه الـسلام – لينزل به على محمد – صلى الله عليه وسلم – دون مراحل لهذا

(١) عـن كتاب علوم القرآن الكريم، الأستاذ الشيخ عبد الرحيم فرغل البليني، تحقيق الدكتور رشيد نعمان التكريتـي، طـبع دار الرشـد، بغـداد، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م، ١٨-٢٠، بتصرف... وكذلك عن بحث وحدة علوم القرآن الكريم.

الإنزال. لكن الثابت أن للقرآن الكريم تنزلات ثلاثة هي:

١- **التنزل الأول من الله تعالى إلى اللوح المحفوظ**: نزوله إلى اللوح المحفوظ (وهو عالم علوي عظيم جعله الله تعالى من أعظم المظاهر الدالة على عظمة علمه تعالى وحكمته وقدرته النافذة في الأكوان، ويختص اللوح المحفوظ بكونه مشتملاً على تسجيل ما قضى الله وقدر، وما كان وما سيكون) بطريقة ووقت لا يعلمها إلا الله ومن أطلعه على غيبه، وكان جملة لا مفرقاً لأنه الظاهر من اللفظ عند الإطلاق ولا صارف عنه، وذلك ظاهر من قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝﴾، [البروج: ٢١-٢٢].

٢- **التنزل الثاني من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا**: ودليله قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، [الدخان:٣]، وفي سورة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، [القدر:١]. وكذلك قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ....﴾، [البقرة: من الآية١٨٥]. دلت هذه الآيات على أن القرآن الكريم أنزل في ليلة واحدة توصف بأنها مباركة أخذاً من آية سورة الدخان، وتسمى بليلة القدر من آية سورة القدر، وهي من ليالي شهر رمضان المبارك أخذاً من الآية في سورة البقرة. والقول بهذا يكون جمعاً بين هذه النصوص في العمل بها، ودفعاً للتعارض فيما بينها. ولقد علم بالأدلة القاطعة على أن القرآن الكريم أنزل على النبي - صلى الله عليه وسلم - مفرقاً على مدى ٢٣ عاماً من عمره الشريف، ولم ينزل في ليلة واحدة، فتعين أن يكون النزول الذي نوهت له هذه الآيات الثلاثة نزولاً آخر غير النزول على النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد جاءت الأخبار الصحيحة مبينة لمكان هذا النزول، وأنه في بيت العزة في السماء الدنيا، ومنها ما أخرجه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (فُصِلَ القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبي - صلى الله عليه وسلم -). وقد جاءت أخبار عديدة أخرى بهذا المعنى كلها موقوفة على ابن عباس رضي الله عنهما، غير أن لها في علوم الحديث حكم المرفوع إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - لما تقرر أن قول الصحابي ما لا مجال للرأي فيه ولم يعرف بالأخذ بالإسرائيليات

حكمه حكم المرفوع، ولا ريب أن نزول القرآن إلى بيت العزة من أنباء الغيب التي لا تعرف إلا عن المعصوم - صلى الله عليه وسلم -، وابن عباس لم يعرف بالأخذ بالإسرائيليات.

على أن هناك أقوالاً أخرى في معنى الآيات الثلاثة السابقة، ومنها أن القرآن الكريم نزل إلى السماء الدنيا في ثلاث وعشرين ليلة قدر ينزل في كل ليلة قدر منها ما يقدر الله تعالى إنزاله في كل سنة، ثم ينزل بعد ذلك منجماً في جميع السنة على النبي - صلى الله عليه وسلم -. ومنها أنه ابتديء إنزاله في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة، ومنها أنه نزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة، وأن الحفظة نجمته على جبريل في عشرين ليلة، وأن جبريل عليه السلام نجمه على النبي - صلى الله عليه وسلم - في عشرين سنة.

٣- النزول الثالث من بيت العزة منجماً عبر مراحل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - بواسطة أمين الوحي سيدنا جبريل ﷺ: وهو المرحلة الأخيرة التي منها شع نور الحق على العالمين، ووصلت هداية الله تعالى إلى الخلق أجمعين، بواسطة جبريل الأمين - عليه السلام -، هبط به على قلب سيد المرسلين، رسول الله الصادق الوعد الأمين صلى الله عليه وسلم، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾، [الشعراء].

وأما عن حكمة نزول القرآن بتلك الأشكال فيمكن فهمها مما يلي:

١- حكمة نزول القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا.

أ - تفخيم أمر القرآن وأمر من نزل عليه، وذلك بإعلام سكان السماوات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم.

ب- سر يرجع لإعجاز القرآن، في ترتيب القرآن في النزول، ثم ترتيبه في المصحف، حيث ينظره جبريل في سماء الدنيا وهو على ترتيب المصحف، ثم ينزل بآياته تباعاً على حسب الحوادث، فتوضع كل آية مكانها في المصحف وفق الترتيب في اللوح المحفوظ.

٢- حكمة نزول القرآن منجماً - أي مفرقاً بحسب المناسبات، واقتضاء الحال - من السماء الدنيا:

أ - تثبت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم وتقوية قلبه: كما قال تعالى: ﴿..كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ....﴾، [الفرقان: ٣٢]. فقد بعث الرسول صلى الله عليه وسلم في قوم جفاة، شديدة عداوتهم، كما قال تعالى: ﴿....وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾، [مريم: ٩٧]. وكانوا لا يكادون ينتهون من حملة أو مكيدة حتى يشرعوا في تدبير أخرى مثلها أو أشد منها، فكانت تنزلات القرآن بين الفينة والأخرى تواسيه وتسليه، وتشد أزره وعزيمته على تحمل الشدائد والمكارة.

ب- مواجهة ما يطرأ من أمور أو حوادث تمس الدعوة: كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾، [الفرقان: ٣٣]. وهذه حكمة جليلة لها أثرها البالغ في نجاح الدعوة، لمواجهة الوحي نفسه للطوارىء والملمات، ومن أهم ذلك ما يثيره المبطلون من الاعتراضات أو الشبهات، وهو الأصل الذي صرحت به الآية الكريمة: أي لا يأتونك بسؤال عجيب أو شبهة يعارضون بها القرآن بباطلهم العجيب إلا جئناهم بما هو الحق في نفس الأمر الدامغ لباطلهم، وهو أحسن بياناً وأوضح، وأحسن كشفاً لما بعثت له.

جـ- تعهد هذه الأمة التي أنزل عليها القرآن: وذلك لصياغتها على النهج الإسلامي القرآني علماً وعملاً، وفكراً واعتقاداً وسلوكاً، تخلقاً وعرفاً. كما قال تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾، [الإسراء: ١٠٦]. ومن مظاهر هذا الجانب أنهم كانوا قوماً أميين لا يحسنون القراءة والكتابة، فكانت الذاكرة عمدتهم الرئيسية، فلو نزل القرآن جملة واحدة لعجزوا عن حفظه.

د- التحدي والإعجاز.

هـ- تربية للرسول صلى الله عليه وسلم وتصبيره على أذى المشركين، وتثبيت قلوب المؤمنين وتسليحهم بعزيمة الصبر واليقين.

أما كيفية أخذ جبريل القرآن الكريم، فمن الأقوال المشهورة في هذا الموضوع: أن جبريل كان يحفظه من اللوح وينزل به إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وقيل: إن جبريل تلقى القرآن من الله سماعاً ونزل بما سمع.

وأما كيفية أخذ - الرسول - صلى الله عليه وسلم - القرآن من جبريل، فقد أخذ الرسول - صلى الله عليه وسلم - القرآن من جبريل بطريقتين هما:

الأول: أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان ينخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية فيأخذه.

الثاني: أن جبريل كان ينخلع من الملكية إلى البشرية حتى يأخذه الرسول منه، والأول أصعب الحالين. فأحياناً كان الملك يأتي في مثل صلصلة الجرس فيغط الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويتغير لونه ويشتد عرقه حتى ينحدر منه في اليوم الشديد البرد. وهذه الحالة كانت أشد حالات الوحي عليه. وهاتان الحالتان وردتا في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - أن الحارث بن هشام - رضي الله عنه - سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: (يا رسول الله.. كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول).

وابتدأ إنزال القرآن الكريم على الرسول - صلى الله عليه وسلم - بابتداء بعثته في سن الأربعين على الأصح، وانتهى إنزاله بقرب انتهاء حياته، فتكون المدة التي نزل فيها القرآن الكريم نحو ثلاث وعشرين سنة، ثلاث عشرة منها بمكة وعشر بالمدينة.

تنجيم القرآن الكريم:

نزل القرآن الكريم مفرقاً حسب الوقائع والحوادث ومقتضيات الأحوال ، ويسمي العلماء القطعة التي نزلت دفعة واحدة نجماً ، كأنهم ينزهون القرآن عن لفظ التقطيع والتفريق، ويشبهون أجزاءه بالنجوم، من حيث إن كل نجم له استقلاله، في الوقت الذي هو فيه جزء من مجموعة الكواكب.

قال الإمام السيوطي: الذي أستقرئ من الأحاديث الصحيحة وغيرها أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل، وقد صح نزول العشر

آيات في قصة الإفك جملة، وصح نزول (غير أولي الضرر) وحدها وهي بعض آية.

وهذا التنجيم خاص بالقرآن الكريم من بين سائر الكتب السماوية.

حكمة التنجيم:

لتنجيم القرآن الكريم – أي لنزوله مفرقاً على دفعات – حكم كثيرة بعضها يتصل بشخص الرسول – صلى الله عليه وسلم – وبعضها يتصل بالأمة، وبعضها يتصل بالنص القرآني نفسه أهمها:

١ – تثبيت فؤاد النبي – صلى الله عليه وسلم – والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾، [سورة الفرقان: آية ٣٢- ٣٣].

٢ – تيسير حفظ القرآن الكريم على النبي – صلى الله عليه وسلم – وعلى أمته. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾، [سورة الإسراء: آية ١٠٦].

٣ – التدرج بالأمة في تخليهم عن الرذائل، وتحليهم بالفضائل، والترقي بهم في التشريعات، فلو أنهم أمروا بكل الواجبات ونهوا عن جميع المنكرات دفعة واحدة لصعب عليهم.

٤ – مسايرة الحوادث والطوارئ في تجددها وتنوعها فكلما جد جديد نزل من القرآن ما يناسبه، وفصل الله لهم من أحكامه ما يوافقه.

٥ – تثبيت قلوب المؤمنين وتسليحهم بعزيمة الصبر واليقين، بسبب ما كان يقصه القرآن الكريم عليهم من قصص الأنبياء والمرسلين، وأخبار الأمم السابقة، وبيان سنة الله فيهم.

٦ – الإشارة إلى مصدر القرآن وأنه كلام الله وحده وأنه تنزيل من حكيم حميد، فإن القرآن – رغم نزوله مفرقاً – مترابط أقوى ترابط كأنه عقد تم نظمه بدقة وإحكام

تفوق قوى البشر. قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، [سورة: هود آية ١].

ولو كان هذا القرآن من كلام البشر وقيل في مناسبات متعددة ووقائع متتالية وأحداث متعاقبة، لوقع فيه التفكك والانفصام والتعارض وعدم الانسجام. قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾، [سورة النساء: آية ٨٢].

٧ – التحدي والإعجاز ولما عجب المشركون من نزول القرآن منجماً بين الله لهم الحق في ذلك، فإن تحديهم به مفرقاً مع عجزهم عن الإتيان بمثله أدخل في الإعجاز، وأبلغ في الحجة من أن ينزل جملة ويقال لهم: جيئوا بمثله.

وأما عن أول ما نزل من القرآن الكريم وآخر ما نزل منه، فكانت هناك آراء في ذلك، وأصح الآراء في هذا الموضوع أن أول مانزل من القرآن الكريم على الإطلاق هو صدر سورة العلق: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾ ﴾، [سورة العلق: آية ١ – ٥].

والدليل على ذلك ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة – رضي الله عنها – قالت:

(أول ما بدئ به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة – رضي الله عنها – فتزوده لمثلها حتى فاجأه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: فقلت ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت ما أنا بقارئ، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: (اقرأ باسم ربك الذي خلق)... الحديث. (ما لم يعلم) فرجع بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ترجف بوادره).... الحديث .

التحنث: التعبد، وأصله ترك الحنث، أي الذنب، وغطني: أي ضمني ضماً شديداً،

حتى كان لي غطيط، وهو صوت من حبست أنفاسه بما يشبه الخنق، والجهد: - بفتح الجيم- يطلق على المشقة وعلى الوسع والطاقة، وبضمها: يطلق على الوسع والطاقة لا غيره.

وأصح الآراء في آخر ما نزل من القرآن الكريم على الإطلاق قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ....﴾، [البقرة: آية ٢٨١]. لما رواه النسائي وغيره عن ابن عباس وسعيد بن جبير: آخر شيء نزل من القرآن: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ....﴾، [الآية]. فقد روى أن النبي – صلى الله عليه وسلم – عاش بعد نزولها تسع ليال ثم مات.

وقيل: إن آخر ما نزل هو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، [سورة البقرة: آية ٢٧٨]. لما أخرجه البخاري عن ابن عباس قال: آخر آية نزلت آية الربا.

وقيل: إن آخر ما نزل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾، [سورة البقرة: آية ٢٨٢]. لما روى عن سعيد بن المسيب: أنه بلغه أن أحدث القرآن عهداً بالعرش آية الدين.

وجمع بين هذه الآراء الثلاثة بأنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف، لأنها في قصة واحدة، فأخبر كل عن بعض ما نزل بأنه آخر ما نزل والكل صحيح.

المبحث الرابع

مراحل الجمع

جمع القرآن كلمة قد يراد بها جمعه في الصدور وحفظه واستظهاره بعد نزوله منجما بمراحل زمنية حسب الأحداث -أي جمعه في الأرض- فعطف الكتابة عليه عطف مغاير، وقد يراد به جمعه في الصحف وكتابته وضم بعضه إلى بعض في سطور، فعطف الكتابة عليه عطف تفسير.

وأما جمعه ككل في السماء قبل تنزله بمراحل فقد كان من قبل الله تعالى وهو معنى قوله جل وعلا في سورة القيامة ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾.

المرحلة الأولى: الجمع الأول في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم -

١- **حفظه في الصدور**: حفظ النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن: كان النبي صلى الله عليه وسلم يتلوا القرآن عن ظهر قلب لا يفتر لا سيما في الليل، حتى إنه ليقرأ في الركعة الواحدة العدد من السور الطوال.

ولزيادة التثبيت كان جبريل يعارضه بالقرآن كذلك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في شهر رمضان، لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ...

وقال أبو هريرة: كان يعرض على النبي صلى الله عليه وسلم القرآن كل عام مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه ...

حفظ الصحابة للقرآن الكريم: توفرت للصحابة العوامل التي تجعلهم قادرين على حفظ القرآن وتسهل عليهم هذه المهمة ومن تلك العوامل:

- قوة ذاكرتهم الفذة التي عرفوا بها واشتهروا، حتى كان الواحد منهم يحفظ القصيدة من الشعر بالسمعة الواحدة.
- نزول القرآن منجماً.
- لزوم قراءة شيء من القرآن في الصلاة.
- وجوب العمل بالقرآن، فقد كان هو ينبوع عقيدتهم وعبادتهم، ووعظهم وتذكيرهم.
- حض النبي صلى الله عليه وسلم على قراءة القرآن، والترغيب بما أعد للقارىء من الثواب والأجر العظيم.
- تعاهد النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة بتعليم القرآن: فكان الصحابة تلامذة

للنبي صلى الله عليه وسلم يتعلمون منه القرآن، وكان النبي صلى الله عليه وسلم شيخهم، يتعاهدهم بتعليم القرآن، فإذا أسلم أهل أفق أو قبيله أرسل إليهم من القراء من يعلمهم القرآن، وإن كان في المدينة ضمه إلى حلق التعليم في جامعة القرآن النبوية.

٢- **حفظه في السطور**: وهو لون من الحفظ يدوم مع الزمان، لا يذهب بذهاب الإنسان، فلا بد أن يتحقق ما تكفل الله بحفظه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾، [الحجر : ٩].

لقد اعتنى النبي صلى الله عليه وسلم بكتابة القرآن عناية بالغة جداً، فكان كلما نزل عليه شيء منه دعا الكُتّاب - منهم: علي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان- فأملاه عليهم، فكتبوه على ما يجدونه من أدوات الكتابة حينئذ مثل:

الرقاع، اللخاف، والأكتاف، والعسب. وقد حصر النبي صلى الله عليه وسلم جهد هؤلاء الكتاب في كتابة القرآن فمنع من كتابة غيره إلا في ظروف خاصة أو لبعض أناس مخصوصين.

فتحقق بذلك توفر طاقة كبيرة لكتابة القرآن وترتيبه، كما أخرج الحاكم عن أنس رضي الله عنه: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن في الرَّقاع... ومقصود هذا الحديث فيما يظهر أن المراد به تأليف ما نزل من الآيات المفرقة في سورها وجمعها فيها بإشارة النبي صلى الله عليه وسلم .

المرحلة الثانية: الجمع الثاني في عهد سيدنا أبي بكر رضي الله عنه.

عن زيد بن ثابت قال: أرسل إليَّ أبو بكر، مقتلَ أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني، فقال : إن القتل قد استحر بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، فقلت لعمر : كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال

عمر: هو والله خير، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك شاب عاقل، لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتّبع القرآن فأجمعه - فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن- قلت كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! قال: والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح به صدر أبي بكر وعمر.

فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب و اللِّخاف وصدور الرجال، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، ولم أجدها مع غيره: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ.... ﴾، [التوبة: ١٢٨ - ١٢٩]. حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهم.

وبهذا جمعت نسخة المصحف بأدق توثق ومحافظة، وأودعت لدى الخليفة لتكون إماماً تواجه الأمة به ما يحدث في المستقبل، ولم يبق الأمر موكلاً إلى النسخ التي بين أيدي كتّاب الوحي، أو إلى حفظ الحفاظ وحدهم.

وقد اعتمد الصحابة كلهم وبالإجماع القطعي هذا العمل وهذا المصحف الذي جمعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وتتابع عليه الخلفاء الراشدون كلهم والمسلمون كلهم من بعده، وسجلوها لأبي بكر الصديق منقبة فاضلة عظيمة من مناقبه وفضائله. وحسبنا في ذلك ما ثبت عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر، هو أول من جمع كتاب الله.

منهج زيد بن ثابت في جمع القرآن: تتبع زيد في جمع القرآن من العُسُب و اللَّخاف وصدور الرجال، فكان منهجه أن يسمع من الرجال ثم يعرض ما سمعه على ما كان مجموعاً في العُسُب والأكتاف، فكان رضي الله عنه لا يكتفي بالسماع فقط دون الرجوع إلى الكتابة، وكذلك من منهجه في جمع القرآن أنه لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد عليه شاهدان، وهذا زيادة في التحفظ، مع أن زيداً كان من حفظة القرآن .

وبهذا التثبت والتحفظ تم جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق في مصحف واحدٍ

مرتب الآيات والسور.

المرحلة الثالثة: الجمع الثالث في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن حُذيفة بن اليمان قدم عَلى عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال لعثمان: أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل إلى حفصة: أن أرسلي إلينا الصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف.

وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنه إنما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة ومصحف أن يحرق.

السبب الداعي للجمع: السبب الدافع لهذا العمل الذي قام به عثمان وهو اختلاف الناس في وجوه قراءة القرآن حتى قرؤوه بلغاتهم على اتساع اللغات، فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض، فخُشي من تفاقم الأمر في ذلك، فنسخت تلك الصحف في مصحف واحد مرتباً لسوره واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش.

- في سنة خمس وعشرين من الهجرة، وبعد أن ولي عثمان بن عفان الخلافة، اتسعت الفتوحات الإسلامية، وتفرّق القرّاء في الأمصار، وأخذ أهل كل مصر عمن وصل إليهم من القراء قراءته، ووجوه القراء التي يقرأون بها مختلفة باختلاف الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن الكريم، فكانوا إذا ضمهم مجلس أو موطن من مواطن الغزو عجب البعض من وجوه هذا الاختلاف، وبلغ عثمان أن المعلم بالمدينة يعلم قراءة الرجل، والمعلم الآخر يعلم قراءة رجل آخر، وجعل الغلمان يلتقون فيختلفون، حتى وصل الخلاف إلى المعلمين، حتى كفر بعضهم بعضاً، عندها أحس عثمان بالخطر

على القرآن، فخطب في الناس، فقال: أنتم عندي تختلفون، فمن نأى عني من الأمصار أشد اختلافاً.

- في هذه الأثناء تجمع جيش من العراق، وفيه حذيفة بن اليمان، وجيش من الشام، وتوجهوا لغزو أرمينية وأذربيجان. وفي مسجد من المساجد جلس الجنود يتدارسون القرآن، فسمع حذيفة ابن اليمان رجلاً يقرأ وآخرون يخطئونه فيما يقرأ، يقول أهل الكوفة: قراءة ابن مسعود، ويقول أهل البصرة: قراءة أبي موسى، ويقول أهل الشام: قراءة أبيّ بن كعب، هذا يقول: قراءتي خير من قراءتك، وذاك يقول: بل قراءتي هي الصواب وقراءتك باطلة، وتنازعوا واختلفوا حتى كادت الفتنة تقع بينهم، فغضب حذيفة، واحمرت عيناه، ثم قام، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: هكذا كان من قبلكم اختلفوا، والله لأركبن إلى أمير المؤمنين، وما انتهت المعارك بالنصر، وعادت الجيوش، حتى توجه حذيفة إلى المدينة ولم يدخل بيته حتى دخل على عثمان، فقال: يا أمير المؤمنين. قال:الناس. قال: وما ذاك ؟ قال: غزوت أرمينية فإذا أهل الشام يقرأون بقراءة أبيّ بن كعب، فيأتون بما لم يسمع أهل العراق، وإذا أهل العراق يقرأون بقراءة عبد الله بن مسعود، فيأتون بما لم يسمع أهل الشام، فيكفر بعضهم بعضاً، فتعاظم ذلك في نفس عثمان، واستشار الصحابة، فاستقر رأيهم وأجمعوا على نسخ الصحف الأولى التي كانت عند أبي بكر، وجمع الناس عليها بالقراءات الثابتة على حرف واحد، فأرسل عثمان إلى حفصة يطلب منها الصحف، فأرسلت إليه بتلك الصحف، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت الأنصاري، وإلى عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام القرشيين، فأمرهم بنسخها في المصاحف، وأن يكتب ما اختلفوا فيه مع زيد الأنصاري بلسان قريش فإنه نزل بلسانهم، والمقصود أن معظم القرآن نزل بلغة قريش.

- هذا يدل على أن ما صنعه عثمان كان بإجماع الصحابة، وهكذا كتبت مصاحف على حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ليجتمع الناس على قراءة واحدة، وقام عثمان برد الصحف إلى حفصة، وبعث إلى كل أفق بمصحف من

المصاحف، واحتبس بالمدينة واحداً هو مصحفه الذي يسمى (الإمام)، وتسميته بذلك لما جاء في بعض الروايات من قول عثمان: (اجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إماماً)، وأمر أن يحرق ما عدا ذلك من صحيفة أو مصحف، وقد تلقت الأمة الإسلامية ذلك بالطاعة والاستحسان، وتركت القراءة بالأحرف الستة الأخرى، على اعتبار أن القراءة بالأحرف السبعة ليست واجبة وإنما هي على التخيير والرخصة، كما هو معلوم من أحاديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – في هذا الأمر.

ومما يجب التنبيه إليه أن الأحرف السبعة غير القراءات السبعة التي مازال المسلمون يقرأون بها كما سيأتي بيانه.

دستور العمل الذي حدده عثمان بن عفان والصحابة في جمع القرآن.

من أبرز مبادئه:

١ – عدم كتابة شيء إلا بعد التحقق من أنه قرآن.

٢ – عدم كتابة شيء إلا بعد العلم بأنه استقر في العرضة الأخيرة.

٣ – عدم كتابة شيء إلا بعد التأكد من أنه لم ينسخ.

٤ – عدم كتابة شيء إلا بعد عرضه على جمع من الصحابة.

٥ – معظمه. القرآن بلغة قريش، لأنه نزل بلغتهم. أي معظمه.

٦ – عدم كتابة القراءات غير المتواترة.

وبهذا العمل العظيم قطع عثمان دابر الفتنة، وحسم مادة الخلاف، وحصّن القرآن الكريم من أن يتطرق إليه شيء من الزيادة والتحريف على مر العصور وتعاقب الأزمان. تحقيقاً لقوله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [سورة الحجر: آية ٩].

عدد المصاحف التي نسختها اللجنة:

سارت اللجنة في عملها بأمانة وإخلاص وهمة عالية، حيث قامت بنسخ خمسة مصاحف أو ستة أو سبعة ثم عرضت هذه المصاحف على مهرة القرآن، ولما اطمأن عثمان

إليها قام بتوزيعها على الأمصار، فمن قال: إنها خمسة – وهو المشهور – عدها (المصحف الكوفي، والمصحف البصري، والمصحف الشامي، والمصحف المدني العام، والمصحف الخاص الذي حبسه عثمان لنفسه، وهو المسمى بالمصحف الإمام). ومن قال: إنها ستة زاد المصحف المكي، ومن قال: إنها سبعة زاد على الستة مصحف البحرين ومصحف اليمن، وجعل بالمدينة مصحفاً واحداً. وقيل غير ذلك. وهذه المصاحف التي كتبت في عهد عثمان – كما يقول المحققون – لا يكاد يوجد منها مصحف واحد اليوم.

المبحث الخامس

رسم المصحف العثماني والآراء فيه

المراد برسم القرآن هنا كيفية كتابة الحروف والكلمات في المصحف على الطريقة التي كتبت عليها في المصاحف التي أمر عثمان اللجنة الرباعية فكتبتها ووزعتها في الأمصار.

ويطلق عليه: رسم المصحف، ومرسوم الخط. وأما الآراء فيه:

١. **الرأي الأول**: أن الرسم العثماني ليس توقيفاً عن النبي – صلى الله عليه وسلم –، ولكنه اصطلاح ارتضاه عثمان رضي الله عنه وتلقته الأمة بالقبول، فيجب التزامه والأخذ به، ولا يجوز مخالفته.

٢. **الرأي الثاني**: أن رسم المصحف اصطلاحي لا توقيفي، وعليه فيجوز مخالفته.

٣. **الرأي الثالث**: أنه توقيفي لا يجوز مخالفته، وهو مذهب الجمهور.

واستدلوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان له كُتاب يكتبون الوحي، وقد كتبوا القرآن كله بهذا الرسم، وقد أقرهم الرسول صلى الله عليه وسلم على كتابتهم وقضى عهده صلى الله عليه وسلم والقرآن على هذه الكتبة لم يحدث فيه تغيير ولا تبديل.

أقوال الفقهاء في الرسم العثماني: جمهور العلماء ذهبوا إلى منع كتابة المصحف بما استحدث الناس من قواعد الإملاء، للمحافظة على نقل المصحف بالكتابة على الرسم نفسه الذي كتبه الصحابة.

- وقد صرح الإمام أحمد فيه بالتحريم فقال: تحرم مخالفة خط مصحف عثمان في ياء أو واو أو ألف أو غير ذلك.
- وسئل الإمام مالك: هل تكتب المصحف على ما أخذته الناس من الهجاء؟ فقال: لا، إلا على الكتبة الأولى.
- وجاء في الفقه الشافعي: إن رسم المصحف سنة متبعة.
- وجاء في الفقه الحنفي: أنه ينبغي ألا يكتب بغير الرسم العثماني.
- وقال الإمام أبو عمرو الداني: ولا مخالف له من علماء الأمة.

وهكذا اتخذت الأمة الإسلامية الرسم العثماني سنة متبعة إلى عصرنا هذا، كما قال البيهقي في "شعب الإيمان": واتباع حروف المصاحف عندنا كالسنن القائمة التي لا يجوز لأحد أن يتعداها.

وكان ذلك للمبالغة في المحافظة والاحتياط على نص القرآن، حتى في مسألة شكلية، هي كيفية رسمه.

لكن استثنوا من ذلك نقط المصاحف وتشكيلها، لتتميز الحروف والحركات، فأجازوا ذلك بعد اختلاف في الصدر الأول عليه، وذلك لما اضطروا إلى ذلك لتلافي الأخطاء التي شاعت بسبب اختلاط العرب بالعجم.

تحسين الرسم العثماني:

١- كانت المصاحف العثمانية خالية من النقط والشكل اعتماداً على السليقة العربية التي لا تحتاج إلى مثل هذه النقط والتشكيلات، وظلت هكذا حتى دخلت العجمة بكثرة الاختلاط، وتطرق اللحن إلى اللسان العربي، عندئذ أحسَّ أولو الأمر بضرورة تحسين كتابة المصاحف بالتنقيط والشكل والحركات مما يساعد على القراءة الصحيحة.

٢- من شكل المصحف:

أ - اختلف العلماء في ذلك، منهم من قال: أبو الأسود الدؤلي الذي ينسب إليه وضع ضوابط اللغة العربية بأمر من سيدنا علي بن أبي طالب. يروي أنه سمع قارئاً يجر

اللام من رسوله في قوله تعالى: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ﴾، [التوبة: ٣]، فغير المعنى، ففزع لهذا اللحن وقال: عزّ الله وجلّ أن يبرأ من رسوله، فعندئذ قام بوضع ضوابط التشكيل حفاظاً عليه من اللحن.

ب- ومن العلماء من قال: أول من شكل المصحف : الحسن البصري، ويحيى بن يعمر، ونصر بن عاصم الليثي بأمر من الحجاج.

٣- تدرج تحسين رسم المصحف: كان الشكل في الصدر الأول نقطاً، فالفتحة نقطة على أول الحرف، والضمة نقطة على آخره، والكسرة نقطة تحت أول الحرف، ثم تدرج، فأصبحت الفتحة شكلة مستطيلة فوق الحرف، والكسرة تحته، والضمة واواً صغيرة فوقه، ثم بعد ذلك مر المصحف في طور التجديد والتحسين على مر العصور حتى استقر على هذا الشكل الذي هو عليه الآن من الخطوط الجميلة الواضحة، وابتكار العلامات المميزة، والاصطلاحات المفيدة، فجزى الله من سبقونا في خدمة قرآن ربنا خير جزاء.

المبحث السادس

علم القراءات

القراءات: جمع قراءة، مصدر قرأ، والقراءة في الاصطلاح: مذهب يذهب إليه إمام من الأئمة مخالفاً به غيره في النطق بالقرآن الكريم، مع اتفاق الروايات عنه.

والقراءات اختلاف في اللهجات، وكيفية النطق، وطرق الأداء فقط، من إدغام وإظهار، وتفخيم وترقيق، وإمالة وإشباع، ومد وقصر، وتشديد وتخفيف وتليين وغير ذلك. نزل بها جبريل على النبي – صلى الله عليه وسلم – فأقرأها الرسول صحابته ومن ثم أخذوا يقرؤون الناس عليها.

وقد وضع العلماء ضوابط للقراءة الصحيحة تتمثل بالآتي:

١ – كل قراءة وافقت أحد المصاحف العثمانية ولو تقديراً.

٢ – ووافقت أحد أوجه اللغة العربية.

٣- وصح إسنادها إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم -. فهي القراءة الصحيحة

التـي لا يجـوز ردهـا ولا يحـل إنكارها سواء كانت واردة عن القراء السبعة ـ أو غيرهم.

وكـل قـراءة اخـتل مـنها ركـن من هذه الأركان الثلاثة، فهي شاذة ولو كانت لأحد القراء السبعة ولا تصح القراءة بها.

القـراء الـسبعة الـذين اشتهروا في الآفاق هم: (أبو عمرو، ونافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وابن عمرو، وابن كثير).

فوائد الاختلاف في القراءات الصحيحة:

لاختلاف القراءات الصحيحة فوائد منها:

١- التيـسير والتـسهيل عـلى الأمـة، فـإن الأمـة العـربية كانـت قبائل وشعوباً مختلفة في اللهجـات وطـريقة الأداء، فلـو أمـرت كلهـا بقـراءة واحـدة لـشق ذلـك على غير الناطقين بتلك اللهجة.

٢- الدلالـة عـلى صـيانة كـتاب الله وحفظـه مـن التـبديل والتحريف مع كونه على هذه الأوجه الكثيرة

٣- إعجاز القرآن في إيجازه، حيث تدل كل قراءة على حكم شرعي دون تكرر اللفظ كقراءة: ﴿ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾، [سورة المائدة: آية ٦]، بالنصب والخفض في (أرجلكم) ففي قراءة النصب بيان لحكم غسل الرجل، حيث يكون العطف على معمول فعل الغسل: ﴿ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ وقراءة الجر بيان لحكم المسح على الخفين عند وجود ما يقتضيه، حيث يكون العطف على معمول فعل المسح: ﴿ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ فنستفيد الحكمين من غير تطويل، وهذا من معاني الإعجاز في الإيجاز بالقرآن.

الأحرف السبعة غير القراءات:

إن حـديث الرسـول – صـلى الله وسـلم –: «إن هـذا القـرآن أنزل على سبعة أحرف

فاقرءوا ما تيسر منه» والذي رواه البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يدل على التوسعة والتيسير، وحرف (على) في الحديث يدل على هذه التوسعة، أي أنزل القرآن موسعاً فيه على القارئ، بحيث يجوز له أن يقرأه على أي حرف من الأحرف السبعة.

وهذا لا يعني أن كل كلمة من كلمات القرآن، تقرأ على سبعة أوجه وأحرف، ولو كان هذا مراداً لقال: (أنزل هذا القرآن سبعة أحرف) إنما يعني أن وجوه الاختلاف لا تتجاوز سبعة أوجه.

والعدد سبعة في الحديث مراد لذاته، فهو حصر حقيقي ولم يرد به التكثير، وهذا يعني أن وجوه الاختلاف والتغاير لا تزيد على سبعة أوجه، مهما تعددت وتنوعت القراءات في الكلمة الواحدة.

قال ابن تيمية -رحمه الله-: لا نزاع بين العلماء المعتبرين، أن الأحرف السبعة التي ذكر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن القرآن أنزل عليها ليست قراءات القراء السبعة المشهورة.

لتفاصيل أكثر يراجع الملحق في نهاية الكتاب.

المبحث السابع

ترتيب آيات القرآن وسوره

١- تعريف الآية:

لغة: أصلها بمعنى العلامة، ومنه قوله تعالى:﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

اصطلاحاً: فهي قرآن مركب من جمل ولو تقديراً، ذو مبدأ ومقطع، مندرج من سورة.

٢- تعريف السورة:

لغة: من سور المدينة، أو من السورة بمعنى المرتبة والمنزلة الرفيعة.

اصطلاحاً: قرآن يشمل على آيٍ ذوات فاتحة وخاتمة . وأقلها ثلاث آيات.

٣- حكمة تقسيم القرآن إلى سور وآيات:

منها: أن القارىء إذا ختم سورة أو جزأ من الكتاب ثم أخذ في آخر كان أنشط له، وأبعث على التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله.

ومنها: أن الحافظ إذا حَذَق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة، فيعظم عنده ما حفظه، ومنه حديث أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جلّ فينا.

٤- مصدر ترتيب القرآن الكريم:

أجمع العلماء سلفاً فخلفاً على أن ترتيب الآيات في السورة توقيفي، أي اتبع فيه الصحابة أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وتلقاه النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل، لا يشتبه في ذلك أحد.

والأحاديث في إثبات التوقيف في ترتيب الآيات في السور كثيرة جداً تفوق حد التواتر، إلا أننا سنذكر أمثلة منها:

أخرج البخاري عن عبد الله بن الزبير قال: قلت لعثمان: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا ﴾ [البقرة:٢٣٤]، قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها؟ قال: يا ابن أخي لا أغيرّ شيئاً منه من مكانه.

وأخرج الإمام أحمد عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ شَخَص ببصره ثم صوَّبه، ثم قال: " أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية في هذا الموضع ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ... ﴾ [النحل: ٩٠] إلى آخرها.

٥- ترتيب سور القرآن:

جماهير العلماء على أن ترتيب سورة القرآن توقيفي، وليس باجتهاد من الصحابة... والأدلة على أن ترتيب السور كلها توقيفي كثيرة جداً نذكر منها: عن ابن مسعود رضي

الله عـنه قال: في بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، إنهن من العتاق الأول، وهـن من تلادي... فذكر ابن مسعود السور نَسَقاً كما استقر ترتيبها. وقوله صلى الله عليه وسـلم: «أعطـيت مكـان الـتوراة السبع الطوال، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكـان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل»... قال أبو جعفر النحاس: وهذا الحديث يدل عـلى أن تألـيف القـرآن مأخـوذ عـن النبـي صـلى الله علـيه وسلم ، وأنه مؤلف من ذلك الوقت، وإنما جمع في المصحف على شيء واحد.

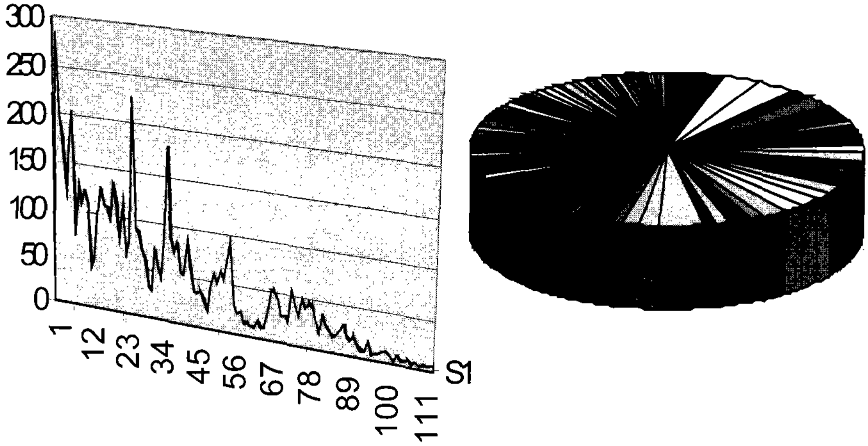
ويـشهد لـذلك من حيث الدراية والعقل واقع الترتيب وطريقته، وذلك من وجهين لا يشك الناظر فيهما، أن الترتيب بين السور توقيفي:

جدول السور حسب تسلسل نزولها

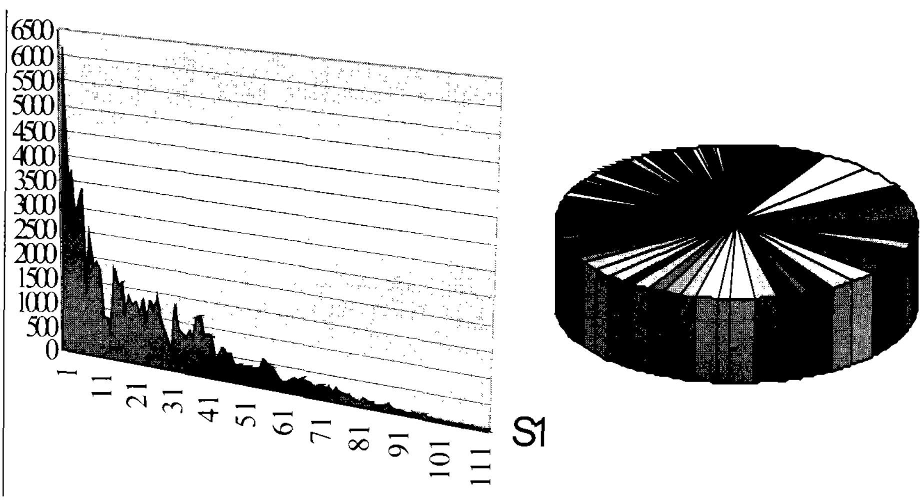
السورة	رقمها	عدد الآيات	موقع النزول	السورة	رقمها	عدد الآيات	موقع النزول
العلق	٩٦	١٩	مكية	الشعراء	٢٦	٢٢٧	مكية
القلم	٦٨	٢٢	مكية	النمل	٢٧	٩٣	مكية
المزمل	٧٣	٥٦	مكية	القصص	٢٨	٨٨	مكية
المدثر	٧٤	١٧٦	مكية	العنكبوت	٢٩	٦٩	مكية
الفاتحة	١	٧	مكية	الروم	٣٠	٦٠	مكية
الأنعام	٦	١٦٥	مكية	لقمان	٣١	٣٤	مكية
الأعراف	٧	٢٠٦	مكية	السجدة	٣٢	٣٠	مكية
الأنفال	٨	٧٥	مكية	الأحزاب	٣٣	٧٣	مكية
التوبة	٩	١٢٩	مكية	سبأ	٣٤	٥٤	مكية
يونس	١٠	١٠٩	مكية	فاطر	٣٥	٤٥	مكية
هود	١١	١٢٣	مكية	يس	٣٦	٨٣	مكية
يوسف	١٢	١١١	مكية	الصافات	٣٧	١٨٢	مكية

الرعد	١٣	٤٣	مكية	ص	٣٨	٨٨	مكية
إبراهيم	١٤	٥٢	مكية	الزمر	٣٩	٧٥	مكية
الحجر	١٥	٩٩	مكية	غافر	٤٠	٨٥	مكية
النحل	١٦	١٢٨	مكية	فصلت	٤١	٥٤	مكية
الإسراء	١٧	١١١	مكية	الشورى	٤٢	٥٣	مكية
الكهف	١٨	١١٠	مكية	الزخرف	٤٣	٨٩	مكية
مريم	١٩	٩٨	مكية	الدخان	٤٤	٥٩	مكية
طه	٢٠	١٣٥	مكية	الجاثية	٤٥	٣٧	مكية
الأنبياء	٢١	١١٢	مكية	الأحقاف	٤٦	٣٥	مكية
الحج	٢٢	٧٨	مكية	محمد	٤٧	٣٨	مكية
المؤمنون	٢٣	١١٨	مكية	الفتح	٤٨	٢٩	مكية
النور	٢٤	٦٤	مكية	الحجرات	٤٩	١٨	مكية
الفرقان	٢٥	٧٧	مكية	ق	٥٠	٤٥	مكية
الذاريات	٥١	٦٠	مكية	عبس	٨٠	٤٢	مكية
الطور	٥٢	٤٩	مكية	التكوير	٨١	٢٩	مكية
النجم	٥٣	٦٢	مكية	الانفطار	٨٢	١٩	مكية
القمر	٥٤	٥٥	مكية	المطففين	٨٣	٣٦	مكية
الرحمن	٥٥	٧٨	مكية	الانشقاق	٨٤	٢٥	مكية
الواقعة	٥٦	٩٦	مكية	البروج	٨٥	٢٢	مكية
الحديد	٥٧	٢٩	مكية	الطارق	٨٦	١٧	مكية
المجادلة	٥٨	٢٢	مكية	الأعلى	٨٧	١٩	مكية
الحشر	٥٩	٢٤	مكية	الغاشية	٨٨	٢٦	مكية
الممتحنة	٦٠	١٣	مكية	الفجر	٨٩	٣٠	مكية
الصف	٦١	١٤	مكية	البلد	٩٠	٢٠	مكية

الجمعة	٦٢	١١	مكية	الشمس	٩١	١٥	مكية
المنافقون	٦٣	١١	مكية	الليل	٩٢	٢١	مكية
التغابن	٦٤	١٨	مكية	الضحى	٩٣	١١	مكية
الطلاق	٦٥	١٢	مكية	البقرة	٢	٢٨٦	مدنية
التحريم	٦٦	١٢	مكية	التين	٩٥	٨	مدنية
الملك	٦٧	٣٠	مكية	العلق	٩٦	١٩	مدنية
القلم	٦٨	٥٢	مكية	القدر	٩٧	٥	مدنية
الحاقة	٦٩	٥٢	مكية	البينة	٩٨	٨	مدنية
المعارج	٧٠	٤٤	مكية	الزلزلة	٩٩	٨	مدنية
نوح	٧١	٢٨	مكية	العاديات	١٠٠	١١	مدنية
الجن	٧٢	٢٨	مكية	القارعة	١٠١	١١	مدنية
المزمل	٧٣	٢٢	مدنية	التكاثر	١٠٢	٨	مدنية
المدثر	٧٤	٥٦	مدنية	العصر	١٠٣	٣	مدنية
القيامة	٧٥	٤٠	مدنية	الهمزة	١٠٤	٩	مدنية
الإنسان	٧٦	٣١	مدنية	الفيل	١٠٥	٥	مدنية
المرسلات	٧٧	٥٠	مدنية	قريش	١٠٦	٤	مدنية
النبأ	٧٨	٤٠	مدنية	الماعون	١٠٧	٧	مدنية
النازعات	٧٩	٤٦	مدنية	الكوثر	١٠٨	٣	مدنية
الكافرون	١٠٩	٦	مدنية	الإخلاص	١١٢	٤	مدنية
النصر	١١٠	٣	مدنية	الفلق	١١٣	٥	مدنية
المسد	١١١	٥	مدنية	الناس	١١٤	٦	مدنية



أشكال إحصائية لسور القرآن الكريم السورة وعدد آياتها- الشكل الأيمن دائري ثلاثي الأبعاد، والشكل الأيسر مساحي ثلاثي الأبعاد..
(عن كتابنا المنظار الهندسي للقرآن الكريم)



أشكال إحصائية لسور القرآن الكريم السورة وعدد كلماتها- الشكل الأيمن دائري ثلاثي الأبعاد، والشكل الأيسر مساحي ثلاثي الأبعاد..
(عن كتابنا المنظار الهندسي للقرآن الكريم)

الأول: مما يدل على أنه توقيفي كون الحواميم رتبت ولاءً، وكذا الطواسين، ولم ترتب المسبحات ولاءً، وأخرت طس عن القصص.

الثاني: ما راعاه العلماء الأئمة في بحوثهم من التزام بيان أوجه التناسب بين كل سورة وما قبلها، وبيان وجه ترتيبها.

المبحث الثامن

علوم المكان (المكي والمدني)

والزمان (الصيفي والشتائي)

١- النوع المكاني (المكي والمدني):

أ- عناية الصحابة فيه: نجد أعلام الهدي من الصحابة والتابعين يضبطون منازل القرآن آية آية ضبطاً يحدد الزمان والمكان وهذا الضبط عماد قوي في تاريخ التشريع، فنرى ابن مسعود يقول: والله الذي لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله، تبلغه الإبل لركبت إليه.

ب- عناية التابعين: نجد أيضاً الأعلام من التابعين الذين أخذوا عِلمهم من الصحابة يعتنون بهذا العلم عناية تامة، كيف لا وهم تلاميذ صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذا رجل يسأل عكرمة عن آية من القرآن، فيجيبه أنها نزلت في سفح ذلك الجبل وأشار إلى سَلْع.

جـ- عناية العلماء: اعتنى العلماء بتحقيق المكي والمدني عناية فائقة فتتبعوا القرآن آية آية وسورة سورة ترتيباً وفق نزولها حيث بذلوا جهداً كبيراً، وراعوا في ذلك الزمان والمكان والخطاب وهو تحديد دقيق يعطي صورة علمية في التحقيق لهذا العلم.

د- منزلة المكي والمدني: من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته، وترتيب ما نزل بمكة والمدينة، وما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي، وما نزل

بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، وما يشبه نزول المكي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكي، والآيات المدنيات في السور المكية، والآيات المكية في السور المدنية.

هـ- عدد السور المكية والمدنية:

١- السور المكية: اثنان وثمانون (٨٢): وهي: الأنعام، الأعراف، يونس، هود، يوسف، إبراهيم ، الحجر، النحل، الإسراء، الكهف، مريم، طه، الأنبياء، الحج، المؤمنون، الفرقان، الشعراء، النمل، القصص، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة، سبأ، فاطر، يس، الصافات، ص، الزمر ، غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف، ق، الذاريات، الطور، النجم، القمر، الواقعة، الملك، القلم، الحاقة، المعارج، نوح، الجن، المزمل، المدثر، القيامة، الإنسان، المرسلات، النبأ، النازعات، عبس، التكوير، الانفطار، الانشقاق، البروج، الطارق، الأعلى، الغاشية، الفجر، البلد، الشمس، الليل، الضحى، الانشراح، التين، العلق، العاديات، القارعة، التكاثر، العصر، الهمزة، الفيل، قريش، الماعون، الكوثر، الكافرون، والمسد.

٢- السور المدنية : عشرون (٢٠) : وهي: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، النور، الأحزاب، محمد، الفتح، الحجرات، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، الجمعة، المنافقون، الطلاق، التحريم، والنصر.

٣- السور المختلف فيها: اثنا عشر (١٢)، وهي: الفاتحة، الرعد، الرحمن، الصف، التغابن، المطففين، القدر، البينة، الزلزلة، الإخلاص، الفلق، والناس.

و- معرفة المكي والمدني:

١- منهج سماعي: يستند إلى الرواية الصحيحة عن الصحابة والتابعين الذين عاصروا الوحي وشاهدوا نزوله، أو عن التابعين الذين تلقوا عن الصحابة وسمعوا منهم كيفية النزول ومواقفه وأحداثه.

٢- منهج قياسي اجتهادي: يستند إلى خصائص المكي وخصائص المدني، فإذا ورد في

السورة المكية آية تحمل طابع التنزيل المدني أو تتضمن شيئاً من حوادثه قالوا: إنها مدنية، وإذا ورد في السورة المدنية آية تحمل طابع التنزيل المكي، أو تتضمن شيئاً من حوادثه قالوا: إنها مكية، وهذا قياسي اجتهادي، ولهذا نجدهم يقولون: كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية فهي مكية، وكل سورة فيها فريضة أو حدّ فهي مدنية.

ز- تعريف المكي والمدني : فيه ثلاث آراء:

١- اعتبار زمن النزول: وهو القول المشهور(١). ويمتاز هذا القول بشمول تقسيمه جميع القرآن، ولا يخرج عنه شيء حتى كان عموم قولهم في المدني : «ما نزل بعد الهجرة»، يشمل ما نزل بعد الهجرة في مكة نفسها في عام الفتح، أو عام حجة الوداع، مثل آية: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ كما يشمل ما نزل بعد الهجرة خارج المدينة في سفر من الأسفار أو غزوة من الغزوات.

فالمكي ما نزل قبل الهجرة وإن كان بالمدينة، والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن كان بمكة، فما نزل بعد الهجرة وإن كان بمكة أو عرفة فهو مدني، كالذي نزل عام الفتح، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨]، أو نزل في حجة الوداع كقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

٢- اعتبار المخاطب: أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة، لأن الغالب على أهل مكة الكفر ، فخوطبوا بـ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾، وإن كان غيرهم داخلاً فيه، وكان الغالب على أهل المدينة الإيمان، فخوطبوا بـ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾وإن كان غيرهم داخلاً فيه.

وهذا الضابط لا يطّرد - ينطبق - دائماً، لأن في سورة البقرة و النساء - وهما مدنيتان- خطاباً مكياً وهو: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾.

٣- اعتبار مكان النزول: أن المكي ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، والمدني ما نزل عليه بالمدينة، ويترتب على هذا الرأي عدم ثنائية القسمة، فما نزل عليه

بالأسفار - مثل سورة الأنفال، وسورة الفتح، وسورة الحج -لا يطلق عليه مكي ولا مدني وذلك مثل ما نزل عليه بِتَبُوك وبيت المقدس.

ويدخل في مكة ضواحيها، مِنى وعرفات، والحُدَيْبِيَة، ويدخل في المدينة أيضاً ضواحيها: بَدْر، وأُحُد، وسَلْع. وكذلك يترتب على هذا الرأي أن ما نزل بمكة بعد الهجرة يكون مكياً.

حـ- مميزات وضوابط المكي:

ضوابطه:

١ - كل سورة فيها سجدة.

٢- كل سورة فيها لفظ كلا.

٣- كل سورة فيها يا أيها الناس

٤- كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة.

٥- كل سورة فيها قصة آدم وإبليس ما عدا البقرة.

٦- كل سورة تفتح بحروف التهجي مثل: آلم، آلر، حم، ما عدا البقرة وآل عمران.

مميزاته:

١ - الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله ، وذكر القيامة والجنة والنار، ومجادلة المشركين.

٢- يفضح أعمال المشركين من سَفْك دماء، وأكل أموال اليتامى ، ووأد البنات.

٣- قوة الألفاظ مع قصر الفواصل وإيجاز العبارة.

٤- الإكثار من عرض قصص الأنبياء وتكذيب أقوامهم لهم للعبرة، والزجر، وتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم.

ط- مميزات وضوابط المدني:

ضوابطه:

١ - كل سورة فيها فريضة أو حدّ.

٢- كل سورة فيها ذكر المنافقين.

٣- كل سورة فيها مجادلة أهل الكتاب.

٤- كل سورة تبدأ بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

مميزاته:

١- بيان العبادات والمعاملات، والحدود، والجهاد، والسِّلْم، والحرب، ونظام الأسرة، وقواعد الحكم، و وسائل التشريع.

٢- مخاطبة أهل الكتاب ودعوتهم إلى الإسلام.

٣- الكشف عن سلوك المنافقين وبيان خطرهم على الدين.

٤- طول المقاطع والآيات في أسلوب يقرر قواعد التشريع وأهدافه ومراميه.

وأما المكي والمدني من السور على ترتيب النزول فهي:

العلق، ن، المزمل، المدثر، الفاتحة، المسد، التكوير، الأعلى، الليل، الفجر، الضحى، الشرح، العصر، العاديات، الكوثر، التكاثر، الماعون، الكافرون، الفيل، الفلق، الناس، الإخلاص، النجم، عبس، القدر، الشمس، البروج، التين، قريش، القارعة، القيامة، الهمزة، المرسلات، ق، البلد، الطارق، القمر، ص، الأعراف، الجن، يس، الفرقان ، فاطر، مريم، طه، الواقعة، الشعراء، طس النمل، القصص، الإسراء ، يونس، هود، يوسف، الحجر، الأنعام، الصافات، لقمان، سبأ، الزمر، حم غافر، حم السجدة فصلت ، حم عسق الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف، الذاريات، الغاشية، الكهف، النحل، نوح، إبراهيم، الأنبياء، المعارج، المؤمنين، السجدة، الطور، الملك، الحاقة، سأل المعارج، النبأ، النازعات، الانفطار، الانشقاق، الروم، العنكبوت، المطففين، البقرة، الأنفال، آل عمران، الأحزاب، الممتحنة، النساء، الزلزلة، الحديد، القتال محمد، الرعد، الرحمن، الإنسان، الطلاق، البينة، الحشر، النور، الحج، المنافقون، المجادلة، الحجرات، التحريم، التغابن، الصف، الجمعة، الفتح، المائدة، براءة، النصر.

ي- أهمية علم المكي والمدني:

١- يعرف بالمكي والمدني الناسخ والمنسوخ -سيأتي الكلام عنه في النوع الخامس-،

الذي كان من حكمة تربية القرآن في التشريع.

٢- علم المكي والمدني يعين الدارس على معرفة تاريخ التشريع والوقوف على سُنة الله الحكيمة في تشريعه، بتقديم الأصول على الفروع، وترسيخ الأسس الفكرية والنفسية، ثم بناء الأحكام والأوامر والنواهي عليها، مما كان له الأثر الكبير في تلقي الدعوة الإسلامية بالقبول، ومن ثم الإذعان لأحكامها.

٣- الاستعانة بهذا العلم في تفسير القرآن وفهم معانيه.

٤- تذوق أساليب القرآن والاستفادة منها في أسلوب الدعوة.

٥- الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية.

ك- أمثلة للآيات المكية في سور مدنية وبالعكس:

١- آيات مكية في سور مدنية.

أ - سورة الأنفال كلها مدنية ما عدا قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ.... ﴾ [الأنفال: ٦٤].

ب- سورة المجادلة كلها مدنية ما عدا قوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ... ﴾ [المجادلة: ٧].

٢- آيات مدنية في سور مكية.

أ - سورة يونس كلها مكية ما عدا قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾ [يونس: ٤٠]. وقوله: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الآيتين: ٩٤-٩٥].

ب- سورة الكهف مكية واستثنى من أولها إلى ﴿ جُرُزًا ﴾ [الكهف: ١-٨]. وقوله: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ [الكهف: ٢٨] و ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ

لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴾ إلى آخر السورة [الكهف: ١٠٧].

ل- ما حمل من مكة إلى المدينة وبالعكس:

١- ما حمل من مكة إلى المدينة:

أ - سورة "الأعلى" حملها مصعب بن عمير وابن أم مكتوم رضي الله عنهما.

ب- سورة "يوسف" حملها عوف ابن عفراء في الثمانية الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة.

جـ- ثم حمل بعدها سورة " الإخلاص ".

د - ثم حمل بعدها من سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ إلى آخر الآية [الأعراف: ١٥٨].

٢- ما حمل من المدينة إلى مكة:

أ - حملت آية الربا من المدينة إلى مكة، فقرأها عتاب بن أُسيد عليهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

ب- سورة براءة حملها أبو بكر الصديق رضي الله عنه في العام التاسع عندما كان أميراً على الحج، فقرأها علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم النحر على الناس.

ج - قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ [النساء: ٩٨]. إلى قوله: ﴿ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٩٩].

م- ما حمل من المدينة إلى الحبشة:

١- حمل من المدينة إلى الحبشة سورة مريم، فقد ثبت أن جعفر بن أبي طالب قرأها على النَّجَاشي.

٢- بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جعفر بن أبي طالب بهذه الآيات إلى الحبشة:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٦٤]، إلى

قوله: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ .... ﴾ [آل عمران: ٦٨].

ن- ما نزل في أماكن متعددة:

١- ما نزل بالطائف: قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ... ﴾ [الفرقان: ٤٥].

٢- ما نزل ببيت المقدس: قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥].

٣- ما نزل بالحديبية: قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ ﴾ [الرعد: ٣٠].

٤- ما نزل بالجُحْفَة: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص: ٨٥].

النوع الزماني (الصيفي والشتائي):

١- من الآيات التي نزلت في الصيف:

أ - آية الكلالة: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ... ﴾ [النساء: ١٧٦].

ب- قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣].

جـ- قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨١].

د- قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ ﴾ [التوبة: ٤٢].

هـ- قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة: ٦٥].

و- قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ... ﴾ [التوبة: ٨١].

٢- من الآيات التي نزلت في الشتاء:

أ - الآيات التي في غزوة الخندق من سورة الأحزاب، وهي قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٩] حتى الآية ٢٧.

ب- آيات الإفك: عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إنها نزلت في يوم شات: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النور: ١١ -٢٢].

معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل:

١- أول ما نزل قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق: ١]. وهذا هو الصحيح.

٢- آخر ما نزل: قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١]. وهذا أقوى الآراء وأرجحها في آخر ما نزل من القرآن مطلقاً.

٣- الأوائل والأواخر المخصوصة:

- الأوائل المخصوصة:

أ- أول سورة نزلت بتمامها سورة الفاتحة.

ب- أول ما نزل في تشريع الجهاد: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ... ﴾ [الحج: ٣٩].

جـ- أول ما نزل في تحريم الخمر: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ.... ﴾ [البقرة: ٢١٩].

د- أول ما نزل في الأطعمة: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا ... ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

- الأواخر المخصوصة:

أ- آخر ما نزل يذكر النساء خاصة: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ... ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ب- آخر ما نزل في المواريث: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ...﴾ [النساء: ١٧٦].

جـ- آخر سورة نزلت بتمامها: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ [النصر: ١].

المبحث التاسع

علم أسباب النزول

إن ترتيب القرآن في المصحف، ليس هو حسب ترتيبه في النزول وكما أسلفنا، وإن آياته وسوره إنما نزلت مفرقة حسب الوقائع والأحوال والمناسبات. ولا يعني هذا أن يلتمس الباحث لكل آية سبباً، فإن القرآن الكريم نزل على قسمين: قسم نزل ابتداءً بعقائد الإيمان وواجبات الإسلام، وشرائع الله تعالى في حياة الفرد وحياة الجماعة، وقسم نزل عقب حادثة أو سؤال. ولذا يعرف سبب النزول بالآتي: هو ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال.

مثال الحادثة:

ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال:﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [سورة الشعراء: آية ٢١٤].

قالوا:أتى- صلى الله عليه وسلم -حتى صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه، فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ ؟ فقالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: فإني نذير لكم بين يديّ عذاب شديد، فقال أبو لهب: تباً لك، إنما جمعتنا لهذا ؟ ثم قام: فنزلت هذه السورة:﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [سورة المسد:آية ١].

ولقد عنى السلف الصالح بهذا العلم المهم وكذا مع بقية علوم القرآن، ومن أهم المصنفات العلمية في علم أسباب النزول والعلوم المرتبطة به ما عمله الشيخ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي في كتابه (العجاب في بيان الأسباب)، وكذلك ما جاء في كتاب (التبيان في أقسام القرآن) لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي والمعروف

بـ (ابن القيم الجوزيه)، ورسالة الإمام النووي المهمة (التبيان في آداب حملة القرآن)، وغير ذلك من أمهات الكتب والمصنفات. ولعل من أهم المصادر التي يعتمد عليها الباحثون في علوم القرآن المصنفين الرائعين (البرهان في علوم القرآن) للإمام الزركشي رحمه الله تعالى، ومن ثم (الإتقان في علوم القرآن) للإمام السيوطي رحمه الله تعالى، اللذان يعدان بحق من أهم ما كتب وصنف في علوم القرآن الكريم ومنها علم أسباب النزول وعلم المناسبة بين الآيات وغيرهما من علوم الكتاب المجيد. وقد جعلت هذين المصنفين المهمين على رأس المصادر التي اعتمدت عليها في كل مؤلفاتي في علوم القرآن التي تربو على الـ ٢٠ مؤلفاً ولله الفضل والمنة.

ولقد قسم العلماء أسباب النزول للآيات إلى قسمين رئيسيين(١):

١- قسم نزل بدون سبب، وهو أكثر القرآن.

٢- قسم نزل مرتبط بسبب من الأسباب. ومن هذه الأسباب:

أ- حدوث واقعة معينة فينزل القرآن الكريم بشأنها: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. خرج النبي صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه، فاجتمعوا إليه فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟..» الحديث، فقال أبو لهب تباً لك، إنما جمعتنا لهذا، ثم قام، فنزل قوله تعالى: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١].

ب- إن يُسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن شيء، فينزل القرآن ببيان الحكم مثال ذلك: عن عبد الله قال: إني مع النبي صلى الله عليه وسلم في حرث بالمدينة وهو متكىء على عسيب، فمر بنا ناس من اليهود فقالوا: سلوه عن الروح، فقال بعضهم: لا تسألوه فيستقبلكم بما تكرهون، فأتاه نفر منهم فقالوا له: يا أبا القاسم ما تقول في الروح؟ فسكت، ثم قام، فأمسك وجهه بيده على جبهته، فعرفت أنه ينزل عليه، فأنزل الله عليه:

---

(١) الموسوعة الإسلامية المعاصرة، قرص مدمج، تحوي مئات الكتب من أمهات المراجع الفقهية والشرعية.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

الحكمة والفوائد من أسباب النزول:

إن معرفة سبب النزول تعين على فهم الآيات القرآنية فهماً صحيحاً، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، كما تعين على تيسير الحفظ وتثبيت المعنى، فإن ربط الأحكام بالحوادث والأشخاص والأمكنة والأزمنة تقرر المعلومات وتركزها، كما تفيدنا وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.

وهناك من الآيات ما يصعب فهم المراد منه، ويقع الخطأ في تفسيره، إذا لم يعلم سبب نزوله.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [سورة البقرة: آية ١١٥]. فظاهر اللفظ أن للإنسان أن يصلي إلى أية جهة يشاء، ولا يجب استقبال الكعبة لا في سفر ولا حضر، لكن إذا علم أن الآية خاصة بنافلة السفر، أو فيمن صلى باجتهاد وبان خطؤه، علم أن الظاهر غير مراد، فعن ابن عمر-رضي الله عنهما- أن هذه الآية نزلت في صلاة المسافر على الراحلة أينما توجهت.

طريق معرفة سبب النزول:

أما طريق معرفة سبب النزول، هو النقل الصحيح عن الصحابة الذين عاصروا النزول، ووقفوا على الوقائع والملابسات، ولا مجال للعقل فيه، إلا بالترجيح بين الروايات أو الجمع فيما ظاهره التعارض منها، ولا يحل القول في أسباب النزول بالرأي والاجتهاد. وقول الصحابي في سبب النزول مقبول وله حكم الحديث المرفوع، فيما لا مجال للاجتهاد فيه.

نبين أدناه بعض الأمور المهمة في أهمية علم أسباب النزول:

١ - الحكمة:

أ- معرفة وجه ما ينطوي عليه تشريع الحكم على التعيين لما فيه نفع المؤمنين وغير

المؤمنين، فالمؤمن يزداد إيماناً على إيمانه لما شاهده وعرف سبب نزوله، والكافر إن كان منصفاً يبهره صدق هذه الرسالة الإلهية فيكون سبباً لإسلامه، لأن ما نزل بسبب من الأسباب إنما يدل على عظمة المُنزل وصدق المُنَزَّل عليه.

٢- الفوائد:

أ- الاستعانة على فهم الآية وتفسيرها وإزالة الإشكال عنها، لما هو معلوم من الارتباط بين السبب والمسبب.

قال الواحدي: لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها.

قال ابن دقيق العيد: بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن.

قال ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب.

وقد أشكل على مروان بن الحكم قوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٨٨].

وقال: لئن كان كل امرىء فرح بما أُوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً، لنعذبنَّ أجمعون، حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء، فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، وأَرَوْه أنهم أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه.

ب- أن لفظ الآية يكون عاماً، ويقوم الدليل على تخصيصه، فإذا عُرف السبب قصر التخصيص على ما عدا صورته.

جـ- دفع توهم الحصر، قال الإمام الشافعي ما معناه في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا ...﴾ [الأنعام: ١٤٥]. إن الكفار لما حرموا ما أحل الله، وأحلوا ما حرم الله، وكانوا على المضادة - أي تصرفهم بقصد المخالفة - جاءت الآية مناقضة لغرضهم فكأنه قال: لا حلال إلا ما حرمتموه، ولا حرام إلا ما أحللتموه.

د- معرفة اسم النازل فيه الآية، وتعيين المبهم فيه.

يقـول الزركـشي رحمـه الله تعـالى في كتابه (البرهان في علوم القرآن) في علم أسباب النزول (ج١/ ص ٢٢- ٣٤): ما نصه:

معرفة أسباب النزول: وقد اعتنى بذلك المفسرون في كتبهم وأفردوا فيه تصانيف منهم علي بن المديني شيخ البخاري ومن أشهرها تصنيف الواحدي في ذلك وأخطأ من زعم أنه لا طائل تحته لجريانه مجرى التاريخ وليس كذلك بل له فوائد منها وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم، ومنها تخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب، ومنها الوقوف على المعنى قال الشيخ أبو الفتح القشيري بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز وهو أمر تحصل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا، ومنها أنه قد يكون اللفظ عاما ويقوم الدليل على التخصيص فإن محل السبب لا يجوز إخراجه بالاجتهاد والإجماع كما حكاه القاضي أبو بكر في مختصر التقريب لأن دخول السبب قطعي ونقل بعضهم الاتفاق على أن لتقدم السبب على ورود العموم أثرا ولا التفات إلى ما نقل عن بعضهم من تجويز إخراج محل السبب بالتخصيص لأمرين: أحدهما أنه يلزم منه تأخير البيان عن وقت الحاجة ولا يجوز والثاني أن فيه عدولا عن محل السؤال وذلك لا يجوز في حق الشارع لئلا يلتبس على السائل واتفقوا على أنه تعتبر النصوصية في السبب من جهة استحالة تأخير البيان عن وقت الحاجة وتؤثر أيضا فيما وراء محل السبب وهو إبطال الدلالة على قول والضعف على قول، ومن الفوائد أيضا دفع توهم الحصر قال الشافعي ما معناه في معنى قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾، [الآية] إن الكفار لما حرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرم الله وكانوا على المضادة والمحادة جاءت الآية مناقضة لغرضهم فكأنه قال لا حلال إلا ما حرمتموه ولا حرام إلا ما أحللتموه نازلا منزلة من يقول لا تأكل اليوم حلاوة فتقول لا آكل اليوم إلا الحلاوة والغرض المضادة لا النفي والإثبات على الحقيقة فكأنه قال لا حرام إلا ما حللتموه من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ولم يقصد حل ما وراءه إذا القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل. قال إمام الحرمين وهذا في غاية الحسن ولولا سبق الشافعي إلى

ذلك لما كنا نستجير مخالفة مالك في حصر المحرمات فيما ذكرته الآية وهذا قد يكون من الشافعي أجراه مجرى التأويل ومن قال بمراعاة اللفظ دون سببه لا يمنع من التأويل. وقد جاءت آيات في مواضع اتفقوا على تعديتها إلى غير أسبابها كنزول آية الظهار في سلمة بن صخر وآية اللعان في شأن هلال بن أمية ونزول حد القذف في رماة عائشة رضي الله عنها ثم تعدى إلى غيرهم وإن كان قد قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾، فجمعها مع غيرها إما تعظيماً لها إذ أنها أم المؤمنين.

ومن رمى أم قوم فقد رماهم وإما للإشارة إلى التعميم ولكن الرماة لها كانوا معلومين فتعدى الحكم إلى من سواهم فمن يقول بمراعاة حكم اللفظ كان الاتفاق هاهنا هو مقتضى الأصل ومن قال بالقصر على الأصل خرج عن الأصل في هذه الآية بدليل ونظير هذا تخصيص الاستعاذة بالإناث في قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴾، لخروجه على السبب وهو أن بنات لبيد سحرن رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا قال أبو عبيد وفيه نظر فإن الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم هو لبيد ابن الأعصم كما جاء في الصحيح. وقد تنزل الآيات على الأسباب خاصة وتوضع كل واحدة منها مع ما يناسبها من الآي رعاية لنظم القرآن وحسن السياق فذلك الذي وضعت معه الآية نازلة على سبب خاص للمناسبة إذ كان مسوقا لما نزل في معنى يدخل تحت ذلك اللفظ العام أو كان من جملة الأفراد الداخلة وضعا تحت اللفظ العام فدلالة اللفظ عليه هل هي كالسبب فلا يخرج ويكون مرادا من الآيات قطعا أو لا ينتهي في القوة إلى ذلك لأنه قد يراد غيره وتكون المناسبة مشبهة به فيه احتمال. واختار بعضهم أنه رتبة متوسطة دون السبب وفوق العموم المجرد ومثاله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾، فإن مناسبتها للآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلاً ﴾، أن ذلك إشارة إلى كعب بن الأشرف كان قدم إلى مكة وشاهد قتلى بدر وحرض الكفار على الأخذ بثأرهم وغزو النبي – صلى الله عليه وسلم – فسألوه من أهدى سبيلا النبي صلى الله عليه وسلم أو هم فقال أنتم كذبا منه وضلالة لعنه الله فتلك

الآية في حقه وحق من شاركه في تلك المقالة وهم أهل كتاب يجدون عندهم في كتابهم بعث النبي صلى الله عليه وسلم وصفته وقد أخذت عليهم المواثيق ألا يكتموا ذلك وأن ينصروه وكان ذلك أمانة لازمة لهم فلم يؤدوها وخانوا فيها وذلك مناسب لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾، قال ابن العربي في تفسيره وجه النظم أنه أخبر عن كتمان أهل الكتاب صفة محمد صلى الله عليه وسلم وقولهم إن المشركين أهدى سبيلاً فكان ذلك خيانة منهم فانجر الكلام إلى ذكر جميع الأمانات..

ولا يرد على هذا أن قصة كعب بن الأشرف كانت عقب بدر ونزول ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ ﴾، في الفتح أو قريبا منها وبينهما ست سنين لأن الزمان إنما يشترط في سبب النزول ولا يشترط في المناسبة لأن المقصود منها وضع آية في موضع يناسبها والآيات كانت تنزل على أسبابها ويأمر النبي صلى الله عليه وسلم بوضعها في المواضع التي علم من الله تعالى أنها مواضعها... ومن فوائد هذا العلم إزالة الإشكال ففي الصحيح عن مروان بن الحكم أنه بعث إلى ابن عباس يسأله لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعون فقال ابن عباس هذه الآية نزلت في أهل الكتاب ثم تلا : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾، إلى قوله: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شئ فكتموه وأخبروه بغيره فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه فاستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم ما سألهم عنه انتهى.. قال بعضهم وما أجاب به ابن عباس عن سؤال مروان لا يكفي لأن اللفظ أعم من السبب ويشهد له قوله - صلى الله عليه وسلم - المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور وإنما الجواب أن الوعيد مرتب على أثر الأمرين المذكورين وهما الفرح وحب الحمد لا عليهما أنفسهما إذ هما من الأمور الطبيعية التي لا يتعلق بها التكليف أمرا ولا نهيا، قلت لا يخفى عن ابن عباس رضي الله عنه أن اللفظ أعم من السبب لكنه بين أن المراد باللفظ خاص ونظيره تفسير النبي - صلى الله عليه وسلم - الظلم بالشرك فيما سبق، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا

طَعِمُوٓاْ ﴾، [المائدة: الآية ٩٣]. فحكي عن عثمان بن مظعون وعمرو بن معد يكرب أنهما كانا يقولان الخمر مباحة ويحتجان بهذه الآية وخفي عليهما سبب نزولها فإنه يمنع من ذلك وهو ما قاله الحسن وغيره لما نزل تحريم الخمر قالوا كيف بإخواننا الذين ماتوا وهي في بطونهم وقد أخبر الله أنها رجس فأنزل الله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ ﴾ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ ﴾، [الطلاق: الآية ٤]. قد أشكل معنى هذا الشرط على بعض الأئمة وقد بينه سبب النزول، روي أن ناسا قالوا يا رسول الله قد عرفنا عدة ذوات الأقراء فما عدة اللائي لم يحضن من الصغار والكبار فنزلت فهذا يبين معنى: ﴿ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ ﴾، أي إن أشكل عليكم حكمهن وجهلتم كيف يعتددن فهذا حكمهن، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾، فإنا لو تركنا مدلول اللفظ لاقتضى أن المصلي لا يجب عليه استقبال القبلة سفرا ولا حضرا وهو خلاف الإجماع فلا يفهم مراد الآية حتى يعلم سببها وذلك أنها نزلت لما صلى النبي صلى الله عليه وسلم على راحلته وهو مستقبل من مكة إلى المدينة حيث توجهت به فعلم أن هذا هو المراد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾، فإن سبب نزولها أن قوما أرادوا الخروج للجهاد فمنعهم أزواجهم وأولادهم فأنزل الله تعالى هذه الآية ثم أنزل في بقيتها ما يدل على الرحمة وترك المؤاخذة فقال ﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

كيفية معرفة أسباب النزول:

لما كان سبب النزول أمراً واقعاً نزلت بشأنه الآية، كان من البَدَهي ألا يدخل العلم بهذه الأسباب في دائرة الرأي والاجتهاد، لهذا قال الإمام الواحدي: ولا يحل القول في أسباب النزول إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها.

ومن هنا نفهم تشدد السلف في البحث عن أسباب النزول، حتى قال الإمام محمد بن

سيرين: سألت عَبيدَةَ عن آية من القرآن، فقال: اتق الله وقل سداداً، ذهَب الذين يعلمون فيما أنزل القرآن.

وقد اتفق علماء الحديث على اعتبار قول الصحابي في سبب النزول لأن أسباب النزول غير خاضعة للاجتهاد فيكون قول الصحابي حكمه الرفع، أما ما يرويه التابعون من أسباب النزول، فهو مرفوع أيضاً، لكنه مرسل، لعدم ذكر الصحابي.

لكن ينبغي الحذر والتيقظ، فلا نخلط بأسباب النزول ما ليس منها، فقد يقع على لسانهم قولهم: نزلت هذا الآية في كذا ويكون المراد موضوع الآية، أو ما دلت عليه من الحكم.

صيغة السبب:

١- تكون نصحاً صريحاً في السببية إذا صرح الراوي بالسبب بأن يقول: سبب نزول هذه الآية كذا، أو يأتي الراوي بفاء التعقيب بعد ذكر الحادثة، بأن يقول: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كذا، فنزلت الآية.

٢- تكون محتملة للسببية إذا قال الراوي: أحسب هذه الآية نزلت في كذا، أو ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في كذا، مثال ذلك ما حدث للزبير والأنصاري ونزاعهما في سقي الماء، وتشاكيا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونفذ فيهما حكم الله، فكأن الأنصاري لم يعجبه هذه الحكم، فنزل قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء: ٦٥]. فقال الزبير ما أحسب هذه الآية إلا في ذلك.

في ما نزل مكررا: وقد ينزل الشيء مرتين تعظيما لشأنه وتذكيرا به عند حدوث سببه خوف نسيانه وهذا كما قيل في الفاتحة نزلت مرتين مرة بمكة وأخرى بالمدينة وكما ثبت في امرأة قبلة فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فأنزل الله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾، فقال الرجل إلى هذا، فقال صلى الله عليه وسلم: «بل لجميع أمتي»، فهذا كان في المدينة والرجل قد ذكر الترمذي أو غيره أنه

أبو اليسر وسورة هود مكية بالاتفاق ولهذا أشكل على بعضهم هذا الحديث مع ما ذكرنا ولا إشكال لأنها نزلت مرة بعد مرة، ومثله ما في الصحيحين عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾، أنها نزلت لما سأله اليهود عن الروح وهو في المدينة ومعلوم أن هذه في سورة سبحان وهي مكية بالاتفاق فإن المشركين لما سألوه عن ذي القرنين وهن أهل الكهف قيل ذلك بمكة وأن اليهود أمروهم أن يسألوه عن ذلك فأنزل الله الجواب كما قد بسط في موضعه وكذلك ما ورد في ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، أنها جواب للمشركين بمكة وأنها جواب لأهل الكتاب بالمدينة... وكذلك ما ورد في الصحيحين من حديث المسيب لما حضرت أبا طالب الوفاة وتلكأ عن الشهادة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (والله لأستغفرن لك ما لم أنه)، فأنزل الله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ ﴾، وأنزل الله في أبي طالب: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، وهذه الآية نزلت في آخر الأمر بالاتفاق وموت أبي طالب كان بمكة فيمكن أنها نزلت مرة بعد أخرى وجعلت أخيرا في براءة، والحكمة في هذا كله أنه قد يحدث سبب من سؤال أو حادثة تقتضي نزول آية وقد نزل قبل ذلك ما يتضمنها فتؤدي تلك الآية بعينها إلى النبي صلى الله عليه وسلم تذكيرا لهم بها وبأنها تتضمن هذه والعالم قد يحدث له حوادث فيتذكر أحاديث وآيات تتضمن الحكم في تلك الواقعة وإن لم تكن خطرت له تلك الحادثة قبل مع حفظه لذلك النص، وما يذكره المفسرون من أسباب متعددة لنزول الآية قد يكون من هذا الباب لا سيما وقد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال نزلت هذه الآية في كذا فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب في نزولها وجماعة من المحدثين يجعلون هذا من المرفوع المسند كما في قول ابن عمر في قوله تعالى: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾، وأما الإمام أحمد فلم يدخله في المسند وكذلك مسلم وغيره وجعلوا هذا مما يقال بالاستدلال وبالتأويل فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية لا من جنس النقل لما وقع.

خصوص السبب وعموم الصيغة: وقد يكون السبب خاصا والصيغة عامة لينبه على أن العبرة بعموم اللفظ وقال الزمخشري في نفس سورة الهمزة يجوز أن يكون السبب

خاصا والوعيد عاما ليتناول كل من باشر ذلك القبيح وليكون جارياً مجرى التعريض بالوارد فيه فإن ذلك أزجر له وأنكى فيه تقدم نزول الآية على الحكم.

واعلم أنه قد يكون النزول سابقا على الحكم وهذا كقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾، فإنه يستدل بها على زكاة الفطر، فقد روى البيهقي بسنده إلى ابن عمر أنها نزلت في زكاة رمضان ثم أسند مرفوعا نحوه وقال بعضهم لا أدري ما وجه هذا التأويل لأن هذه السورة مكية ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة. وأجاب البغوي في تفسيره أنه يجوز أن يكون النزول سابقا على الحكم كما قال تعالى:﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝﴾، فالسورة مكية وظهور أثر الحل يوم فتح مكة حتى قال عليه السلام (أحلت لي ساعة من نهار)، وكذلك نزل بمكة: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾، قال عمر بن الخطاب كنت لا أدري أي الجمع يهزم فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾.

فائدة: (روى البخاري في كتاب الأدب المفرد في بر الوالدين عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال نزلت في أربع آيات من كتاب الله عز وجل كانت أمي حلفت ألا تأكل ولا تشرب حتى أفارق محمدا صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى: ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾، والثانية إني كنت أخذت سيفا فأعجبني فقلت يا رسول الله هب لي هذا فنزلت: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾، والثالثة أني كنت مرضت فأتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله إني أريد أن أقسم مالي أفأوصي بالنصف فقال لا فقلت الثلث فسكت فكان الثلث بعد جائزا والرابعة أني شربت الخمر مع قوم من الأنصار فضرب رجل منهم أنفي بلحى جمل فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل تحريم الخمر واعلم أنه جرت عادة المفسرين أن يبدءوا بذكر سبب النزول ووقع البحث أيما أولى البداءة به بتقدم السبب على المسبب أو بالمناسبة لأنها المصححة لنظم الكلام وهي سابقة على النزول والتحقيق التفصيل بين أن يكون وجه المناسبة متوقفاً على سبب النزول كالآية

السابقة في أن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها فهذا ينبغي فيه تقديم ذكر السبب لأنه حينئذ من باب تقديم الوسائل على المقاصد وإن لم يتوقف على ذلك فالأولى تقديم وجه المناسبة).

اختلاف روايات أسباب النزول:

لما كان سبيل الوصول إلى أسباب النزول هو الرواية والنقل، كان لا بد أن يعرض لها ما يعرض للرواية من صحة وضعف، واتصال وانقطاع، غير أنا هنا على ظاهره هامة يحتاج الدارس إليها وهي اختلاف روايات أسباب النزول وتعددها، وذلك لأسباب يمكن تلخيص مهماتها فيما يلي:

١- ضعف الرواة:

وضعف الراوي يسبب له الغلط في الرواية، فإذا خالفت روايته المقبولين، كانت روايته مردودة.

ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]. فقد ثبت أنها في صلاة التطوع للراكب المسافر على الدابة.

أخرج مسلم عن ابن عمر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه، قال: وفيه نزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾. وأخرج الترمذي وضعّفه: أنها في صلاة من خفيت عليه القبلة فاجتهد فأخطأ القبلة، فإن صلاته صحيحة. فالمعوّل عليه هنا في سبب النزول الأول لصحته.

٢- تعدد الأسباب والمُنَزَّل واحد:

وذلك بأن تقع عدة وقائع في أزمنة متقاربة، فتنزل الآية لأجلها كلها، وذلك واقع في مواضيع متعددة من القرآن، والعمدة في ذلك على صحة الروايات، فإذا صحت الروايات بعدة أسباب ولم يكن ثمة ما يدل على تباعدها كان ذلك دليلاً على أن الكل سبب لنزول الآية والآيات.

مثال ذلك: آيات اللعان: فقد أخرج البخاري: أنها نزلت في هلال بن أمية لما قذف

امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ... ﴾ [النور: ٦].

وفي الصحيحين : أنها نزلت في عويمر العجلاني وسؤاله النبي صلى الله عليه وسلم عن الرجل يجد مع امرأته رجلاً...فقال صلى الله عليه وسلم: «إنه قد أنزل فيك وفي صاحبتك القرآن».

وظاهر الحديثين الاختلاف، وكلاهما صحيح.

فأجاب الإمام النووي: بأن أول من وقع له ذلك هلال، وصادف مجيىء عويمر أيضاً، فنزلت في شأنها معاً.

٣- أن يتعدد نزول النص لتعدد الأسباب:

قال الإمام الزركشي: وقد ينزل الشيء مرتين تعظيماً لشأنه، وتذكيراً به عند حدوث سببه خوف نسيانه ... ولذلك أمثلة، منها:

ما ثبت في الصحيحين: عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ أنها نزلت لما سأله اليهود عن الروح وهو في المدينة، ومعلوم أن هذه الآية في سورة "سبحان" - أي الإسراء وهي مكية بالاتفاق، فإن المشركين لما سألوه عن ذي القرنين وعن أهل الكهف قبل ذلك بمكة، وأن اليهود أمروهم أن يسألوه عن ذلك، فأنزل الله الجواب، كما سبق بيانه.

ولا يقال: كيف يتعدد النزول بالآية الواحدة، وهو تحصيل حاصل؟

فالجواب: أن لذلك فائدة جليلة، والحكمة من هذا - كما قال الزركشي - إنه قد يحدث سبب من سؤال أو حادثة تقتضي نزول آية، وقد نزل قبل ذلك ما يتضمنها، فتؤدي تلك الآية بعينها إلى النبي صلى الله عليه وسلم تذكيراً لهم بها، وبأنها تتضمن هذه .

تعدد النزول مع وحدة السبب:

١ - قد يتعدد ما ينزل والسبب واحد ومن ذلك ما روي عن أم سلمة رضي الله عنها

قالت : يا رسول الله، لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

٢- عن أم سلمة قالت: يا رسول الله ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال، فأنزلت: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ...﴾ [الأحزاب: ٣٥].

٣- عن أم سلمة أنها قالت: تغزوا الرجال ولا تغزوا النساء، وإنما لنا نصف الميراث، فأنزل الله: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ﴾ [النساء: ٣٢] .

تقدم نزول الآية على الحكم:

١- المثال الأول: قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤]. استدل بها على زكاة الفطر، والآية مكية، وزكاة الفطر في رمضان، ولم يكن في مكة عيد ولا زكاة.

٢- المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ [البلد: ١-٢]، السورة مكية، وقد ظهر أثر الحل يوم فتح مكة، حتى قال صلى الله عليه وسلم: «أحلت لي ساعة من نهار».

٣- المثال الثالث: قوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] قال عمر ابن الخطاب: كنت لا أدري أي الجمع يهزم؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾.

تعدد ما نزل في شخص واحد:

١- موافقات عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

أخرج البخاري عن أنس قال: قال عمر: وافقت ربي في ثلاث. قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت: ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾، [البقرة: ١٢٥].

وقلت يا رسول الله: إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن،

فنزلت آية الحجاب، واجتمع على رسول الله صلى الله عليه وسلم نساؤه في الغيرة، فقلت لهن: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ [التحريم: ٥] فنزلت كذلك.

٢- نزلت آيات في سعد بن أبي وقاص: قال: كانت أمي حلفت ألا تأكل ولا تشرب حتى أفارق محمد صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ [لقمان: ١٥].

الآية الثانية: يقول سعد: أخذت سيفاً فأعجبني، فقلت: يا رسول الله هب لي هذا، فنزلت سورة الأنفال.

أمثلة عن أسباب النزول:

١- قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ...﴾ [البقرة: ١٤٢] نزلت في تحويل القبلة.

لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يتوجه نحو الكعبة، فأنزل الله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة: ١٤٤]، فقال السفهاء من الناس-وهم اليهود- ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾، قال الله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ... ﴾ [البقرة: ١٤٢].

٢- قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ...﴾ [النساء : ١١].

عن جابر قال: عادني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر في بني سلمة يمشيان، فوجدني لا أعقل، فدعا بماء فتوضأ، ثم رش عليَّ منه فأفقت فقلت: كيف أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾.

٣- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠١].

عن ابن عباس قال: كان قوم يسألون النبي صلى الله عليه وسلم استهزاءً، فيقول

الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي ؟ فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية.

٤- قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ١١٤].

عن عبد الله قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني عالجت امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها ما دون أن آتيها وأنا هذا فاقض فيّ ما شئت، قال: فقال عمر: لقد سترك الله لو سترت نفسك، فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً، فانطلق الرجل فأتبعه رجلاً ودعاه، فتلا عليه هذه الآية، فقال الرجل: يا رسول الله هذا له خاصة؟ قال: «لا، بل للناس كافة».

٥- قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ [الإسراء: ١١٠].

عن عباس قال: نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم مختف بمكة، وكانوا إذا سمعوا القرآن سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ أي بقراءتكم فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ عن أصحابك فلا يسمعون ﴿ وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾.

٦- قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ ﴾ [النور: ٣٣].

عن جابر قال: كان لعبد الله بن أبي جاريه يقال لها: مسيكة، فكان يكرهها على البغاء، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ ﴾.

٧- قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ [العنكبوت: ٨] عن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه قال: نزلت هذه الآية فيّ، قال: حلفت أم سعد لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب، ومكثت ثلاثة أيام حتى غشي عليها الجهد، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾.

٨- قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾، [الزمر: ٥٣].

عن ابن عباس أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا، ثم أتوا

محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملناه كفارة، فنزلت هذه الآية: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ... ﴾.

يطلق الجمع على معنيين:

١- المعنى الأول: جمعه بمعنى الحفظ في الصدور، وهذا المعنى ورد في قوله تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ [القيامة:١٦-١٧].

٢- المعنى الثاني: جمع القرآن بمعنى كتابته في السطور، أي الصحائف التي تضم السورة والآيات جميعها.

المبحث العاشر

مختصر في علم الناسخ والمنسوخ

تعريف الناسخ والمنسوخ: وهو من العلوم المهمة، إذ به يعلم تقدم وتأخر الأحكام والآيات المتعلقة بها، وأيها أصبحت ملزمة وأيها تقرأ وترتل ولا يعمل بها... يقول الزركشي رحمه الله تعالى في كتابه البرهان في علوم القرآن حول موضوع معرفة ناسخ القرآن الكريم من منسوخه : والعلم به عظيم الشأن وقد صنف فيه جماعة كثيرون منهم قتادة بن دعامة السدوسي وأبو عبيد القاسم بن سلام وأبو داود السجستاني وأبو جعفر النحاس وهبة الله بن سلام الضرير وابن العربي وابن الجوزي وابن الأنباري ومكي وغيرهم.. قال الأئمة ولا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ، وقد قال علي بن أبي طالب ﷺ لقاص أتعرف الناسخ والمنسوخ، قال الله أعلم، قال هلكت وأهلكت..

ومن أشهر الكتب والرسائل الخاصة بهذا العلم:

كتاب الناسخ والمنسوخ لقتادة بن دعامة السدوسي.. الناسخ والمنسوخ للمقري.. قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن لمرعي بن يوسف الكرمي.. الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم لابن حزم الأندلسي.. ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه لابن

البارزي.. كتاب المصفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ.. الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم للنحاس.. الناسخ والمنسوخ لابن خزيمة... نواسخ القرآن لعبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي أبو الفرج.

سنبين فيما سيأتي تلخيصاً لهذا العلم الواسع والمهم ليتبين للقارئ الكريم أن آيات النسخ لحكم إنما جاءت لتزيل تشريعاً أو حكماً وتضع آخر محله بعد أن تهيأت الظروف الاجتماعية والنفسية لتطبيق الحكم الجديد.

التفاصيل العلمية لهذا النوع من علوم القرآن الكريم:

أ- تعريف النسخ:

١- لغة: الإزالة. يقال: نسخت الشمس الظّل، أي أزالته. ويأتي بمعنى التبديل والتحويل، يشهد له قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾، [النحل: ١٠١].

٢- اصطلاحاً: رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر. فالحكم المرفوع يسمى: المنسوخ، والدليل الرافع يسمى: الناسخ، ويسمى الرفع: النسخ.

فعملية النسخ على هذا تقضي منسوخاً وهو الحكم الذي كان مقرراً سابقاً، وتقتضي ناسخاً، وهو الدليل اللاحق.

ب- شروط النسخ:

١- أن يكون الحكم المنسوخ شرعياً.

٢- أن يكون الدليل على ارتفاع الحكم دليلاً شرعياً متراخياً عن الخطاب المنسوخ حكمه.

٣- ألا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيداً بوقت معين مثل قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾، [البقرة:١٠٩] فالعفو والصفح مقيد بمجيء أمر الله.

جـ- حكمه وقوع النسخ:

١- **يحتل النسخ مكانة هامة في تاريخ الأديان،** حيث أن النسخ هو السبيل لنقل الإنسان إلى الحالة الأكمل عبر ما يعرف بالتدرج في التشريع، وقد كان الخاتم لكل

الشرائع السابقة والمتمم له ما جاء به سيدنا محمد ﷺ وبهذا التشريع بلغت الإنسانية الغاية في كمال التشريع.

وتفصيل هذا: أن النوع الإنساني تقلب كما يتقلب الطفل في أدوار مختلفة، ولكل دور من هذه الأدوار حال تناسبه غير الحال التي تناسب دوراً غيره، فالبشر أول عهدهم بالوجود كانوا كالوليد أول عهده بالوجود سذاجة، وبساطة، وضعفاً، وجهالة، ثم أخذوا يتحولون من هذا العهد رويداً رويداً، ومروا في هذا التحول أو مرت عليهم أعراض متباينة، من ضآلة العقل، وعماية الجهل، وطيش الشباب، وغشم القوة على التفاوت في هذا بينهم، اقتضى وجود شرائع مختلفة لهم تبعاً لهذا التفاوت.

حتى إذا بلغ العالم أوان نضجه واستوائه، وربطت مدنيته بين أقطاره وشعوبه، جاء هذا الدين الحنيف ختاماً للأديان ومتمماً للشرائع، وجامعاً لعناصر الحيوية ومصالح الإنسانية و مرونة القواعد، جمعاً وفَّقَ بين مطالب الروح والجسد، وآخى بين العلم والدين، ونظم علاقة الإنسان بالله وبالعالم كله من أفراد، وأسر، وجماعات، وأمم، وشعوب، وحيوان، ونبات، وجماد، مما جعله بحق ديناً عاماً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

٢- ومن الحكم أيضاً التخفيف والتيسير: مثاله: إن الله تعالى أمر بثبات الواحد من الصَحابَة للعشرة في قوله تعالى: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ﴾ [الأنفال: ٦٥]، ثم نسخ بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ﴾، [الأنفال: ٦٦] فهذا المثال يدل دلالة واضحة على التخفيف والتيسير ورفع المشقة، حتى يتذكر المسلم نعمة الله عليه.

٣- مراعاة مصالح العباد.

٤- ابتلاء المكلف واختباره حسب تطور الدعوة وحال الناس.

د- أقسام النسخ في القرآن الكريم :

١- نسخ التلاوة والحكم معاً:

رُوي عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان فيما نزل من القرآن: "عشر

رضعات معلومات يحرّمن" فنسخن خمس رضعات معلومات، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي مما يقرأ من القرآن". ولا يجوز قراءة منسوخ التلاوة والحكم في الصلاة ولا العمل به، لأنه قد نسخ بالكلية. إلا أن الخمس رضعات منسوخ التلاوة باقي الحكم عند الشافعية.

٢- نسخ التلاوة مع بقاء الحكم:

يُعمل بهذا القسم إذا تلقته الأمة بالقبول، لما روي أنه كان في سورة النور: "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما نكالاً من الله والله عزيز حكيم"، ولهذا قال عمر رضي الله عنه: لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبتها بيدي.

وهذان القسمان: (١- نسخ الحكم والتلاوة) و (٢- نسخ التلاوة مع بقاء الحكم) قليل في القرآن الكريم، ونادر أن يوجد فيه مثل هذان القسمان، لأن الله سبحانه أنزل كتابه المجيد ليتعبد الناس بتلاوته، وبتطبيق أحكامه.

٣- نسخ الحكم وبقاء التلاوة:

فهذا القسم كثير في القرآن الكريم، وهو في ثلاث وستين سورة... مثاله:

أولاً- قيام الليل: المنسوخ: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ ﴾، [المزمل: ١ - ٣]... بينما الناسخ: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ ﴾، [المزمل: ٢٠].

النسخ: وجه النسخ أن وجوب قيام الليل ارتفع بما تيسر، أي لم يَعُدْ واجباً.

ثانياً- محاسبة النفس: المنسوخ: قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾، [البقرة: ٢٨٤]... الناسخ: قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا ﴾، [البقرة: ٢٨٦].

النسخ: وجهه أن المحاسبة على خطرات الأنفس بالآية الأولى رُفعت بالآية التالية.

ثالثاً – حق التقوى: المنسوخ: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾، [آل عمران: ١٠٢]... الناسخ: قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾، [التغابن: ١٦].

النسخ: رفع حق التقوى بالتقوى المستطاعة.

وأ ما الحكمة من نسخ الحكم وبقاء التلاوة فيمكن تلخيصها بما يأتي:

١. إن القرآن كما يتلى ليعرف الحكم منه، والعمل به، فإنه كذلك يُتلى لكونه كلام الله تعالى، فيثاب عليه، فتركت التلاوة لهذه الحكمة.

٢. إن النسخ غالباً يكون للتخفيف، فأبقيت التلاوة تذكيراً بالنعمة ورفع المشقة، حتى يتذكر العبد نعمة الله عليه.

هـ- النسخ إلى بدل وإلى غير بدل :

١ – **النسخ إلى بدل مماثل:** كنسخ التوجه من بيت المقدس إلى بيت الحرام: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾، [البقرة :١٤٤].

٢- **النسخ إلى بدل أثقل:** كحبس الزناة في البيوت إلى الرجم للمحصن، والجلد لغير المحصن. ونسخ صوم عاشوراء بصوم رمضان.

٣- **النسخ إلى غير بدل:** كنسخ الصدقة بين يدي نجوى الرسول ﷺ.

٤ – **النسخ إلى بدل أخف:** مر معنا في الأمثلة السابقة (قيام الليل).

و- أنواع النسخ:

النوع الأول: نسخ القرآن بالقرآن، وهو متفق على جوازه ووقوعه.

النوع الثاني: نسخ القرآن بالسنة وهو قسمان.

١ – نسخ القرآن بالنسبة الآحادية، والجمهور على عدم جوازه.

٢- نسخ القرآن بالسنة المتواترة.

أ – أجازه الإمام أبو حنيفة ومالك ورواية عن أحمد، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ كُتِبَ

عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾، [البقرة: ١٨٠] فقد نسخت هذه الآية بالحديث المستفيض، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «ألا لا وصية لوارث» ولا ناسخ إلا السنة. وغيره من الأدلة.

ب- منعه الإمام الشافعي ورواية أخرى لأحمد، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾، [البقرة: ١٠٦] قالوا: السنة ليست خيراً من القرآن ولا مثله.

النوع الثالث: نسخ السنة بالقرآن: أجازه الجمهور، ومثلوا له بنسخ التوجه إلى بيت المقدس الذي كان ثابتاً بالسنة بالتوجه إلى المسجد الحرام. ونسخ صوم عاشوراء بصوم رمضان[1].

بعض اللطائف في المنسوخ:

يقول الزركشي رحمه الله تعالى في كتابه البرهان في علوم القرآن (ج: ٢ ص: ٢٨-٤٣) ما نصه:

ومن ظريف ما حكي في كتاب هبة الله أنه قال في قوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾، منسوخ من هذه الجملة ((وأسيرا))، والمراد بذلك أسير المشركين، فقرأ الكتاب عليه وابنته تسمع فلما انتهى إلى هذا الموضع قالت أخطأت يا أبت في هذا الكتاب، فقال لها، وكيف يا بنية، قالت أجمع المسلمون على أن الأسير يطعم ولا يقتل جوعا.

والنسخ يأتي بمعنى الإزالة ومنه قوله تعالى: ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ﴾.. ويأتي بمعنى التبديل كقوله: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾.. وبمعنى التحويل كتناسخ المواريث يعني تحويل الميراث من واحد إلى واحد.. ويأتي بمعنى النقل من موضع إلى موضع ومنه (نسخت الكتاب) إذا نقلت ما فيه حاكيا للفظه وخطه، قال

---

(١) الموسوعة الإسلامية المعاصرة، قرص مدمج/ علوم القرآن/ الناسخ والمنسوخ.

مكي وهذا الوجه لا يصح أن يكون في القرآن وأنكر على النحاس إجازته ذلك محتجا بأن الناسخ فيه لا يأتي بلفظ المنسوخ وإنما يأتي بلفظ آخر، وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن بركات السعدي يشهد لما قاله النحاس قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾، وقال: ﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾، ومعلوم أن ما نزل من الوحي نجوما جميعه في أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ، كما قال: ﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾..

ثـم اخـتلف العلماء فقيل المنسوخ ما رفع تلاوة تنزيله كما رفع العمل به ورد بما نسخ الله مـن الـتوراة بالقـرآن والإنجـيل وهما متلوان، وقيل لا يقع النسخ في قرآن يتلى وينزل والنـسخ ممـا خـص الله به هذه الأمة في حكم من التيسير.. ويفر هؤلاء من القول بأن الله ينـسخ شيئا بعد نزوله والعمل به وهذا مذهب اليهود في الأصل ظنا منهم أنه بداء كالذي يـرى الـرأي ثـم يـبدو لـه، وهـو باطـل لأنه بيان مدة الحكم ألا ترى الإحياء بعد الإماتة وعكـسه والمـرض بعـد الـصحة وعكسه والفقر بعد الغنى وعكسه وذلك لا يكون بداء فكـذا الأمـر والنهـي.. وقـيل إن الله تعـالى نـسخ القرآن من اللوح المحفوظ الذي هو أم الكـتاب فأنزله على نبيه، والنسخ لا يكون إلا من أصل، والصحيح جواز النسخ ووقوعه سمعا وعقلا..

ثم اختلفوا فقيل لا ينسخ قرآن إلا بقرآن لقوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾، قالوا ولا يكون مثل القرآن وخيرا منه إلا قرآن.. وقيل بل السنة لا تنسخ السنة، وقيل السنة إذا كانت بأمر الله من طريق الوحي نسخت وإن كانت باجتهاد فلا تنسخه - حكاه ابن حبيب النيسابوري في تفسيره -، وقيل بل إحداهما تنسخ الأخرى، ثم اختلفوا فقيل الآيتان إذا أوجبتا حكمين مختلفين وكانت إحداهما متقدمة الأخرى فالمتأخرة ناسخة للأولى كقوله تعالى: ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾، ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ﴾، وقال: ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ﴾، قالوا فهذه ناسخة للأولى ولا يجوز أن يكون

لهما الوصية والميراث.. وقيل بل ذلك جائز وليس فيهما ناسخ ولا منسوخ وإنما نسخ الوصية للوارث بقوله عليه السلام: (**لا وصية لوارث**)، وقيل ما نزل بالمدينة ناسخ لما نزل بمكة ويجوز نسخ الناسخ فيصير الناسخ منسوخا وذلك كقوله: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ نسخها بقوله تعالى: ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، ثم نسخ هذه أيضا بقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ ﴾.. وقوله: ﴿ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ وناسخه قوله تعالى: ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، ثم نسخها بقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ ﴾.

مسألة في جواز النسخ بالكتاب: لا خلاف في جواز نسخ الكتاب بالكتاب قال الله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾، وقال: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾، ولذلك نسخ السنة بالكتاب كالقصة في صوم عاشوراء برمضان وغيره. واختلف في نسخ الكتاب بالسنة، قال ابن عطية حذاق الأمة على الجواز وذلك موجود في قوله ﷺ: «لا وصية لوارث»، وأبي الشافعي ذلك والحجة عليه من قوله في إسقاط الجلد في حد الزنا عن الثيب الذي رجم فإنه لا مسقط لذلك إلا السنة فعل النبي ﷺ، قلنا أما آية الوصية فقد ذكرنا أن ناسخها القرآن، وأما ما نقله عن الشافعي فقد اشتهر ذلك لظاهر لفظ ذكره في الرسالة. وإنما مراد الشافعي أن الكتاب والسنة لا يوجدان مختلفين إلا ومع أحدهما مثله ناسخ له وهذا تعظيم لقدر الوجهين وإبانة تعاضدهما وتوافقهما وكل من تكلم على هذه المسألة لم يفهم مراده. وأما النسخ بالآية فليس بنسخ بل تخصيص ثم إنه ثابت بالقرآن الذي نسخت تلاوته وهو الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما.

في ما يقع فيه النسخ : اتفق الجمهور على أنه لا يقع النسخ إلا في الأمر والنهي وزاد بعضهم الأخبار وأطلق وقيدها آخرون بالتي يراد بها الأمر والنهي تنبيهات:

التنبيه الأول: في تقسيم سور القرآن بحسب ما دخله من النسخ وما لم يدخله اعلم أن سور القرآن العظيم تنقسم بحسب ما دخله النسخ وما لم يدخل إلى أقسام منها:

١ - **الأول ما ليس فيه ناسخ ولا منسوخ**: وهي ثلاث وأربعون سورة وهي الفاتحة ثم

يوسف ثم يس ثم الحجرات ثم الرحمن ثم الحديد ثم الصف ثم الجمعة ثم التحريم ثم الملك ثم الحاقة ثم نوح ثم الجن ثم المرسلات ثم النبأ ثم النازعات ثم الانفطار ثم المطففين ثم الانشقاق ثم البروج ثم الفجر ثم البلد ثم الشمس ثم الليل ثم الضحى ثم الانشراح ثم القلم ثم القدر ثم الانفكاك ثم الزلزلة ثم العاديات ثم القارعة ثم ألهاكم ثم الهمزة ثم الفيل ثم قريش ثم الدين ثم الكوثر ثم النصر ثم تبت ثم الإخلاص ثم المعوذتين، وهذه السور تنقسم إلى ما ليس فيه أمر ولا نهي وإلى ما فيه نهي لا أمر.

٢- **الثاني ما فيه ناسخ وليس فيه منسوخ**: وهي ست سور الفتح والحشر والمنافقون والتغابن والطلاق والأعلى.

٣- **الثالث ما فيه منسوخ وليس فيه ناسخ**: وهو أربعون الأنعام والأعراف ويونس وهود والرعد والحجر والنحل وبنو إسرائيل والكهف وطه والمؤمنون والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان والمضاجع والملائكة والصافات وص و الزمر والمصابيح والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف وسورة محمد - صلى الله عليه وسلم - والباسقات والنجم والقمر والرحمن والمعارج والمدثر والقيامة والإنسان وعبس والطارق والغاشية والتين والكافرون.

٤- **الرابع ما اجتمع فيه الناسخ والمنسوخ**: وهي إحدى وثلاثون وهي سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأعراف والأنفال والتوبة وإبراهيم والنحل وبنو إسرائيل ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان والشعراء والأحزاب وسبأ والمؤمن والشورى والقتال والذاريات والطور والواقعة والمجادلة والممتحنة والمزمل والمدثر والتكوير والعصر، ومن غريب هذا النوع آية أولها منسوخ وآخرها ناسخ قيل ولا نظير لها في القرآن وهي قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾، يعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذا ناسخ لقوله: ﴿ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾..

ذكره ابن العربي في أحكامه التنبيه الثاني في ضروب النسخ في القرآن، النسخ في

القرآن على ثلاثة أضرب:

الأول ما نسخ في تلاوته وبقي حكمه فيعمل به إذا تلقته الأمة بالقبول كما روي أنه كان يقال في سورة النور الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبته نكالا من الله ولهذا قال عمر لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبتها بيدي رواه البخاري في صحيحه معلقا، وأخرج ابن حبان في صحيحه عن أبي بن كعب قال كانت سورة الأحزاب توازي سورة النور فكان فيها الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما.. وفي هذا سؤالان الأول ما الفائدة في ذكر الشيخ والشيخة وهلا قال المحصن والمحصنة، وأجاب ابن الحاجب في أماليه عن هذا بأنه من البديع في المبالغة وهو أن يعبر عن الجنس في باب الذم بالأنقص فالأنقص وفي باب المدح بالأكثر والأعلى فيقال لعن الله السارق يسرق ربع دينار فتقطع يده والمراد يسرق ربع دينار فصاعداً إلى أعلى ما يسرق وقد يبالغ فيذكر ما لا تقطع به كما جاء في الحديث (**لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده**)، وقد علم أنه لا تقطع في البيضة وتأويل من أوله ببيضة الحرب تأباه الفصاحة .

الثاني أن ظاهر قوله لولا أن يقول الناس.. الخ أن كتابتها جائزة وإنما منعه قول الناس والجائز في نفسه قد يقوم من خارج ما يمنعه وإذا كانت جائزة لزم أن تكون ثابتة لأن هذا شأن المكتوب وقد يقال لو كانت التلاوة باقية لبادر عمر رضي الله عنه ولم يعرج على مقال الناس لأن مقال الناس لا يصلح مانعا. وبالجملة فهذه الملازمة مشكلة ولعله كان يعتقد أنه خبر واحد والقرآن لا يثبت به وإن ثبت الحكم ومن هنا أنكر ابن ظفر في الينبوع عد هذا مما نسخ تلاوته قال لأن خبر الواحد لا يثبت القرآن قال وإنما هذا من المنسأ لا النسخ وهما مما يلتبسان، والفرق بينهما أن المنسأ لفظه قد يعلم حكمه ويثبت أيضا وكذا قاله في غيره القراءات الشاذة كإيجاب التتابع في صوم كفارة اليمين ونحوه أنها كانت قرآنا فنسخت تلاوتها لكن في العمل بها الخلاف المشهور في القراءة الشاذة.. ومنهم من أجاب عن ذلك بأن هذا كان مستفيضا عندهم وأنه كان متلوا من القرآن فأثبتنا الحكم بالإستفاضة وتلاوته غير ثابتة بالإستفاضة، ومن هذا الضرب ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي موسى الأشعري إنا كنا نقرأ سورة كنا نشبهها في الطول

والشدة ببراءة فأنسيتها غير أني أحفظ منها (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب)، وكنا نقرأ سورة نشبهها بإحدى المسبحات فأنسيتها غير أني حفظت منها يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة..

وذكر الإمام المحدث أبو الحسين أحمد بن جعفر المنادى في كتابه الناسخ والمنسوخ مما رفع رسمه من القرآن ولم يرفع من القلوب حفظه سورتا القنوت في الوتر قال ولا خلاف بين الماضين والغابرين أنهما مكتوبتان في المصاحف المنسوبة إلى أبي بن كعب وأنه ذكر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه أقرأه إياهما وتسمى سورتي الخلع والحفد.. هنا سؤال وهو أن يقال ما الحكمة في رفع التلاوة مع بقاء الحكم وهلا أبقيت التلاوة ليجتمع العمل بحكمها وثواب تلاوتها وأجاب صاحب الفنون فقال إنما كان كذلك ليظهر به مقدار طاعة هذه الأمة في المسارعة إلى بذل النفوس بطريق الظن من غير استفصال لطلب طريق مقطوع به فيسرعون بأيسر شيء كما سارع الخليل إلى ذبح ولده بمنام والمنام أدنى طرق الوحي..

الضرب الثاني ما نسخ حكمه وبقي تلاوته وهو في ثلاث وستين سورة كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا ﴾، الآية. فكانت المرأة إذا مات زوجها لزمت التربص بعد انقضاء العدة حولا كاملا ونفقتها في مال الزوج ولا ميراث لها، وهذا معنى قوله: ﴿ مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾، الآية. فنسخ الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾. وهذا الناسخ مقدم في النظم على المنسوخ، قال القاضي أبو المعالي: وليس في القرآن ناسخ تقدم على المنسوخ إلا في موضعين هذا أحدهما، والثاني قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ﴾، الآية. فإنها ناسخة لقوله تعالى: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ ﴾.. قلت وذكر بعضهم موضعا آخر وهو قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾، هي متقدمة في التلاوة ولكنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾..

وقيل في تقديم الناسخة فائدة وهي أن تعتقد حكم المنسوخة قبل العلم بنسخها، ويجيء موضع رابع وهو آية الحشر في قوله تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ

﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾، الآية فإنه لم يذكر فيها شيء للغانمين ورأى الشافعي أنها منسوخة بآية الأنفال وهي قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ﴾، واعلم أن هذا الضرب ينقسم إلى ما يحرم العمل به ولا يمتنع كقوله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾، ثم نسخ الوجوب ومنه قوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾، قيل منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ نسختها آيات القيامة والكتاب والحساب..

وهنا سؤال وهو أن يسأل ما الحكمة في رفع الحكم وبقاء التلاوة، والجواب من وجهين أحدهما أن القرآن كما يتلى ليعرف الحكم منه والعمل به فيتلى لكونه كلام الله تعالى فيثاب عليه فتركت التلاوة لهذه الحكمة، وثانيهما أن النسخ غالبا يكون للتخفيف فأبقيت التلاوة تذكيرا بالنعمة ورفع المشقة وأما حكمة النسخ قبل العمل كالصدقة عند النجوى فيثاب على الإيمان به وعلى نية طاعة الأمر.

الثالث نسخهما جميعاً فلا تجوز قراءته ولا العمل به كآية التحريم بعشر رضعات فنسخن بخمس قالت عائشة كان مما أنزل عشر رضعات معلومات فنسخن بخمس معلومات فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي مما يقرأ من القرآن - رواه مسلم-. وقد تكلموا في قولها وهي مما يقرأ فإن ظاهره بقاء التلاوة وليس كذلك، فمنهم من أجاب بأن المراد قارب الوفاة والأظهر أن التلاوة نسخت أيضا ولم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فتوفي وبعض الناس يقرؤها، وقال أبو موسى الأشعري نزلت ثم رفعت، وجعل الواحدي من هذا ما روي عن أبي بكر رضي الله عنه قال كنا نقرأ لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر، وفيه نظر. وحكى القاضي أبو بكر في الانتصار عن قوم إنكار هذا القسم لأن الأخبار فيه أخبار آحاد ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها.. وقال أبو بكر الرازي نسخ الرسم والتلاوة إنما يكون بأن ينسيهم الله إياه ويرفعه من أوهامهم ويأمرهم بالإعراض عن تلاوته وكتبه في المصحف فيندرس على الأيام كسائر كتب الله القديمة التي ذكرها في كتابه في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾، ولا يعرف

اليوم منها شيء ثم لا يخلو ذلك من أن يكون في زمن النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا توفي لا يكون متلو في القرآن أو يموت وهو متلو موجود في الرسم ثم ينسيه الله ويرفعه من أذهانهم وغير جائز نسخ شيء من القرآن بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم .

فائدة: قال ابن العربي، قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾، ناسخة لمائة وأربع عشرة آية ثم صار آخرها ناسخا لأولها وهي قوله: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾، قالوا وليس في القرآن آية من المنسوخ ثبت حكمها ست عشرة سنة إلا قوله في الأحقاف: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾، وناسخها أول سورة الفتح.. قال ابن العربي، ومن أغرب آية في النسخ قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾، أولها وآخرها منسوخان ووسطها محكم..

وقسمه الواحدي أيضا إلى نسخ ما ليس بثابت التلاوة كعشر رضعات وإلى نسخ ما هو ثابت التلاوة بما ليس بثابت التلاوة كنسخ الجلد في حق المحصنين بالرجم والرجم غير متلو الآن وإنه كان يتلى على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، فالحكم ثبت والقراءة لا تثبت. كما يجوز أن تثبت التلاوة في بعض ولا يثبت الحكم، وإذا جاز أن يكون قرآن ولا يعمل به جاز أن يكون قرآن يعمل به ولا يتلى، وذلك أن الله عز وجل أعلم بمصالحنا وقد يجوز أن يعلم من مصلحتنا تعلق العمل بهذا الوجه.

التنبيه الثالث: في تقسيم القرآن على ضروب من وجه آخر، قسم بعضهم النسخ من وجه آخر إلى ثلاثة أضرب:

١. الأول نسخ المأمور به قبل امتثاله وهذا الضرب هو النسخ على الحقيقة كأمر الخليل بذبح ولده وكقوله تعالى: ﴿ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾، ثم نسخه سبحانه بقوله: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ ﴾، الآية.

٢. الثاني ويسمى نسخا تجوزا وهو ما أوجبه الله على من قبلنا كحتم القصاص، ولذلك قال عقب تشريع الدية: ﴿ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾، وكذلك ما أمرنا الله به أمراً إجمالياً ثم نسخ كنسخه التوجه إلى بيت الله المقدس بالكعبة فإن ذلك كان واجباً

علينا من قضية أمره باتباع الأنبياء قبله، وكنسخ صوم يوم عاشوراء برمضان.

٣. الثالث ما أمر به لسبب ثم يزول السبب كالأمر حين الضعف والقلة بالصبر وبالمغفرة للذين يرجون لقاء الله ونحوه من عدم إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ونحوها ثم نسخه إيجاب لذلك وهذا ليس بنسخ في الحقيقة وإنما هو نسء كما قال تعالى: ((أو ننسئها))، فالمنسأ هو الأمر بالقتال إلى أن يقوي المسلمون وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى وبهذا التحقيق تبين ضعف ما لهج به كثير من المفسرين في الآيات الآمرة بالتخفيف أنها منسوخة بآية السيف وليست كذلك بل هي من المنسأ بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما لعلة توجب ذلك الحكم ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر وليس بنسخ إنما النسخ الإزالة حتى لا يجوز امتثاله أبدا وإلى هذا أشار الشافعي في الرسالة إلى النهي عن ادخار لحوم الأضاحي من أجل الرأفة ثم ورد الإذن فيه فلم يجعله منسوخا بل من باب زوال الحكم لزوال علته حتى لو فاجأ أهل ناحية جماعة مضرورون تعلق بأهلها النهي ومن هذا قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾، الآية كان ذلك في ابتداء الأمر فلما قوي الحال وجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمقاتلة عليه ثم لو فرض وقوع الضعف كما أخبر النبي – صلى الله عليه وسلم – في قوله: «**بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ عاد الحكم**»، وقال – صلى الله عليه وسلم –: «**فإذا رأيت هوى متبعاً وشحاً مطاعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك**». وهو سبحانه وتعالى حكيم أنزل على نبيه – صلى الله عليه وسلم – حين ضعفه ما يليق بتلك الحال رأفة بمن تبعه ورحمة إذ لو وجب لأورث حرجا ومشقة فلما أعز الله الإسلام وأظهره ونصره أنزل عليه من الخطاب ما يكافئ تلك الحالة من مطالبة الكفار بالإسلام أو بأداء الجزية إن كانوا أهل كتاب أو الإسلام أو القتل إن لم يكونوا أهل كتاب ويعود هذان الحكمان أعني المسألة عند الضعف والمسايفة عند القوة بعود سببهما وليس حكم المسايفة ناسخا لحكم المسالمة بل كل منهما يجب امتثاله في وقته. فائدة قيل في قوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ ﴾، ولم يقل من القرآن لأن القرآن ناسخ مهيمن على كل الكتب وليس يأتي بعده ناسخ له وما فيه من

ناسخ ومنسوخ فمعلوم وهو قليل بين الله ناسخه عند منسوخه كنسخ الصدقة عند مناجاة الرسول والعدة والفرار في الجهاد ونحوه وأما غير ذلك فمن تحقق علما بالنسخ علم أن غالب ذلك من المنسأ ومنه ما يرجع لبيان الحكم المجمل كالسبيل في حق الآتية بالفاحشة فبينته السنة وكل ما في القرآن مما يدعى نسخه بالسنة عند من يراه فهو بيان لحكم القرآن وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾، وأما بالقرآن على ما ظنه كثير من المفسرين فليس بنسخ وإنما هو نسأ وتأخير أو مجمل أخر بيانه لوقت الحاجة أو خطاب قد حال بينه وبين أوله خطاب غيره أو مخصوص من عموم أو حكم عام لخاص أو لمداخلة معنى في معنى وأنواع الخطاب كثيرة فظنوا ذلك نسخا وليس به وأنه الكتاب المهيمن على غيره وهو في نفسه متعاضد وقد تولى الله حفظه فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

يقول ابن خزيمة في رسالته في الناسخ والمنسوخ: (وأول ما نسخ الصلاة الأولى، ثم القبلة الأولى، ثم الصوم الأول، ثم الزكاة الأولى، ثم الإعراض عن المشركين، ثم الموارثة، ثم العفو والصفح عن أهل الكتاب، ثم المخاطبة في الحج، ثم العهد الذي كان بينه وبين المشركين).

والملاحظ أن النسخ ينقسم بالعموم إلى ثلاثة أقسام:

١- النسخ في العبادات (الصلاة والصيام والزكاة وآداب الحج)، وهذا كان لترتيب وإكمال مراسيم العبادات على الوجه الأكمل بما يناسب جميع البشر على أختلاف ألوانهم وأصنافهم.

٢- النسخ في المعاملات مع المشركين وأهل الكتاب والذي مرّ بعدة مراحل بدءاً من من تركهم والإعراض عنهم إلى دعوتهم الجهرية بالطرق الجدلية إلى قتالهم.

٣- ثم النسخ في شؤون الأسرة وتوزيع الثروات والمسائل الاجتماعية وهو من فقه المعاملات والذي يعتبر أقل الأنواع إذ اقتصر على الميراث.

وهذا يعني أن الأخلاق وفقهها عموماً لم تنسخ لأنها ثوابت عظيمة على مر العصور،

ومنها التعامل بين الناس والدول في شؤون الحياة عموماً.

كما وأن النسخ بآية السيف للمنسوخ وهو الترك أو الإعراض أو الدعوة بالحكمة والطرق الجدلية جاء بعد الوصول إلى حالة اليأس من هدايتهم والتيقن من أنهم لا يمكن أن يستفيقوا من غيهم وظلمهم لأنفسهم، فهو بالضبط كحالة الطبيب الذي يستخدم الجراحة أو الكي كأسلوب أخير للعلاج، أو كحالة الأب الذي يضطره ابنه العاق والمتهور الذي لا يراعي لنفسه وأهله مصلحة إلى أن يستخدم الضرب معه كآخر أسلوب يمنعه عن غيه ويحيده عن طيشه كي لا يقع المحذور.. وهذا يعني بالضرورة أنه إذا ما كان المدعوين إلى اعتناق الإسلام من مشركين وكفار وأهل كتاب أو أهل اعتقادات فاسدة فيهم أمل للصلاح والهداية فإن الأولى هو استخدام اللين والحكمة معهم والصبر عليهم واستخدام الطرق الدعوية الحكيمة، وأما إذا ما كانوا مصرين على الغي فأما أن يتركوا أو أن يجبروا وحسب الظرف والمصلحة للأفراد والمجتمعات والأمة، وفي كل ذلك تدرج مرحلي تماماً كما تدرج المسلمون في الدعوة الأولى، وهذا ما يقرره أهل الفتوى والصلاح والعلم الغزير من العلماء الأجلاء ممن عرف عنهم كل خير ولا يترك الأمر كي يبت به كل من قرأ كتاب أو حفظ آيات وأحاديث... بمعنى أن النسخ الذي جاء باستخدام القوة مع الكفار والمشركين إنما جاء لإجبارهم على الدخول بالإسلام لا لأن الإسلام دين إجبار، وإنما لأن المصلحة اقتضت تخليصهم من شركهم وظلمهم لأنفسهم، وحين تكون المصلحة لا تقتضي ذلك لا تستخدم القوة.

فلو تخيلنا مثلاً أن قريشاً والعرب قد أسلموا ولم يعاندوا قبل الهجرة والفتح، فهل كان لتشريع الهجرة والفتح والجهاد من ضرورة؟، الجواب كلا، وإنما شرّع ذلك عندما استيأس المسلمون من هداية القوم ومن ثنيهم عن ما كانوا يقومون به من منع دين الله من الانتشار والتطبيق. ومن هذا نفهم كيف أن أكثر من نصف الدولة الإسلامية التي ترامت أطرافها حتى بلغت أكثر من نصف العالم القديم (القارات الثلاثة الرئيسية آسيا وأفريقيا وأوروبا) لم تفتح بالسيف وإنما بتحكيم الحجة والدليل والمنطق والعقل والحكمة والخلق الحسن، فهذا هو الأصل.

المبحث الحادي عشر

علم المحكم والمتشابه

ورد في القرآن الكريم ثلاث آيات إحداها تدل على أن القرآن محكم كله، هي قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [سورة هود:آية ١]، والقرآن كله بهذا المعنى محكم، أي نظمت آياته نظماً لا يطرأ عليه شيء يخل بفصاحته وبلاغته، وذلك هو الإحكام من جهة اللفظ والصياغة، وهو بعد ذلك محكم كله من جهة المعاني لا يلحقه تناقض، ولا يوصف خبر منه بكذب، بل كل تشريع فيه منطو على مصلحة وحكمة.

ثانيها تدل على أن القرآن متشابه كله، هي قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ [سورة الزمر آية٢٣]، فالقرآن كله متشابه، في كونه أحسن الحديث، وفي كونه مثاني، مكرر المواعظ والوعد والوعيد، يزداد بتكرار تلاوته حلاوة.

ثالثها تدل على أن القرآن بعضه محكم، وبعضه متشابه، هي قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [سورة آل عمران: آية ٧]، وهذه الآية تدل على أن بعض القرآن محكم، وبعضه متشابه، فهي موضوع البحث، وهي التي خاض فيها العلماء.

من الواضح أن المحكم والمتشابه في هذه الآية متقابلان، وفي المقصود من كل منهما اختلف العلماء، أذكر بعضاً منها:

١ - تعريف المحكم.

أ- الإحْكام لغة: الإتقان البالغ، ومنه البناء المحكم الذي اتقن، فلا يتطرق إليه الخلل أو الفساد. أما اصطلاحاً فقد اختلف الأصوليون في تعريفه على أقوال منها:

١ - أن المحكم ما عرف المراد منه، إما بالظهور أو بالتأويل.

٢ - أن المحكم لا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً.

٣- أن المحكم هو الواضح الدلالة الذي لا يحتمل النسخ.

٤- أن المحكم ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان.

٥- أن المحكم هو المتقن الذي لا يتطرق إليه الإشكال.

والمحكم ما استقل بنفسه، ولم يحتج إلى بيان، لأنه أصل من الأصول، والمتشابه: ما يحتاج في فهمه إلى رده لبعض الأصول.

٢- تعريف المتشابه:

أ- لغة: مأخوذ من الشَّبَه، وهو التماثل بين شيئين أو أشياء. ولما كان التماثل بين الأشياء يؤدي إلى الشك والحيرة، ويُوقع في الالتباس، توسعوا في اللفظ، وأطلقوا عليه اسم " المتشابه ".

يقال: اشتبه الأمر عليه، أي التبس عليه.

أما اصطلاحاً فقد اختلف فيه أيضاً على أقوال:

١- ما استأثر الله بعلمه، كقيام الساعة، وخروج الدابة والدجال.

٢- ما لم يستقل بنفسه واحتاج إلى بيان برده إلى غيره.

٣- ما احتمل أكثر من وجه.

٤- ما كان غير واضح الدلالة ويحتمل النسخ.

والمتشابه: ما عرف المراد منه، ولو بالتأويل. والمتشابه: ما استأثر الله تعالى بعلمه، كقيام الساعة، وخروج الدجال، والحروف المقطعة في أوائل السور. وهذا قول جمهور أهل السنة، فإنهم يمسكون عن الكلام في هذه الأمور، ويقفون عند الإيمان بأنها من عند الله، والوقوف عند اللفظ، ثم تسليم المعنى، وتفويضه لله، فيقولون: الله أعلم بمراده.

والعلماء في معرفة المتشابه وعدم معرفته فريقان: الفريق الأول- وهو المختار عند أهل السنة - فإنهم يمنعون التأويل، ويقفون عند قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ من الآية الكريمة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ

وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، [سورة آل عمران:آية ٧].

ويبتدئون بقوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ الخ جملة مستأنفة.

أما الفريق الثاني – وعلى رأسه مجاهد، وابن عباس، وأبو الحسن الأشعري، والمعتزلة، واختاره النووي – فإنهم يفتحون باب التأويل، ويرون أنه يمكن الإطلاع على علمه، ويعطفون (والراسخون في العلم) على لفظ الجلالة، ويجعلون جملة (يقولون) حالا.

ولكل من الفريقين أدلته التي يعضد بها رأيه. وفي هذا الموضوع يعجبني قول الراغب:

إن جميع المتشابه على ثلاثة أضرب:

١- ضرب لا سبيل إلى الوقوف عليه، كوقت الساعة، وخروج الدابة ونحو ذلك.

٢- وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته، كالألفاظ الغريبة، والأحكام الغلقة.

٣- وضرب متردد بين الأمرين، يختص بمعرفته بعض الراسخين في العلم، ويخفى على من دونهم، وهو المشار إليه بقوله – صلى الله عليه وسلم – لابن عباس: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل». ومن هذا التقسيم نعلم أن الوقوف على قوله (وما يعلم تأويله إلا الله) ووصله بقوله (والراسخون في العلم) جائزان، وأن لكل منهما وجهاً.

القرآن من حيث الإحكام والتشابه يمكن اعتبار القرآن محكماً كله أو متشابهاً كله أو اعتبار بعضه محكماً وبعضه متشابهاً وتفصيله التالي:

١- **القرآن كله محكم**: بمعنى إحكام ألفاظه وعدم وجود خلل فيه، المراد بإحكامه أيضاً: إتقانه، وعدم تطرق النقص والاختلاف إليه. قال تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

٢- **القرآن كله متشابه**: بمعنى أن آياته متشابهة في الحق والصدق، والإعجاز، والهداية

إلى الخير. قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ ﴾ [الزمر: ٢٣].

٣- **بعض القرآن محكم وبعضه متشابه**: بمعنى أن الآيات المحكمة هي أم الكتاب أي أن هذه الآيات جماع الكتاب وأصله، فهي بمنزلة الأم له، لا غموض فيها ولا التباس، كآيات الحلال والحرام التي هي أصل التشريع، بخلاف الآيات المتشابهة التي تختلف فيها الدلالة، على كثير من الناس، فمن رد المتشابه إلى المحكم الواضح فقد اهتدى. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ ﴾ [آل عمران: ٧].

رد المتشابه إلى المحكم:

١- قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٥٣].

هذه الآية متشابهة تحتمل معنيين:

المعنى الأول: غفران الذنوب جميعاً لمن تاب.

المعنى الثاني: غفران الذنوب جميعاً لمن لم يتب.

رد الآية المتشابهة إلى المحكمة: وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ [طه: ٨٢]. تبين من الآية المحكمة أن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب وهو مؤمن واتبع طريق الهدى .

٢- قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

هذه الآية تحتمل معنيين.

المعنى الأول: إن كلمة ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ تحتمل الواحد المعظم نفسه وهو حق.

المعنى الثاني: أنها للجماعة، وهو باطل، وتحتمل أيضاً الواحد ومعه غيره، فهي آية متشابهة تمسك بها النصارى الذين قالوا بالتثليث.

رد الآية المتشابهة إلى المحكمة: وهي قوله تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [النحل: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ ﴾ [المؤمنون:٩١]. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ

أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

تبين من الآيات المحكمة أن المراد بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ هو الله الواحد المعظم نفسه.

حكمة ورود المحكم والمتشابه:

١ - إن الله سبحانه احتج على العرب بالقرآن، إذ كان فَخْرُهم ورياستهم بالبلاغة وحسن البيان، والإيجاز والإطناب، والمجاز والكناية والإشارة والتلويح، وهكذا فقد اشتمل القرآن على هذه الفنون جميعها تحدياً وإعجازاً لهم.

٢ - أنزل الله سبحانه الآيات المتشابهات اختباراً ليقف المؤمن عنده، ويرده إلى عالِمِه، فيَعْظُم به ثوابه، ويرتاب بها المنافق، فيستحق العقوبة.

ولقد أشار الله تعالى في كتابه إلى وجه الحكمة في ذلك بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦]، ثم قال: جواباً لهم: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾. فأما أهل السعادة فيعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، فيستوجبون الرحمة والفضل، وأما أهل الشقاوة فيجحدونها،فيستوجبون الملامة.

٣- أراد الله عز وجل أن يشغل أهل العلم برده إلى المحكم، فيطول بذلك فكرهم، ويظهر بالبحث اهتمامهم، ولو أنزله محكماً لاستوى فيه العالم والجاهل، فشغل العلماء به ليعظم ثوابهم وتعلو منزلتهم، ويكرم عند الله مآبهم.

٤ - أنزل المتشابه لتشغل به قلوب المؤمنين ، وتتعب فيه جوارحهم وتنعدم في البحث عنه أوقاتهم، ومدد أعمارهم، فيجوزوا من الثواب حسبما كابدوا من المشقة.

وهكذا كانت المتشابهات ميدان سباق تنقدح فيه الأفكار والعلوم.

منشأ التشابه:

نشأ التشابه من خفاء مراد الشارع في كلامه، فمرة يرجع إلى اللفظ، ومرة يرجع إلى المعنى، ومرة يرجع إلى اللفظ والمعنى.

١ - اللفظ: قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣].

فلفظة: اليمين تحتمل استعمال يده اليمنى غير الشمال، وتحتمل أيضاً أن الضرب كان بقوة، لأن اليمين أقوى الجارحتين، وتحتمل أن الضرب كان بسبب اليمين التي حلفها إبراهيم، وفي قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧].

٢- المعنى: مثل ما استأثر الله بعلمه من أهوال يوم القيامة، وعلامات الساعة، والجنة والنار.

٣- اللفظ والمعنى: قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، فهذا الخفاء في المعنى وفي اللفظ معاً إذ لا يمكن معرفة معنى هذه الآية إلا بالرجوع إلى تفسيرها، فقد كان أهل الجاهلية يعتقدون أن الرجل إذا أحرم بالحج لم يدخل من باب البيت بل يخرق خرقاً أو يدخل من وراء البيت، فرد عليهم القرآن وبيّن أن ليس شيء من ذلك من أبواب البر ولكن البر هو التقوى.

آيات الصفات:

إنها محكمة لكونها صفات الله تعالى، متشابهة بالنسبة لنا من حيث كيفيتها مثل صفة: الاستواء على العرش، فهي معلومة في معناها، ولكن الكيف مرفوع كما قال الإمام مالك: الإستواء معلوم، والكيف مرفوع، والسؤال عنه بدعة. أي معنى الاستواء معلوم، ونثبت له كيفية، فصفات الله منزّهة عن الكيف، والسؤال عن الآيات المتشابهات.

المبحث الثاني عشر

مختصر في علم التفسير

رغم أننا سنتعرض بشيء من التفصيل للتفسير والتأويل في فصل قادم من الكتاب لكنني رأيت من المهم أن نذكر بعض الأمور المهمة هنا قبل ذلك.

التفسير في اللغة: التبيين والكشف والتوضيح.

التفسير في الاصطلاح: علم يبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم من حيث دلالته

على مراد الله بقدر الطاقة البشرية.

الفرق بين التفسير والتأويل:

التفسير والتأويل مترادفان، في أشهر المعاني اللغوية. وفي الاصطلاح:

التفسير بيان لفظ لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، والتأويل: توجيه لفظ متوجه إلى معان مختلفة، إلى واحد منها بما ظهر من الأدلة

فضل التفسير وشرفه: قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾، قال: الحكمة: المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله.

قال الأصبهاني: أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن.

وصناعة التفسير قد حازت الشرف من جهات ثلاثة، من جهة الموضوع فلأن موضوعه كلام الله تعالى، الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة، ومن جهة غرضه فلأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى، والوصول إلى السعادة الحقيقية، التي لا تفنى، ومن جهة شدة الحاجة إليه، فلأن كل كمال ديني أو دنيوي، عاجلي أو آجلي، مفتقر إلى العلوم الشرعية، والمعارف الدينية، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله.

ولسنا نجاوز الحقيقة إذا قلنا: إن مهمة الرسالة المحمدية، كانت في الدرجة الأولى تفسير القرآن وبيانه للأمة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة النحل: آية ٤٤].

يقول شيخ الاسلام ابن تيميه رحمه الله تعالى في كتابه مقدمة في أصول التفسير ما نصه:

((يجب أن يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم بيّن لأصحابه معاني القرآن كما بيّن لهم ألفاظه فقوله تعالى: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ يتناول هذا وهذا وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود

وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة وقال أنس كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جل في أعيننا وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدة سنين قيل ثمان سنين ذكره مالك آياته وقال أفلا يتدبرون القرآن وقال أفلم يدبروا القول وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن وكذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وعقل الكلام متضمن لفهمه.

ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه فالقرآن أولى بذلك وأيضا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلا جدا وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم وكلما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة كما قال مجاهد عرضت المصحف على ابن عباس أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها ولهذا قال الثوري إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم وكذلك الإمام أحمد وغيره ممن صنف في التفسير يكرر الطرق عن مجاهد أكثر من غيره.

والمقصود أن التابعين تلقوا التفسير عن الصحابة كما تلقوا عنهم علم وذلك أن الله تعالى قال: ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ﴾ السنة وان كانوا قد يتكلمون في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال كما يتكلمون في بعض السنن بالاستنباط والاستدلال.

الخلاف بين السلف في التفسير قليل وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد وذلك صنفان :

أحدهما أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى في

المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى بمنزلة الأسماء المتكافئة التى بين المترادفة والمتباينة كما قيل في اسم السيف الصارم والمهند وذلك مثل أسماء الله الحسنى وأسماء رسوله صلى الله عليه وسلم وأسماء القرآن فإن أسماء الله كلها تدل على مسمى واحد فليس دعاؤه باسم من أسمائه الحسنى مضادا لدعائه باسم آخر بل الأمر كما قال تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى.

وكل اسم من أسمائه يدل على الذات المسماة وعلى الصفة التى تضمنها الإسم كالعليم يدل على الذات والعلم والقدير يدل على الذات والقدرة والرحيم يدل على الذات والرحمة ومن أنكر دلالة أسمائه على صفاته ممن يدعى الظاهر فقوله من جنس قول غلاة الباطنية القرامطة الذين يقولون لا يقال هو حى ولا ليس بحى بل ينفون عنه النقيضين فإن أولئك القرامطة الباطنية لا ينكرون اسما هو علم محض كالمضمرات وإنما ينكرون ما في أسمائه الحسنى من صفات الإثبات فمن وافقهم على مقصودهم كان مع دعواه الغلو في الظاهر موافقا لغلاة الباطنية في ذلك وليس هذا موضع بسط ذلك.

وإنما المقصود أن كل اسم من أسمائه يدل على ذاته وعلى ما في الاسم من صفاته ويدل أيضا على الصفة التى في الاسم الآخر بطريق اللزوم وكذلك اسماء النبي صلى الله عليه وسلم مثل محمد وأحمد والماحى والحاشر والعاقب وكذلك اسماء القرآن مثل القرآن والفرقان والهدى والشفاء والبيان والكتاب وأمثال ذلك

فإذا كان مقصود السائل تعيين المسمى عبرنا عنه بأى اسم كان إذا عرف مسمى هذا الاسم وقد يكون الاسم علما وقد يكون صفة كمن يسأل عن قوله ومن أعرض عن ذكرى ما ذكره فيقال له هو القرآن مثلا أو هو ما أنزله من الكتب فإن الذكر مصدر والمصدر تارة يضاف إلى الفاعل وتارة إلى المفعول فإذا قيل ذكر الله بالمعنى الثانى كان ما يذكر به مثل قول العبد سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وإذا قيل بالمعنى الأول كان ما يذكره هو وهو كلامه وهذا هو المراد في قوله ومن أعرض عن ذكرى لأنه قال قبل ذلك فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى وهداه هو ما أنزله من الذكر وقال بعد ذلك قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك

أتتك آياتنا فنسيتها.

والمقصود أن يعرف أن الذكر هو كلامه المنزل أو هو ذكر العبد له فسواء قيل ذكري كتابي أو كلامي أو هداي أو نحو ذلك كان المسمى واحدا.

وإن كان مقصود السائل معرفة ما في الاسم من الصفة المختصة به فلا بد من قدر زائد على تعيين المسمى مثل أن يسأل عن القدوس السلام المؤمن وقد علم أنه الله لكن مراده ما معنى كونه قدوسا سلاما مؤمنا ونحو ذلك.

إذا عرف هذا فالسلف كثيرا ما يعبرون عن المسمى بعبارة تدل على عينه وإن كان فيها من الصفة ما ليس في الاسم الآخر كمن يقول أحمد هو الحاشر والماحى والعاقب، والقدوس هو الغفور والرحيم أى أن المسمى واحد لا أن هذه الصفة هى هذه الصفة ومعلوم أن هذا ليس اختلاف تضاد كما يظنه بعض الناس مثال ذلك تفسيرهم للصراط المستقيم.

فقال بعضهم هو القرآن أى اتباعه لقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث على الذي رواه الترمذى ورواه أبو نعيم من طرق متعددة هو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وقال بعضهم هو الإسلام لقوله صلى الله عليه وسلم في حديث النواس بن سمعان الذي رواه الترمذى وغيره ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جنبتى الصراط سوران وفى السورين أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وداع يدعو من فوق الصراط وداع يدعو على رأس الصراط قال فالصراط المستقيم هو الإسلام والسوران حدود الله والأبواب المفتحة محارم الله والداعى على رأس الصراط كتاب الله والداعى فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن فهذان القولان متفقان لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر كما أن لفظ صراط يشعر بوصف ثالث وكذلك قول من قال هو السنة والجماعة وقول من قال هو طريق العبودية وقول من قال هو طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وأمثال ذلك فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها.

الصنف الثانى أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل

وتنبيه المستمع على النوع لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه مثل سائل أعجمى سأل عن مسمى لفظ الخبز فأرى رغيفا وقيل له هذا فالإشارة إلى نوع هذا لا إلى هذا الرغيف وحده مثال ذلك ما نقل في قوله ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات. فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات والمنتهك للمحرمات والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات والسابق يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات فالمقتصدون هم أصحاب اليمين والسابقون السابقون أولئك المقربون.

ثم إن كلاً منهم يذكر هذا في نوع من أنواع الطاعات كقول القائل السابق الذي يصلى في أول الوقت والمقتعد الذي يصلى في أثنائه والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار ويقول الآخر السابق والمقتصد والظالم قد ذكرهم في آخر سورة البقرة فإنه ذكر المحسن بالصدقة والظالم يأكل الربا والعادل بالبيع والناس في الأموال إما محسن وإما عادل وإما ظالم فالسابق المحسن بأداء المستحبات مع الوجبات والظالم آكل الربا أو مانع الزكاة والمقتصد الذي يؤدى الزكاة المفروضة ولا يأكل الربا وأمثال هذه الأقاويل فكل قول فيه ذكر نوع داخل في الآية ذكر لتعريف المستمع بتناول الآية له وتنبيهه به على نظيره فإن التعريف بالمثال قد يسهل أكثر من التعريف بالحد المطلق والعقل السليم يتفطن للنوع كما يتفطن إذا أشير له إلى رغيف فقيل له هذا هو الخبز.

وقد يجيء كثيراً من هذا الباب قولهم هذه الآية نزلت في كذا لا سيما إن كان المذكور شخصا كأسباب النزول المذكورة في التفسير كقولهم إن آية الظهار نزلت في امرأة أوس ابن الصامت وإن آية اللعان نزلت في عويمر العجلانى أو هلال بن أمية وإن آية الكلالة نزلت في جابر بن عبد الله وأن قوله وأن أحكم بينهم بما أنزل الله نزلت في بنى قريظة والنضير وأن قوله ومن يولهم يومئذ دبره نزلت في بدر وأن قوله شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت نزلت في قضية تميم الدارى وعدى بن بداء وقول أبي أيوب أن قوله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة نزلت فينا معشر الأنصار الحديث ونظائر هذا كثير مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة أو في قوم من أهل الكتاب اليهود والنصارى أو في قوم

من المؤمنين. فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه أم لا فلم يقل أحد من علماء المسلمين أن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين وإنما غاية ما يقال إنها تختص بنوع ذلك الشخص فيعم ما يشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ.

والآية التى لها سبب معين إن كانت أمراً ونهياً فهى متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته وإن كانت خبراً بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص وغيره ممن كان بمنزلته أيضاً ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب ولهذا كان أصح قولى الفقهاء أنه إذا لم يعرف ما نواه الحالف رجع إلى سبب يمينه وما هيجها وأثارها، وقولهم نزلت هذه الآية في كذا يراد به تارة أنه سبب النزول ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب كما تقول عنى بهذه الآية كذا. وقد تنازع العلماء في قول الصاحب نزلت هذه الآية في كذا هل يجرى مجرى المسند كما يذكر السبب الذي أنزلت لأجله أو يجرى مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند فالبخارى يدخله في المسند وغيره لا يدخله في المسند وأكثر المساند على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره بخلاف ما إذا ذكر سببا نزلت عقبه فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند. وإذا عرف هذا فقول أحدهم نزلت في كذا لا ينافى قول الآخر نزلت في كذا إذا كان اللفظ يتناولهما كما ذكرناه في التفسير بالمثال واذا ذكر أحدهم لها سببا نزلت لأجله وذكر الآخر سببا فقد يمكن صدقهما بأن تكون نزلت عقب تلك الأسباب أو تكون نزلت مرتين مرة لهذا السبب ومرة لهذا السبب، وهذان الصنفان اللذان ذكرناهما في تنوع التفسير تارة لتنوع الأسماء والصفات وتارة لذكر بعض أنواع المسمى وأقسامه كالتمثيلات هما الغالب في تفسير سلف الأمة الذي يظن أنه مختلف.

ومن التنازع الموجود عنهم ما يكون اللفظ فيه محتملاً للأمرين إما لكونه مشتركاً في اللفظ كلفظ قسورة الذي يراد به الرامى ويراد به الأسد ولفظ عسعس الذي يراد به إقبال الليل وإدباره، وأما لكونه متواطئاً في الأصل لكن المراد به أحد النوعين أو أحد

الشيئين كالضمائر في قوله ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى وكلفظ الفجر وليال عشر والشفع والوتر وما أشبه ذلك. فمثل هذا قد يجوز أن يراد به كل المعاني التى قالها السلف وقد لا يجوز ذلك فالأول إما لكون الآية نزلت مرتين فأريد بها هذا تارة وهذا تارة وإما لكون اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معنياه اذ قد جوز ذلك أكثر الفقهاء المالكية والشافعية والحنبلية وكثير من أهل الكلام وإما لكون اللفظ متواطئاً فيكون عاماً إذا لم يكن لتخصيصه موجب فهذا النوع إذا صح فيه القولان كان من الصنف الثاني.

ومن الأقوال الموجودة عنهم ويجعلها بعض الناس اختلافاً أن يعبروا عن المعاني بألفاظ متقاربة لا مترادفة فإن الترادف في اللغة قليل وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر وإما معدوم وقل أن يعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدى جميع معناه بل يكون فيه تقريب لمعناه وهذا من أسباب إعجاز القرآن فإذا قال القائل يوم تمور السماء موراً إن المور الحركة كان تقريباً إذ المور حركة خفيفة سريعة.

وكذلك إذا قال الوحي الإعلام أو قيل أوحينا إليك أنزلنا إليك أو قيل وقضينا إلى بني إسرائيل أي أعلمنا وأمثال ذلك فهذا كله تقريب لا تحقيق فإن الوحي هو إعلام سريع خفى والقضاء اليهم أخص من الإعلام فإن فيه إنزالاً إليهم وإيحاء إليهم والعرب تضمن الفعل معنى الفعل وتعديه تعديته ومن هنا غلط من جعل بعض الحروف تقوم مقام بعض كما يقولون في قوله لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه أى مع نعاجه ومن أنصارى إلى الله أى مع الله ونحو ذلك والتحقيق ما قاله نحاة البصرة من التضمين فسؤال النعجة يتضمن جمعها وضمها إلى نعاجه وكذلك قوله وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك ضمن معنى يزيغونك ويصدونك وكذلك قوله ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا ضمن معنى نجيناه وخلصناه وكذلك قوله يشرب بها عباد الله ضمن يروى بها ونظائره كثيرة.

ومن قال لا ريب لا شك فهذا تقريب وإلا فالريب فيه اضطراب وحركة كما قال دع ما يريبك إلى ما لا يريك وفى الحديث أنه مر بظبى حاقف فقال لا يريبه أحد فكما أن اليقين ضمن السكون والطمأنينة فالريب ضده ضمن الاضطراب والحركة ولفظ الشك

وإن قيل إنه يستلزم هذا المعنى لكن لفظه لا يدل عليه. وكذلك إذا قيل ذلك الكتاب هذا القرآن فهذا تقريب لأن المشار اليه وإن كان واحداً فالإشارة بجهة الحضور غير الإشارة بجهة البعد والغيبة ولفظ الكتاب يتضمن من كونه مكتوباً مضموماً ما لا يتضمنه لفظ القرآن من كونه مقروءاً مظهراً بادياً فهذه الفروق موجودة في القرآن فإذا قال أحدهم إن تبسل أي تحبس وقال الآخر ترتهن ونحو ذلك لم يكن من اختلاف التضاد وإن كان المحبوس قد يكون مرتهناً وقد لا يكون إذ هذا تقريب للمعنى كما تقدم وجمع عبارات السلف في مثل هذا نافع جداً فإن مجموع عباراتهم أدل على المقصود من عبارة أو عبارتين ومع هذا فلا بد من اختلاف محقق بينهم كما يوجد مثل ذلك في الأحكام.

ونحن نعلم أن عامة ما يضطر إليه عموم الناس من الاختلاف معلوم بل متواتر عند العامة أو الخاصة كما في عدد الصلوات ومقادير ركوعها ومواقيتها وفرائض الزكاة ونصبها وتعيين شهر رمضان والطواف والوقوف ورمي الجمار والمواقيت وغير ذلك. ثم اختلاف الصحابة في الجد والأخوة وفى المشركة ونحو ذلك لا يوجب ريباً في جمهور مسائل الفرائض بل ما يحتاج إليه عامة الناس هو عمود النسب من الآباء والأبناء والكلالة من الأخوة والأخوات ومن نسائهم كالأزواج فإن الله أنزل في الفرائض ثلاث آيات مفصلة ذكر في الأولى الأصول والفروع وذكر في الثانية الحاشية التى ترث بالفرض كالزوجين وولد الأم وفي الثانية الحاشية الوارثة بالتعصيب وهم الأخوة لأبوين أو لأب واجتماع الجد والأخوة نادر ولهذا لم يقع في الإسلام إلا بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم والاختلاف قد يكون لخفاء الدليل أو لذهول عنه وقد يكون لعدم سماعه وقد يكون للغلط في فهم النص وقد يكون لاعتقاد معارض راجح فالمقصود هنا التعريف بجمل الأمر دون تفاصيله.

الاختلاف في التفسير على نوعين منه ما مستنده النقل فقط ومنه ما يعلم بغير ذلك إذ العلم إما نقل مصدق وإما استدلال محقق والمنقول إما عن المعصوم وإما عن غير المعصوم والمقصود بأن جنس المنقول سواء كان عن المعصوم أو غير المعصوم وهذا هو النوع الأول منه ما يمكن معرفة الصحيح منه والضعيف ومنه ما لا يمكن معرفة ذلك

فيه وهذا القسم الثاني من المنقول وهو ما لا طريق لنا إلى جزم بالصدق منه عامته مما لا فائدة فيه فالكلام فيه من فضول الكلام.

وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته فإن الله نصب على الحق فيه دليلاً فمثال ما لا يفيد ولا دليل على الصحيح منه اختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف وفى البعض الذي ضرب به موسى من البقرة وفى مقدار سفينة نوح وما كان خشبها وفى اسم الغلام الذي قتله الخضر ونحو ذلك فهذه الأمور طريق العلم بها النقل فما كان من هذا منقولاً نقلاً صحيحاً عن النبي صلى الله عليه وسلم كاسم صاحب موسى أنه الخضر فهذا معلوم وما لم يكن كذلك بل كان مما يؤخذ عن أهل الكتاب كالمنقول عن كعب ووهب ومحمد بن إسحق وغيرهم ممن يأخذ عن أهل الكتاب فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه الا بحجة كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه.

وكذلك ما نقل عن بعض التابعين وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض وما نقل في ذلك عن بعض الصحابة نقلاً صحيحاً فالنفس إليه أسكن مما نقل عن بعض التابعين لأن احتمال أن يكون سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم أو من بعض من سمعه منه أقوى ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين ومع جزم الصاحب فيما يقوله فكيف يقال إنه أخذه عن أهل الكتاب وقد نهوا عن تصديقهم والمقصود أن مثل هذا الاختلاف الذي لا يعلم صحيحه ولا تفيد حكاية الأقوال فيه هو كالمعرفة لما يروى من الحديث الذي لا دليل على صحته وأمثال ذلك.

وأما القسم الأول الذي يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موجود فيما يحتاج إليه ولله الحمد فكثيراً ما يوجد في التفسير والحديث والمغازي أمور منقولة عن نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه والنقل الصحيح يدفع ذلك بل هذا موجود فيما مستنده النقل وفيما قد يعرف بأمور أخرى غير النقل. فالمقصود أن المنقولات

التى يحتاج إليها في الدين قد نصب الله الأدلة على بيان ما فيها من صحيح وغيره ومعلوم أن المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في المغازي والملاحم ولهذا قال الإمام أحمد ثلاثة أمور ليس لها إسناد التفسير والملاحم والمغازي ويروى ليس لها أصل أي إسناد لأن الغالب عليها المراسيل مثل ما يذكره عروة بن الزبير والشعبي والزهري وموسى بن عقبة وابن إسحاق ومن بعدهم كيحيى بن سعيد الأموي والوليد بن مسلم والواقدي ونحوهم في المغازي فإن أعلم الناس بالمغازى أهل المدينة ثم أهل الشام ثم أهل العراق فأهل المدينة أعلم بها لأنها كانت عندهم وأهل الشام كانوا أهل غزو وجهاد فكان لهم من العلم بالجهاد والسير ما ليس لغيرهم ولهذا عظم الناس كتاب أبي إسحاق الفزاري الذي صنفه في ذلك وجعلوا الأوزاعي أعلم بهذا الباب من غيره من علماء الأمصار.

وأما التفسير فإن أعلم الناس به أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس وغيرهم من أصحاب ابن عباس كطاووس وأبي الشعثاء وسعيد بن جبير وأمثالهم وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود ومن ذلك ما تميزوا به على غيرهم وعلماء أهل المدينة في التفسير مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير وأخذه عنه أيضاً ابنه عبد الرحمن وأخذه عن عبد الرحمن عبد الله ابن وهب. والمراسيل إذا تعددت طرقها وخلت عن المواطأة قصداً أو الاتفاق بغير قصد كانت صحيحة قطعاً فإن النقل إما أن يكون صدقاً مطابقاً للخبر وإما أن يكون كذباً تعمد صاحبه الكذب أو أخطأ فيه فمتى سلم من الكذب العمد والخطأ كان صدقاً بلا ريب.

فإذا كان الحديث جاء من جهتين أو جهات وقد علم أن المخبرين لم يتواطئا على اختلاقه وعلم أن مثل ذلك لا تقع الموافقة فيه اتفاقاً بلا قصد علم أنه صحيح مثل شخص يحدث عن واقعة جرت ويذكر تفاصيل ما فيها من الأقوال والأفعال ويأتي شخص آخر قد علم أنه لم يواطيء الأول فيذكر مثل ما ذكره الأول من تفاصيل الأقوال والأفعال فيعلم قطعاً أن تلك الواقعة حق في الجملة فإنه لو كان كل منهما كذبها عمداً أو خطأ لم يتفق في العادة أن يأتي كل منهما بتلك التفاصيل التى تمنع العادة اتفاق الاثنين

عليها بلا مواطأة من أحدهما لصاحبه فإن الرجل قد يتفق أن ينظم بيتا وينظم الآخر مثله أو يكـذب كذبـة ويكـذب الآخـر مـثلها أمـا إذا أنشأ قصيدة طويلة ذات فنون على قافية وروى فلـم تجـر العـادة بـأن غـيره ينـشيء مثلها لفظاً ومعنى مع الطول المفرط بل يعلم بالعـادة أنـه أخـذها منه وكذلك إذا حدث حديثاً طويلاً فيه فنون وحدث آخر بمثله فإنه إمـا أن يكـون واطأه عليه أو أخذه منه أو يكون الحديث صدقاً وبهذه الطريق يعلم صدق عامـة مـا نتعدد جهاته المختلفة على هذا الوجه من المنقولات وإن لم يكن أحدها كافياً إما لارسـاله وإمـا لـضعف ناقلـه لكـن مثل هذا لا تضبط به الألفاظ والدقائق التى لا تعلم بهـذه الطـريق فـلا يحتاج ذلك إلى طريق يثبت بها مثل تلك الألفاظ والدقائق ولهذا ثبتت بالتواتـر غـزوة بـدر وأنهـا قـبل أحـد بل يعلم قطعاً أن حمزة وعليا وعبيدة برزوا إلى عتبة وشـيبة والولـيد وأن علـيا قتل الوليد وأن حمزة قتل قرنه ثم يشك في قرنه هل هو عتبة أو شـيبة، وهـذا الأصـل ينبغـي أن يعـرف فإنـه أصل نافع في الجزم بكثير من المنقولات في الحديث والتفسير والمغازي وما ينقل من أقوال الناس وأفعالهم وغير ذلك.

ولهـذا إذا روي الحـديث الـذي يتأتـى فـيه ذلـك عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجهـين مـع العلم بأن أحدهما لم يأخذه عن الآخر جزم بأنه حق لا سيما إذا علم أن نقلته ليسوا ممن يتعمد الكذب وإنما يخاف على أحدهـم النسيان والغلط فإن من عرف الصحابة كـابن مـسعود وأبي بن كعب وابن عمر وجابر وأبي سعيد وأبي هريرة وغيرهـم علم يقيناً أن الواحد من هؤلاء لم يكن ممن يتعمد الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلاً عمن هو فوقهم كما يعلم الرجل من حال من جربه وخبره خبرة باطنة طويلة أنه ليس ممن يسرق أموال الناس ويقطع الطريق ويشهد بالزور ونحو ذلك.

وكذلك التابعون بالمدينة ومكة والشام والبصرة فإن من عرف مثل أبي صالح السمان والأعـرج وسـليمان بن يسار وزيد بن أسلم وأمثالهم علم قطعا أنهم لم يكونوا ممن يتعمد الكـذب في الحـديث فـضلاً عمـن هـو فوقهم مثل محمد بن سيرين والقاسم بن محمد أو سـعيد بـن المـسيب أو عبـيدة الـسلماني أو علقمـة أو الأسود أو نحوهم وإنما يخاف على الـواحد مـن الغلـط فـإن الغلـط والنـسيان كثيراً ما يعرض للانسان ومن الحفاظ من قد

عرف الناس بعده عن ذلك جدا كما عرفوا حال الشعبي والزهري وعروة وقتادة والثوري وأمثالهم لا سيما الزهري في زمانه والثوري في زمانه فإنه قد يقول القائل إن ابن شهاب الزهري لا يعرف له غلط مع كثرة حديثه وسعة حفظه.

والمقصود أن الحديث الطويل إذا روي مثلاً من وجهين مختلفين من غير مواطأة امتنع عليه أن يكون غلطا كما امتنع أن يكون كذباً فإن الغلط لا يكون في قصة طويلة متنوعة وإنما يكون في بعضها فإذا روى هذا قصة طويلة متنوعة ورواها الآخر مثلما رواها الأول من غير مواطأة امتنع الغلط في جميعها كما امتنع الكذب في جميعها من غير مواطأة.

ولهذا إنما يقع في مثل ذلك غلط في بعض ما جرى في القصة مثل حديث اشتراء النبي صلى الله عليه وسلم البعير من جابر فإن من تأمل طرقه علم قطعاً أن الحديث صحيح وإن كانوا قد اختلفوا في مقدار الثمن وقد بين ذلك البخاري في صحيحه فإن جمهور ما في البخاري ومسلم مما يقطع بأن النبي صلى الله عليه وسلم قاله لأن غالبه من هذا النحو ولأنه قد تلقاه أهل العلم بالقبول والتصديق والأمة لا تجتمع على خطأ فلو كان الحديث كذباً في نفس الأمر والأمة مصدقة له قابلة له لكانوا قد أجمعوا على تصديق ما هو في نفس الأمر كذب وهذا إجماع على الخطأ وذلك ممتنع وإن كنا نحن بدون الإجماع نجوز الخطأ أو الكذب على الخبر فهو كتجويزنا قبل أن نعلم الإجماع على العلم الذي ثبت بظاهر أو قياس ظني أن يكون الحق في الباطن بخلاف ما اعتقدناه فإذا أجمعوا على الحكم جزمنا بأن الحكم ثابت باطناً وظاهراً.

ولهذا كان جمهور أهل العلم من جميع الطوائف على أن خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول تصديقاً له أو عملاً به أنه يوجب العلم وهذا هو الذي ذكره المصنفون في أصول الفقه من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد إلا فرقة قليلة من المتأخرين اتبعوا في ذلك طائفة من أهل الكلام أنكروا ذلك ولكن كثيرا من أهل الكلام أو أكثرهم يوافقون الفقهاء وأهل الحديث والسلف على ذلك وهو قول أكثر الأشعرية كأبي إسحق وابن فورك وأما ابن الباقلاني فهو الذي أنكر ذلك وتبعه مثل أبي المعالي وأبي حامد وابن عقيل وابن الجوزى وابن الخطيب والآمدى ونحو هؤلاء والأول هو الذي ذكره الشيخ

أبـو حامـد وأبـو الطـيب وأبـو إسحق وأمثاله من أئمة الشافعية وهو الذي ذكره القاضي عـبد الـوهاب وأمثاله من المالكية وهو الذي ذكره أبو يعلى وأبو الخطاب وأبو الحسن ابن الـزاغوني وأمـثالهم مـن الحنبلـية وهـو الـذي ذكـره شمس الدين السرخسى وأمثاله من الحنفـية وإذا كان الإجماع على تصديق الخبر موجباً للقطع به فالاعتبار في ذلك بإجماع أهل العلـم بالحـديث كما أن الاعتبار في الإجماع على الأحكام بإجماع أهل العلم بالأمر والنهى والإباحة.

والمقـصود هـنا أن تعـدد الطـرق مع عدم التشاعر أو الاتفاق في العاده يوجب العلم بمـضمون المـنقول لكـن هـذا يـنـتفع بـه كثيراً في علم أحوال الناقلين وفى مثل هذا ينتفع بـرواية المجهـول والـسيء الحفـظ وبالحـديث المرسـل ونحـو ذلك ولهذا كان أهل العلم يكتـبون مـثل هـذه الأحاديـث ويقولون إنه يصلح للشواهد والاعتبار ما لا يصلح لغيره قـال أحمـد قـد أكـتب حديث الرجل لاعتبره ومثل هذا بعبد الله بن لهيعة قاضي مصر فإنه كـان مـن أكثـر الـناس حديـثاً ومـن خيار الناس لكن بسبب احتراق كتبه وقع في حديثه المتأخـر غلط فصار يعتبر بذلك ويستشهد به وكثيراً ما يقترن هو والليث بن سعد والليث حجـة ثبت إمام وكما أنهم يستشهدون ويعتبرون بحديث الذي فيه سوء حفظ فإنهم أيضاً يـضعفون مـن حديث الثقة الصدق الضابط أشياء تبين لهم أنه غلط فيها بأمور يستدلون بهـا ويـسمون هـذا علم علل الحديث وهو من أشرف علومهم بحيث يكون الحديث قد رواه ثقـة ضـابط وغلط فيه وغلطه فيه عرف إما بسبب ظاهر كما عرفوا أن النبي صلى الله علـيه وسـلم تـزوج مـيمونة وهـو حـلال وأنه صلى في البيت ركعتين وجعلوا رواية ابن عـباس لتـزوجها حـراماً ولكـونه لم يصل مما وقع فيه الغلط وكذلك أنه اعتمر أربع عمر وعلمـوا أن قول ابن عمر أنه اعتمر في رجب مما وقع فيه الغلط وعلموا أنه تمتع وهو آمن في حجـة الـوداع وأن قـول عثمان لعلي كنا يومئذ خائفين مما وقع فيه الغلط وأن ما وقع في بعـض طـرق الـبخاري أن الـنار لا تمتلىء حتى ينشىء الله لها خلقاً آخر مما وقع فيه الغلط وهذا كثير.

والـناس في هـذا الـباب طـرفان طـرف مـن أهل الكلام ونحوهم ممن هو بعيد عن

معرفة الحديث وأهله لا يميز بين الصحيح والضعيف فيشك في صحة أحاديث أو في القطع بها مع كونها معلومة مقطوعا بها عند أهل العلم به وطرف ممن يدعى اتباع الحديث والعمل به كلما وجد لفظاً في حديث قد رواه ثقة أو رأى حديثاً بإسناد ظاهره الصحة يريد أن يجعل ذلك من جنس ما جزم أهل العلم بصحته حتى إذا عارض الصحيح المعروف أخذ يتكلف له التأويلات الباردة أو يجعله دليلاً له في مسائل العلم مع أن أهل العلم بالحديث يعرفون أن مثل هذا غلط. وكما أن على الحديث أدلة يعلم بها أنه صدق وقد يقطع بذلك فعليه أدلة يعلم بها أنه كذب ويقطع بذلك مثل ما يقطع بكذب ما يرويه الوضاعون من أهل البدع والغلو في الفضائل مثل حديث يوم عاشوراء وأمثاله مما فيه أن من صلى ركعتين كان له كأجر كذا وكذا نبياً.

وفى التفسير من هذه الموضوعات قطعة كبيرة مثل الحديث الذي يرويه الثعلبي والواحدي والزمخشري في فضائل سور القرآن سورة سورة فإنه موضوع باتفاق أهل العلم.

والثعلبي هو في نفسه كان فيه خير ودين وكان حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع والواحدي صاحبه كان أبصر منه بالعربية لكن هو أبعد عن السلامة واتباع السلف والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة.

والموضوعات في كتب التفسير كثيرة مثل الأحاديث الكثيرة الصريحة في الجهر بالبسملة وحديث على الطويل في تصدقه بخاتمة في الصلاة فإنه موضوع باتفاق أهل العلم.

وأما النوع الثاني من مستندي الاختلاف وهو ما يعلم بالاستدلال لا بالنقل فهذا أكثر ما فيه الخطأ من جهتين حدثنا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان فإن التفاسير التى يذكر فيها كلام هؤلاء صرفاً لا يكاد يوجد فيها شيء من هاتين الجهتين مثل تفسير عبد الرزاق ووكيع وعبد بن حميد وعبد الرحمن بن إبراهيم دحيم ومثل تفسير الإمام أحمد وإسحق بن راهويه وبقي بن مخلد وأبي بكر بن المنذر وسفيان بن عيينة وسنيد

وابن جرير وابن أبي حاتم وأبي سعيد الأشج وأبي عبد الله بن ماجه وابن مردويه إحداهما قوم اعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها والثانية قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن والمنزل عليه والمخاطب به في الأولون راعوا المعنى الذي رأوه من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان. والآخرون راعوا مجرد اللفظ وما يجوز عندهم أن يريد به العربي من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به ولسياق الكلام ثم هؤلاء كثيرا ما يغلطون في احتمال اللفظ لذلك المعنى في اللغة كما يغلط في ذلك الذين قبلهم كما أن الأولين كثيرا ما يغلطون في صحة المعنى الذي فسروا به القرآن كما يغلط في ذلك الآخرون وإن كان نظر الأولين إلى المعنى أسبق ونظر الآخرين إلى اللفظ أسبق.

والأولون صنفان تارة يسلبون لفظ القرآن ما دل عليه وأريد به وتارة يحملونه على ما لم يدل عليه ولم يرد به وفى كلا الأمرين قد يكون ما قصدوا نفيه أو إثباته من المعنى باطلاً فيكون خطؤهم في الدليل والمدلول وقد يكون حقاً فيكون خطؤهم في الدليل لا في المدلول.

وهذا كما أنه وقع في تفسير القرآن فإنه وقع أيضاً في تفسير الحديث فالذين أخطأوا في الدليل والمدلول مثل طوائف من أهل البدع اعتقدوا مذهباً يخالف الحق الذي عليه الأمة الوسط الذين لا يجتمعون على ضلالة كسلف الأمة وأئمتها وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على آرائهم تارة يستدلون بآيات على مذهبهم ولا دلالة فيها وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم بما يحرفون به الكلم عن يخلقها الله لا خيرها ولا شرها ولم يرد إلا ما أمر به شرعاً وما سوى ذلك فإنه يكون بغير مشيئته وقد وافقهم على ذلك متأخري الشيعة كالمفيد وأبي جعفر الطوسى وأمثالهما ولأبي جعفر هذا تفسير على هذه الطريقة لكن يضم إلى ذلك قول الإمامية الإثني عشرية فإن المعتزلة ليس فيهم من يقول بذلك ولا من ينكر خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي.

ومن أصول المعتزلة مع الخوارج إنفاذ الوعيد في الآخرة وأن الله لا يقبل في أهل الكبائر شفاعة ولا يخرج منهم أحداً من النار ولا ريب أنه قد رد عليهم طوائف من

المرجئة والكرامية والكلابية وأتباعهم فأحسنوا تارة وأساءوا أخرى حتى صاروا في طرفي نقيض كما قد بسط في غير هذا الموضع والمقصود أن مثل هؤلاء اعتقدوا رأيا ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا من أئمة المسلمين لا في رأيهم ولا في تفسيرهم وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة وذلك من جهتين تارة من العلم بفساد قولهم وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن إما دليلاً على قولهم أو جواباً على المعارض لهم ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحاً ويدس البدع في كلامه وأكثر الناس لا يعلمون كصاحب الكشاف ونحوه حتى إنه يروج على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله وقد رأيت من العلماء المفسرين وغيرهم من يذكر في كتابه وكلامه من تفسيرهم ما يوافق أصولهم التي يعلم أو يعتقد فسادها ولا يهتدى لذلك. ثم أنه لسبب تطرف هؤلاء وضلالهم دخلت الرافضة الإمامية ثم الفلاسفة ثم القرامطة وغيرهم فيما هو أبلغ من ذلك وتفاقم الأمر في الفلاسفة والقرامطة والرافضة فإنهم فسروا القرآن بأنواع لا يقضي العالم منها عجبه فتفسير الرافضة كقولهم تبت يدا أبي لهب هما أبو بكر وعمر ولئن أشركت ليحبطن عملك أي بين أبي بكر وعلي في الخلافة وأن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة هي عائشة وقاتلوا أئمة الكفر طلحة والزبير ومرج البحرين علي وفاطمة واللؤلؤ والمرجان الحسن والحسين وكل شيء أحصيناه في إمام مبين في علي بن أبي طالب وعم يتساءلون عن النبأ العظيم علي بن أبي طالب وإنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون هو علي ويذكرون الحديث الموضوع بإجماع أهل العلم وهو تصدقه بخاتمة في الصلاة وكذلك قوله أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة نزلت في علي لما أصيب بحمزة.

ومما يقارب هذا من بعض الوجوه ما يذكره كثير من المفسرين في مثل قوله الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار أن الصابرين رسول الله والصادقين أبو بكر والقانتين عمر والمنفقين عثمان والمستغفرين علي وفي مثل قوله محمد رسول الله والذين معه أبو بكر أشداء على الكفار عمر رحماء بينهم عثمان تراهم ركعاً سجداً علي.

وأعجب من ذلك قول بعضهم والتين أبو بكر والزيتون عمر وطور سينين عثمان وهذا البلد الأمين علي وأمثال هذه الخرافات التى تتضمن تارة تفسير اللفظ بما لا يدل عليه بحال فإن هذه الألفاظ لا تدل على هؤلاء الأشخاص وقوله تعالى والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً كل ذلك نعت للذين معه وهي التي يسميها النحاة خبراً بعد خبر والمقصود هنا أنها كلها صفات لموصوف واحد وهم الذين معه ولا يجوز أن يكون كل منها مراداً به شخص واحد وتتضمن تارة جعل اللفظ المطلق العام منحصراً في شخص واحد كقوله إن قوله إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا أريد بها على وحده وقول بعضهم إن قوله والذي جاء بالصدق وصدق به أريد بها أبو بكر وحده وقوله لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أريد بها أبو بكر وحده ونحو ذلك.

وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل فإنه كثيراً ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبري وهو من أجل التفاسير وأعظمها قدراً ثم أنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين وإنما يعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم وإن كانوا أقرب إلى السنة من المعتزلة لكن ينبغي أن يعطى كل ذي حق حقه ويعرف أن هذا من جملة التفسير على المذهب.

فإن الصحابة والتابعين والأئمة إذا كان لهم في تفسير الآية قول وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقدوه وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان صاروا مشاركين للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع في مثل هذا.

وفى الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً في ذلك بل مبتدعاً وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته وطرق الصواب ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه

وسلم فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعاً ومعلوم أن كل من خالف قولهم له شبهة يذكرها إما عقلية وإما سمعية كما هو مبسوط في موضعه. والمقصود هنا التنبيه على مثار الاختلاف في التفسير وإن من أعظم أسبابه البدع الباطلة التى دعت أهلها إلى أن حرفوا الكلم عن مواضعه وفسروا كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بغير ما أريد به وتأولوه على غير تأويله فمن أصول العلم بذلك أن يعلم الإنسان القول الذي خالفوه وأنه الحق وأن يعرف أن تفسير السلف يخالف تفسيرهم وأن يعرف أن تفسيرهم محدث مبتدع ثم أن يعرف بالطرق المفصلة فساد تفسيرهم بما نصبه الله من الأدلة على بيان الحق.

وكذلك وقع من الذين صنفوا في شرح الحديث وتفسيره من المتأخرين من جنس ما وقع فيما صنفوه من شرح القرآن وتفسيره، وأما الذين يخطئون في الدليل لا في المدلول فمثل كثير من الصوفية والوعاظ والفقهاء وغيرهم يفسرون القرآن بمعان صحيحة لكن القرآن لا يدل عليها مثل كثير مما ذكره أبو عبد الرحمن السلمي في حقائق التفسير وإن كان فيما ذكروه ما هو معان باطلة فإن ذلك يدخل في القسم الأول وهو الخطأ في الدليل والمدلول جميعا حيث يكون المعنى الذي قصدوه فاسداً.

وبعد، فإن قال قائل فما أحسن طرق التفسير فالجواب إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر وما اختصر من مكان فقد بسط في موضع آخر فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن قال الله تعالى إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما وقال تعالى وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون وقال تعالى وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه يعني السنة. والسنة أيضا تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن لا أنها تتلى كما يتلى وقد استدل الإمام الشافعي وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس

هذا موضع ذلك.

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه فإن لم تجده فمن السنة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن بم تحكم قال بكتاب الله قال فإن لم تجد قال بسنة رسول الله قال فإن لم تجد قال أجتهد رأيي قال فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدره وقال الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يرضي رسول الله وهذا الحديث في المساند والسنن بإسناد جيد.

وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التى اختصوا بها ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين مثل عبد الله بن مسعود قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري حدثنا أبو كريب قال أنبأنا جابر بن نوح أنبأنا الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال قال عبد الله يعني ابن مسعود والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناوله المطايا لأتيته وقال الأعمش أيضاً عن أبي وائل عن ابن مسعود قال كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن.

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له حيث قال اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل وقال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار أنبأنا وكيع أنبأنا سفيان عن الأعمش عن مسلم عن مسروق قال قال عبد الله يعنى ابن مسعود نعم ترجمان القرآن ابن عباس ثم رواه عن يحيى بن داود عن إسحاق الأزرق عن سفيان عن الأعمش عن مسلم بن صبيح أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود أنه قال نعم الترجمان للقرآن ابن عباس ثم رواه عن بندار عن جعفر بن عون عن الأعمش به كذلك فهذا إسناد صحيح إلى ابن مسعود أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة وقد مات ابن مسعود في سنة ثلاث وثلاثين على الصحيح وعمر بعده ابن عباس ستا وثلاثين فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن

مسعود وقال الأعمش عن أبي وائل استخلف على عبد الله بن عباس على الموسم فخطب الناس فقرأ في خطبته سورة البقرة وفي رواية سورة النور ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا.

ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير في تفسيره عن هذين الرجلين ابن مسعود وابن عباس ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التى أباحها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو ولهذا كان عبد الله بن عمرو قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد فإنها على ثلاثة أقسام، أحدها ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح

والثاني ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه، والثالث ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل فلا نؤمن به ولا نكذبه وتجوز حكايته لما تقدم وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيراً ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعدتهم وعصا موسى من أى الشجر كانت وأسماء الطيور التى أحياها الله لابراهيم وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى إلى غير ذلك مما أبهمه الله في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز كما قال تعالى سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى اعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل فلا تمار فيهم الامراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحداً.

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليم ما ينبغى في مثل

هـذا فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث فدل على صحته إذ لو كان باطلاً لرده كما ردهما ثم أرشد إلى الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته فـيقال في مثل هذا قل ربي أعلم بعدتهم فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله علـيه فلهـذا قال فلا تمار فيهم الإمراء ظاهراً أي لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ولا تـسألهم عـن ذلـك فـإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب. فهذا أحسن ما يكون في حكايـة الخـلاف أن تـستوعب الأقوال في ذلك المقام وأن ينبه على الصحيح منها ويبطل الباطل وتذكر فائدة الخلاف وثمرته لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته فيشتغل به عن الأهم فأما من حكى خلافاً في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص إذ قـد يكـون الـصواب في الـذي تركه أو يحكى الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقـوال فهـو نـاقص أيضا فإن صحح غير الصحيح عامداً فقد تعمد الكذب أو جاهلاً فقـد أخطـأ كـذلك مـن نـصب الخـلاف فـيما لا فائدة تحته أو حكى أقوالا متعددة لفظاً ويـرجع حاصـلها إلى قـول أو قولين معنى فقد ضيع الزمان وتكثر بما ليس بصحيح فهو كلابس ثوبي زور والله الموفق للصواب .

إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد ابن جبر فإنه كان آية في التفسير كما قال محمد بن إسحاق حدثنا إبان بن صالح عن مجاهد قال عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها وبه إلى الترمذي قال حدثنا الحسين بن مهدي البصري حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً وبه إليه قال حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان بن عيينة عن الأعمش قال قال مجاهد لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود لم احتج أن أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن مما سألت وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب قال حدثنا طلق بن غنام عن عثمان المكي عن ابن أبي مليكة قال رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه قال فيقول له ابن عباس اكتب حتى سأله عن التفسير كله ولهذا كان سفيان الثوري يقول إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. وكسعيد بن جبير وعكرمة

مولى ابن عباس وعطاء بن أبي رباح والحسن البصري ومسروق بن الأجدع وسعيد بن المسيب وأبي العالية والربيع بن أنس وقتادة والضحاك بن مزاحم وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً وليس كذلك فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو نظيره ومنهم من ينص على الشيء بعينه والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن فليتفطن اللبيب لذلك والله الهادي.

وقال شعبة بن الحجاج وغيره أقوال التابعين في الفروع ليست حجة فكيف تكون حجة في التفسير يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم مما خالفهم وهذا صحيح أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة في ذلك.

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام حدثنا مؤمل حدثنا سفيان حدثنا عبد الأعلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن عبد الأعلى الثعلبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار وبه إلى الترمذي قال حدثنا عبد بن حميد حدثني حسان بن هلال قال حدثنا سهيل أخو حزم القطعي قال حدثنا أبو عمران الجوني عن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ قال الترمذي هذا حديث غريب وقد تكلم بعض أهل الحديث في سهيل بن أبي حزم.

وهكذا روى بعض أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم أنهم شددوا في أن يفسر القرآن بغير علم وأما الذي روي عن مجاهد وقتادة وغيرهما من أهل العلم أنهم فسروا القرآن فليس الظن بهم أنهم قالوا في القرآن وفسروه بغير علم أو من قبل أنفسهم وقد روي عنهم ما يدل على ما قلنا أنهم لم يقولوا من قبل أنفسهم بغير علم فمن قال في القرآن برأيه فقد تكلف ما لا علم له به وسلك غير ما أمر به فلو أنه أصاب

المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ لأنه لم يأت الأمر من بابه كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر لكن يكون أخف جرماً ممن أخطأ والله أعلم وهكذا سمى الله تعالى القذفة كاذبين فقال فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون فالقاذف كاذب ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به وتكلف ما لا علم له به والله أعلم.

ولهذا تحرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به كما روى شعبة عن سليمان عن عبدالله بن مرة عن أبي معمر قال قال أبو بكر الصديق أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لم أعلم وقال أبو عبيد القاسم بن سلام حدثنا محمود بن يزيد. عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله وفاكهة وأبا فقال أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم منقطع وقال أبو عبيد أيضاً حدثنا يزيد عن حميد عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر وفاكهة وأبا فقال هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب ثم رجع إلى نفسه فقال إن هذا لهو التكلف يا عمر وقال عبد بن حميد حدثنا سليمان بن حرب قال حدثنا حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال كنا عند عمر بن الخطاب وفي ظهر قميصه أربع رقاع فقرأ وفاكهة وأبا فقال ما الأب ثم قال إن هذا لهو التكلف فما عليك أن لا تدريه. وهذا كله محمول على أنهما رضي الله عنهما إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب وإلا فكونه نبتاً من الأرض ظاهر لا يجهل لقوله تعالى فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً.

وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا ابن علية عن أيوب عن ابن أبي مليكة أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها فأبى أن يقول فيها إسناده صحيح وقال أبو عبيد حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن أيوب عن ابن أبي مليكة قال سأل رجل ابن عباس عن يوم كان مقداره ألف سنة فقال له ابن عباس فما يوم كان مقداره خمسين الف سنة فقال الرجل إنما سألتك لتحدثني فقال ابن عباس هما يومان ذكرهما الله في كتابه الله اعلم بهما فكره أن يقول في كتاب الله ما لايعلم وقال ابن جرير حدثني يعقوب يعني ابن إبراهيم حدثنا ابن علية عن مهدى بن ميمون عن الوليد بن

مسلم قال جاء طلق بن حبيب إلى جندب بن عبد الله فسأله عن آية من القرآن فقال أحرج عليك إن كنت مسلماً لما قمت عني أو قال إن تجالسني وقال مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال إنا لا نقول في القرآن شيئاً. وقال الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن وقال شعبة عن عمرو بن مرة قال سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن فقال لا تسألني عن القرآن وسل من يزعم أنه لا خفي عليه منه شيء يعني عكرمة وقال ابن شوذب حدثني يزيد بن أبي يزيد قال كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام وكان أعلم الناس فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع.

وقال ابن جرير حدثني أحمد بن عبدة الضبي حدثنا حماد بن زيد حدثنا عبيد الله بن عمر قال لقد أدركت فقهاء المدينة وأنهم ليعظمون القول في التفسير منهم سالم بن عبد الله والقاسم بن محمد وسعيد بن المسيب ونافع وقال أبو عبيد حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث عن هشام بن عروة قال ما سمعت أبي تأول آية من كتاب الله قط وقال أيوب وابن عون وهشام الدستوائى عن محمد بن سيرين قال سألت عبيدة السلمانى عن آية من القرآن فقال ذهب الذين كانوا يعلمون فيما أنزل من القرآن فاتق الله وعليك بالسداد.

وقال أبو عبيد حدثنا معاذ عن ابن عون عن عبيد الله بن مسلم بن يسار عن أبيه قال إذا حدثت عن الله فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده حدثنا هشيم عن مغيرة عن إبراهيم قال كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه وقال شعبة عن عبد الله بن أبي السفر قال قال الشعبي والله ما من آية إلا وقد سألت الله عنها ولكنها الرواية عن الله وقال أبو عبيد حدثنا هشيم أنبأنا عمر بن أبي زائدة عن الشعبي عن مسروق قال اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله.

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه

ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير ولا منافاة لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه وهذا هو الواجب على كل أحد.)) انتهى نص الشيخ الجليل.

وهكذا فقد ذهب ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير إلى أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بين لأصحابه كل معاني القرآن، استناداً إلى الآية السابقة ، إذ لو لم يبين كل معانيه، كان مقصراً في البيان الذي كلف به.

وجمهور العلماء يرى أن النبي – صلى الله عليه وسلم – فسّر بعض الآيات دون البعض، فمن القرآن ما استأثر الله بعلمه، ومنه ما يتبادر فهمه، ولا يعذر أحد بجهله، فليس الرسول في حاجة إلى تفسيره. لكن السنة النبوية بينت كثيراً من المجمل، كتحديدها لمواقيت الصلاة، وعدد ركعاتها، وكيفيتها، وتحديدها لمقادير الزكاة وأنواعها وأوقاتها، وتبيينها مناسك الحج. إلى غير ذلك من الفروع. ووضحت كثيراً من المشكل، كتفسيره – صلى الله عليه وسلم – الخيط الأبيض والخيط الأسود من الفجر. وخصصت بعض العام، كتخصيصه – صلى الله عليه وسلم – الظلم بالشرك، في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [سورة الأنعام: آية ٨٢].

وقيدت بعض المطلق، كتقييدها اليد باليمين، من قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا ﴾ [سورة المائدة: آية ٣٨]. وقد أفردت بعض كتب الحديث باباً للتفسير جمعت تحته كثيراً من التفسير المأثور عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم .

وقد صنف العلماء كما سنفصل لاحقاً ما يعرف بتفسير الصحابة – رضي الله عنهم– فلا شك أن القرآن الكريم كان هدف الصحابة الأول، يحفظونه ويفهمونه، ويتلقفون ما يصدر عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بشأنه، ويهتدون بهديه، وينشرون نوره.

ولا شك أنهم كانوا أعلم الناس بالظروف والملابسات التي أحاطت بنزول القرآن، والتي تعين على فهم آياته ووقائعه. ولا شك أنهم كانوا أعلم من غيرهم بأوضاع لغة العرب وأسرارها. لكنهم –رضي الله عنهم– لم يكونوا في درجة واحدة من قوة الفهم

وسعة الإدراك والقدرة على التعبير فاشتهر بالتفسير منهم عدد قليل -ذكرهم السيوطي في الإتقان- وهم الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير.

وأكثر هؤلاء العشرة لم يرو عنهم في التفسير إلا الشيء القليل، إما لتقدم وفاتهم، أو لانشغالهم بمهامهم.

والمكثرون في التفسير أربعة: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وأبي بن كعب.

وأما القيمة العلمية لتفسير الصحابة فالمقصود بها ما صح إسناده إلى الصحابة من التفسير، أما الذي ضاربت فيه الروايات، وضعفت فيه الأسانيد، وطعن في طريق وصوله، فلا خلاف في أنه لا يعتمد عليه ولا يؤخذ به. ثم ما صح عن الصحابة في التفسير، إما أن يكون في أسباب النزول، وفي أمور لا مجال للرأي والاجتهاد فيها كأمور الآخرة، وإما أن يكون للرأي فيه مجال.

فالأول له حكم الحديث المرفوع، وعلى المفسر أن يأخذ به، ولا يحيد عنه.

وأما الثاني: أي ما كان للرأي فيه مجال فهو من قبيل الوقوف على الصحابي، هذا لا يجب الأخذ به، لأن الصحابي في هذه الحالة مجتهد، والمجتهد يخطئ ويصيب. لكن إذا أجمع الصحابة على شيء فيجب الأخذ به.

نعم تطمئن نفس المفسر إلى ما روي عن الصحابة من هذا القبيل أكثر مما يسند إلى غيرهم، لظن سماعهم له من رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، ولأنهم أعلم الناس بكتاب الله، فهم أهل اللسان، وهم الذين حصلت لهم بركة الصحبة وفضلها، وهم الذين شاهدوا قرائن نزول الآيات وأحوالها. فإذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة.

وأما تفسير التابعين – رضي الله عنهم – فقد تلقوا دروس التفسير من أعلام الصحابة واعتمدوا على أقوالهم في فهم القرآن الكريم، كما اعتمدوا على قدرتهم في الفهم

والنظر والاجتهاد. ومن هؤلاء التلاميذ الأجلاء: -

سعيد بن جبير، مجاهد بن جبر، عكرمة البربري، طاووس بن كيسان، عطاء بن أبي رباح.

وقيمة التفسير عند التابعين من الناحية العلمية يمكن معرفتها من أن عدالة التابعين غير منصوص عليها، كما نص على عدالة الصحابة، فتفسيرهم لا يجب الأخذ به، وإن كان مأخوذاً عن الصحابة. أما إذا أجمعوا على أمر فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك.

وبالنسبة لتطور التفسير في عصور التدوين فهذا سنفصله لاحقاً، وعلى العموم يمكن تقسيم المراحل التي مر بها التفسير في هذه الأزمنة المتطاولة إلى أربع مراحل: -

١. المرحلة الأولى: مرحلة تدوين التفسير على أنه باب من الحديث، وقد ابتدأت هذه المرحلة بابتداء التدوين لحديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تدويناً مرتباً على أبواب.
٢. المرحلة الثانية: مرحلة استقلال التفسير عن الحديث، ووضع تفسير لآيات القرآن مرتباً على ترتيب المصحف، مع المحافظة على الإسناد.
٣. المرحلة الثالثة: مرحلة حذف الأسانيد، وكثرة الدخيل والعليل، وقد ألفت كتب كثيرة في التفسير بالمأثور، لكنهم اختصروا الأسانيد، بل نقلوا أقوال السلف من غير أن ينسبوها إلى قائليها، فكثر الوضع في التفسير، وانتشرت الإسرائيليات انتشاراً أضاعت الثقة فيه.
٤. المرحلة الرابعة: مرحلة التفسير بالرأي، وقد انتشر هذا النوع من التفسير بانتشار العلوم والمعارف، واختلاف الآراء، وكثرة المذاهب.

فقد دونت علوم اللغة، ودون النحو والصرف، واتسع نطاق المذاهب والآراء الفقهية، والكلامية، وترجمت كتب كثيرة من كتب الفلاسفة، فتأثر التفسير بكل ذلك.

بل خضع التفسير لاستعداد المفسر، ونوع نبوغه العلمي، واتجاهه المذهبي حتى كاد

كل تفسير أن يقتصر على الفن الذي برع فيه مؤلفه.

فالنحوي مثلا- كالزجاج والواحدي وأبي حيان - يبذل قصارى جهده في الإعراب ويستطرد إلى فروع النحو وخلافياته حتى يطغى فنه على التفسير.

وصاحب العلوم العقلية - كالفخر الرازي - جعل عنايته في تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، وشبههم والرد عليهم، والانسياق الكثير في الأمور الكونية، حتى قيل عن كتابه -مفاتيح الغيب - فيه كل شيء إلا التفسير.

والفقيه - كالقرطبي - يلتمس من الآية أدنى مناسبة ليدخل في الفروع وأدلتها، والرد على مخالفي مذهبه، حتى يبعد عن التفسير.

وصاحب التاريخ والقصص- كالثعلبي والخازن - لا يصل إلى خبر أو قصة حتى يدع الآية جانباً، ويدخل في الأخبار والحكايات.

وصاحب البدعة - كالرماني والجبائي والزمخشري والطبرسي - كل همه التأويل والتكلف لتنزيل الآية على مقتضى نحلته وهواه.

ومن العلماء من عني بموضوع خاص من التفسير، فخصه بالبحث والتأليف.

فابن القيم أفرد كتاباً في أقسام القرآن، سماه التبيان في أقسام القرآن.

وأبو عبيدة أفرد كتاباً في مجاز القرآن، والراغب الأصفهاني ألف كتاباً في مفردات القرآن، وأبو جعفر النحاس ألف كتاباً في الناسخ والمنسوخ من القرآن. وكثير غير هؤلاء عنوا بناحية خاصة من نواحي القرآن الكثيرة النافعة فبرزوا وأسهبوا، وأصبحت بحوثهم مراجع في موضوعاتهم.

أنواع التفسير:

من خلال ما تقدم يتبين لنا أن التفسير نوعان: هما التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي.

التفسير بالمأثور: هو الذي يعتمد على صحيح المنقول بالمراتب الآتية: تفسير القرآن بالقرآن، أو بالسنة لأنها جاءت مبينة لكتاب الله، أو بما روي عن الصحابة لأنهم أعلم

الناس بكتاب الله، أو بما قاله كبار التابعين، لأنهم تلقوا ذلك غالباً عن الصحابة.

وحكمه: يجب اتباعه والأخذ به لأنه طريق المعرفة الصحيحة شريطة التثبت من الآثار والروايات الواردة في بيان معنى الآية، وعدم الاجتهاد في بيان معنى من غير أصل، والتوقف عما لا طائل تحته ولا فائدة في معرفته ما لم يرد فيه نقل صحيح كالإسرائليات، وهي الأخبار والروايات الواردة عن أهل الكتاب. ومن أشهر الكتب المؤلفة فيه جامع البيان في تفسير القرآن لمحمد بن جرير الطبري.

التفسير بالرأي: هو الذي يعتمد فيه المفسر في بيان معنى الآية على فهمه الخاص واستنباطه بالرأي المجرد عن الهوى، وحكمه: جواز الأخذ به شريطة صحة الاعتقاد وعدم تجاوز التفسير بالمأثور، والإلمام بأصول العلوم المتصلة بالقرآن، واللغة العربية وفروعها، ودقة الفهم. علماً أن تفسير القرآن بالرأي والاجتهاد من غير أصل حرام ولا يجوز الأخذ به. لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [سورة الإسراء: آية ٣٦]، ولقوله صلى الله عليه وسلم: «من قال في القرآن برأيه – أو بما لا يعلم – فليتبوأ مقعده من النار»، أخرجه الترمذي والنسائي وأبو داود، وحسنه الترمذي. والكتب العلمية كثيرة منها: مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي.

وأما عن التفسير العلمي وهو محور كتابنا هذا فهو مكمل لكون الله المقروء أي القرآن الكريم، فكما جاء القرآن الكريم دعوة صريحة للإيمان الصحيح، ومكارم الأخلاق، جاء دعوة صريحة للعلم والنظر والتفكر، ويكفي أن أول ما نزل منه قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾.... إلى قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: آية ١ – ٥]. ولا نجد كتاباً سماوياً كرم العلم، ودعا في مواضع كثيرة، للتزود من منهل هذا العلم كهذا القرآن.

وقد اختلف في حكمه كما سنفصل، فالعلماء في موضوع التفسير العلمي بين مؤيد ومعارض، والذي أراه: أن التفسير العلمي ضرورة تتطلبه ظروف العصر الحاضر، شريطة أن يتهيأ لذلك ذوو الاختصاص والخبرة، وشريطة أن لا يكون التفسير حسب

نظريات وهمية متداعية، أو نظريات متغيرة، بل لا بد أن يكون حسب الحقائق العلمية الثابتة. الخ. أخذ بعين الاعتبار أن القرآن الكريم كتاب هداية وإعجاز وليس كتاب طب أو هندسة أو كيمياء..... الخ .

وأما برمجة القرآن الكريم وفهرسته من خلال الحاسب الآلي، وهو ما يعنى بنظام البرمجة بصورة عامة يعني إدخال المعلومات المراد برمجتها في الحاسب الآلي (الكمبيوتر)، وكان في البداية مقتصراً على الدراسات والبرامج الإحصائية والمالية والاجتماعية، ثم انتقل هذا البرنامج إلى الدراسات القرآنية، وهذا الأمر يعد خطوة هامة ورائدة تفتح آفاقاً علمية وتعليمية واسعة، تخدم في جملتها القرآن الكريم، وتعد بحق وسيلة جديدة لحفظ كتاب الله، ونشره وتعليمه، والدعوة إليه. وهذا دليل واضح على أن الإسلام لديه القدرة على استيعاب منجزات الحضارة الحديثة، بل هو الذي يوجهها ويقيمها على أسس سليمة ثابتة من العقيدة والشريعة.

ومعنى برمجة القرآن ها هنا: تسخير الحاسب الآلي لخدمة القرآن الكريم بدءاً بمعرفة ألفاظه وآياته وموضوعاته، وانتهاءً بالإسهام في نشر عقيدته وتشريعاته. وحكم هذا العمل جائز ومندوب شرعاً لما يحققه من خطوات عملية في مجال المحافظة على القرآن الكريم.

أما ترجمة القرآن الكريم، فمعنى الترجمة كما تعرف هي نقل الكلام من لغة إلى أخرى، والترجمان: بضم التاء وفتحها: المفسر الذي ينقل الكلام من لغة إلى أخرى. وتطلق الترجمة على تفسير الكلام بلغته التي جاء بها.

وعلى هذا فإن ترجمة القرآن تعني تفسيره وبيان معانيه ومراميه ومقاصده بلغة غير لغته. وأقسام الترجمة: هناك نوعان من الترجمة لا ثالث لهما وهما:

الترجمة الحرفية: وتراعى فيها المحاكاة الأصلية في النظم والترتيب، فالمترجم ترجمة حرفية يقصد إلى كل كلمة في الأصل، فيفهما ثم يستبدل بها كلمة تساويها في اللغة الأخرى، مع وضعها موضعها وإحلالها محلها، وإن أدّى ذلك إلى خفاء المعنى المراد من الأصل.

الترجمة التفسيرية: وهو ترجمة معاني القرآن، أو ترجمة تفسير ألفاظه بعد فهمها وإدراك أبعادها ومقاصدها والمراد منها.

خلاصة القول: إن الترجمة الحرفية غير ممكنة بل مستحيلة في القرآن الكريم، فمن المتعذر أن يبدل حرف أو كلمة بما يساويه من اللغة الأخرى، إذ أنه يخرج بالقرآن عن كونه قرآنا، فضلاً عن أنه يذهب بإعجازه وفصاحته، ورصانة نظمه، هذا بالإضافة إلى أنه يذهب معانيه ومدلولاته الأصلية والتبعية.

أما الترجمة التفسيرية فهي ممكنة وجائزة بل قد تكون واجبة إذا كانت هي السبيل الوحيد لتبليغ القرآن الكريم، لكن لا بد من الإشارة هنا إلى أن الترجمة التفسيرية لا تعدو كونها ترجمة لمعاني القرآن أو ترجمة تفسيره، فهي لا تعد قرآناً بحال، وليست معجزة، ولا يتعبد بتلاوتها ولا يقرأ بها في الصلاة.

المبحث الثالث عشر

أصناف النص القرآني

النص القرآني يقسم لعدة أنواع:

١ - **القصص القرآني**: وهو قصص الأمم السابقة مع أنبيائهم وصالحيهم، وقصص صبرهم ومعاناتهم مع المكذبين. وكذلك قصص الأمم عموماً وكيف كانت عواقب تكذيبهم وبطرهم وترفهم، والآيات من هذا النوع أكثر من أن تضرب، والنص فيها منقول عن نص حرفي لأقوال الأنبياء عليهم السلام وردود أقوامهم أو أنصارهم.

وأما غرض هذا النوع هو لتثبيت النبي صلى الله عليه وسلم وتسليته وكذلك كموعظة ودروس اعتبار لكل مؤمن ومعتبر، دليله ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

٢ - **الخبر القرآني**: وهو ما سيكون من أمر العلامات الساعة والقيامة والبعث والنشور والحساب والجنة والنار وشأن الأبرار والفجار وأهل الأعراف وغير ذلك

والآيـات في ذلـك كثيرة جداً. غرض هذا النوع هو توجيه عناية الناس واهتمامهم لحقيقة الوجود وما سيكون من أمرهم بعد الموت ليتهيأوا لذلك ويستعدوا.

٣- **المثل القرآني**: وهو ما ورد لغرض المقارنة وتقريب الصورة فضلاً عن الاعتبار كقوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [إبراهيم:٢٤].. ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:٧٥].. ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٢٩].. ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم:١٠].. ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل:١١٢].. ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ [الكهف:٣٢].. ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف:٤٥].. ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس:١٣].

٤- **التصنيف القرآني**: وغرضه المقارنة والتفريق وإقامة الحجة فضلاً عن تعريف النبي صلى الله عليه وسلم والأمة من بعده بأصناف البشر وأصناف المكائد وغير ذلك، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ [المائدة:٨٠].. ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ

وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]..

وكذلك كل ما تجد في القرآن الكريم قول الله تعالى: (ومن الناس...) فاعلم أنه من هذا النوع من النص القرآني كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة:٨].. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾ [البقرة:١٦٥].. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ [البقرة:٢٠٤] .. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [البقرة:٢٠٧].. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ [الحج:٣] .. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحج:١١].. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت:١٠].. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [لقمان: ٦].

كذلك تجد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة:٤٩].. ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد:٣٠]، وغيرها من الآيات الكريمات.

٥- التوجيه القرآني: وغرضه صرف النظر لأمور تراها العين أو تدركها الحواس لغرض معرفة آيات القدرة وعظمة الخالق جلا وعلا أو لغرض الغور في تلك الأمور والبحث فيها للوصول لمصلحة معينة، وهذا الصنف هو أصل آيات القدرة والإعجاز

العلمي في القرآن الكريم بكل أصنافه. وقد تدخل آيات هذا النوع ضمن آيات النوع الأول وهو القصص أو الصنف الثالث أو الرابع في بعض الأحيان.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأعراف:١٠٠].. ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف:١٨٤].. ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٥].. ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الرعد:٤١].. ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ [النحل:٤٨]..

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء:٩٩].

كذلك كل ما تجد (ألم تر..) كقوله تعالى مثلاً: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٢٥٨].

كذلك في حالة (أولم ير ...)، مثل قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].. ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٧٧].

٦- **الخطاب القرآني**: وهو ما يتوجه به النص القرآني لمخاطبه كل أو جزء من الناس. الغرض من هذا النوع هو تبيين شرائع الدين للناس وللمؤمنين خاصة وإعلامهم الحلال والحرام وقوانين وسنن الله تعالى في الحياة والتعامل مع الغير والجار والأهل والنفس والمجتمع وغير ذلك من امور الحياة، وهي أصل آيات التشريع.

- قد يكون موجهاً لكل الناس وهو ما تجده كل ما قرأت (يا أيها الناس...) كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١].. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة:١٦٨].. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء:١].. ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٨].. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس:٥٧].. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴾ [الحج:١].. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ [لقمان: ٣٣].. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات:١٣]، وغيرها الكثير.

- قد يكون لمخاطبة الكفار وهو كل ما تجد (يا أيها الذين كفروا..)، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [التحريم:٧].. ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [الكافرون:١].

- أو لمخاطبة المؤمنين مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [البقرة:١٠٤].. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [البقرة:١٧٨].. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [البقرة: ٢٠٨].. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِ... ﴾ [البقرة: ٢٨٢].. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٨].. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴾ [النساء: ٢٩].. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴾ [النساء: ٧١].. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٤٤].. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة: ١].. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٣٥]. أو كقوله تعالى: ﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ [النور: ٣٠]، وغير ذلك ما هو أكثر من ١٠٠ آية.

٧- **التحليل القرآني**: وهو ما نزل من الآيات تتعلق بأحداث حصلت وقت البعثة الشريفة لتبينها وتحللها وتوجه في كيفية التصرف فيها، وهي بذلك تشرع للأمة من خلالها، والآيات في ذلك كثيرة منها المكي ومنها المدني.

الفصل الرابع

شبهات ومكابرة

أولاً: أمثلة:

يقول الإمام النورسي رحمة الله عليه في كليات رسائل النور: «ونعلم الآن: أنه بمقدار تيقظ القلب، وحركة الوجدان، وشعور الروح، تزداد اللذة والمتعة، وتنقلب نار (الحياة) نوراً وشتاؤها صيفاً.. وهكذا تنفتح أبواب الجنان على مصراعيها في الوجدان، وتغدو الدنيا جنة واسعة تجول فيها أرواحنا، بل تعلو علو الصقور، بجناحي الصلاة والدعاء.» ثم يوجه جواباً إلى الكنيسة الانكليكية التي سأل فيها ذات يوم قسيس حاقد، ذلك السياسي الماكر، العدوّ الألدّ للإسلام، عن أربعة أمور طالباً الإجابة عنها في ستمائة كلمة. سألها بغية إثارة الشبهات، مستنكراً ومتعالياً، وبشماتة متناهية، وفي وقت عصيب حيث كانت دولته تشد الخناق في مضايقنا.. ثم قال: « فينبغي الإجابة بـ: تباً لك! تجاه شماتته، وبالسكون عليه بسخط تجاه مكره ودسيسته، فضلاً عن جواب مسكت ينزل به كالمطرقة تجاه إنكاره. فأنا لا أضعه موضع خطابي، بل أجوبتنا لمن يلقي السمع وينشد الحق وهي الآتية:

فلقد قال في السؤال الأول: ما دين محمد صلى الله عليه وسلم؟ قلت: إنه القرآن الكريم. أساس قصده ترسيخ أركان الإيمان الستة وتعميق أركان الإسلام الخمسة... ويقول في الثاني: ماذا قدّم للفكر وللحياة؟ قلت: التوحيد للفكر، والاستقامة للحياة. وشاهدي في هذا: قوله تعالى: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾... ويقول في الثالث: كيف يعالج الصراعات الحاضرة؟ أقول: بتحريم الربا وفرض الزكاة. وشاهدي قوله تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾... ويقول في الرابع: كيف ينظر إلى الاضطرابات البشرية؟ أقول: السعي هو الأساس، وألا تتكدس ثروة الإنسان بيد الظالمين، ولا يكنزوها.

وشاهدي قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾».. انتهى نص الإمام النورسي رحمه الله وجزاه بما صبر ونافح عن دين ربه كل الخير.

وحيث أن هذا الموضوع يتعلق بموضوع الفصل الأول من الكتاب، وتحديداً المؤامرات التي تعرض لها كتاب الله على مر الزمن، وددت أن أشير هنا إلى بعض أوجه المكابرة والعناد لدى بعض الأصناف من البشر التي ذكرها القرآن الكريم والتي تحدثنا عنها في بداية الكتاب من الجهال والمكابرين والمعاندين:

١- طرق إلى مسامعي كلام بعض المساكين من هؤلاء وهو قولهم أن في القرآن كلام أو مصطلحات ومفردات ليست عربية في أصلها اللغوي مثل ياقوت ويأجوج ومأجوج وغيرها، فكيف يكون فهم قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل:١٠٣]..
﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٥].

وقبل أن أجيب عن هذا الجدال الممجوج تذكرت قول أحد المعاندين وهو قس مصري اسمه (شورش)، كان يجادل الدكتور أحمد ديدات - رحمه الله وجازاه عن دينه وكتابه ألف خير[1]- في إحدى مناظراته التي بثت على شاشات التلفاز العالمية في ثمانينيات القرن العشرين الميلادي، وهو تهجمه السافر على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم واتهامه له بأنه قد وضع القرآن بنفسه ولكنه – أي رسول الله صلى الله عليه وسلم - أخطأ لأنه يجهل حقائق التاريخ، والدليل أنه قال إن السيدة مريم هي أخت هارون النبي عليه السلام، وتعليقه الساذج هذا جاء جراء فهمه المغلوط للآيات التي تتعلق بالسيدة مريم عليها السلام وقصة ولادتها لسيدنا عيسى عليه السلام والتي جاءت في سورة

(١) الداعية الإسلامي من جنوب أفريقيا المعروف بمناظراته مع رجال الدين النصارى التي دوى صوتها في أمريكا وأوربا وأسلم على أثرها الكثير من أهل الغرب

مريم، وتحديداً قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴾، [مريم: ٢٨]. فأجابه الدكتور ديدات ضاحكاً: (يا هذا، رغم أنك عربي إلا أنك لم تجهد نفسك في معرفة فنون البيان والبلاغة العربية وضروبها، ومع ذلك سأجيبك المعنى هنا لا يعني أن السيدة مريم عليها السلام هي أخت سيدنا هارون النبي -عليه السلام-، ولكن المعنى أنها من نسله، فهي من أسرة كريمة أبوها عمران بن ماثان من ذرية سليمان النبي - عليه السلام - وأمها حنة بنت فاقوذ، لأن كلمة أخت في العربية تعني فيما تعنيه الأصول والجذور الاجتماعية)، فضحك جميع الحاضرين بما فيهم أنصار شورش المسكين هذا.

ضربت هذا المثل لأنه ينطبق على هؤلاء الذين لا يفقهون في فقه اللغات شيء. فالمعروف أن القرآن الكريم نزل بلغة عربية وبلهجة حجازية يتكلم بها قبائل العرب في مكة ويثرب وعلى رأسهم قريش كبرى القبائل العربية في الحجاز والجزيرة عموماً، وهذه تختلف عن لهجات عربية أخرى في اليمن والشام والعراق ونجد. ومعلوم أيضاً أن لغات البشر تتلاقح وتتأثر فيما بينها وهذه من سمات حضارة الإنسان وسنة الله في خلقه وهذا الأمر معلوم واضح لكل علماء ودارسي فقه اللغات على اختلافها والأمثلة في مثل هذا المقام أكثر من أن تحصى.. وحيث أن قريش كانت لها علاقات مع غيرها من الحضارات الفارسية والرومانية والحبشية وغيرها، فإنه من الطبيعي أن تكون لها مفردات درجت في لهجتها منذ أزمان طويلة وأصبحت تنطق بلهجتهم مثل ياقوت وأسماء علم عربت عن أصولها اللغوية التي جاءت منها، هذا إذا سلمنا بالرأي القائل أن هذه الكلمات تعود في الأصل إلى أقوام ليسوا عرباً، وأنهم نطقوا بها قبل أن ينطقها العرب. ثم أن كلمة (لسان) بالعربية قد تعني اللغة وهي جارحة الكلام كما يعرفها الرازي في مختار صحاحه، ولكنها لا تعني اللغة حسب وإنما اللسان أشمل من اللغة، فهو يقتضي دقة اللفظ مع المعنى والفهم، وليس الكلمات لوحدها، لأنه إذا عنيت به الكلمة أُنِّث فيقال (ألسن)، بينما تذكيره (ألسنة)، ويقال للفصاحة (اللَّسن)[1]، وقد يكون لسان الحال أبلغ من لسان المقال...

(١) مختار الصحاح للرازي، ص٥٩٨.

وقد جاءت في القرآن بمعاني أخرى غير الذي ذكرنا وهو الثناء الحسن [١] كما في قوله تعالى:

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [مريم:٥٠].. ﴿ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴾، [الشعراء: ٨٤].. كما جاءت بمعنى التعبير كما في قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [المائدة:٧٨]. كما وجاءت بمعنى اللغة: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾، [النحل:١٠٣]. أي أن الله تعالى يعلم المتقولين من أهل الكتاب بأن هذا القرآن قد تعلمه النبي - صلى الله عليه وسلم- من بعض رهبان النصارى، فكان رد القرآن بأن هذا الكلام كلام عربي واضح بيّن، بينما هؤلاء الرهبان ليسوا عرباً فصيحي اللسان. وهذا هو بيت القصيد، فأنك تجد رجلاً يتكلم العربية ولكنه لا يجيد فنونها وبلاغتها، فيكون متكلماً باللغة العربية ولكن لسانه أعجمي يميل عنها بلكنةٍ أعجميةٍ واضحة. أما كلمة (مبين) فجاءت صفة للسان وتعني واضح بيّن، فكل من يُتلى عليه القرآن ويُسأل عن هذه اللغة يقول هذه لغة عربية فصيحة بليغة... فافهموا يا أيها المساكين.

٢- وفي نفس الموضوع أثير في أحد المؤتمرات هجوم على الإسلام من قبل البعض من المغرضين أو المشككين، إذ قال أحدهم :(إن الإسلام يأمر بنكاح الولدان)، وهو ما فهمه هذا المسكين من قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾، [النساء:١٢٧].. فلو كان هذا المسكين يفقه من اللغة شيء ما قال مثل هذا الكلام السقيم، فالكلام في الآية يتعلق بميراث المرأة

---

(١) معجم تفسير كلمات القرآن، ص٣٧٢.

المتزوجة سابقاً والتي يراد منها الزواج مرة أخرى بعد فراق زوجها الأول بالموت أو الطلاق، وكذلك ميراث الأولاد والبنات منهن، وموجه للنساء اللاتي يرغب بالزواج منهن أي نكاحهن ولهن ولد من زوج سابق متوفى أو حصل طلاق بين الزوجين، ويتعلق الأمر بحقوق أولادهن وبناتهن، كما وتأمر الآية الكريمة وتشجع على إقامة القسط في اليتامى..

يقول الطبري رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية الكريمة: « يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ﴾ ويسألك يا محمد أصحابك أن تفتيهم في أمر النساء، والواجب لهن وعليهن. فاكتفى بذكر النساء من ذكر شأنهن، لدلالة ما ظهر من الكلام على المراد منه. ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ قل لهم يا محمد: الله يفتيكم فيهن، يعني في النساء. ﴿ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ ﴾.. واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ ﴾ فقال بعضهم: يعني بقوله: ﴿ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ قل الله يفتيكم فيهن، وفيما يتلى عليكم، قالوا: والذي يتلى عليهم هو آيات الفرائض، التي في أول هذه السورة... وذكر من قال ذلك: حدثنا ابن حميد، قال: ثنا حكام بن سلم، عن عمرو بن أبي قيس، عن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ ﴾ قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون المولود حتى يكبر، ولا يورثون المرأة؛ فلما كان الإسلام قال: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ ﴾ في أول السورة في الفرائض اللاتي لا تؤتونهن ما كتب الله لهن. حدثنا ابن وكيع، قال: ثنا أبي، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: ﴿ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ قالت: هذا في اليتيمة تكون عند الرجل لعلها أن تكون شريكته، في ماله، وهو أولى بها من غيره، فيرغب عنها أن ينكحها ويعضلها لمالها ولا ينكحها غيره كراهية أن يشركه أحد في مالها... حدثنا ابن وكيع وابن حميد، قالا: ثنا جرير، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، قال: كانوا لا يورثون في الجاهلية النساء والصبي حتى يحتلم، فأنزل الله: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ

ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ في أول سورة النساء من الفرائض... حدثنا ابن وكيع، قال:ثنا جرير، عن أشعث، عن جعفر، عن شعبة، قال: كانوا في الجاهلية لا يورثون اليتيمة ولا ينكحونها ويعضلونها، فأنزل الله: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾... إلى آخر الآية... حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: أخبرني الحجاج، عن ابن جريج، قال: أخبرني عبد الله بن كثير أنه سمع سعيد بن جبير يقول في قوله: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾... الآية، قال: كان لا يرث إلا الرجل الذي قد بلغ، لا يرث الرجل الصغير، ولا المرأة؛ فلما نزلت آية المواريث في سورة النساء، شق ذلك على الناس، وقالوا: يرث الصغير الذي لا يعمل في المال ولا يقوم فيه، والمرأة هي كذلك فيرثان كما يرث الرجل الذي يعمل في المال! فرجوا أن يأتي في ذلك حدث من السماء، فانتظروا فلما رأوا أنه لا يأتي حدث، قالوا: لئن تم هذا إنه لواجب ما منه بد، ثم قالوا: سلوا! فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في أول السورة: ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾. قال سعيد بن جبير: وكان الولي إذا كانت المرأة ذات جمال ومال رغب فيها ونكحها واستأثر بها، وإذا لم تكن ذات جمال ومال أنكحها ولم ينكحها... حدثنا ابن حميد وابن وكيع، قالا: ثنا جرير، عن مغيرة، عن إبراهيم: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ قال: كانوا إذا كانت الجارية يتيمة دميمة لم يعطوها ميراثها وحبسوها عن التزويج حتى تموت، فيرثوها، فأنزل الله هذا... حدثني يعقوب بن إبراهيم، قال: ثنا هشيم، قال: أخبرنا مغيرة، عن إبراهيم في قوله: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾ قال: كان الرجل منهم تكون له اليتيمة بها الدمامة والأمر الذي يرغب عنها فيه ولها مال، قال: فلا يتزوجها ولا يزوجها حتى تموت فيرثها، قال: فنهاهم الله عن ذلك... حدثنا سفيان بن وكيع، قال: ثنا عبد الله، عن إسرائيل، عن السدي، عن أبي

مالك: ﴿ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ فِي يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ قال: كانت المرأة إذا كانت عند ولي يرغب عنها حبسها إن لم يتزوجها ولم يدع أحداً يتزوجها... حدثني محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: ﴿فِي يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ ﴾ قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبيان شيئاً، كانوا يقولون: لا يغزون ولا يغنمون خيراً، ففرض الله لهن الميراث حقا واجباً، ليتنافس أو لينفس الرجل في مال يتيمته إن لم تكن حسنة... حدثني المثنى، قال: ثنا أبو حذيفة، قال: ثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، بنحوه... حدثني محمد بن سعد، قال: ثنا أبي، قال: ثنا عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ يعني الفرائض التي افترض في أمر النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن، ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ قال: كانت اليتيمة تكون في حجر الرجل، فيرغب أن ينكحها، أو يجامعها ولا يعطيها مالها، رجاء أن تموت فيرثها، وإن مات لها حميم لم تعط من الميراث شيئا، وكان ذلك في الجاهلية، فبين الله لهم ذلك... حدثنا بشر بن معاذ، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ حتى بلغ: ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ فكان الرجل تكون في حجره اليتيمة بها دمامة ولها مال، فكان يرغب عنها أن يتزوجها ويحبسها لمالها، فأنزل الله فيه ما تسمعون... حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ قال: كانت اليتيمة تكون في حجر الرجل فيها دمامة، فيرغب عنها أن ينكحها، ولا ينكحها رغبة في مالها... حدثنا محمد بن الحسين، قال: ثنا أحمد بن مفضل، قال: ثنا أسباط، عن السدي، قوله: ﴿ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ فِي يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾... إلى قوله: ﴿ بِٱلْقِسْطِ ﴾ قال: كان جابر بن عبد الله الأنصاري ثم السلمي له ابنة عم عمياء، وكانت دميمة، وكانت قد ورثت عن أبيها مالا، فكان جابر يرغب عن نكاحها ولا ينكحها رهبة أن يذهب الزوج بمالها، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن

ذلك. وكان ناس في حجورهم جوار أيضا مثل ذلك، فجعل جابر يسأل النبي صلى الله عليه وسلم ، أترث الجارية إذا كانت قبيحة عمياء؟ فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول «نعم»، فأنزل الله فيهن هذا... وقال آخرون: معنى ذلك: ويستفتونك في النساء، قل الله يفتيكم فيهن، وفيما يتلى عليكم في الكتاب في آخر سورة النساء، وذلك قوله: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾... إلى آخر السورة. ذكر من قال ذلك: ((حدثني الحارث، قال: ثنا عبد العزيز، قال: ثنا سلام بن سليم، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون الولدان حتى يحتلموا، فأنزل الله: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾ قال: ونزلت هذه الآية: ﴿ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾... الآية كلها)).(١)... وقد فصّل أغلب أهل التفسير مثل ما عمل الطبري، رحمهم الله جميعاً...

٣- كذلك الشبهة التي أثيرت حول أن القرآن ينص على أن المرأة أدنى من الرجل من حيث الحقوق فهي مبتذلة محقرة من وجهة نظر من رأى هذا الرأي الأعوج، وحجتهم في ذلك ما جاء في سورة مريم من دعاء زوجة عمران بعد ولادة السيدة مريم وكانت ترجو ولدا يقوم على خدمة المسجد، وأن الولد أفضل من الأنثى في هذا الأمر، وهو ما كان حينئذ متعارفاً، وهو قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾، [آل عمران:٣٦].

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا ﴾ فلما وضعت حنة النذيرة، ولذلك أنث. ولو كانت الهاء عائدة على «ما» التي في قوله: ﴿ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ﴾ لكان الكلام: فلما وضعته قالت: رب إني وضعته أنثى. ومعنى قوله: ﴿ وَضَعَتْهَا ﴾ ولدتها، يقال منه: وضعت المرأة تضع وضعا. ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ أي ولدت النذيرة أنثى؛ ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾... فتأويل الكلام إذا: والله أعلم من كل خلقه

(١) تفسير الطبري، عن قرص الموسوعة الميسرة في علوم القرآن الكريم.

بما وضعت. ثم رجع جل ذكره إلى الخبر عن قولها، وأنها قالت اعتذارا إلى ربها مما كانت نذرت في حملها فحررته لخدمة ربها: ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ لأن الذكر أقوى على الخدمة وأقوم بها، وأن الأنثى لا تصلح في بعض الأحوال لدخول القدس والقيام بخدمة الكنيسة لما يعتريها من الحيض والنفاس ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾. ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ أي لما جعلتها له محررة نذيرة.

والجواب على هؤلاء المساكين فيما فصّلناه في الفصل السابق في موضوع أصناف الخطاب القرآني، فهذه الآية الكريمة هي من النوع الأول أي نصوص قالها أصحابها في زمن معين، وهنا في وقت كان فيه العرف أن الذكر أفضل في أعمال خدمة المسجد من الأنثى، وهو ليس توجيهاً او أمراً أو تشريعاً قرآنياً، بل على العكس هو لتوضيح خطأ معتقد القوم فيما بعد من أن الخير كله جاء من هذه المرأة العظيمة التي امتدحها القرآن الكريم وصنفها الإسلام من بين خير أربعة نساء أخرجت للعالمين. بل وزاد القرآن على هذا عندما ذم الأقوام الذين كانوا يأدون البنات ويحقرونهم وقت الجاهلية قبل البعثة الشريفة بقوله تعالى في سورة النحل: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩ ﴾، ألا ساء ما يقول هؤلاء الجهلة. ولكن الإسلام أعطى للمرأة - دون مبالغة- ما لم يعطها أحد من قبل ولا من بعد وإلى يومنا هذا وباعتراف كبار علماء الاجتماع والنفس في العالم، فجاء التشريع الإسلامي يوازن بين الحقوق المقبولة والواجبات المعقولة.

٤- يدعي البعض بتحريف القرآن، فيقولون حذف بعضه، وزيد بعضه، أو أن هناك قرآناً آخر لم يظهر بعد، وغير ذلك من الكلام المضحك ... والرد عليهم هو نص كتاب الله تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾، [البقرة: من الآية١١١]، وكذلك [من الآية٦٤ من سورة النمل] ، وكذلك التحدي الإلهي الخالد بأن يأتوا بسورة من مثله، فإن استطاعوا – ولن يستطيعوا لقوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟

وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾، [البقرة: ٢٤] – فهذا معناه أن القرآن محرف لأن من مواصفات القرآن الحق الذي لا قرآن غيره هو أنه لا يمكن لبشر أو جن وإن اجتمعوا أن يأتوا بسورة من مثله[١]، وهذا التحدي عمره أكثر من ١٤٠٠ عام، فهل من مبارز ليثبت لنا صحة قوله بتحريف القرآن الكريم الذي لا يزيد ولا ينقص ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه كلام الخالق العزيز...

أما من وجهة النظر الرياضية والعددية فإن القرآن الكريم قد بني على نظام رياضي غاية في الروعة يحوي على منظومات عددية غاية في الدقة والإعجاز لا يمكن معها القول بل وحتى التفكير بهذه الخرافات القائلة بالتحريف، فأي تغيير بسيط في أي كلمة يؤدي إلى انهيار النظام الرياضي بأسره، وهذا والله أعلم نوع من أنواع الأسلحة والأسباب التي أودعها الله تعالى في القرآن الكريم مع بقية الأسباب، والتي تؤدي بمجموعها إلى أمر واحد لا مفر منه، ألا وهو أن لا سبيل إلى تحريف القرآن الكريم. وهنا أحيل القارئ الكريم إلى كتابنا (المنظار الهندسي للقرآن الكريم)، الصادر عن دار المسيرة بعمان، ففيه أمثلة كثيرة جداً على روعة المنظومات الرياضية القرآنية، إضافة إلى ما ضربناه من أمثلة بسيطة في هذا الكتاب. ﴿....فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾، [الأعراف: من الآية ١٨٥].

٥- ظهرت في شبكة المعلومات الدولية محاولات خسيسة لتحدي القرآن الكريم، فحاول بعض الجهال أن يقلدوا القرآن الكريم بأن يأتوا بسورة من مثله، فعملوا إلى وضع كلمات بقافية وسجع سخيف على أساس أن هذا يشبه الكلام القرآني، وبالتالي فإنهم قد أتوا بسورة من مثله، وأعطوا عنواناً لعملهم هذا أسموه (سورة من مثله Sora Like it)، ونشروها على شبكة المعلومات المعروفة بأمريكا على الخط (America On Line).

---

(١) الإتيان هنا لا يقصد به تقليد النمط البلاغي حسب، بل الإحاطة بكل المعاني والدلالات والحكم والسمو الروحي والنور والسبق العلمي الذي تحويه الآية والسورة، فلا يناقض بعضه بعضاً.

إن عمـل هؤلاء المساكين يذكرني بما قام به مسيلمة الكذاب الذي تنبأ بظهوره رسول الله صـلى الله علـيه وسلم، فعنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهم عَنْهمَا قَالَ :(قَدِمَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ عَـلَى عَهْـدِ رَسُـولِ اللهَّ صلى الله عليه وسلم فَجَعَلَ يَقُولُ إِنْ جَعَلَ لِي مُحَمَّدٌ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ تَبِعْـتُهُ وَقَـدِمَهَا فِي بَشَرٍ كَثِيرٍ مِنْ قَوْمِهِ فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ صلى الله عليه وسلم وَمَعَهُ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ ابْنِ شَمَّاسٍ وَفِي يَدِ رَسُولِ اللهَّ صلى الله عليه وسلم قِطْعَةُ جَرِيدٍ حَتَّى وَقَفَ عَلَى مُسَيْلِمَةَ فِي أَصْـحَابِهِ فَقَالَ: «**لَوْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ الْقِطْعَةَ مَا أَعْطَيْتُكَهَا وَلَنْ تَعْدُوَ أَمْرَ الله فِيكَ وَلَئِنْ أَدْبَرْتَ لَيَعْقِـرَنَّكَ الله وَإِنِّي لَأَرَاكَ الَّـذِي أُرِيـتُ فِـيهِ مَـا رَأَيْتُ وَهَذَا ثَابِتٌ يُجِيبُكَ عَنِّي ثُمَّ انْصَرَفَ عَـنْهُ**»، قَـالَ ابْـنُ عَبَّاسٍ فَسَأَلْتُ عَنْ قَوْلِ رَسُولِ اللهَّ صلى الله عليه وسلم إِنَّكَ أُرَى الَّذِي أُرِيـتُ فِـيهِ مَـا أَرَيْتُ فَأَخْبَرَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**بَيْنَمَا أَنَا نَـائِمٌ رَأَيْـتُ فِي يَـدَيَّ سِـوَارَيْنِ مِـنْ ذَهَـبٍ فَأَهَمَّنِـي شَأْنُهُمَا فَأُوحِيَ إِلَيَّ فِي الْمَنَامِ أَنِ انْفُخْهُمَا فَنَفَخْتُهُمَا فَطَارَا فَأَوَّلْتُهُمَا كَذَّابَيْنِ يَخْرُجَانِ بَعْدِي أَحَدُهُمَا الْعَنْسِيُّ وَالْآخَرُ مُسَيْلِمَةُ**»)[١].

مـن بـين مـا قـام بـه هـذا الأرعن من محاولات لتقليد القرآن الكريم أنه أتى بكلام مـضحك، مـثل كلامـه السخيف لتقليد سورة الكوثر:(إنا أعطيناك التفاح، فصلي لربك وارتـاح، إن شـانئك هو التمساح)... بالله عليكم هل يحتاج هذا المعتوه إلى رد، وقد كان مصيره شر مصير جزاءً وفاقاً بما قدمت يداه...

إن أمثال هذا الدجال كثر كما أنبأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففي حديث آخر عَـنْ ثَـوْبَانَ مَـوْلَى رَسُـولِ اللهَّ صـلى الله علـيه وسـلم أَنَّ رَسُـولَ اللهَّ صلى الله عليه وسلم قَـالَ:«**زُوِيَـتْ لِيَ الْأَرْضُ حَتَّـى رَأَيْـتُ مَـشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَصْفَرَ أَوِ الْأَحْمَـرَ وَالْأَبْيَضَ يَعْنِي الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَقِيلَ لِي إِنَّ مُلْكَكَ إِلَى حَيْثُ زُوِيَ لَكَ وَإِنِّي سَأَلْتُ الله عَـزَّ وَجَـلَّ ثَلَاثًـا أَنْ لَا يُـسَلِّطَ عَلَى أُمَّتِي جُوعًا فَيُهْلِكَهُمْ بِهِ عَامَّةً وَأَنْ لَا يَلْبِسَهُمْ شِيَعًا وَيُذِيـقَ بَعْـضَهُمْ بَـأْسَ بَعْضٍ وَإِنَّهُ قِيلَ لِي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَإِنِّي لَنْ أُسَلِّطَ عَلَى**

(١) أخـرجه الـبخاري (المناقب ٣٣٥١، المغازي ٤٠٢٥، ٤٠٢٦، ٤٠٢٨، التعبير ٦٥١٣، ٦٥١٥)، مسلم (المقدمـة، الإمـارة٣٣٩٨، الـرؤيا٤٢١٨، ٤٢١٩)، وانظـر (مـسند بني هاشم، باقي مسند المكثرين، مسند البصريين والكوفيين في مسند الإمام أحمد) .

أُمَّتِكَ جُوعًا فَيُهْلِكَهُمْ فِيهِ وَلَنْ أَجْمَعَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا حَتَّى يُفْنِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَقْتُلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَإِذَا وُضِعَ السَّيْفُ فِي أُمَّتِي فَلَنْ يُرْفَعَ عَنْهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَإِنَّ مِمَّا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي أَئِمَّةً مُضِلِّينَ وَسَتَعْبُدُ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ وَسَتَلْحَقُ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ وَإِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ دَجَّالِينَ كَذَّابِينَ قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثِينَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَلَنْ تَزَالَ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»، قَالَ أَبُو الْحَسَنِ :(لَمَّا فَرَغَ أَبُو عَبْدِ الله مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ قَالَ مَا أَهْوَلَهُ)[1].

نعود لهؤلاء الأدعياء من أمثال مسيلمة الكذاب وماتقولوه وادعوه إنجازاً بأنهم قد أتوا بمثل سورة من القرآن، قالوا: (سبحان الذي خلق السموات ولم يجعل لها حداً، وخلق الأرض فجعلها ماءً وجلداً). هذا السجع المريض حاولوا به إيهام السذج من الناس أن النظم القرآني ليس مستحيلاً على البشر أن يأتوا بمثله، ورغم أن أي مثقف بسيط في لغة العرب يستطيع وبسهولة أن يجد الفارق بين النظم البلاغي القرآني الدقيق وبين هذا التقليد السجعي الفقير إلى الدقة - أي بين الثرى والثريا - إلا أن الأمر في القرآن الكريم يتعدى مجرد الكلمات البليغة والبناء اللغوي الرصين إلى المعاني العظيمة والأخلاق الكريمة والبناء الروحي والعقلي والجسمي والاجتماعي والاقتصادي والتشريعي والعلمي الذي جاء به الكتاب العزيز. فبالله عليكم ما معنى (ماءً وجلداً)؟، وما مفهومها الجيولوجي والعلمي؟. وعلى كل حال فإن الله تعالى حافظ لدينه في كل وقت وحين كما وعد، فقد قيض لكتابه رجالاً من كل جيل يذودون عنه بكل غالٍ ونفيسٍ، فقد قام الأستاذ الدكتور زغلول النجار - جزاه الله عن دينه وكتابه ألف ألف خير - بالرد على هذا العمل القذر بمقال نشره على الإنترنت مؤلف من ٣٨ صفحة، رد فيها عليهم مكرهم فجعله بإذن الله في نحورهم مما اضطرهم إلى سحب المقال فيما بعد...

٦- ثم جاءت آخر صيحة في فن الكذب على الله تعالى وهو ما عرف بالفرقان الحق- وهو باطل لا محالة- وادعى واضعوه أن هذا هو الإسلام الحقيقي - حسب رأيهم-

(١) أخرجه ابن ماجه (الفتن ٣٩٤٢)، ومثله في صحيح مسلم (الفتن وأشراط الساعة ٥٢٠٤).

وقد تصدى لهم كل غيور على دينه وكتاب ربه جل وعلا.

إن مثل هذه المحاولات لن تتوقف لأن هذا الدين هو دين الحق وأكثر الناس للحق كارهون، فعلى المسلمين أن يظلوا حذرين يقظين ويتزودوا بكل الأسلحة اللازمة لهذه المعركة المستمرة .

يقول المتقولون أن القرآن كتبه محمد صلى الله عليه وسلم ناسخاً إياه من التوراة والإنجيل، وهذا التقول قديم قدم القرآن نفسه، يقول الله تعالى عن هؤلاء النفر: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾، [الفرقان:٥].. والجواب على هذا يسير، إذ كيف يكون الكتاب الذي يكتبه الباحث أو المؤلف أعظم شأناً من المصدر أو المرجع الأصلي، لا يمكن، فلو صدقوا فليأتوا بالتوراة والإنجيل – المحرفة – وليتلوهما وينظروا كم الفرق شاسعاً بين الحالات الثلاثة، لذلك تحداهم الله تعالى بقوله : ﴿ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾، [آل عمران: من الآية٩٣]، هذا فضلاً عن أن التغيير من ديدن البشر كما رأينا في قول العماد الأصفهاني رحمه الله تعالى. كما أن الحقائق العلمية المكتشفة التي أثبت في القرنين الماضيين والتي سبق القرآن الكريم ذكرها والتعريف بها أو التنويه عنها غير موجودة في التوراة والإنجيل المحرفين. ولن نذهب بعيداً في سرد الحقائق العلمية المذهلة التي أذهلت كبار علمائهم، ولكننا سنعطي مثلاً من أخبار الأنبياء، فهذا موقع سفينة نوح عليه السلام، ذكره الكتاب المقدس على أنه في جبل أرارات، بينما اكتشف الباحثون والمؤرخون والآثاريون في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين أن الموقع الأثري للسفينة وبقاياها هو قمة جبل الجودي في تركيا، وهو المكان الذي حدده القرآن الكريم بالضبط:﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، [هود:٤٤][1].

كما وأن أي مؤلف يؤلف كتاباً لا يمكنه أن يعلم نفسه أو يعاتبها تصريحاً في الكتاب، بينما نجد أن الله تعالى قد علم نبيه صلى الله عليه وسلم وعاتبه في عدة مواضع من القرآن

(١) لتفاصيل أكثر يراجع كتابنا (الآثار والتاريخ) ضمن سلسلة (ومضات إعجازية ‖ ١٥ جزء-).

الكريم، قسم منها يعرف بآيات المعاتبة أو العتاب، ومنها:

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾، [الأنعام:٣٥]... ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾، [يونس:٩٤].

﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴾، [الإسراء:٧٤].. ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾، [الحاقة]... ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ ﴾، [عبس].

بل اسمع إلى الخطاب القرآني، وكيف يخاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم، وكيف يعلمه أن لا يحزن على قول هؤلاء المكذبين لأنهم لا يكذبون شخصه ولكنهم يكذبون بكلام الله، ثم يقول له إن استطعت أن ترتقي إلى السماء أو تنزل بنفق إلى الأرض لتأتيهم بآية فافعل إن استطعت، ولكنك لن تستطيع إلا بإذن الله، والله يستطيع أن يهديهم جميعاً، ولكن ليبلو بعضكم ببعض، فلا تكن من الذين يستعجلون النتائج. اسمع يا أخي وتدبر: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾، (الأنعام)... وأمثلة أخرى عديدة فكيف يكون هذا؟

هـذا الأمـر دعى أحد كبار رجال الدين النصارى واسمه الدكتور ملير أن يسلم بعد

أن درس القرآن الكريم لغرض الطعن به، فإذا به يتأثر به أيما تأثر، ثم يعلن إسلامه. يقول هـذا الـرجل إن الأمـر لعجيب، فكيف يكتب محمد هذا القرآن ولا يخطئ أو يتناقض في بعـض مواضـعه؟ وكيف لا يذكر فيه قصته مع زوجاته أو أولاده؟ وكيف يعاتب نفسه؟ وكـيف يتـسنى لـه أن يأتي بكل هذا الكم الهائل من العلوم وهو رجل الصحراء الذي لم يخـرج مـن الجزيرة ولم يتعرف على حضارات الأقوام الأخرى؟... وقد قام الدكتور ملير بتأليف كتب عديدة أهمها كتاب (القرآن المذهل)، ونشره عبر شبكة الإنترنت.

فـبالله علـيكم هـل بعـد هـذا الخطاب من شك أنه كلام بين المخاطِب - الله تعالى - والمخاطَب - رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته من بعده - ، أترك الحكم لكم.

ثانياً: شبهات في الفكر الإسلامي(١):

١ - التحدي القائل أن الغرب لم ينهض إلا بعد أن تخلص من سلطان الدين على العقول، وحكّـم العقـل في كل أمور حياته، ومن ثـم يتوجب على المسلمين أن يفعلوا الشيء نفـسه. لقـد أجمع المفكرون الإسلاميون على رفض تطبيق هذه المقولة على الإسلام والنهـضة الإسـلامية، مـستندين إلى إقامـة تفـريق حاسـم بـين الإسلام والكنيسة المسيحية في الغرب، سواء أكان ذلك من ناحية وجود سلطان كنسي روحي، أم من ناحـية موقـف الكنيـسة مـن العقل والعلوم والمكتشفات، أم من ناحية موقفها من الحياة المادية والروحية للإنسان.

وقـد قطعوا بالقول، كما فعل سيد قطب أن ما يمكن أن يقال عن الدين والكنيسة في الغرب لا ينطبق ولا ينسحب على الإسلام والتجربة الإسلامية التاريخية. وكان رد الإمام محمـد عـبده في كتابه ((الإسلام دين العلم والمدنية)) على فرح انطوان من الردود الأولى التي عالجت هذا الموضوع ورفضت رفضاً قاطعاً تطبيق تلك المقولة على الإسلام.

وتوسـع الدكـتور عـبد الله عـزام في مناقشة هذا الجانب الذي يؤكد اختلاف موقف الإسـلام مـن العقل عن موقف الكنيسة من العقل، فرد هذه الشبهة عن الإسلام مورداً

---

(١) الموسوعة الإسلامية المعاصرة، موضوع الشبهات، قرص مدمج.

رأيا للشيخ البهي يقول: «صراع العقل مع الدين هو صراع الفكر الإنساني مع مسيحية الكنيسة، وأن دوافعه هي الظروف التي أقامتها الكنيسة في الحياة الأوروبية» . أما من ناحية أخرى مكملة، فقد قبل بعض المفكرين الإسلاميين من تلك الموضوعية ذلك الجزء الذي يقول إن تحرر العقل الأوروبي من سلطان الكنيسة ومعتقداتها الدينية كان واحدا من الأسباب الرئيسية في انطلاقة نهضة الغرب. ولكنهم قالوا إن هذا ليس قانوناً عاماً ينطبق على الإسلام الذي يؤدي الأخذ به إلى تحرير العقل من سلطان العبودية والخرافات، وإطلاقه في اكتشاف مجاهيل الطبيعة واقتحام مجالات الصناعات والتقدم وهذا ليس مثبتاً في النص فحسب وإنما أيضاً طبق عملياً في الماضي عندما أسس المسلمون نهضتهم على الإسلام. وقد شدد على هذا الرأي الشيخ أحمد العسال والشيخ يوسف القرضاوي.

إن موقف الإسلام من العقل والعلوم لا ترقى إليه شبهة لذلك ترى الإسلاميين الأكثر حماسة للعقل وضرورة إطلاقه واستخدامه وتحكيمه يستندون، كما فعل الأستاذ فهمي هويدي، والدكتور محمد فتحي عثمان في دعم مقولتهما إلى الإسلام نفسه.

ويؤكد الأستاذ كارم السيد غنيم احترام الإسلام للعلم وتوقير أهله وإجلالهم بكل وسائل الإجلال. وذلك أن «الإسلام لم ولن تدانيه شريعة في عنايته بالعلم والمعرفة ذلك الذي جعل العلم والتأمل والبحث من أعظم المقربات إلى الله سبحانه» وينقل الشيخ محمد الغزالي عن الإمام حسن البنا قوله: «الإسلام يحرر العقل، ويحث على النظر في الكون، ويرفع قدر العلم والعلماء ويرحب بالصالح والنافع من كل شيء».

ويشدد الشيخ محمد متولي الشعراوي على أهمية العقل ودوره، مؤكداً حرص الإسلام على العمل وعدم التواكل، ناقداً المفاهيم الخاطئة للجبرية حول القضاء والقدر.

٢- التحدي القائل بفصل الدين عن الدولة واتهام الإسلام بالنظام الثيوقراطي، والدعوة إلى إقامة الأحكام على أساس وضعي عقلي مستمد من أصول تشريعية رومانية وفرنسية وأنكلوسكسونية باعتبارها أرقى ما توصل إليه الفكر القانوني العالمي.

يلاحظ الدكتور مصطفى حلمي أن موضوع الفصل بين السياسة والدين لم يخطر على بال علماء الإسلام في الماضي قط. ولم يثر إلا حديثاً، خصوصاً بعد إلغاء الخلافة. فالعلماء المسلمون في السابق ناقشوا مواضيع تتعلق بالخلافة ولم يمس أحد استبعاد علاقتها بالسياسة أو الدين. ويشير إلى أن أول من دحض مقولة فصل الدين عن الدولة كان الشيخ مصطفى صبري آخر شيوخ الإسلام في الخلافة العثمانية، في كتابة: (النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة).

لقد توسع الفكر الإسلامي في نفي صفة النظام الثيوقراطي عن الإسلام، حين تقوم الدولة على أساس النظام الإسلامي فقد بين (الإخوان المسلمون)، أن الدولة في الإسلام ليست ثيوقراطية لأن الحاكم في النظام الثيوقراطي سلطته فيه إما من رجال الدين وإما من الحق الإلهي بوصفه ظِلُّ الله في الأرض، بينما سلطة الحاكم في الدولة الإسلامية مستمدة من الناس لا من الله، كما ينقل الأستاذ أحمد ربيع عبد الحميد خلف الله عن فكر الإخوان المسلمين.

أما السيد قطب فيقول: ومملكة الله في الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الأرض رجال بأعيانهم -هم رجال الدين كما كان الأمر في سلطان الكنيسة، ولا رجال ينطقون باسم الألهة، كما كان الحال فيما يعرف باسم (الثيوقراطية) والحكم الإلهي المقدس، ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة، وأن يكون مرد الأمر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة.

ويقول الدكتور محمود أبو السعود: «لا إشارة في الإسلام للحكم الثيوقراطي»، بمعنى لا يعطى الإسلام مطلقاً لشخص أو مجموعة أشخاص احتكار تفسير كلمات الله أو حكم المسلمين ضد إرادتهم الحرة.

ويكتب الدكتور يوسف القرضاوي، والدكتور أحمد العسال: « الأمة في الإسلام هي الحاكمة، وهي صاحبة السلطة، هي التي تختار حاكمها، وهي التي تشير عليه، وهي التي تنصح له وتعينه، وهي التي تعزله إذا انحرف أو جار»... (والخليفة في الإسلام ليس نائباً عن الله، ولا وكيلاً له في الأرض، إنما هو وكيل الأمة ونائب عنها).

وأوضح الشهيد عبد القادر عودة في كتابه: (المال والحكم في الإسلام) أن الحكم في الإسلام يقوم على أساس:

- القرآن (المصدر الأساسي للتشريع) .
- مبدأ الشورى.
- احترام إرادة الأمة، ومن هنا فهو يرى أنا الخليفة ينوب عن الجماعة ولا ينوب عن الله، «وما أقامت الجماعة الخلفية إلا ليكون نائباً عنها، وما استمد ولا يستمد سلطان إلا من نيابته عن الجماعة التي أقامته والتي تملك حق مراقبته ومنعه من الخروج على حدود نيابته، بل للجماعة أن تقيد تصرفاته، وقواعد النيابة تقضي بذلك، كما أن الإسلام يفرض على الناس حيث أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنع الحكام من الظلم والتعسف في استعمال حقوقهم ومنعهم من الإهمال في أداء واجباتهم..»...
- أما بالنسبة إلى العلاقة بين الدين والدولة في الإسلام فيقول: «الدين في الإسلام ضروري للدولة، والدولة ضرورة من ضرورات الدين، فلا يقام الدين بغير الدولة، ولا تصلح الدولة بغير الدين».

أما من جهة أخرى، فقد توسع المفكرون الإسلاميون من رجال الفقه والقانون في ردودهم على الموضوعة القائلة: (بأفضلية القوانين الغربية على الشرع الإسلامي). وقد رفضوا فكرة فصل الشرع الإسلامي عن الحياة المدنية والدولة. وناقشوا من منطلقات قانونية بحتة، ومن خلال مقارنات دقيقة، أفضلية الأصول القانونية في الشرع الإسلامي على نظيراتها في القانون الروماني وغيره من الأصول الوضعية، فعلى سبيل المثال، يستشهد الدكتور توفيق الشاوي بكتاب عبد الرزاق السنهوري (الخلافة ونظام الحكم الإسلامي) الذي أثبت فيه أن مبدأ الفصل بين السلطات هو حجر الزاوية في نظام الحكم الإسلامي، سواء من الناحية النظرية أو من الناحية العلمية ويشير إلى اعتزاز البروفسور أدوارد لامبير الذي قدم للكتاب بسبب كشفه أن مبدأ الفصل بين السلطات، والسيادة الشعبية اللذين لم تعرفهما أوروبا إلا في العصر الحديث هما من أصول العلم الإسلامي في

الشريعة الإسلامية قبل أن يعرفها الفقه الأوروبي بعدة قرون. كما استشهد بكتاب: "نظرية التعسف في استعمال الحق في الشريعة الإسلامية" للدكتور محمد فتحي. وقد أثبت فيه أن هذه النظرية التي لم تعرف في القوانين الغربية إلا في العصور الحديثة وجدت في الشريعة الإسلامية قبل ذلك بعدة قرون أيضا.

وقد أسهم الشهيد عبد القادر عودة في هذا المجال إسهاماً مبدعاً في مؤلفيه ((الإسلامية وأوضاعنا القانونية)) و((التشريع الجنائي في الإسلام)) مقارنا بالقانون الوضعي، وشارحاً نظرية الشريعة في الحكم. وللشيخ محمد أبو زهرة إسهامات كبيرة متعددة في مناقشة هذا الجانب، وللأستاذ جمال البنا في كتابه: ((سيادة القانون: رؤية لمضمون الحكم بالقرآن)). وكذلك آراء كبار رجال القانون كالسنهوري والدواليبي والزرقا. وهذا ما سيأتي تفصيله لاحقاً.

أما من زاوية أخرى، فيرى الحاج توفيق الحوري أن الشريعة الإسلامية تمتاز عن القانون الوضعي بأنها مزجت بين الدين والدنيا، وشرعت للدنيا والآخرة. وهذا هو السبب الوحيد الذي يحمل المسلمين على طاعتها في السر والعلن والسراء والضراء. لأنهم يؤمنون طبقاً لأحكام الشريعة بأن الطاعة نوع من العبادة يقربهم من الله، بينما الحال في القوانين الوضعية عكس ذلك فهي مطاعة بقدر ما تخشى من الوقوع تحت طائلتها وهي لهذا تخرق كلما أمكن الإفلات من يد القائمين على تنفيذ القانون. الأمر الذي جعل الجرائم تزداد زيادة مطردة في البلاد التي تطبق القوانين الوضعية بينما حدث العكس أينما طبقت الشريعة وساد التمسك بالإسلام.

هذا دون إيراد الحجج الإسلامية التي ردت على فساد القوانين الوضعية الغربية من خلال ما أرسى من قوانين ظالمة في المستعمرات أو من خلال القوانين الدولية الظالمة كقوانين البحار على سبيل المثال.

٣- التحدي القائل إن الإسلام أصبح شيئاً من الماضي، ولا يصلح للزمن الحاضر. وأنه سبب تخلف المسلمين وانحطاطهم.. لهذا صدرت كتابات إسلامية كثيرة ترد على هذه المقولة، مؤكدة الشعار الذي شدد عليه عبد العزيز جاويش كما ينقل عنه

الدكتور أحمد صدقي الدجاني وهو: ((أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان)) ومن ثم فهو صالح لهذا العصر الذي هو أشد ما يكون حاجة إلى الإسلام.

في الواقع لا يمكن أن تطلق صفة مفكر إسلامي على من يقول بصلوح الإسلام لكل زمان ومكان. ولهذا نرى المفكر الغربي فوربير تابيرو وما سار على نهجه يعجب من المصلحين الإسلاميين حين لا ينسبون التخلف إلى الإسلام. وقد أخذ عليهم أيضاً اندفاعهم في الدفاع عن الإسلام وتفوقه وحث حتى الغربيين على اعتناقه، ويسمى هذا الموقف "مركب نقص" وكان سلامة موسى قد قال ضمن هذا المنطق: ((لا أستطيع تصور نهضة لأمة شرقية ما لم تقم على المبادىء الغربية)). بينما شدد الفكر الإسلامي على مقولة جمال الدين الأفغاني: ((لا نهضة بغير ديننا)) وراح علال الفاسي يؤكد أن من غير الممكن مُواجهة الأخطار، وحماية أنفسنا، وأراضينا، إلا بالعودة إلى الإيمان واتباع الجهاد الإسلامي.

يطالب الدكتور مصطفى حلمي بالتفريق بين قديم أوروبا وقديم المسلمين. فقديم أوروبا يطلق على عصور التخلف أو العصور المظلمة. وأما قديم المسلمين فيطلق على تقدمهم الحضاري في كافة المجالات. لذلك حين تريد أوروبا أن تتقدم ترفض تاريخها القديم. وأما نحن فالعكس. ثم يستطرد قائلاً: ولكن لا يخطر لنا على بال أن نضع الأمة الإسلامية في متحف التاريخ، بمعنى أن نطالبها بإرجاعها للأخذ بوسائل العصور السابقة في الحياة العمرانية بأساليبها في الإنتاج والنقل والتعليم، والتطبيب وتشييد المدن وتجهيز الجيوش، وبناء المدارس والجامعات والمستشفيات. ويؤكد أن أصحاب المنهج السلفي لا يمنعون فتح النوافذ على العلوم التجريبية والاكتشافات. فالتقدم المادي الماثل أمامنا ما هو إلا جزء من التصور الحضاري الإسلامي. ولكن الأمر الذي يجب التوقف عنده ودراسته هو إعادة النظر، وفحص الإنتاج الثقافي في العلوم الإنسانية. لأنه يرتبط بتطورات للحياة تختلف عن تصوراتنا.

أما مالك بن نبي فيعتبر الإسلام ((المنقذ من الضلالين: الرأسمالي والشيوعي)) ويرد الشيخ عمر التلمساني فيقول: ((إن الإسلام لا يرضى بما نحن فيه فلا داعي للتمحك

بأنه سبب تأخرنا وضعفنا. وكل ما في الإسلام يدعو إلى العدل والإنصاف والقوة والمساواة والجد والعمل وإتقان العمل، يدعو إلى الفضيلة ومكارم الأخلاق)).

٤- التحدي الموجه إلى موقف الإسلام من موضوع المرأة وتعدد الزوجات. وكان هذا من المواضيع التي أسهم في تناولها أغلب العلماء والمفكرين الإسلاميين الذين راحوا يبينون مكانة المرأة في الإسلام واحترامه لإنسانيتها، وما تتمتع به من حقوق وكرامة ومساواة مع الرجل في كثير من المجالات. وما يقيمه الإسلام من ضوابط للتعدد.

فعلى سبيل المثال يقوم الدكتور محمد البهي في كتابه "الإِسلام في حياة المسلم" بتوضيح موقف الإِسلام من المرأة وما يتميز من إبراز دورها في العائلة كزوجة وأم، ودورها في الحياة العامة، وفي ميدان العمل وفي ميدان الدفاع عن الوطن. كما يؤيد تقييد الطلاق.

وقد أثيرت في صفوف بعض المفكرين الإِسلاميين قضايا خلافية حول موضوع التعدد والطلاق وأيد الدكتور فتحي عثمان الاختلاط المأمون الذي يراعي الشروط الشرعية.

وتناول بالتوضيح مطالب محمد عبده وتلامذته بتقييد الطلاق وتقييد التعدد من خلال ربطه بالقاضي الشرعي، وردود الشيخ محمد أبو زهرة عليهم واقتراحه أن يأتي التقييد من المجتمع لا في التشريع. ويبقى موضوع المرأة في الإسلام من المواضيع الحية التي ما انفك المفكرون الإِسلاميون يتناولونه ويعالجونه من خلال الإِسلام بعيداً عن النموذج الحضاري الغربي، وبعيداً عن عدد من الأفكار والتقاليد الموروثة من عصور الجمود والانحطاط. وهذا ما سيتم التعرض له لاحقاً. وبالمناسبة نظراً لأهمية الموضوع يقترح السيد محمد تقي المدرسي عقد مؤتمرات لمعالجة هذه المشكلة بالذات وإعطائها الأولوية عوضاً عن الانشغال في القضايا الجانبية.

٥- التحدي الذي يتهم الإِسلام بتأييد نظام العبودية والجواري أو أنه كان نظاماً إقطاعياً، وقد جاءت الردود جميعها تؤكد أن الإِسلام عمل على تصفية العبودية

والـرق. كـما لا يمكـن وصفه بالنظام الإقطاعي وهو الذي أرسى نظام إرث يفتت الملكـيات الكبـيرة كما لا يسمح نظامه الاقتصادي والسياسي بمثل هذا النظام. وقد أسـهم الأسـتاذ محمـد قطـب في رد هـذا الشبه وكان قد تم تناول هذه الجوانب من زاويـة إسـلامية فقهـية وشرعـية، بيـنما ركـز البعض على دحض ذلك التحدي من خـلال دراسـة تـاريخ الاقتـصاد السياسي في التجربة الإسلامية العملية ويذكر هنا بصورة خاصة، مؤلف الأستاذ عادل عبد المهدي .. " الثوابت والمتغيرات في التاريخ الاقتـصادي للمجـتمعات العـربية الإسـلامية " وقـد أثـبت فـيه خطـأ مقـولات الماركـسيين والليبراليـين في تحـليلها وتحديدها لنمط المجتمع الإسلامي في التاريخ. وأظهـر عـدم اسـتقرار تلـك المقـولات وتـضاربها فيما بينها. أما ذلك فيرجع لعدم إدراكهـم للـدور الـذي لعـبه الـشرع الإسـلامي في تـاريخ الاقتـصادي الـسياسي للمجتمعات الإسلامية.

ويلاحظ كاتب ملف الفكر الإسلامي في العدد السابع من السنة الثانية من عمر مجلة " الفـرقان " المغـربية ضـعف المادة الاقتصادية والتاريخية عند طيب تيزينى حين يتحدث عـن الإقطاعـية والرأسـمالية في الـتاريخ الإسـلامي فهـو يـدلل عـن وجـود الرأسمالية والإقطاعـية لا مـن الوجـود الواقعـي للطـبقات أو الوضـع الاقتصادي وإنما من خلال تأويلـه لأفكار معينة. فيعلق كاتب الملف: لكأن الواقع انبثاق ميكانيكي عن الفكر. وهو بهـذا، أي تيزينـى يقـع في الـرؤية الـتـي يريد نقدها، وهي الرؤية التي تصوغ التاريخ من تأويل الفكر.

٦- التحدي الذي يقول إن أحكام الإسلام في الحدود تمتاز " بالقسوة والهمجية في قطعها ليد السارق أو جلدها للزاني، أو قتلها لقاتل النفس بلا حق، فجاءت الردود لتؤكد عـلى عدالـة أحكـام الإسـلام وحكمـته الـبالغة فيما قرر من حدود، لأن فيها ردعاً للمعـتدين ورحمة بأغلبية الناس الساحقة حين تصان الأعراض والأنفس والأموال والحقـوق. ثـم أكـدت تلـك الـردود، من جهة أخرى، على الضوابط الكثيرة التي وضـعها الإسـلام في تطبـيق هـذه الحـدود. وكـيف كـان اسـتخدامها في الـتاريخ الإسـلامي، على أضيق نطاق وقد أسهم الأستاذ عبد الكريم مطيع في كراسته " حد

السرقة " في تبيان تلك الضوابط والشروط لتنفيذ حد السرقة.

أما الشيخ سيد سابق فبين كيف ساعدت الحدود الشرعية في الإسلام على توفير أمن حقيقي للمجتمع والعائلة، بينما أدت قوانين العقوبات الغربية إلى ازدياد وتائر السرقات وحالات الاغتصاب والاعتداء على الأبرياء والآمنين، وهؤلاء أولى بالتفكير في ما يتعرضون له من قسوة ووحشية من التفكير بتخفيف العقوبات التي تنزل بالمجرمين. فالأولى مراعاة مصالح الناس وأمنهم وحياتهم حين يواجه موضوع الأحكام التي تردع فعلاً مرتكبي الجرائم بحقهم.

وأوضح الأستاذ محسن الميلي خلاصة لموقف السياسة الشرعية بالنسبة إلى التعامل مع الحدود وما يثار حولها من شبهات فقال: "وهكذا تبين أن السياسة الشرعية مجال واسع لتبيان صلاحية التشريع بطريقة علمية. ولكن هذه الاجتهادات يجب أن تظل دائماً في حدود مقاصد الشريعة الإسلامية وقواعدها. ولا يجوز بحال تعطيل هذه النصوص، ولا التعسف عليها بتأويلات منحرفة. لذلك نبه علماء الإسلام إلى خطورة هذا الباب، وإلى وجوب التزام العدل فيه والتوسط وتجنب مسلك الإفراط والتفريط "

٧- التحدي الذي يتهم الإسلام بالرأسمالية لسماحه بالملكية الفردية وحرية التجارة، أو اتهامه بالاشتراكية أو الشيوعية لما فيه من تقييد للملكية ولموقفه من الفقراء وردعه لترف الأغنياء واستئثارهم واكتنازهم الأموال. وقد اتخذت الردود أبعاداً متعددة بعضها تناول بالنقد كلا المفهومين الماركسي والليبرالي حول الملكية الخاصة. وأخرى أفردت بحوثاً في نقد النظامين الرأسمالي والاشتراكي الماركسي عموماً، وفي المقابل تم التوسع في شرح العدالة الاجتماعية في الإسلام باعتبارها نموذجاً ثالثاً متميزاً، ما هو بالرأسمالية وما هو بالاشتراكي الماركسي أو الاشتراكي الليبرالي.

وتبرز هنا، كتابات سيد قطب ومحمد قطب والشيخ تقي الدين النبهاني في مناقشة تمايز النظام الإسلامي وأفضليته على النظامين الرأسمالي والاشتراكي. أما كتاب " اقتصادنا " للإمام محمد باقر الصدر فيحتل موقعاً علمياً مرموقاً لا من جهة الفقه فحسب، وإنما أيضاً من جهة علم الاقتصاد إن جاز التعبير. وقد أثبت قدرة عالية في

مناقشة النظريات الاقتصادية في الماركسية والرأسمالية.

على أن مستهل القرن الخامس عشر للهجرة، فقد اتجه العلماء والمفكرون الإسلاميون ليعطوا الموضوع الاقتصادي اهتماماً مركزاً، خاصة مع ازدياد المطالبات التي كان الأستاذ راشد الغنوشي من المبادرين بها وهي ضرورة تحديد نظرية إسلامية في الاقتصاد تتجاوز العموميات بالنسبة إلى مسائل النظام الاقتصادي في الإسلام.

كما يضع الشيخ محمد الغزالي المسؤولية على عاتق الفقهاء في هذا العصر وهي أن يقولوا كلمة الفقه في مختلف المجالات التي تعني الحياة الاقتصادية بما فيها مسألة العقوبات المتعلقة بالنواحي المالية الاقتصادية.

تكمن الإشارة هنا إلى الدراسات التي جمعها وأعدها الدكتور صالح كركر في كتاب " رؤى في النظام الاقتصادي في الإسلام " . منقولة عن مجلة "المسلم المعاصر " علها تعطي فكرة عن بعض الإرهاصات الإسلامية في هذا المجال. وهي "الاقتصاد في المذهبية الإسلامية " للدكتور محمود أبو السعود، و "النظام الاقتصادي الإسلامي " للدكتور منذر قحف، و "النظام الاقتصادي في الإسلام" د. محمد عمر شبراء، و "صياغة إسلامية لجوانب من دالة المصلحة الاجتماعية ونظرية سلوك المستهلك" د. محمد أنس الزرقاء، و "رأس المال والمحافظة عليه في الفكر الإسلامي " ، د. محمد شوقي إسماعيل شحاته، و "التنمية الاقتصادية في المفهوم الإسلامي " د. محسن عبد الحميد، و "أفكار ونظرات ابن خلدون الاقتصادية " ، د. فاضل الحسب، "قراءة اقتصادية في كتاب الكسب" د. رفعت السيد العوضي.

أما من الجهود الحديثة في مناقشة النظامين الرأسمالي والاشتراكي من الزاوية الاقتصادية والفقهية فكتاب الأستاذ سميح عاطف الزين "الإسلام وأيديولوجية الإنسان " ، بينما تناولهما الشيخ نادر أسعد بيوض التميمي من الزاوية العقدية في كتابه " العقيدة الإسلامية في مواجهة العقائد الوضعية " . أما الدكتور صالح كركر فرد على التحدي من زاوية مناقشة "نظرية القيمة - العمل والعمال والعدالة الاجتماعية في الإسلام وفي المذاهب والنظم الوضعية " .

٨- التحدي الذي يتهم الإسلام بالتنكر للوطنية والقومية بسبب نظرته العالمية. وقد جاءت الردود تؤكد تأييد الإسلام لكل دفاع محق عن الوطن أو الشعب والأمة ضد أي اعتداء خارجي أو ظلم داخلي، وتأييد حق الشعوب في الكفاح من أجل الحرية والاستقلال من السيطرة الأجنبية. ولكن مع تأكيد الرفض القاطع للاتجاهات التي تحمل النزعات العنصرية أو العصبية في الوطنية والقومية أو تتنكر للإسلام أو تعطى للوطنية والقومية محتويات علمانية وأيديولوجيات رأسمالية واشتراكية. وقد جاء الرد الأول الأقوى على هذا التحدي من قبل الإمام حسن البنا حيث قال حول القومية: "إذا كان القصد الاعتزاز بالأسلاف، أو بحرية القوم وحق برهم وإسعادهم وتحريرهم، أو أن القوم مبتلون وبحاجة إلى تحرير.. كل هذا لا يأباه الإسلام وهو مقياسنا بل ينفسح صدرنا له ونحض عليه. أما قومية الجاهلية - العدوان فلا". وقال حول الوطنية: "لا خلاف إن كانت تعنى حب الأرض وألفتها، والحرية والعزة للبلاد، حب المجتمع وصلاح أحواله أما إذا كانت تقسيماً للأمة فلا". الخلاف أننا نعتبر حدود الوطنية بالعقيدة، وهم يعتبرونها بالتخوم الأرضية والحدود الجغرافية. واستمر هذا التحدي إلى يومنا هذا واستمر المفكرون الإسلاميون يقدمون ردوداً تدور ضمن الإطار والمحتوى اللذين رد بها الإمام حسن البنا.

٩- التحدي الذي يتهم الإسلام بالدكتاتورية ورفض الديمقراطية. فرد البعض بالقول أن العلاقة بين الشعب وحكامه في الإسلام تقوم على أساس العقد ومن ثم يحق للشعب عزل حكامه إذا جنحوا إلى الدكتاتورية مخالفين للعقد. كما جاءت الردود تركز على الشورى وربط البيعة بالأمة وبتأكيد الإسلام حقوق أهل الكتاب وحق المعتقد وحرية التفكير ودعا بعض المفكرين الإسلاميين إلى وضع دستور، وإلى تنظيم الشورى بالمجالس المنتخبة وتأكيد حقوق الإنسان وحرياته التي يكفلها الإسلام. وسوف يعالج موقف المفكرين الإسلاميين المعاصرين من هذا الموضوع لاحقاً.

١٠- التحدي الموجه إلى اللغة العربية: تارة من خلال إحلال العامية في الكتابة مكانها،

وطوراً من خلال تسكين أحرفها واقتراح لغة وسطاً بين العامية والفصحى، وأطواراً عبر المطالبة بكتابتها بالأحرف اللاتينية. فضلاً عن تشجيع حشوها بالضروري وغير الضروري من المصطلحات العلمية وغير العلمية، سواء أكان لها رديف عربي مناسب أم لم يكن لها. وأحياناً من خلال تكوّن مثقفين يستخدمون الفرنسية أو الإنكليزية (وربما بعد حين الروسية) لغة التفكير والكتابة وتحويل العربية إلى لغة من الدرجة ا لثانية، وأحايين من خلال مقاومة التعريب في دوائر بعض الحكومات والكليات الجامعية والمؤسسات والشركات والمصارف. وقد كشف الفكر الإسلامي عن الهدف الحقيقي لمثل هذه التوجهات وهو الانسلاخ عن لغة القرآن من أجل الانسلاخ عن الإسلام والتراث الإسلامي الفكري والحضاري. مما يجعل التغريب يدخل في آلية عمل العقل (اللغة) وفي التكوّن الروحي والضميري للأمة من خلال إبعاد الإسلام والتراث الإسلامي. ولم تهدأ هذه المعركة منذ قرن بين المفكرين الإسلاميين وعدد من المفكرين العلمانيين. وكلما سددوا لبعض الاتجاهات ضربة برز اتجاه آخر بحلة جديدة وحجج جديدة. وهذا ما حدا بالدكتور صادق أمين إلى إكمال الطريق بالكشف عن سياسات هدم اللغة العربية كجزء من عملية هدم الإسلام والسيطرة على الأمة وغزوها ثقافياً. فتتبع تلك العملية منذ بدأ بعض المستشرقين بالتشجيع على استخدام العامية فاقتفى أثرهم أحمد لطفي السيد ولويس عوض أنيس فريحة. وكشف أيضاً عن دور عبد العزيز فهمي وسعيد عقل اللذين طالبا أن تكتب العربية بالحرف اللاتيني. ثم دور توفيق الحكيم وأمين الخولي في المناداة بلغة وسط بين العامية والفصحى. كما أشار إلى محاولة طه حسين تهديم النحو العربي. ثم إلى محاولات تحطيم أسس الشعر العربي.

إن مجموعة الردود الإسلامية على هذه الموضوعات، وبالرغم مما أبرزه المفكرون والعلماء الإسلاميون المعاصرون من نقاط خلافية حول هذه القضية أو تلك، وما حملته من نقد للفكر الغربي أو فكر العلمانيين، لم تحظ من قبل العلمانيين العرب بما تستحقه من

الاهتمام والرد. فكانوا يكتفون بترديد تلك الانتقادات وتكرارها على الإسلام ثم يصمون آذانهم عن الردود التي يجيب بها الإسلاميون. الأمر الذي لم يساعد على إغناء الموضوعات في ميدان الصراع الفكري في المجال الشعبي.

ويجب أن يقال هنا أن الجهد الإسلامي المبذول في الرد على فلسفات الغرب ونظرياته الاقتصادية وفي إيضاح المفاهيم والنظريات الإسلامية حول الإنسان والحياة والمجتمع والسياسة والاقتصاد والبيئة تحاول أن تتسم بالأصالة والاتساع والعمق وتسعى إلى الاغتناء يومياً، وإلى امتلاك الأسلحة الأكثر مضاء في الرد على التحديات الآتية من فكر الغرب ونموذجه الحضاري.

كما أنها تخوض بينها حوارات فكرية تحمل الكثير من نقاط الخلاف. وقد أدى ذلك إلى بروز دراسات إسلامية هامة. ويَعِد بروز دراسات أخرى تؤكدها المطالبات الإسلامية الراهنة الملحة على ضرورة تقويم فكر المرحلة السابقة وتجربتها العملية، وضرورة تقديم دراسات إسلامية منهجية وعلمية تفصيلية ومعمقة في مختلف مجالات الفكر والثقافة، وتناول مختلف المواضيع تناولاً إيجابياً قائماً بذاته فلا يكون القصد مواجهة تحديات الفكر الغربي أو الفكر العلماني دفاعاً عن الإسلام فحسب، وإنما أيضاً باعتبارها جزءاً من عملية النهوض بالمشروع الإسلامي البديل، وإنزاله على أرض التطبيق الواقعي والممارسة العملية. ولهذا يمكن القول إن الفكر الإسلامي لم يستنفذ حتى الآن كل ما عنده، أو كل طاقته وإمكاناته في تناول هذه التحديات الآتية من النموذج الحضاري الغربي، فهو في حالة مخاض واعد، وتدفق لم ينضب. ويعج داخل بالإلحاح الشديد من أجل التعميق والتأصيل والتجديد، بل إيجاد سبيل تحقيق الأهداف الإسلامية.

ثالثاً: شبهات في مصطلح الحديث(١):

إن بعض الناس ممن لم يتمعن منهج المحدثين وأعمالهم العلمية القيمة تصور هذا

(١) الموسوعة الإسلامية المعاصرة، موضوع الشبهات، قرص مدمج.

المنهج النقدي تصوراً شائعاً يقلب حقيقته، ويغير الواقع تغييراً يدعو للنقد والاعتراض. وهو فيما يبدو ما وقع فيه كثير من المستشرقين الذين كتبوا عن هذا العلم، وإذا بهم ينتقدون عمل المحدثين ويطعنون فيه بمطاعن شاعت بينهم، وإن كان قد حمل رايتها أحد كبرائهم مثل جولد تسيهر المستشرق المجري اليهودي، الذي فاق غيره، حتى ((يعتبر الدارسون- أي من المستشرقين واتباعهم - ما توصل إليه في هذا الصدد نتائج حاسمة على وجه العموم، وكان حسبهم عند التعرض للقضايا الأساسية والتفصيلات الجزئية أن يحيلوا على نتائج جولد تسيهر)).

قرر ذلك فؤاد سيزكين في بحث كتابه الحديث من كتابة "تاريخ التراث العربي": ١: ١: ٢٢٥. والاستاذ سيزكين تلقى عن المستشرقين مدة طويلة وعرف أحوالهم واطلع على أبحاثهم... نقول هذا ونحن نحسن الظن، ولا نفترض أن ثمة في الصدور نزعة تنزع بأصحابها لتوجيه هذا الطعن، أو أية عوامل أخرى تدفع بعضهم إلى ذلك .

والحقيقة أننا ما كنا لنعير شبهات هؤلاء القوم اهتمامنا، ولا نوليهم إشارة أبداً لولا أننا وجدنا من بني جلدتنا أتباعاً ومنبهرين يعملون لنشر أفكارهم، ويرددون مقالاتهم.

بَيّن الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله أن قسماً كبيراً من المستشرقين يعمل في دوائر استخبارات ووزارات الخارجية للدول الأجنبية. انظر كتابة " السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي: "٢١-٢٨.

أ : تدوين الحديث وأثره في الفقه:

وهي شبهة شائعة حتى أصبحت كأنها مسلمة يلقيها بعض المتخصصين في الدراسات الفقهية على طلاب الجامعات يزعم أن تدوين الحديث تأخر عن تدوين الفقه وانتشار المذاهب الفقهية، وهو بزعمه الأمر الذي أدى إلى الخلاف بين الفقهاء، بل إن بعض من حمل هذه الفكرة من المتمجهدين قد زاد على ذلك وراح يبالغ إلى درجة توهم البعد بين بعض المذاهب الفقهية المعتمدة وبين السنة النبوية..!!

وهذه الشبهة من أصلها قول من أبعد النجعة عن الحقيقة، وعمد إلى المبالغة في

تضخيم الأثر المتوهم لتأخر تدوين الحديث المزعوم... والحقيقة التاريخية تثبت خلاف ما ادعاه هؤلاء، وذلك لما نقدمه فيما يلي:

١- إن حفظ الحديث قد توفر لدى الصحابة رضوان الله عليهم بأقوى ما يكون، وكان جماعة من الصحابة على إحاطة بجملة حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وقد وجد كل صقع وقطر من الأقطار من يؤدي بلاغ الحديث بجملته عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الصحابة ثم من التابعين وهكذا، ناهيك عن حفظهم للقرآن واعتنائهم بدرسه والتفقه فيه، وهو الأصل الأول في التشريع، فكانوا بذلك بغنى عن التدوين لما وعته صدورهم من العلم.

٢- ما سبق أن ذكرناه من تحقق التدوين منذ عهده - صلى الله عليه وسلم - ، وهو على كل حال يدل على أن الحديث حظى من التدوين والنشر بما لم يحظ به الفقه إلا بعد عهد.

٣- إن تدوين الفقه بدأ في ضمن تدوين الحديث، حيث جمعت المصنفات والموطآت الأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة والمقطوعة. فالحقيقة أن العكس هو الصواب، وهو أن تدوين الحديث سبق تدوين الفقه، وانتشار المذاهب.

٤- إن أسباب الخلاف بين الفقهاء ترجع في حقيقتها إلى أمور جوهرية أوسع وأبعد مدى بكثير جداً من غيبة حديث أو رواية عن الفقيه، ولو استقصينا المسائل التي وقع فيها الخلاف بسبب ذلك لكانت مسائل يسيرة من أبواب الفقه، كثير منها في الآداب والمستحبات، أما سائر المسائل الخلافية فيرجع الخلاف فيها إلى أسباب جوهرية أخرى تتصل بطبيعة تلك المسائل الاجتهادية التي من شأنها ومن سنة الله أن تختلف فيها الفقاهات والأفهام، سواء في ذلك قوانين الشريعة الإسلامية، والقوانين الوضعية، كما هو معلوم لمن ألم بأوضاع التطبيقات القانونية.

وقد وقع الخلاف في عهده - صلى الله عليه وسلم - بين الصحابة في نص واحد وجهه إليهم جميعهم يوم بني قريظة ولم يعنف - صلى الله عليه وسلم - أحداً من

الفريقين، وها هي ذي المصادر الإسلامية فيها الكثير مما يرويه الفقيه من حديث صحيح لا شك في صحته عنده ثم يخالف مادل عليه ظاهر الحديث لقيام دليل آخر عنده على خلافه، أو لأن له فهماً في النص غير الفهم الذي وقع لغيره، أو غير ذلك من الأسباب التي يطول شرحها، ((وموطأ مالك)) مثال ظاهر لذلك، فقد روى فيه أحاديث كثيرة، ولم يعمل بظاهرها.

هذا كله وغيره كثير من الوجوه تبطل ادعاء تأخر تدوين الحديث عن تدوين الفقه، وتبطل زعم أن ذلك التأخر كان منشأ تفرق المذاهب الإسلامية الفقهية.

ب: التدوين وأثره في صحة الحديث:

هذه دعوى اخترعها بعض غلاة المستشرقين من قديم، وأقام بناءها على وهم فاسد... يقول هذا الزعم: أن الحديث بقي مائتي سنة غير مكتوب، ثم بعد هذه المدة الطويلة قرر المحدثون جمع الحديث، وصاروا يأخذون عمن سمعوا الأحاديث، فصار هؤلاء يقول الواحد منهم: سمعت فلاناً يقول سمعت فلاناً عن النبي صلى الله عليه وسلم.

لكن لما أن الفتنة أدت إلى ظهور الانقسامات والفرق السياسية فقد قامت بعض الفرق بوضع أحاديث مزورة حتى تثبت أنها على حق.

وقد قام علماء السنة بدراسة أقسام الحديث ونوعوه إلى أقسام كثيرة جداً، وعلى هذا يصعب الحكم بأن هذا الحديث صحيح أو هذا الحديث موضوع... وقد سبق لنا في بحوث كتابة الحديث، وتأريخ الإسناد وشروط الرواة، التحقيق الذي يغني عن نقاش هذا الزعم، فنكتفي بهذه الخلاصات للرد عليه هنا:

١ - إن تدوين الحديث قد بدأ منذ العهد الأول في عصر النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وشمل قسماً كبيراً من الحديث... وننه هنا ما يجده المطالع للكتب المؤلفة في رواة الحديث من نصوص تاريخية مبثوثة في تراجم هؤلاء الرواة تثبت كتابتهم للحديث بصورة واسعة جداً تدل على انتشار التدوين وكثرته البالغة، حتى لقد يقع في ظن

الباحث أن الحديث قد دُوِّنَ جميعُه منذ عهده المبكر... ((انظر على سبيل المثال فؤاد سيزكين في " تاريخ التراث العربي: ١:١ : ٢٣١ وما بعد، وفيه نقول هامة وتتبع جيد... كما حدده أبو طالب المكي في قوت القلوب: ١ : ٣٥٠ وانظر تاريخ التراث العربي: ١: ٢٢٩)).

٢- إن تصنيف الحديث على الأبواب في المصنفات والجوامع مرحلة متطورة متقدمة كثيراً في كتابة الحديث، وقد تم ذلك قبل سنة ٢٠٠ للهجرة بكثير، بل أنه قد تم في أوائل القرن الثاني، بين سنة ١٢٠-١٣٠هـ(٢). بدليل الواقع الذي يحدثنا عن ذلك، فهناك جملة من هذه الكتب مات مصنفوها في منتصف المئة الثانية، مثل جامع معمر بن راشد (١٥٤) وجامع سفيان الثوري (١٦١) وهشام بن حسان (١٤٨) وابن جريج (١٥٠) وغيرها كثير...

وقد وجد العلماء بعض هذه الجوامع، ويجري الآن تحقيق جامع معمر بن راشد في الهند، ليكون إخراجه شاهد حق ودليل صدق على ما بيناه في هذه المسألة.

٣- إن علماء الحديث وضعوا شرطاً لقبول الحديث تكفل نقله عبر الأجيال بأمانة وضبط، حتى يُؤدَّى كما سُمِعَ من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما أوضحنا من شروط الراوي التي توفر فيه غاية الصدق لما اجتمع فيه من الدوافع الدينية والاجتماعية والنفسية، مع الإدراك التام لتصرفاته وتحمل المسؤلية، كما أنها توفر فيه قوة الحفظ والضبط بصدره أو بكتابه أو بهما معاً مما يمكنه من استحضار الحديث وأدائه كما سمعه. وكما أوضحناه من شروط الصحيح والحسن التي تكفل ثقة الرواة ثم سلامة تناقل الحديث بين حلقات الإسناد وسلامته من القوادح الخفية. ثم بيناه من دقة تطبيق المحدثين لهذه الشروط في الحكم على الحديث بالضعف لمجرد فقد الدليل على صحته، من غير أن ينتظروا قيام دليل مضاد له.

٤- إن علماء الحديث لم يكتفوا بهذا، بل تنبهوا إلى عوامل في الرواية المكتوبة لم يتنبه إليها هؤلاء المتطفلون بالاقتراح عليهم، فقد اشترط المحدثون في الرواية المكتوبة شروط الحديث الصحيح، لذلك نجد على مخطوطات الحديث تسلسل سند الكتاب من

راو إلى آخر حتى يبلغ مؤلفه، ونجد عليها إثبات السماعات وخط المؤلف أو الشيخ المسمع الذي يروي النسخة عن نسخة المؤلف أو عن فرعها.. فكان منهج المحدثين بذلك أقوى وأحكم، وأعظم حيطة من أي منهج في تمحيص الروايات، والمستندات المكتوبة.

٥- إن البحث عن الإسناد لم ينتظر مئتي سنة كما وقع في كلام الزاعم، بل فتش الصحابة عن الإسناد منذ العهد الأول حين وقعت الفتنة سنة ٣٥ هجرية، لصيانة الحديث من الدس.. وقد ضرب المسلمون للعالم المثل الفريد في التفتيش عن الأسانيد، حيث رحلوا إلى شتى الآفاق بحثاً عنها، واختباراً لرواة الحديث، حتى اعتبرت الرحلة شرطاً أساسياً لتكوين المحدث.

٦- أن المسلمين كما تبين مما سبق. لم يغفلوا عما اقترفه الوضّاعون وأهل البدع والمذاهب السياسية من الاختلاق في الحديث، بل بادروا لمحاربة ذلك باتباع الوسائل العلمية الكافلة لصيانة السنة في قيود رواية المبتدع، ولبيان أسباب الوضع وعلامات الحديث الموضوع.

٧- إن هذا التنوع الكثير للحديث ليس بسبب أحواله من حيث القبول أو الرد فقط، بل إنه يتناول إضافة إلى ذلك أبحاث رواته وأسانيده ومتونه، وهو دليل على عمق نظر المحدثين ودقة بحثهم، فكان على هذا القائل أن يسلم لهم، كما أننا نستدل على دقة العلم وإحكام أهله له بتقاسيمه وتنويعاته. بل لا يُعد علماً ما ليس فيه تقسيم أقسام وتنويع أنواع؟!!

٨- إن علماء الحديث قد أفردوا لكل نوع من الحديث وعلومه كتباً تجمع أفراد هذا النوع من أحاديث، أو أسانيد أو رجال، فلا يصلح بعد هذا أن يقول قائل: كيف نعرف هذا الحديث أنه صحيح من بين تلك الأنواع.

ونحن نقول له: كذلك وقع التنوع في كل علم وكل فن، فلو قال إنسان: كيف نحكم على هذا المرض بأنه كذا وأنواع الأمراض تعد بالمئات، وكيف نبين هذا المركب الكيميائي

مـن بـين المـركبات التـي تعـد بـالآلاف لأحلـناه على الخبراء المتخصصين ليأخذ منهم الجواب الشافي، والحل المقنع.

فكـما يـرجع في الطـب غـلى الأطـباء، وفي الهندسـة إلى المهندسـين وفي الكيمياء غلى علمائهـا، والـصيدلة غـلى أصـحابها... كـذلك فارجـع في الحـديث عـلى علـماء الـشرع المتخصصين في هذا العلم لأخذ البيان الجلي المدعم بالأدلة القاطعة عن كل حديث تريده وتود معرفة حاله.

جـ : المصطلح بين الشكل وبين المضمون:

يقـول المستشرقون: ((.. إن وجهات النظر التي تبناها النقد الإسلامي للسنة لم يكن بإمكانهـا أن تـساهم في تـشذيب المـادة المحـترمة للأحاديث من الزيادات التي هي أكثر ظهـوراً إلا في مقـياس محـدود، ففـي الـنقد الإسـلامي للـسنة تهيمن النزعة الشكلية في القاعـدة التـي انطلـق مـنها هذا العلم... والعوامل الشكلية هي بصورة خاصة العوامل الحاسـمية للحكـم عـلى اسـتقامة وأصـالة الحـديث، أو كما يقول المسلمون: على صحة الحديث، وتختبر الأحاديث بحسب شكلها الخارجي فقط. ثم إن الحكم الذي يمس قيمة مـضمونها يتعلق بالقرار الذي يعطونه حول تصحيح سلسلة الرواة. عندما ينتصر إسناد في امـتحان هذا النقد الشكلي ويكون قد نقل به فكرة مستحيله ملوثة بتناقضات خارجية وداخلـية وعـندما يقـدم هـذا الإسـناد سلـسلة غير منقطعة لشيوخ جديرين بالثقة تماماً وعـندما يـبرهن على أن هؤلاء الأشخاص كان في إمكانهم أن يكونوا على صلة فيما بينهم فـإن الحـديث يعتـبر عـند ذلك صحيحاً، ولا يبادرن أحد لأن يقول: بما أن المتن يتضمن استحالة منطقية أو تاريخية فإني أشك في أن يكون الإسناد منتظماً)).

هـذا أخطـر إشـكالات المستـشرقين وأشـهرها، وإن كـان أشدها ضعفاً وأوضحها سـقوطاً، لكـنهم عـنوا بتـسديده نحـو قواعد المصطلح ليظهروا هذا العلم بمظهر العلم الناقص الذي يرى شيئاً شكلياً هو ما أسموه " النقد الخارجي " أي نقد السند، على حين أنـه يعـشو بـصره عن أشياء خطيرة في النقد، حيث إنه بزعمهم لا يعتني بنقد المتن الذي

يسمونه "النقد الداخلي"، وقد سرت العدوى بهذا الظن الخاطىء إلى بعض كتابنا ومفكرينا مثل الدكتور أحمد أمين في كتاب "ضحى الإسلام" :٢: ١٣٠ و ١٣١. والدكتور أحمد عبد المنعم البهي في مقاله المنشور في مجلة العربي الكويتية عدد / ٨٩/ ص ١٣.. فقد قرر الدكتوران هذا الطعن في الحديث، بدافع من التقليد للمستشرقين وحب التظاهر على الناس بمعرفة شيء خفي بزعمهم عن الأئمة الكبار، من حيث إن هؤلاء المقلدة هم ومتبوعوهم ليسوا من علم المحدثين في ذلك المكان، ومثَل الدكتورين في مقاليهما كمثل تلميذ يتلقف ما يسمعه ثم يردده دون أن يدرك ما فيهِ من عظيم البهتان... ومن الدليل على ما قلناه:

١- إن الدكتور أحمد أمين ذكر أنهم قسموا الحديث بحسب النقد الخارجي إلى صحيح وحسن وضعيف وشاذ.. الخ. والحقيقة التي نعرفها منذ حداثة عهدنا بعلم الحديث أنهم قسموا الحديث بحسب النقد الداخلي والخارجي إلى الأقسام التي ذكرها، لا بحسب النقد الخارجي فقط.

بيان ذلك أنك تجد من شرط الحديث الصحيح والحسن أن لا يكون شاذاً ولا معلا، ثم نقرأ كلام القوم وإذا بهم يقسمون الشذوذ إلى شذوذ في المتن وشذوذ في السند، كذلك يقولون: إن العلة قد تكون في المتن كما قد تكون في السند، فلو كان ناقد المحدثين اطلع على مؤلف يسير في علم الحديث أكان يجترىء على أن يقول ما قال، بل إنا نكتفي منه أن ينظر نظرة في تعريف علوم الحديث إذاً لوجده علماً يبحث في أموال السند والمتن، لكنه سقط فيما عابه بزعمه على المحدثين بسبب تقليده للمستشرقين حيث إنه لم يتثبت ولم يعتبر ظروف المستشرقين التي هي أكبر دافع يدفع لاختلاق المطاعن، فحق عليه المثل " رمتني بدائها وانسلت".

٢- إن المحدثين قد احتاطوا من النظرة الشكلية حيث قرروا قاعدة اتفقوا عليها وهي أنه لا تلازم بين صحة السند وصحة المتن، وبالعكس أيضاً فإنه لا تلازم بين ضعيف السند وضعف المتن، وهذا واضح في قواعد هذا العلم مُسَلَّم به لا يحتاج إلى الاستكثار من النقول والتطويل بها وهو يدل بما لا يدع مجالاً للشك على أن

المحدثـين الـنقاد قد احتاطوا لكل احتمال وأعدوا له العدة والعدة العلمية في منهج موضوعي متعمق بعيد كل البعد عن الشكلية والانخداع بالمظاهر .

٣- إن النقد الداخلي كان أول علوم الحديث وجوداً حين كان الناس على العدالة، وذلك في عـصر الـصحابة والعجيب أن الدكتور أحمد البهي قال في آخر مقالته التي أومأنا إلـيها: " وقـد ذكر العلماء وجوهاً في رد المتن على معناه مع صحة السند.. "، ومثّل لـذلك بقـصة فاطمة بنت قيس، وقصة علي بن أبي طالب حين رد حديث معقل بن سـنان في مهـر من مات عنها زوجها ولم يدخل بها ولم يسم لها مهراً فقال علي رضي الله عـنه: " لا نـدع كـتاب ربـنا لقـول أعـرابي بوّال على عقبيه. الأمر الذي يبين أن الكاتـب غلـب علـيه التقليد فجاءت مقالته متناقضة ينسف آخرها أولها!!، وتثبت هـي نفـسها أن الـنقد الـداخلي قد عنى به المحدثون منذ قديم العهد برواية حديث النبـي - صـلى الله علـيه وسـلم - . بـل إنـا نجد أن نقد المتن يؤدي إلى الحكم على الحديث بأشد الأحكام وهو الوضع، حيث قرروا أن الوضع قد يعرف من النظر في المروي. كما سبق أن أوضحنا.

٤- إن فكـرة الاعـتماد عـلى النظـر في المـتن وحده ليست من اختراع المستشرقين، بل إن تجـربتها قـد سـبقت في تاريخ المسلمين القديم على أيدي أناس جعلوا الرأي وحده يـتحكم في المـتون سـلباً وإيجابـاً نفياً وإثباتاً، وقد أسفرت التجربة عن أسوأ النتائج وأغرب التناقضات.

لقـد استحسن بعض المتزهدين الجهلة وضع الحديث في الترغيب والترهيب وقالوا: " نحـن نكـذب لـه "، والوعـيد إنما جاء لمن "كذب عليّ"، فجعلوا هذا العبث في النص الصريح ذريعة للاختلاق على النبي صلى الله عليه وسلم، وكأنهم جهلوا أن فعل "كذب عليه" معناه ألصق به ما لم يقله، سواء أكان له أم طاعناً فيه، وهكذا أدى التصور الخاطىء بهـذه الطائفـة إلى أن تتـصور أن كـل كـلام صـحيح فإنـه قاله رسول الله -صلى الله عليه وسـلم- فصاروا يسندون ما يشاؤون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منه ومنهم براء.

وفي الطـرف المقابـل نهض أناس لرفض المتون الصحيحة لمجرد بعدها عن خيالاتهم

ومألـوفاتهم، كما فعل بعض المبتدعة من المعتزلة وغيرهم، وإذا بهم يبلغون من الأسفاف مـبلغاً عظـيماً، حيث راحوا يحتكمون إلى المشاهدات المادية المعتادة يقيسون عليها ما ورد مـن النـصوص في عـوالم مغيـبة غـير مادية، كالأحاديث في الملائكة أو الجن ينكرونها أو يـتأولونها تـأويلات هـزيلة، حتـى خرجوا بذلك عن نصوص الإسلام القطعية، بل عن الأديـان الـسماوية، فلـو رام أحدهم أن ينتقل إلى النصرانية لما وجد له فيها متنقلاً، أو إلى الـيهودية لم يجـد متـسعاً... وهذا كله يثبت أبلغ إثبات أن نقد المتون ليس له بمفرده تلك الجـدوى إلا إذا كـان في ضـمن الإطار العام لنظرية النقد الشامل الذي سلكه المحدثون وانتهوه.

٥- إن الـنقد الخارجـي للأحاديـث أي نقد الأسانيد الذي عابه العآئبون وسموه شكلياً يتـصل اتـصالاً وثـيقاً بالـنقد الداخلي أي نقد المتون، لأن إثبات ثقة الرواة وكونهم جديـرين بالـثقة هذا الذي استخف به تسيهر وأشياعه عملاً شكلياً سطحياً، بل إنه مرتبط بالمتن ارتباطاً قوياً، وذلك لأن توثيق الراوي لا يثبت بمجرد عدالته وصدقه بـل لا بـد مـن اختـيار مرويات بعرضها على روايات الثقات، فان وجدنا رواياتهم مـوافقة ولـو مـن حـيث المعنـى لرواياتهم أو موافقة لها في الأغلب والمخالفة نادرة عـرفنا حينـئذ كونه ضابطاً ثبتا... وهذه كتب الجرح والتعديل ملأى بالجرح لرواية المناكير والأباطيل نسوق أمثلة لذلك من كتاب المغني في الضعفاء للإمام الذهبي:

إبـراهيم بـن زكـريا الواسـطي. قـال ابـن عدي: حدث بالبواطيل. وقال أبو حاتم: حديثه منكر.

إبـراهيم بن زياد القرشي، عن خُصَيْفٍ، وعنه محمد بن بكار الريان بخبر منكر جداً، ولا يدري من هو؟

إبـراهيم بـن زيـد الأسلمي، عن مالك، وهاه ابن حبان والدارقطني، وله عن مالك خبر كذب.

إبراهيم بن سالم النيسابوري. قال ابن عدي: له مناكير.

إبراهيم بن سعيد المديني، منكر الحديث، ولا يكاد يعرف.

إبراهيم بن سَلْمٍ، قال ابن عدي: منكر الحديث لا يعرف.

فهذه ست تراجم اخترناها من عشرة فقط من كتاب مختصر جداً في نقد الرواة يأتي جرحهم بنقد مروياتهم. وذلك يوضح قوة ارتباط نقد السند بالمتن وعلاقته بمرويات الرواة علاقة وشيجة لا يصح أن يدور حولها جدال.

٦- إن ظهور الفِرَق دعا علماء الأمة إلى تحري أحوال الرواة ودراستها من كافة الوجوه، ولا سيما بيئة الراوي ومذهبه، حتى إنهم لم يقبلوا رواية من يدعو لبدعة ولو كان الحديث الذي يرويه غير متعلق ببدعته، فقد كانوا في الاحتياط أبلغ مما يريده المتطفلون عليم.

وأننا ندعو الناقدين كلهم أن يأتوا بحديث من كتب السنة الأصول يدل على وضعه ما ذكروه من عامل سياسي كدعم بني أمية أو غيرهم، أو عامل بيئة أو غير ذلك.

اللهم إلا يكون بعض هؤلاء الوالغين في علم المحدثين قد اطلع على بعض تلك الأحاديث في كتاب "الآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة" للإمام السيوطي، أو في كتاب "تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة" للحافظ أبي الحسن بن عراق فحسب بها أوتي من السعة في علم الحديث أن هذه الكتب هي مصادر نقل السنة النبوية؟! فحق له أن يقول ما شاء له القول..!!

وحق للعقلاء المنصفين أن يقروا بحقيقة الجهود العظيمة والوسائل العلمية الدقيقة التي اتبعها المحدثون في خدمة الحديث.

د: منهج المحدثين في حقل تطبيقه:

يقول تسيهر ومن يقلده: ((والناقد المسلم يبقى بارداً أمام المناقضات للتاريخ وللعرف الاجتماعي ذات النوع الأكثر عامية (يعني أنها مسفة جداً) بشرط واحد هو أن يكون الإسناد بحسب القاعدة. والامتياز النبوي لمحمد هو وسيلة للتغلب على مثل هذه المشكلات)).

((ونوضح هذه الخصوصية لنقد الحديث عند المسلمين بذكر مثال مأخوذ من حقل

تطبيقه نفسه، فيوجد بين الفئات العديدة من الأحاديث المغرضة فئة نستطيع أن نسميها فئة ((أحاديث المذهب))، وهذه الأحاديث هي الأحاديث المختلقة في داخل نزعة مذهب علمي التي يقصد بها البرهنة على تفوق هذا المذهب في مقابل نزعة منافسة وأن يخلع شيئاً من الثقل والقوة على آرائها المذهبية. ولم تنتحل الأحاديث المغرضة بعدد كبير ضد البدع الاعتقادية فقط، بل إن الواضعين كانوا يدخلون النبي نفسه كحكم أعلى في الخلاف الذي يفصل بين علماء العراق وعلماء الحجاز، فللبرهنة على أن أبا حنيفة هو أفضل فقيه من فقهاء الشريعة الدينية اخترع تلامذته الحديث التالي: ((يكون في أمتي يوماً رجل يقال له أبو حنيفة وسيكون سراج الأمة)). وقد وجب أن يكون أبو هريرة الصحابي هو الصحابي الذي قد سمع هذا الحديث بشكل مباشر من فم النبي، ولم يجهدوا مطلقاً في أن يجعلوا الناس يصدقون بأن النبي قد ذكر فعلاً اسم العالم العراقي)).

انتهت الترجمة الحرفية لما قاله بورشيه مستخلصاً عن جولد تسيهر أستاذ المستشرقين المتحاملين على الإسلام.

وقد كنت أتساءل عن المنهج الذي يريد هؤلاء الناس أن نأخذه عنهم كي نحسن نقد الروايات حتى عثرت عليه ظاهراً جلياً في مناقشاتهم لأهل الحديث، وظهر أوضح ما يكون في هذه الكلمة التي يتحدث فيها عن مثال تطبيقي من علم الحديث، فإذا منهجهم المنتظر منهج متهافت يقوم على التسرع في الحكم والمجازفة، بعيداً عن التحقيق والروية، حتى لقد أصاب هؤلاء الناقدون من أنفسهم المقاتل بطعنهم المفتعل في منهج المحدثين وتطبيقهم لقواعد الحديث.

١ - إن المحدثين قد ذكروا أن من دلائل الوضع في الحديث مخالفة للوقائع الحسية المشاهدة، أو للتاريخ، وذلك أمر مفروغ منه في كتب المصطلح، مطبق على أوسع نطاق في نقد الأحاديث كما يشاهد في كتب الأحاديث الموضوعة.

وهذه واقعة لطيفة لها دلالتها الهامة جرت مع الحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي سنة ٤٤٧، قال الذهبي في تذكرة الحفاظ: ((أظهر بعض اليهود كتاباً باسقاط النبي - صلى الله عليه وسلم - الجزية عن الخيابرة -يعني يهود خيبر-، وفيه شهادة الصحابة، فعرضه

الوزير على أبي بكر؟ فقال: هذا مزَوَّر قيل: من أين قلت هذا؟، قال: ((فيه شهادة معاوية وهـو أسلم عام الفتح بعد خيبر، وفيه شهادة سعد بن معاذ، ومات قبل خيبر بسنتين)). فاستحسن الوزير ذلك منه ولم يقبل منهم ما في هذا الكتاب[١].

فهـذا الناقد المسلم لا يتردد لحظة ولا يتوقف عن الحكم ببطلان الوثيقة المزورة التي أسـندها النبـي – صـلى الله علـيه وسلم – أساتذة الإفك في العالم، وها نحن نجعل هذه التجـربة التـي خاضـها أجـداد تـسيهر من قبلُ هديةً إليه تعبيراً عن الموقف البارد الذي يـزعمه في حـق الـنقاد المـسلمين. ولا نـدري إذا كـان تسيهر وأمثاله لا يزالون بعد هذا يقولـون: ((الـناقد المـسلم يبقى بارداً أمام المناقضات للتاريخ وللعرف الاجتماعية ذات الـنوع الأكثر عامية)). إذن فما الذي يمكن أن يعتبر موقفاً حامياً إلا ما يجب أن يراه على أيـدي أحفـاد الـبخاري ومـسلم، وابـن الـصلاح والـنووي، والعراقي والعسقلاني، في الأرض المقدسة، ولن يكون ذلك بعيداً بإذن الله تعالى.

٢– زعم أن الامتياز النبوي أي ادعاء كون الخبر المغيب أو الخارق للعادة معجزة للنبي – صلى الله عليه وسلم – وسيلة للتغلب على التناقضات التاريخية في الأحاديث.

وهذا القول منه غاية في المكابرة والبعد عن الحق، حيث أحال المعجزات وإنباء النبي – صلى الله عليه وسلم – عن الغيب إلى اختلاق الرواة عوضاً من أن يجعله هذا الإعجاز يعـيد النظر في موقفه، كما فعل بعض المستشرقين حيث اعتنق الإسلام حين انزاحت عن بصائرهم غشاوة التعصب.

والحقـيقة أن أنـباء الغـيب المـنقولة عـن النبـي – صـلى الله عليه وسلم – بالأسانيد الـصحيحة الثابـتة كثـيرة تفـوق درجـة التواتـر في جملـتها، ويبلغ عدد كثير منها التواتر بمفـرده، كالأحاديث الواردة في ظهور المسيح الدجال اليهودي وفي نزول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام مما لا يسع أحداً إنكاره إلا أن ينكر عقله وحسه.

(١) التذكـرة: ١١٤١، انظـر طـبقات الـشافعية الكـبرى: ٤: ٣٥، والإعـلان بالتوبـيخ للـسخاوي: ١٠، والخطيب البغدادي للدكتور يوسف العش: ٢٣٥.

وإذا كانت أنباء الغيب لا تقبل في زعم تسيهر فلا ندري لماذا يتعب نفسه في الطعن على الإسلام واصطناع البحث العلمي من أجل ذلك هو إنما يفعل ذلك لتشكيك المسلمين وتشتيتهم تمهيداً لتحقيق النبوءة المزعومة عن أرض الميعاد!!

على أن المسلمين لم يتلقوا أحاديث الخوارق وأنباء الغيب جزافا من غير تمييز، بل محصوها وفحصوها فحصاً دقيقاً ميزوا به الصواب من الخطأ والصدق من الكذب، وها هي ذي الأحاديث الكثيرة في ذم الأمويين وفي مدحهم وفي التنبؤ ببعض الوقائع لهم تملأ بطون الكتب الخاصة بالأحاديث الموضوعة والتحذير منها، وها هي ذي أيضاً الأحاديث الساقطة في فضل العباس وفي التنبؤ بدولة العباسيين والأحاديث فيهم مدحاً أو غير ذلك قد جمعت في كتب الموضاعات والضعيفات التالفة للتحذير منها.

أرأيت لو كان المحدثون يودون إثبات المعجزات ولو بالتلفيق أفما كانوا يختارون من هذه الأحاديث ما فيه إنباء عن واقع مجرد بعيد عن المدح أو الذم على الأقل؟! فما لنا لا نجد لهذه الروايات ظلاً في كتب السنة المعتمدة؟! ولماذا نجد كتب الموضوعات تحذر من جملة كبيرة من أحاديث المعجزات والخوارق...؟!

٣- إن الحديث الذي أورده على " أنه مأخوذ من حقل تطبيق هذا العلم نفسه " لهو نفسه برهان عظيم يثبت دقة نظر المحدثين، فإنهم قد وسموا بالكذب رواية مأمون بن أحمد السلمي الهروي منذ الأيام التي ظهر فيها وطلع على الناس بهذا الحديث ونحوه، وكان منهم آنذاك عَصْرِيُّه الإمام أبو حاتم بن حبان البستي رحمه الله، كما نقل عنه الإمام الذهبي في ميزان الاعتدال.

وقد كنت فيما خلا من الزمن أتساءل عن هؤلاء الناقدين أن يكونوا اطلعوا في كتب الأحاديث الموضوعة والتالفة على بعض تلك الأحاديث التي يتذرعون بها فحسبوا بما أوتوا من السعة في علم الحديث أن هذه الكتب هي مصادر السنة النبوية؟! فقد- والله- وجدت ذلك واقعاً بهم أفحش وضع وأبينه سقوطاً حيث مخرقوا على العالم بحديث موضوع كذبه المحدثون ونفوه منذ اللحظة الأولى لصدوره من آفكه!

٤- قوله: "ولم يجهدوا مطلقاً في أن يجعلوا الناس يصدقون بأن النبي قد ذكر فعلاً اسم العالم العراقي ".

هـذا قـول مـناقض للحقـيقة وللواقـع تمامـاً، حـيث إن هذا الحديث قد استُنْكِر هو وأضرابه غاية الاستنكار من قبل العلماء كلهم ومن قبل العامة على حد سواء، حتى سقط رواية نفسه ولم يعد يسمع منه أحد، وقد قال الحاكم في المدخل بعد أن أورد هذا الحديث: " ومـثل هذه الأحاديث يشهد من رزقه الله أدنى معرفة بأنها موضوعه على رسول الله - صلى الله عليه وسلم- " .

فهـل يـصدق بعـد هذا من زعم أن الناس تلقوا الحديث بالقبول حتى إن الواضعين بـزعمه الفاسـد ورأيـه الكاسد " لم يجهدوا مطلقاً في أن يجعلوا الناس يصدقونه " ، أو أن الواقـع هـو عكـس ذلك وأن الأمة جميعها قد رفضت هذا الحديث رفضاً باتاً قاطعاً منذ الوهلة الأولى لصدوره عن مزوره كما رفضت سائر الأكاذيب وتبرأت منها.

٥- إن هـذا الحـديث من أشهر الأحاديث الموضوعة، لكثرة ما نبه عليه العلماء في مختلف العـصور في تـصانيفهم الحديثـية المـشتهرة المـتداولة بـين الخاصة والعامة من كتب الموضوعات وكتب مصطلح الحديث وكتب الرجال:

- ذكره ابن حِبَان (٣٥٤هـ) في كتابه الضعفاء وحذر منه كما ذكر الذهبي في الميزان.
- وذكره الحاكم (٤٠٥هـ) في المدخل إلى كتاب الإكليل.
- وذكره محمد بن طاهر المقدسي (٥٠٧هـ) في تذكرة الموضوعات: ١٤٤.
- وذكـره الإمام عبد الرحمن بن الجوزي (٥٩٧هـ) في الموضوعات الكبرى:٢: ٤٧ -٤٩ .. وقال: " حديث موضوع لعن الله واضعه " ...
- والذهبي (٧٤٨هـ) في ميزان الاعتدال.
- والحافظ ابن حجر (٨٥٢هـ) في لسان الميزان ج٥ ص ٨.
- والسخاوي (٩٠٢هـ) في فتح المغيث: ١١٤.
- والسيوطي (٩١١هـ) في تدريب الراوي : ١٨١، والآلىء المصنوعة: ١: ٤٥٧.
- والحافظ ابن عراق (٩٦٣هـ) في تنزيه الشريعة : ٢: ٣٠.
- والـشيخ عـلي القـاري في شرح النخـبة: ١٢٨، والموضعات الكبرى: ٧٦، وقال: " موضوع باتفاق المحدثين " .

- والشوكاني في الفوائد المجموعة: ٤٢٠.
- والأبياري في حاشيته نيل الأماني: ٥٣.
- والعلامة حسين خاطر في لقط الدرر: ٧٣.

هذه خمسة عشر مرجعاً في أعصر متتالية منذ عصر الراوي الوضاع حتى عصرنا هذا، وفي حقول الحديث المتنوعة: حقل القواعد كالمدخل وتدريب الرواي، وحقل التطبيق الذي زعم الطاعن أنه يرجع إليه كالميزان وغيره من كتب الرجال، وكتب الموضوعات مثل كتاب ابن الجوزي والسيوطي وابن عراق، كل المصادر في شتى الحقول توضح كذب هذا الحديث وتفضح إفكه، وهي كلها بحمد الله مشهورة معروفة متداولة، ثم يأتي بعد ذلك من يزعم أنه يدين المحدثين من حقل تطبيقهم بأنهم يسيرون الأحاديث الموضوعات أو أنها تنطلي عليهم، على حين أنهم سيروا في الناس وأذاعوا في كل عصر ومصر في كل زمان ومكان التحذير من الأحاديث الموضوعة والتنبيه عليها بما في ذلك هذا الحديث نفسه الذي استشهد به الطاعن، حيث توالي المحدثون على التحذير منه في المصنفات المشهورة المتداولة على مر العصور وكر الدهور. فهل لمنصف بعد ذلك أن يقبل شيئاً من أمثال هذا المستشرق، أو يعول على دعواهم التجرد والموضوعية..؟!

رابعاً: مآخذ على المستشرقين(١):

لقد أسفرت المناقشة العلمية الموضوعية لمن انتقد المحدثين عن فشلهم في مطاعنهم التي وجهت إلى منهج المحدثين النقدي، بل إنها زادته قوة وثباتاً، على حين كشفت أهداف الطاعنين وزيف بهارجهم المصطنعة،وكشفت اختلال منهجهم العلمي من وجوه كثيرة نلخص منها ها هنا:

١- وضع النصوص في غير موضعها، وتحميلها مالا تطيقه ألفاظها ولا يستمد من معانيها.

٢- اعتمادهم على نصوص مفردة متقطعة عما ورد في موضوعها مما يوضح المراد منها

(١) الموسوعة الإسلامية المعاصرة، موضوع الشبهات، قرص مدمج.

ويبينه، وذلك كثير في أبحاثهم. ومنه استدلال تسيهر على أن تصنيف الحديث تأخر إلى القرن الثالث بما ورد عن الإمام أحمد أنه قال في سعيد بن أبي عَرُوبَة (١٥٦هـ): ((هـو أول من صنف الأبواب بالبصرة... لم يكن له كتاب إنما كان يحفظ " فاستدل بقوله: "لم يكن له كتاب" على أنه لم يؤلف كتاباً)). مع أن المحدثين يستعملون هذا في الدلالـة عـلى أن المحـدث حـافظ متـين الحفـظ لا يعـتمد على الكتاب في روايته للحـديث. وهذا لا يدل على أن المحدث لم يصنف كتاباً من محفوظاته، وهو يصرح في أول كلمـته بأنـه صـنف، والـشواهد عـلى ذلـك كثـيرة في ترجمة سعيد من كتب الرجال.

٣- أنهـم يعولـون على مصادر ليست في مستوى البحث العلمي، مثل كتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصبهاني، وهو ليس كتاباً علمياً، ولا كتاب حديث، إنما يعتمد عليه في الأدب والفكاهـات، ثم هو صاحب بدعة تحمله على الطعن في أئمة الإسلام، ومع ذلـك فلـم يـبال ناقـد مـنهج المحدثين أن يستشهد به في الحط من قدر إمام جليل، كالإمام مالك بن أنس.

٤- أنهـم يـوردون مقـدمات جـزئية ضـعيفة ثـم يبنون عليها نتائج ضخمة فضفاضة لا تناسـب تلـك المقـدمات ولا تنتج منها... ونتخذ هنا حديث الهروي المختلق في ذم الشافعي ومدح أبي حنيفة مثالاً لذلك.

هـذا الحـديث زعـم الناقد أنه درج في الناس وغفل المحدثون عنه، بينما هو أشهر في بـيان وضـعه مـن نـار على عَلم. ولو فرضنا أن باحثاً وجد حديثاً ضعيفاً جاز على بعض المحدثـين فهـل يـدل ذلـك على فضل منهج النقد من أساسه؟ كلا! فإن القانون كثيراً ما يكـون سـلبياً ثم تأتي الآفة من تصرف بعض العاملين به أو من ذهوله. فهذا لو تحقق إنما يكـون سهواً من المحدث الذي جاز عليه الحديث، وأي علم في الدنيا لم يتعرض عالم من علمائـه للـنقد في بعـض بحـثه، ثم لم يكن ذلك مسقطاً لذلك العلم ولا لذلك العالم ولا لذلك العالم، إلا إذا كثر منه ذلك فإنه تكون أخطاؤه محسوبة عليه تضعف الثقة به، ويبقى بنيان العلم شامخاً.

٥- إغفـال الحقائـق التي تخالف استنتاجاتهم وتبطلها. ومن ذلك أن جولد تسيهر حكم بالوضـع عـلى الـرواية الـصحيحة: " أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى ابن حزم أن يدون حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " .

قال تسيهر: ((إن هذا الخبر بعينه فيه نظر، فلم يرو عن مالك إلا في رواية واحدة من روايات الموطأ هي رواية الشيباني، وقد تلقف هذا الخبر الواحد علماء الحديث المتأخرون فكـان منطلقاً لهم، وروَّجوا له، وهذا الخبر ليس إلا تعبيراً عن الرأي الحسن السائد حول الخليفة الورع وحبه للسنة))[١]... وقال الأستاذ فؤاد سيزكين يتعقب ذلك[٢]:

((ولكـن لا يجوز لنا أن نبادر فنزعم أن هذا الخبر الذي ورد في الموطأ برواية الشيباني تلمـيذ مالـك لا يعكس إلا حسن رأي المتأخرين [في عمر]، فليست كل روايات الموطأ بـين أيديـنا فـنحكم بعدم ورود هذا الخبر إلا في رواية واحدة، وفوق هذا فجولد تسيهر يعلـم أن هـذا الخـبر وارد كـذلك في سـنن الدارمـي هـذا وقـد ذكـره كل من ابن سعد والبخاري!!)) . اهـ.

عـلى أنـه لـو سـلم لتسيهر دعواه أن التفرد بالشيء يبطله فإنه يؤدي إلى بطلان أمور كثـيرة أتى بها في كتبه وأبحاثه هي لباب مقاصده فيها، فهل يقبل أن ينسحب حكمه هذا عليه؟!

٦- يقـول الأسـتاذ فـؤاد سيزكين: " هذا ونرى لزاماً علينا أن نتنبه إلى أن جولد تسيهر لم يـدرس كـتب علـم أصـول الحديث دراسة شاملة رغم أنه عرف قسماً منها كان ما يزال مخطوطاً في ذلك الوقت. وفوق هذا فيبدو لنا أنه لم ينظر رغم كثرة مصادره إلى بعض المعلومات في سياقها وفي ضوء ظروفها، ويبدو لنا كذلك أنه لم يصب في فهم المواضـع التـي قـد تعطـي لأول وهلـة دلالـة تختلف عـن معـناه الحقيقي اختلافاً أساسـياً[٣]... ويقـول سيزكين أيضاً: "أن جولد تسيهر على تضلعه في اللغة العربية

(١) جولد تسيهر. GOLDZIHEL, MUP, STUD، ٢١١.

(٢) في كتاب تاريخ التراث العربي:١ : ١: ٢٢٦.

(٣) المرجع السابق.

قـد أساء فهم بعض المعلومات الواردة في كتب الحديث وضرب بهذا منذ البداية في اتجاه خاطىء " [١].

ونحـن لا نتعـرض لواقـع الخطـأ في فهـم النصوص أو في الأخذ المقتطع للنص عما يكملـه أو الـنقل المحـرف، ولا نود الخوض في أسباب ذلك ودوافعه، لكن نجد أنه لزام علينـا إزاء ذلـك أن نـصرح بأن هذا الواقع يجعلنا عاجزين عجزاً تاماً كاملاً عن الاعتماد على شيء من نظريات المستشرقين وأبحاثهم هم وأتباعهم الذين يعتمدون عليهم.

خامساً: نتائج [٢]:

ونسجل في النهاية هذه النتائج العامة في هذا العلم العظيم:

١- أهمـية الهـدف الجلـيل الذي نشأ من أجله علم مصطلح الحديث، أو علوم الحديث، وهو صيانة الحديث النبوي الذي هو أعظم المصادر الإسلامية بعد كتاب الله.

٢- إن الأمـة الإسـلامية قـد عُنِيَت بتحقيق هذا الهدف منذ أول عهدها بالرواية، وأهم قوانين الرواية التي اتبعوها.

٣- إن القـواعد العلـوم الحديث، قواعد نقد شاملة تدرس جوانب الحديث كلها دراسة تامة دقيقة، وإن كانت في مصادر هذا العلم مفرقة فيما يبدو.

٤- إن قـواعد علـوم الحديث ترتبط في مجموعها برباط وحدة الهدف ارتباطاً يشكل منها نظـرية نقديـة ومـنهجاً علمـياً كـاملاً، يقـوم على أساس بَدَهي مُسلَّم به تتفرع عنه أصول البحث النقدي.

وإذا كـان السابقون لم يقوموا بمثل تلك الصياغة في تآليفهم فإن تعليقاتهم على فوائد كـل نـوع مـن هـذا العلـم وعـلى قواعده التي أوضحناها في مواطنها توضح تعلقهم بها ووضـوح أساسـها لـديهم، وقـد جـاء كتابـنا هـذا يعبر عن هذا المنهج النقدي المتكامل

(١) المرجع السابق: ٢٢٥.

(٢) الموسوعة الإسلامية المعاصرة، موضوع الشبهات، قرص مدمج.

الشامل تعبيراً نرجو أن يكون قوياً واضحاً موفقاً بفضله تعالى.

٥- إن جهود المحدثين في حقل تطبيق هذا المنهج النقدي العظيم قد بلغت الغاية في الوصول إلى الهدف المنشود، وهذه تصانيفهم الكثيرة في أنواع الحديث، ما اختص منها بالصحيح، وما جمع إليه الضعيف، أو اختص بالموضوع، أو بنوع مستقل من علوم الحديث الأخرى كالمرسل والمدرج،.. هذه التصانيف برهان عملي على مدى ما بلغوه من العناية في تطبيق هذا المنهج حتى أدّوْا إلينا تراث النبوة صافياً نقياً.

ولقد كان حقاً ما شهد به العلماء من تحقيق هذا الغرض العظيم. فقال عبد الله بن المبارك حين سئل: هذه الأحاديث الموضوعية؟ فقال: "تعيش لها الجهابذة، إنا نحن نزلنا الذِّكر وإنا له لحافظون" .. وكان حقاً ما قال ابن خزيمة: ((ما دام أبو حامد بن الشرقي في الأحياء لا يتهيأ لأحد أن يكذب على رسول الله – صلى الله عليه وسلم –)). وقال أيضاً : ((حياة أبي حامد بن الشرقي تحجب بين الناس وبين الكذب على رسول الله – صلى الله عليه وسلم –)) ... وقال الدارقطني: ((يا أهل بغداد لا تظنوا أن أحداً يقدر يكذب على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأنا حي))... ورحم الله الإمام الثوري حيث قال: ((الملائكة حراس السماء، أصحاب الحديث حراس الأرض)).

أجل والله، ولنعم الحراس الأمناء كانوا، تحقق بهم الوعد الإلهي بحفظ هذه الملة، وجرت على أيديهم هذه المكرمة التي اختص الله تبارك وتعالى بها هذه الأمة. رضي الله عنهم وأجزل مثوبتهم، وسلك بنا من محض فضله سبيلهم.

وأحمد الله تعالت صفاته، وتباركت أسماؤه، وأثني عليه كما هو أهله، وأسأله المزيد من فيض فضله، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين وآل كل صحبه وسلم تسليماً.

الفصل الخامس

دوامات العقل البشري

مقدمة[1]:

معلوم أن كل الثقافات والحضارات والتقدم هو خلاصة الفكر البشري الذي هو باختصار العقل البشري، ذلك التكريم الإلهي الذي كرم به ابن آدم حتى على الملائكة العابدين، فأعطى الله تعالى هذه اللطيفة العظيمة التي ينتسب إليها كل فعل خلاق كان أم مدمر ألا وهي الدماغ: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝ ﴾، [البقرة]... ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾، [البلد:١٠].. ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾، [الانسان:٣].

وعلى هذا الأساس فإن كل نتاج البشر مذ وجدوا علة هذه البسيطة كان بفعل هذه التلفيفة والتركيبة المعقدة غاية التعقيد بحيث يقول بعض العلماء: إن اقتحام الكون وسبر أغوار البحار وأعماق الأرض أسهل بكثير من فهم عمل هذا الدماغ المعقد.

وكلما ازددنا في فهم دماغنا وعمله قمنا بتفسير الظواهر أفضل، وهكذا كل قانون وضعي مبني على نسبة من الفهم وكلما تتصاعد يتغير القانون وهكذا. فكيف يتأتى لنا أن نجزم بأننا وصلنا لنهاية المطاف؟!.. هذا الفصل من الكتاب يبين لنا بعض أسرار هذه العلاقة المعقدة.

---

(١) لتفاصيل أكثر حول هذا الموضوع يراجع كتابينا (الجملة العصبية والطب النفسي)، و(الأحلام والباراسايكولوجي)، وهما الكتابان (١٢ و ١٣) ضمن سلسلة (ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية، وكذلك كتابنا (المنظار الهندسي للقرآن الكريم)، الباب الأول والباب الثالث/ فصل ٤.

دراسات وبحوث:

١ - العقل النظري والعملي والعالم الآخر:

بعد مضي ١٥ عاماً من الدراسة وبمساعدة فريق عمل بحثي متخصص عمل معه أعلن البروفسور (آرثر فريدمان) أستاذ جراحة الجملة العصبية في كلية الطب بجامعة كولورادو الأمريكية التسليم بدون قيد أو شرط للدماغ البشري بسبب عدم استطاعته فك رموزه وأسراره وتكوينه وطريقة عمله في حل إشارات الحواس الخمسة التي ترد إليه(١).

وهنا من المهم أن نشير إلى ما أثبتته التجارب على الجينات البشرية من استحالة السيطرة على العوامل الوراثية بصورة مطلقة، فإذا أريد عمل سيطرة على العامل الوراثي برزت آلاف المتغيرات الأخرى التي يجب السيطرة عليها وهذا أثبت مؤخراً في علم الهندسة الوراثية ومن قبل أشهر علمائها. وستكشف الطفرة الهائلة التي تمت مؤخراً بكشف أسرار سلسلة الحامض الأميني صحة هذا التوجه(٢).

وعن كتاب الأستاذ الدكتور هاني يحيى نصري (نقض الإلحاد) ننقل هذه المقتطفات لأهميتها: ((يقول العالم الفيزيائي البريطاني المعروف ستيفن هوكنغ في الصفحة الخامسة من كتابه المشهور مختصر قصة الزمن (A Brief History of Time): (إن النظريات العلمية على النسق الرياضي توضع لشرح ما نلاحظه في الواقع).. بالضبط كما توضع الآراء الفلسفية لشرح الحدوس الفكرية النظرية التي نراها بعين العقل، وبين هذين الموقفين تتحرك المعرفة البشرية، وأحياناً تختلط وتتضارب، فإذا رسخ حدس فلسفي

---

(١) جريدة الجمهورية العراقية، يوم الاثنين، ١٣ صفر ١٤٩١، ٨ حزيران ١٩٩٨م، الصفحة الأخيرة.

(٢) قام العالم الأمريكي المسلم أحمد خان أحد أعضاء الفريق الطبي العالمي الذي توصل إلى فك رموز السلسلة الوراثية للإنسان -والتي كانت بحق الثورة العلمية الكبيرة في نهاية القرن العشرين الميلادي بربط رياضي -بين سور القرآن الكريم من جهة وتسلسل هذه السلسلة الوراثية بواسطة متسلسلة رياضية أعلن عنها في المؤتمر العالمي السادس للإعجاز القرآني الذي عقد ببيروت في نهاية العام ٢٠٠٠ م، ووعد بأن يلقي البحث كاملاً في مؤتمر إعجازي قادم.

خطأته ملاحظة أو ملاحظة خطأها حدس فلسفي ظهرت الفلسفة في كل بحث علمي من هذا النوع، أو استعملت الفلسفة نتاج العلوم. وضمن هذا الهدف المعرفي الواحد تتحرك الفلسفة مع العلم.. لنأت بمثال على الحركة المتبادلة بين العقل العملي والعقل النظري:

إن المتمانعات الأربع في فلسفة كانط(*) متكافئة الحجج بالعقل النظري، ولكن كل معرفة تعتمد على الذهن المجرد ليست إلا وهماً، فالحقيقة لا توجد إلا بالتجربة، أي بوحدة العقل النظري بالعقل العملي كحامل بمحمول في وحدة ميتافيزيقية واحدة، وكما قرر كانط في كتابه (مقدمة لكل ميتافيزياء مقبلة)، كما وإن الذهن لوحده قد يتخيل أمور غير موجودة ويبني عليها قرارات ثم يصدقها.

والواقع أن هذه المتمانعات ليست متمانعة إلا بعقل عملي مقصر عن اللحاق بالعقل النظري بعصر كانط وما قبله من عصور، حيث كان الفكر الدهري القديم مثلاً، وبتأثير من المشاهدة العملية الناقصة حول دوران النجوم، يظن أن الكون كامل لأنه دائر، بل هو الكمال بذاته، بما يعني أن لا أول له ولا آخر؟!... والرد الكانطي على هذا اعترف بأنه: (لا يمكن القول الفصل عما إذا كانت المادة مكتفية بذاتها – وهو قانون حفظ الطاقة بعصر كانط- فهي خالدة، أو هي مخلوق بخالق). لأن هذا لم يكن متاحاً للتجربة، لذلك وكل ما قرره كانط هو:

١- استحالة وجود تعريف لكل شيء كالزمان والوجود والضرورة المطلقة.

٢- مفهوم النومن يقنع بوجود الله، ولكنه لا يستطيع بالضرورة البرهان عليه. فليس كل ما يمكن تعريفه أو يمكن البرهان عليه متواجد ضرورة!!

رغم أنه قد لاحظ بالعقل النظري، ومن الدلائل التطورية البسيطة التي كانت لديه، أنه ومن نتائج ما نعرفه من قوانين في كليتها الطبيعية الفيزيائية تدل على تطور منتظم من

(*) وهي ["العالم القديم" يقابله "العالم محدث"، و "يوجد واجب وجود" يقابله "لا يوجد"، و"يوجد بسيط" يقابله " لا يوجد إلا في الذهن"، "هناك سببية" يقابله "لا تحكم السببية كل الوجود"].

فوضى كاوس. وهذه الحقيقة النظرية التي أكدها العقل العلمي العملي اليوم، دلالة هامة من دلالات قدرة العقل النظري على القبس من العقل العملي، مهما كان هذا القبس ضعيفاً، والشجاعة في الريب وتعليق الحكم، في الحدود القصوى للعقل النظري دون أي مساعدة من عقل عملي))(١).

ويضيف الأستاذ الدكتور هاني يحيى نصري في مكان آخر من كتابه (نقض الإلحاد): ((الشيء الجديد الذي كشفه العقل العملي هو أن الحاضن الذي يتحرك به الزمن بالمادة المخلوقة من العدم لا نهائي، فالفراغ الذي يتحرك فيه كون الأبعاد الثلاثة أو الأربعة أزلي لا نهائي، بل وأكثر من ذلك، فهو مجرد نسق تسبقه أنساق وجود، وتعلوه أنساق وجود أخرى، نكاد لا نعرف عنها شيئاً، حتى بالعقل النظري سوى حدوس الوحي الديني وما قدمته لنا من مجازات، نميل إلى تأكيدها لأننا متأكدون من وجود هذه الأنساق المعروفة، والتي يرى ستيفن هوكنغ إمكان الانتقال من نسقنا الوجودي إلى أحدها نظرياً عبر الثقوب السوداء(*) في الكون... نعم، إن حاضن الفراغ الكوني لا نهائي أزلي، ولكن المادة فيه محدثة، فإذا اقتصرنا على خلق الله على المادة ننقص من قدرة الله تعالى – حاشا لله- على خلق الفضاء، وبعبارة أخرى يبدو أمامنا الله تعالى اليوم أكبر، وهي عبارة رددها عقلنا الإسلامي النظري منذ أكثر من ١٤٠٠ عام خلت.. هذه الثقوب السوداء كما تقول الفيزياء الحديثة تنقلك من نسق وجودي لآخر، لا نعرف عنه شيئاً إلا أنه هناك، فنحن بسبب عقلنا العملي لم نعد ننظر لسمائنا على أن فيها الجنة والجحيم، بل أن نشير إلى أنساق أكوان أخرى تحكمها مقولاتها الخاصة، بها جنان أوسع من تصورنا الواسع عن جنان السماء، وجحيم بنفس القدر من نسبية التوسع!!))(٢).

---

(١) نقض الإلحاد، د. هاني يحيى نصري، ١٤٣-١٤٥.

(*) لمعرفة حقيقة وماهية الثقوب السوداء بإمكان القارىء الكريم الرجوع لكتبنا (تفصيل النحاس والحديد في الكتاب المجيد)، وكتاب (الفلك) وهو الكتاب الثالث من سلسلة (ومضات إعجازية من القرآن والسنة -النبوية)، الصادرة عن دار الكتب العلمية ببيروت. وكذلك كتابنا (المنظار الهندسي للقرآن الكريم) الصادر عن دار المسيرة بعمان.

(٢) نقض الإلحاد، د. هاني يحيى نصري، ١٤٥-١٤٦.

وربما كان هذا ما قصدته الآيات البينات التي بينت أن الجنة عرضها (مثل) عرض السماوات والأرض، وأن القوانين في تلك العوالم مختلفة عما عندنا في هذا العالم أو النسق الوجودي الذي نعيش فيه، والله أعلم:

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾، [إبراهيم: ٤٨]... ﴿ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾، [الحديد:٢١].

فما هو فضاء تلك الأنساق الكونية الأخرى، التي قد لا يمكن أن يلجها إلا من أشار إليها (أي العقل النظري)، فإذا لم تكن تلك الأنساق لتحتضن أي مادة، فليس لنا صلة عقلية بحتة في إمكان الإشارة إليها، وتصورها تصور ناقص حتماً، لكن بمجرد أن استطعنا أن نفعل ذلك، فنحن على صلة ما بتلك الأنساق.. صلة أكبر من صلة النظر المجرد التي تربطنا بالأجرام السماوية السحيقة البعد عنا، صلة بعين الفكر للأنساق الوجودية المخفية عنا.. فنحن نعرف أن هناك كثير من العوالم الأخرى، وربما تكون هذه العوالم بمعنى ما متداخلة مع بعضها البعض، أي أن فيها تتابع لا نهائي لها، وإلى الأبد في نوع من الانكفاء اللانهائي لعوالم داخل أخرى إلى ما لا نهاية.. ويمكن أن يكون عالمنا المألوف المؤلف من المجرات والنجوم والكواكب والمخلوقات مجرد جسيمة أولية منفردة في العالم الذي يليه.. إلى ما لا نهاية.. وهذه هي السماوات لا السماء الواحدة التي خلقها الله تعالى، فهو تعالى أكبر، والله أكبر، والحمد لله أننا بدأنا نفهم هذه العبارة، والشوط طويل قبل أن نرى رأي العين أننا لله راجعون، بعد أن رأينا أننا لله، وسبحان ربك القائل: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ﴾، [التكاثر][1].

وكدليل آخر على سبق الخيال (العقل النظري) للحساب (العقل العلمي) ومن ثم

(١) نقض الإلحاد، د. هاني يحيى نصري، ١٤٥-١٤٦، بتصرف وإضافة.

للتجربة التي توصل للحقيقة (أي العقل العملي)، هو ما يجري من صراعات فكرية وفلسفية ورياضية حول حقائق الكون وأصل تكوينه ومصيره، وهل هناك أكوان متعددة، وهل كوننا جاء من موت كون آخر حتى إذا اندثر يولّد كوناً جديداً، وما مفهوم الثقوب السوداء، وإلى أين تذهب المادة التي تمتصها، وما إلى ذلك من أسئلة.. ولقد وضعت عدة تصورات وأفكار ونظريات وحسابات حول هذه المواضيع بين عمالقة علماء الفيزياء والفلك.. يقول أحد العلماء أننا نطلق العنان لخيالاتنا فنطرح أفكاراً مبعثرة غير منتظمة ثم نضع لها الحلول[١].

إن بعض العلماء يرون أن الموجات الإلكترونية التي تشكل بنية المادة، كما هو معروف الآن يمكن أن تكون موجات احتمالية (Waves of Probability) من غير وجود مادي مهما كان نوع هذا الوجود. ويتفق علماء آخرون مثل ادينغتون وجينز على أن الطبيعة النهائية للكون هي طبيعة عقلية، وفي هذا يقول ادينغتون ((إن مادة العالم هي مادة عقلية)) ويردف ((أن المادة العقلية ليست منتشرة عبر المكان والزمان بل أن المكان والزمان جزء من المخطط الدوري الذي هو في نهاية المطاف مشتق من المادة العقلية نفسها)). أما جينز فيذهب مسافة أبعد ويعتبر العالم كله طبيعة عقلية كاملة، بل يجعله فكرة في ذهن الله.. وأحدث النظريات التي طرحها عدد من كبار العلماء في مطلع السبعينيات ونشرت خطوطها العريضة مجلة العلم والحياة الفرنسية وترجمتها مجلة النور المغربية تقول بالمقابل أو المعادل اللامادي للتراكيب المادية في البيئة السديمية والذرية على السواء، وأنه ما من إلكترون أو بروتون أو نيوترون أو جسم كوني كذلك إلا وتتواجد قبالته معادلاته اللامادية[٢].

(١) لتفاصيل أكثر انظر كتابنا (الفلك) وهو الكتاب الثالث ضمن سلسلة (ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية، طبع دار الكتب العلمية ببيروت، فصل نشوء الكون وتطوره. وكذلك كتابنا (تفصيل النحاس والحديد في الكتاب المجيد)، طبع دار الكتب العلمية ببيروت.

(٢) مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، د. عماد الدين خليل، ص١٦-١٧، نقلاً عن كتاب حدود العالم لسوليفان (صفحات مختلفة)، ومجلة النور المغربية العدد الثامن، السنة الرابعة ١٩٧٧.

أما العالم الكبير جون كليفلاند كوثران(*) فيقول: إن الكون المادي يسوده النظام وليس الفوضى، وتحكمه القوانين وليس المصادفة أو التخبط، فهل يتصور عاقل أو يفكر أو يعتقد أن المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض الصدفة؟، أو أنها هي التي أوجدت هذا النظام وتلك القوانين ثم فرضته على نفسها، لاشك أن الجواب سوف يكون سلبياً. بل أن المادة والطاقة تحولها يتم وفقاً لقوانين معينة(١).

وأعقب على قول العلماء هذا بأن أدعو كل من يؤمن بدور الصدفة في موضوع نشأة الكون، ويعزي كل أمر من أمور المادة وتكونها والخلائق وعجائبها إلى الصدفة وإلى الطبيعة، إلى الذهاب لدراسة قانون الاحتمالات ونظرية الاحتمالات وهي نظرية معروفة في علم الرياضيات والإحصاء لها قوانينها وتجاربها، ليفهمها جيداً ثم يطبق كلامه هذا (الصدفة) عليها ليرى كم يحتاج إلى دقة حصول الحادثة المعينة في الزمن والمكان المطلوبين، وكم تكون احتمالية حدوث هذا الحدث، ثم يأتي بعدها ليحدثنا بالصدفة، فالكلام الفلسفي سهل، ولكن التطبيق العلمي هو الحاسم.

٢- البعد الكوني والعقل البشري:

إن نعم الله على الإنسان كثيرة ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾، [إبراهيم: ٣٤]، ولكن أهم نعمة هي هذه التركيبة العجيبة التي مكنت الإنسان من اقتحام ما حولها وولوج العلوم والتقنيات الهائلة التي نراها ونتعامل معها يومياً وهي العقل، علماً إن كل هذه التقنيات هي بواقع

(*) من علماء الكيمياء والرياضيات – دكتوراه من جامعة كورنل – رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولث، أخصائي في تحضير النترازول وتنقية التنجستون.

(١) عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم، وفيه شهادات لـ ٣٠ عالم من كبار علماء الدنيا ومن المخترعين والمستكشفين والعباقرة، تحرير جون كلوثرمونسما، ترجمة الدمرداش عبد المجيد سرحان، ط/ ٣، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٨. نقلها الدكتور عماد الدين خليل في كتابه مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، ص٦٤-٦٥.

الحال محاكاة وتقليد لما حولنا من مخلوقات حية كانت أم جامدة ولا يوجد لحد الآن أي تقنية أو مكتشف أو جهاز لم يستفد من الأفكار والأحوال التي حولنا ولم يحاكِ أو يقلد ما نراه ونحسه ونتعامل معه يوميا، فالحاسبة تحاكي العقل البشري وتقلده، والطائرة تحاكي الطيور وهكذا مما لا حصر له. أضف إلى ذلك المواد الخام التي تحول الفكرة إلى واقع استخدامي واللازمة لصناعة الأجهزة والمعدات والتقنيات كلها مستخرجة من الأرض أو من خلطها مع مواد صناعية اكتشفها الإنسان من واقع التجربة والبحث وهي كلها إما من بحار الأرض أو باطنها وما تحويه من كنوز أو مما تجلبه النيازك والشهب من مواد كونية أو ما تجلبه المحطات والسفن الفضائية من مواد لأغراض البحث والدراسة، وقد أثبتت الدراسات مؤخراً أن بعض المذنبات كمذنب هالي تحوي من ضمن ما تحويه مواد هايدروكاربونية تشبه في تركيبها الكيميائي مادة السكر وهو أيضاً ما أثبت في تحاليل مختبريه أجريت على أحجار نيزكية، مضاف إلى ما تجلبه السماء لنا من ماء وشمس وقمر، وما تحويه الأرض من كنوز ومعادن ومواد أخرى كانت أساس ما نحن عليه الآن من تطور، وهذا الأمر هو ما أشار له القرآن بآيات تصريحية عديدة مثل قوله تعالى من سورة طه: ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ ﴾، وكل هذا لكي تكون رحلة الإنسان على هذا الكوكب ميسرة، بل إنه حتى الذكاء الذي بواسطته تم اختراع واكتشاف هذه التقنيات كلها جاء وكما اكتشف مؤخراً بفعل فعاليات شمسية معينة تؤثر على حياة الإنسان ودورته البيولوجية وحسب صيغة عجيبة.

ففي دراسة أجراها علماء روس نشرتها مجلة سبوتنك الروسية أثبت العالم الروسي (البروفيسور إدليس) في أثناء تحليله المفصل للتطور الذي جرى على (الفيزياء النظرية) الفرضية القائلة بأن الاكتشافات العلمية كانت تسير بموجب نمط معين.. إذ لاحظ التواريخ التي نبغ فيها العلماء (هايجنر) و(لايبنتز) و(نيوتن) و(لومونوسوف) و(كولومب) و(فاراداي) و(ماكسويل) ونشروا أعمالهم.. كما ولاحظ انتظاماً زمنياً معيناً، اكتشافات بارعة حصلت في مراحل زمنية أطوالها (١١) سنة - وهذه مدة نشاط (المجموعة الشمسية) ذاتها.. ويقول الخبر أيضاً:

نحن نعلم جميعا أن دورات الطبيعة (كدوران الكواكب وحركة الشمس وتغير الفصول) تؤثر في الإنسان... ولكن (الإبداع الباطني) كيف يكون له أي ارتباط بعمليات (المنظومة الشمسية)؟... يبدو أن النشاط حين يزداد في المنظومة الشمسية، يزداد المجال المغناطيسي للأرض، ولهذا تأثيره على الجهاز العصبي للإنسان.. في الحقيقة، حتى العاملون في حقل (المغناطيسية) يتكلمون عن الناس الذين لديهم (أعصاب ممغنطة) بدل (أعصاب لينة)، وفي (لينينغراد) درست أسماء النابغين وسنوات ميلادهم خلال القرون الأربعة الماضية..والقوائم التي تجمعت ظهر فيها بوضوح أن ولادة الناس المبدعين وذوي الذكاء العالي تتجمع في عناقيد وتتبع مدد زمنية معينة.. فخلال الأربع مائة سنة كان هناك (١٨) قمة تتجمع عندها أسماء البارزين المولودين في تلك المدد.. والفاصلة بين قمة وأخرى (٢٣) سنة- وهي الدورة المعروفة في النشاط الشمسي. ولكن، هل هذه من باب المصادفة؟

نعلم الآن أن الشمس تؤدي دورا مهما في العمليات الحياتية، على سبيل المثال لمدة ملايين السنين كانت الحياة على كوكبنا تتطور أمام خلفية من المشعات الطبيعية. والإنسان يتسلم القسم الأكبر من (الغازات المشعة) ومنتجات اليورانيوم المتفسخ.. وتلك المشعات تنفذ إلى الأجواء من التربة والصخور. وكميتها تعتمد على عوامل منوعة.. وقد اكتشف العلماء الروس: إن تلك المشعات قد ازدادت محتوياتها بعد حدوث اندلاع ألسن اللهيب المتوهجة من الشمس.. وارتفاع مستوى الإشعاع يزامن غالبا العواصف الجومغناطيسية لأنها قد أثيرت وهيجتها التقلبات المتتابعة القادمة من الشمس.. وهكذا حينما يحدث ارتفاع في النشاط الشمسي. يحدث ارتفاع في تركيز الغازات المشعة في الجو..

هذه الحقيقة دفعت العلماء الروس لأن يسألوا أنفسهم السؤال التالي: (إذا كانت قمم الإلهام تتبع الأحداث المغناطيسية والشمسية الخارجة عن المألوف. ونتيجة لهذا يكون الهواء مشبعا بالغاز المشع. الا يكون هذا مؤثرا -بطريقة ما- في تطور الجنين فيجعله مهيأ لإبداع عظيم..؟ لقد نجحت التجارب في البرهنة على أن للغاز المشع تأثيراً باعثا للنشاط

على الجهاز العصبي مما يزيد في قابليات عمله.. وربما هذا يفسر لماذا يكون العمل الفكري أكثر إنتاجاً في أثناء تلك الساعات الصباحية أو المسائية، حين يكون في الجو أعلى مقدار من الإشعاعات[١]، فماذا نستنتج من هذا البحث؟

ولمزيد من الدلة حول التأثيرات البيئية على العقل البشري الغامض أصلاً، تم مؤخراً اكتشاف علاقة الزلازل التي تحصل في داخل الشمس بالإنفجارات النووية التي تحصل على سطحها، ومن ثم تأثيرات ذلك على الأرض وما بداخلها من أحياء. اكتشف هذا الأمر باحثون عديدون في مجال فيزياء الشمس في الولايات المتحدة الأمريكية ورصدوا مبالغ لهذا العمل العملاق تتعلق بمراقبة الزلازل والبراكين الشمسية والإنفجارات، وتوصلوا إلى نتائج خطيرة من أهمها وأخطرها تأثير الإنفجارات النووية الشمسية على البشر وعقولهم وتصرفاتهم لما تبعثه من اشعاعات كهرومغناطيسية[٢].

إن كل العلماء الذين ظهروا وسيظهرون والذين اكتشفوا النظريات العظيمة كانوا يولدون وينتجون إنتاجهم الذي يتصوره العامة بأنه نهاية العالم ويصوغون من حوله الكتابات والتعليقات ويذهبون إلى ما يذهبون إليه من تعصب لتلك النظرية أو تلك، جاء هذا على وفق نسق وناموس وقانون أمر به الله ﷻ وسنّه في الآفاق والأكوان ليسخره للإنسان كي ييسر عليه حياته، ونحن الآن نحاول فهمه بالمراقبة ثم ندعي عند كل نظرية تظهر على يد عالم بأنه يفسر لنا أصل الإنسان أو نفسيته أو أصل الكون وما إلى ذلك وأن هذه النظرية قد انتهى العلم عندها وتوقف وإنها لا جدال فيها حتى يأتي آخر بعد مدة زمنية أخرى ليدحض الأول ويقول أنا وليس غيري وهكذا.. أليس هذا بالله عليكم أمراً مضحكاً؟

٣- الروح ذلك البعد الغامض:

في العقود الأولى من القرن العشرين كان أغلب العلماء يستهزئون بموضوع الروح

---

(١) مقال نشرته جريدة الثورة العراقية بعددها ٩٥٤١، الأربعاء ٨/ ٧/ ١٩٩٨، ١٤/ ربيع الأول/ ١٤١٩ عن مجلة سبوتنك العلمية الروسية المعروفة.

(٢) خبر أذاعته إذاعة صوت أمريكا بتاريخ ٢٣/ ٣/ ٢٠٠٠م والتقت به مع الباحثين في هذا العمل.

وأثرها في عالمنا، وعرفوا الإنسان على أنه مادة فقط، ثم ما لبث هذا الاعتقاد طويلاً حتى أصبح التصور الحديث -مدعوماً بتجارب وأبحاث طويلة وكتب ألفت حول هذا الموضوع- يجزم بوجودها وأثرها بحيث أصبح الكثير من العلماء يطلبون إعادة صياغة العلوم بإدخال البعد الروحي الذي أهمل سابقاً واثبتت البحوث أنه على درجة كبيرة من الأهمية.. في العام ١٩٣٥م قدم عالم الجملة العصبية (أكلز) بحثه الذي لخص فيه نظريته بوجود الروح في الإنسان وأنه لا يمكن أن يكون من مادة فقط وذلك بعد عدة أعوام من البحوث التي أجراها على حيوانات مختلفة، فاستهزأ به العالم الكبير (بنفيلد) على أساس أن هذا الكلام هراء وأن الإنسان مادة فقط تفنى بموته ووعده بأنه سيبحث على الإنسان خاصة ليثبت له خطأ نظريته. وبعد ثلاثين عاماً من البحوث على ١٠٥٠ مريضاً ألف خلالها كتباً وبحوثاً من أهمها كتاب (لغز العقل البشري) لخص فيه تجربته في عام ١٩٧٤م وذكر أنه بعد هذا الوقت الطويل آمن بما قاله (أكلز) أن الإنسان فيه روح لا يستطيع العلم معرفة كينوناتها وماهيتها، وكان من ضمن ما توصل له بعد هذه البحوث المعقدة التي أجراها على كل أجزاء الدماغ البشري وتعرف خلالها على كل وظائفه أن الإرادة والعقيدة والإيمان ليست من ضمن اختصاصات الدماغ، إذ لا يوجد فيه أي مكان مخصص لمثل هذه الأمور. ثم أتى بعدهما (د. مودي) الذي بحث في تقنية خروج الروح من الجسد ليؤكد حقيقة وجود الروح في الإنسان بعد دراسته للمرضى الذين يتوقف قلبهم للحظات، ثم يعاد عمل القلب باستخدامات تقنية معينة فأثبت أن هؤلاء المرضى يمرون بـ ١١ مرحلة قبل رجوعهم إلى الوضع الطبيعي وأن شيئاً ما يخرج منهم ثم يعود، وهذه البحوث مثبتة وموثقة بشكل علمي رصين ومنشورة في أرصن المجلات العالمية[١].

ومؤخراً تبنى علماء روس في الأعوام الخمسة الأخيرة من القرن العشرين محاولة دراسة إمكانية قياس وزن الروح وكانت بعض محاولاتهم تبشر بوجود أمل لهذا معتمدين

(١) محاضرة الدكتور أحمد عدنان اختصاص الجملة العصبية.

على إمكانات نظرية وعملية وحقلية معقدة في علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات[١].

وفي بحث آخر أجري مؤخراً في الولايات المتحدة حول أثر (الدعاء بالشفاء) الذي يدعوه أهل المرضى لمرضاهم، اثبت الباحثون أن نسبة شفاء المرضى الذين يُدعى لهم بالشفاء أكثر من أصحابهم من الذين لم يجرِ لهم هذا الدعاء بحوالي ١٠٪، على الرغم من أن الفريقين أصيبوا بنفس المرض ونفس التقنيات والاجراءات الطبية للعلاج، واستنتجوا أن هذه النسبة هي نسبة الأثر الروحي للدعاء ونقاوة القلب[٢].

٤- أنماط الحياة الأخرى:

يقول ستيفن هوكنغ متسائلاً: ((من أين يأتي هذا الفرق بين الماضي والمستقبل؟!، في حركة المادة التي نسميها الزمن.. ثم يجيب بأن قوانين الفيزياء لا تتغير فلا يميز العلم قوانينه بين الماضي والحاضر، وبسبب هذا اللاتميز يمكن لقوانين العلم المكتشفة اليوم أن تدلنا على ما حصل في الزمن الغابر.. وعلى هذا الأساس يمكن أن تكون هناك أشكال أخرى من الحياة في الكون وفي مجرات أخرى أو حتى بيننا دون أن نشعر، عاقلة ومفكرة لكنها مصنوعة من مضادات المادة لا من المادة))[٣].

هذا إذا علمنا أن كل النشاطات الحيوية الملحوظة والمراقبة في عصر التطور التقني والمعلوماتي لجميع الكائنات البرية والبحرية من بشر وحيوان ونبات بكل أصنافها لا تشكل سوى ١٠٪ فقط من مجموع أنماط الحياة في كوكبنا الفريد، ذلك أن ٩٠٪ من أنماط الحياة موجودة في أعماق البحار الغائرة في عمقها والتي تحفها الظلمات لعدم وصول ضوء الشمس إليها لعمقها، فقد توصل العلماء إلى حقيقة عظمة وتنوع هذا العالم الغريب بمخلوقاته التي لا تعيش على الضوء بل تنتجه هي، ولا يضرها الضغط العالي والحرارة

(١) الخبر كان نقلاً عن مجلة سبوتنك العلمية الروسية الشهيرة في عددها الذي نشر صيف عام ١٩٩٨م.

(٢) نشر هذا البحث في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩٨م.

(٣) هذا ما نقله الأستاذ الدكتور هاني يحيى نصري في كتابه (نقض الإلحاد)، ص ١٢٥، عن كتاب ستيفن هوكنغ (Ibid)، ص ١٦٠، بتصرف.

الرهيبة الخارجة من طبقات الأرض وصدوعها وسموم الأعماق بل تحولها جميعاً بكيميائيات جسمها إلى مركبات تفيد غيرها من المخلوقات. هذه الحقائق توصل إليها العلماء بعد أن كانوا يعتقدون عكس ذلك تماماً...

وإذا ما علمنا أن نمط مهم من الحياة على الأرض والذي استمر لملايين السنين، وهو نمط حياة الوحوش الكاسرة التي استعمرت هذا الكوكب -الديناصورات- انتهى حكمها ونمط حياتها بنيزك عملاق هو نيزك (تشيكسكولوب) الذي سقط على الأرض وتحديداً بين الأمريكيتين قبل حوالي ٦٥ مليون عام وتطلب الكشف عن سر حصوله أكثر من ٤٠ عاماً من التحريات المضنية وعثر على فتحته العملاقة التي قطرها أكثر من ١٨٥ كم في شبه جزيرة يوكاتان نصفها تحت يابسة المكسيك ونصفها تحت خليجها. وبسقوط هذا النيزك العملاق حصل انفجار أكبر بـ ١٠ بليون مرة من قنبلة هيروشيما، فحصلت انفجارات هائلة أدت إلى انتشار الإيريديوم والكوارتز الصدمي وفاضت الأرض بالبحار النارية الناجمة عن الانفجار، وفاضت البحار وحصل السواد الذي عم الأجواء فمنع ضوء الشمس عن النباتات التي تقتات عليها أغلب تلك العمالقة فحصل أن انتهت الحياة العامرة لتلك المخلوقات كما أثبتت التحريات الحديثة، إذ بينت التحريات الدقيقة أن كميات كبيرة من الرّمادِ غطت أغلب الأمريكيتين الشّماليةَ منها والجنوبية، فضلاً عن أنها قد دُمّرتْ بالنّارِ من الإرتطامِ.. ورغم أن الأرض تتعرض يومياً لآلاف النيازك الصغيرة والكبيرة إلا أن هكذا أحجام من النيازك كما يقول العلماء لا يمكن أن يضرب الأرض إلا كل مليون عام لوجود أحجار عملاقة في مجموعتنا الشمسية أو في الكون السحيق يمكن أن تغير مساراتها لتتحول إلى مجموعتنا الشمسية وتنتقل لتضرب الأرض كما تضرب غيرها الكواكب الأخرى من مجموعتنا كما حصل للمشتري والمريخ خلال العشر سنوات الماضية، ويتوقع أن يضرب الأرض نيزك عملاق قريباً جداً يتوقع أن يكون كارثة مرعبة تحدثنا عنه في كتب أخرى[1].

---

(١) للمزيد عن النيازك يراجع كتابنا (الفلك) الكتاب الثالث ضمن سلسلة (ومضات إعجازية من القرآن =

ويقـول العـالم الكبير كريسي موريسون في كتابه (العلم يدعو للإيمان- أو الإنسان لا يقـف وحـده- Man does not stand alone)، إن الأوكسجين والهيدروجين والنتروجين والكربون سواء كانت منعزلة أم على علاقاتها المختلفة بعضها مع البعض هي العناصر البيولوجية الرئيسية، وهي عين الأساس الذي تقوم عليه الحياة. غير أنه لا توجد مصادفة من بين عدة ملايين، تقضي بأن تكون كلها في وقت واحد في كوكب سيار واحد، بتلك النسب الصحيحة اللازمة للحياة!، وليس لدى العلم إيضاح لهذه الحقائق أما القول بأن ذلك نتيجة المصادفة فهو قول يتحدى العلوم الرياضية(١).

النتيجة:

كل ما ذكرناه من البراهين والحجج تدل على أن أمام الإنسان أشواطاً طويلة من العلوم ليلجها وأن من يعتقد أنه قد وصل إلى الدرجة العلمية التي تؤهله بأن يستهزيء بأي شيء حتى لو كان خرافة -حسب اعتقاده- قبل أن يدرسه ويتمحص منه ويصبر على البحث وإن طال عشرات السنين، فإنه يستهزيء بالعلم نفسه بل يستهزيء بنفسه قبل كل شيء. وأخص بالذكر هنا الناس الذين ينكرون وجود الجن والملائكة والشياطين فمنهم من يحاول الاستهزاء بالأمر، ومنهم من يحاول إدخاله في بحوث مقارنة مع مفاهيم أخرى كالهندوسية والمجوسية ومفاهيم الأديان الأخرى، ومنهم غير ذلك، أدعوهم إلى أن يقدموا لنا دليلاً علمياً واحداً يدل على عدم وجود الجن أو مواصفاته أو عدم إمكانية تأثيره على الإنسان فقد يأتي يوم.. ولا أظنه ببعيد يثبت هذا الأمر فتصبحون عندئذٍ في موقف لا تحسدون عليه(٢). فالكلام العمومي سهل وفلسفة الأشياء حسب

= والسنة النبوية) طبع دار الكتب العلمية ببيروت، وكتاب (آخر الزمان) الكتاب الأخير ضمن نفس السلسلة.. كما يمكن الرجوع لكتابنا (المنظار الهندسي للقرآن الكريم) طبع دار المسيرة بعمان.. وانظر كتابنا (القوانين القرآنية للحضارات) طبع دار الكتب العلمية ببيروت.

(١) مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، د. عماد الدين خليل، ص٥٦، نقلاً عن كتاب موريسون.

(٢) تطرقنا في كتابنا (المنظار الهندسي للقرآن الكريم) إلى أحد البحوث التي درست حالة امرأة فيها صرع ولها كلب يتهيج بشكل عجيب كلما أصابتها النوبة، وكانت هذه الحالة قيد الدراسة لمدة طويلة حتى =

معتقدات أي إنسان ليست بصعبة، ولكن لكي تثبت للناس ما تعتقد عليك أن تبحث وتتعب نفسك بالبحث حتى تعطي الدليل العلمي القاطع إما لصالحك وإما عكس ذلك ولكن في كل الأحوال فهو في صالح البشرية، فقد قدمت لها ما يعينها على فهم الأمور بشكل صحيح.

ولله در كلمات الدكتور روبرت موريس بيج(*) إذ يقول: إذا أراد الإنسان أن يتثبت من صحة المعلومات الغيبية التي يخبره بها شخص آخر، فلابد من أن يشترك في التجربة ويتهيأ لها حتى يستطيع أن يحكم عليها، وكذلك الحال فيما يتعلق بالإيمان بالله، فلابد أن يدرس الإنسان أولاً نوع العلاقات التي يمكن أن تكون بينه وبين خالقه، وما ينبغي أن تكون عليه هذه العلاقات، فإذا درس الإنسان الشروط اللازمة التي يلزم توفرها لقيام هذه العلاقة واتجه بقلبه وكليته نحو تحقيق هذه الشروط فإنه سوف يشاهد الحقيقة الكاملة وعندئذٍ يغمر الإيمان قلبه ويؤثر في حياته ولا يدع في نفسه مجالاً للشك، وإذ ذاك يكون الله أقرب إليه من نفسه ويصير إيمانه به يقيناً[1].

إن كل ما نتصوره علماً عظيماً ونهائياً هو ليس كذلك حتى بالنسبة لعقولنا التي هي قاصرة أمام عظمة هذا الكون وعظمة هذا الإنسان لأننا ندور في حلقات ودوامات جاهدين كي نحاول فهم ما يدور حولنا وكل جيل يأتي يعتقد بأنه أتى بما لم يأت به أحد، أما جيلنا هذا فاعتقد (مسكينا) أنه سيقهر ويتمكن مما حوله حتى سمحنا لأنفسنا أن

=

كانت إحدى نقاط الاستنتاجات للبحث إمكانية وجود أرواح شريرة مصاحبة لهذه المرأة علماً أن هذه الحالة مصورة تلفزيونياً.

(*) عالم الطبيعة الحاصل على الدكتوراه في العلوم من جامعة هاملين، كان أول من اكتشف الرادار في العالم سنة ١٩٣٤، وسجل نحو ٣٧ بحثاً في الرادار وألف الكثير من الكتب.

(١) عن كتاب الله يتجلى في عصر العلم، وفيه شهادات لـ ٣٠ عالم من كبار علماء الدنيا ومن المخترعين والمستكشفين والعباقرة، تحرير جون كلوثر مونسما، ترجمة الدمرداش عبد المجيد سرحان، ط/ ٣، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٨. نقلها الدكتور عماد الدين خليل في كتابه مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، ص٦٣.

نتكلم بأسلوب متعال بينما نحن أضعف من أضعف الحشرات والميكروبات المجهرية منها والتي بسببها يموت الكثيرون يومياً.. إن ما قام به العلماء الروس وغيرهم هو محاولة ربط لحالات معينة عبر الزمن للخروج بتفسير قد يصيب وقد يخطئ إلا أنه مع أهميته لا يخرج عن إطار الربط، فكل ما نفعله هو ربط الأمور والاستفادة القصوى قدر الإمكان منها لفائدة الناس ولما نعتقده.

إن أهم موضوع يجب أن نضعه في ذاكرتنا عند قراءتنا لأي مصدر في موضوع الإعجاز هو أن القرآن العظيم هو الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه وأن أي نظرية قديمة أو حديثة في أي مجال من مجالات العلوم وما ستطرأ من تغييرات عليها أو ما سيكون في المستقبل من علوم ونظريات هي حصيلة الفكر البشري وهذا الفكر هو نتيجة لفهم الإنسان لعقله الذي خلقه الله ﷻ، هذا العقل الذي أثبت العلم الحديث أنه لم يتم لحد الآن إلا استغلال ١٥-٢٠٪ فقط منه وإن أكثر من ٨٠٪ من أسراره وإمكانياته غير مستغلة من الناحية الوظيفية والعملية، فكل ما نحن فيه من تقدم علمي وتقني هو حصيلة فهمنا لهذه النسبة من المخ البشري، وأن كل هذه النظريات قديمها وحديثها حتى آخرها ((الاستنساخ البشري والتناغم البايولوجي)) وغيرها هي من هذه الحصيلة وكل ما سيأتي من نظريات وتطبيقات خصوصاً ونحن مقبلون على عصر الاتصالات وما فيه من معلومات هائلة قد تؤدي إلى نشوء نظريات تحدث ثورات في العلوم بشتى أنواعها، ومن ثم إلى استغلال أوفر وفهم أكثر للمخ البشري بنسبة تزيد على النسبة السابقة هذه، ومن ثم تؤدي إلى معلومات ونظريات أكثر، وهكذا، وهي قابلة للدحض والتطوير والإلغاء والتعديل حسب تطور البشر ومعلوماتهم وقابلياتهم على جمع المعلومات كما حصل لنظرية آينشتاين، حيث أنه في بعض اشتقاقاته اثبت أنه لا وجود لشيء اسمه فعل ورد فعل في الكون، وأن كل ذلك هو بسبب الموجات والإشعاعات وهذا يخالف ما ذهبت إليه نظريات نيوتن في الحركة والجاذبية وغيرها، مع أن الأخيرة لازالت تدرس وتطبق وتبنى عليها نظريات وتطبيقات تقنية على أعلى مستوى وهكذا نرى أن العقل البشري مستمر باكتشاف نفسه.

الفصل السادس

إعجاز القرآن يتصدى للمؤامرة الحديثة

المقدمة:

إن القـرآن كـتاب سـماوي هـو خـاتم الكـتب وأشرف كـتاب، فـيه علـوم الأولين والآخـرين ودسـتور الحياة بكـل مـرافقها الاجتماعية والاقتصادية والعلمية وعلاقات الناس بربهم وبعضهم وعلاقات المجتمعات وأخبار السلف وما سيكون.

ففـضلاً عـما بيـنا مـن مختصر علومه التي أبحر بها السلف الصالح، فإن هذا الكتاب يحـوي في آياتـه المـباركات إشـارات علمـية تستحق التوقف والتقدير والدخول منها إلى مخاطـبة كـل معانـد ومكابر، فإضافة إلى ما سبق فإن القرآن يحوي على إشارات من علوم الـتأريخ والفلـك والـبحار والـنفس والاجـتماع والاقتـصاد والإدارة والطب والهندسة والأحـياء والرياضـيات والكيمـياء والفيزياء وأخبار الغيب في عالم الملكوت وفي السماء والأرض وعـالم الأرواح والأحـلام والباراسـيكولوجي ومـا إلى ذلك من علوم شتى لا حـصر لهـا، فـضلاً عن الأساس والأصل الذي نزل من أجله وهو هداية الإنسان ومنها العلم الشرعي والفقهي واللغوي الصرف أو ما يسمى بعلوم الدين وعلوم العربية.

المبحث الأول

الإعجاز، ماهيته وأهميته

إن إعجـاز القـرآن الكـريم وإقامـته الحجـة عـلى الـناس أمـر لا يحتاج إلى استدلال لاعـتراف جمـيع مـن عـرف القـرآن بـه حتى أعداءه التقليديين قديمهم وحديثهم، فهذا الولـيد بـن المغـيرة أحد أعتى صناديد الكفر يقول واصفاً القرآن الكريم (والله إن لقوله لحـلاوة، وإن علـيه لطـلاوة، وإنـه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه

لـيعلوا ومـا يعـلى)[١]. ويقـف أحـد العلـماء الأمريكان من الذين حضروا المؤتمر العالمي الخـامس الـذي عقـد بموسـكو عـام ١٩٩٣م - وهـو أحد كبار الحاقدين على الإسلام وكـتابه- مذهـولاً لما سمع من السبق العلمي للقرآن الكريم (والله لو أن لدينا بعض ما لديكم لأقمنا الدنيا ولم نقعدها)[٢].

المطلب الأول

العلمية واللا علمية

قبل أن نعرف الإعجاز العلمي علينا أولاً أن نميز مفهوم العلمية من اللاعلمية، فقد يخطـئ الكثير في تحديد هذا المفهوم في العصر الحديث، ففي اللغة يقال علِم الشيء بكسر الـلام يعلمـه (علـماً) عـرفه ورجـل علامة أي عالم جداً، والهاء للمبالغة واستعلمه الخبر فأعلمه إياه[٣].

أمـا المعجـم الوجيـز فـيقول: علِـم فـلان الشيء علماً: عرفه، وفي القرآن الكريم (لا تعلمونهم الله يعلمهم)، والعلم إدراك الشيء بحقيقته، والعلاّم: الكثير العلم ويقال فلان علامـة لتأكـيد الدلالـة على سعة علمه[٤].. أما الجرجاني فيقول عن مصطلح العلم:(هو إدراك الأشياء على حقائقها)[٥].

والحقـيقة العلمـية هـي كلمـة مـركبة-مـركب إضـافي-، ولتعـريفها يلزم التعريف بجـزأيها. فالحقيقة مفرد وجمعها حقائق، نقول حق الأمر يحِق ويحُق حقاً وحقوقاً إذا صار حقـاً ثابـتاً، والحـق نقـيض الباطل، والشيء المتحقق وجوده وأصله المطابقة. وقد عرفها

(١) تفاسـير الكـشاف والزمخـشري والطبري وعبد الرزاق والفتح. وانظر كتاب الإعجاز العلمي في القرآن والسنة - تاريخه وضوابطه-، عبد الله بن عبد العزيز المصلح، ص٩.

(٢) سنتحدث عن هذا المؤتمر في مطلب لاحق من هذا الكتاب.

(٣) مختار الصحاح، أبو بكر الرازي، ص٤٥٢.

(٤) المعجم الوجيز مادة (علِم)، ص٤٣٢.

(٥) التعـريفات للجـرجاني (ص١٥٥)، وتأصـيل الإعجـاز العلمـي(ص١٤)، وانظر كتاب الإعجاز العلمي في القرآن والسنة - تاريخه وضوابطه-، عبد الله بن عبد العزيز المصلح، ص١٢.

الـراغب الأصـفهاني بقـولـه: (الحقـيقة تـستعمل تارة في الشيء له ثبات ووجود، أو هي الشيء الثابت قطعاً أو يقيناً، والتاء فيه للتأنيث[١]. أما العلمية فهي صفة للحقيقة، والعلم نقـيض الجهـل كـما عـرفها الجـرجاني في التعـريفات - ص٩٠ -، والمقـصود هنا العلم التجريبي...

أمـا في المفهـوم الحـديث للعلـم والبحث العلمي فليس الدارج بين عامة الناس من الاصـطلاح هـو الـصحيح، إذ يتـصورون أن مـن يـتكلم كلامـاً عامـاً ذا صـفة تحـوي المصطلحات الرنانة أو التعابير اللفظية المنمقة بأنه إنسان علمي، وهذا خطأ كبير. فكلمة علمـي - نـسبة إلى العلـم- يقـصد بها في عصرنا الراهن هذا الكلام والبحث المبني على تعاريـف ومـصطلحات وجـداول ورسـوم مقارنـة وأشـكال وأرقـام وإحـصاءات ثم استنتاجات تبنى عليها القناعات والقوانين النهائية، فلا يقال في فلان أنه علمي إذا تكلم بالأسلوب الأول، بل يقال عنه فلسفي أو فكري أو جدلي. بينما في النوع الثاني من الكلام والـنقاش يـسمى علمياً لأننا لسنا في عقود الأربعينيات والخمسينيات عندما كان الكلام كلاماً فلسفياً وفكرياً عاماً يتكلم به كل من قرأ كتاباً أو حمل فكرة، بل نحن الآن في عصر الأرقـام ومـا تأتيني به من حقيقة رقمية تكون حجة لك عليّ، فإما أن آخذها وابحث في صـحتها ثـم أقـول لك إن حجتك صحيحة أو خطأ، أو أن أقبلها مباشرة حسب خبرتي ودرايتي، أو أن تأخذني العزة بالإثم فأعاند وأكابر فأكون من أصحاب الهوى، وهؤلاء لا يسمون علميين، بل يمكن تسميتهم ماديين أو جدليين أو أصحاب هوى وما إلى ذلك.

إذن فالـباحث هـو الـشخص الـذي توافـرت فـيه الاسـتعدادات الفطرية والنفسية والذهنـية والكفـاءة العلمية المكتسبة فضلاً عن الصدق والإرادة التي تؤهله بمجموعها للقـيام بعمـل بحثـي يـصل بموجـبه لحقيقة معينة أو نفي أمر معين. والمنهج العلمي هو الطريقة التي يسلكها الباحث في عرض ومناقشة الدراسة بأسلوب علمي هادىء متجرد مع التزامه الجوانب الفنية المطلوبة للبحث، كالإحالة بأمانة إلى المصادر التي أخذ منها أو

(٥) الـنهاية في غـريب الحـديث، ولسان العرب لابن منظور، والمفردات للراغب الأصفهاني.. وانظر كتاب الإعجاز العلمي في القرآن والسنة -تاريخه وضوابطه-، عبد الله بن عبد العزيز المصلح، ص٢٥.

اقتبس منها[١]. فلإثبات أي فكرة يجب أن تكون مسندة بالدلائل والمؤشرات العلمية الإستدلالية والإثباتية والتجريبية كالأرقام والإحصاءات وغيرها، وهذا هو العلم الحديث..

يعرف العلم الحديث الطرق العلمية على أنها غير الفلسفة، وهي تطبيق العمليات المنطقية للسببية للوصول بالظواهر الطبيعية التي نحاول تفسيرها وفهمها إلى أن تحققها الدراسة الحقلية والمختبرية والعملية، وهي خمسة مراحل : المراقبة، الفرضية، التجارب العملية، القانون الرياضي أو النظري، وأخيراً القدرة على التخمين والتقدير المسبق للظاهرة المدروسة[٢].

والحقيقة العلمية في الاصطلاح هي:(المفهوم الذي تجاوز الفرضية والدراسة النظرية حتى أصبح ثابتاً مجمعاً عليه كافة العلماء المختصين كتمدد المعادن بالحرارة وانكماشها بالبرودة وتبخر الماء عند ضغط عادي ودرجة حرارة المئة مئوي، وانجماده عند الصفر المئوي، وغير ذلك من الحقائق العلمية التي لا تقبل الشك والجدال والنقاش).. وهناك الفرض والنظرية اللذان يختلفان عن الحقيقة، فأما الفرض فهو تخمين واستنتاج ذكي يصوغه ويتبناه الباحث مؤقتاً لشرح بعض ما يلاحظه من الحقائق والظواهر. وأما النظرية فهي توضيح لعلاقة الأثر والسبب بين المتغيرات لشرح ظواهر معينة، والنظريات مراتب حسب قربها أو بعدها عن الحقائق، وأقوى النظريات هي التي تقدم شرحاً أكثر منطقية لتلك الملاحظات، والنظرية السليمة هي التي يتم التوصل إليها بواسطة دراسة علمية لا يمكن اعتبارها حقيقة علمية وإنما تمثل أفضل إجابة يمكن الوصول إليها وهي قابلة للتغيير والتبديل[٣].

---

(١) الإعجاز العلمي في القرآن والسنة(تأريخه وضوابطه)، عبد الله بن عبد العزيز المصلح، ص٥٩، وانظر كتابة البحث العلمي صياغة جديدة، ص ٢١، للدكتور عبد الوهاب أبو سليمان.

(٢) أساسيات الفيزياء الجامعية، نولان، ١٩٩٣، ص٥.

(٣) انظر كتاب الإعجاز العلمي في القرآن والسنة - تاريخه وضوابطه-، عبد الله بن عبد العزيز المصلح، ص٢٦، بتصرف.

وقـد تكلـم العلامـة الدكـتور عـبد الله مصطفى حول مصادر العلم للإنسان حيث قـسمها إلى مـصادر خمـسة وهـي الحـواس والعقـل والخـبر الـصادق والحاسة السادسة والـرؤيا، أمـا الطـرق البحثـية الحديثة فقد قسمها بشكل جميل إلى طريق البداهة وطريق الصدفة وطريق المشاهدة الوجدانية وطريق البرهان العقلي وطريق الاستدلال. أما أنواع الأدلة فقد قسمها إلى البرهان وأدلة الأصول والدليل الخطابي، ثم تكلم عن فكرة الشك عند الفلاسفة القدماء والمحدثين وقام بدحضها بشكل علمي جميل، ثم عرج على العلاقة بـين الطبـيعة ومـا وراء الطبـيعة وأثـبت بالمعـادلات والاشتقاقات روعة النص القرآني ودلائـل قـدرة الله وكذلك كل ما يتعلق بالغيبيات التي يحاول الماديون من الناس الطعن بوجودها(١).

يقـول الدكـتور عـماد الـدين خلـيل ويكفـي أن نشير إلى أن كلمة (علم) بتصريفاتها المختلفة وردت في عدد من الآيات جاوز السبعمائة والخمسين(٢)..

إن اهتمام القرآن الكريم بالعلم والعقل والتدبر والتفكر وأهل الحكمة واللب السليم مـن الـناس وتعظـيم شـأنهم جاء بشكل مكرر في القرآن والتكرار في اللغة يفيد التأكيد، ذلك لأن الإسلام جاء ديناً يأمر الإنسان بتحكيم عقله واتباع الأسباب العقلية والعلمية في أمور حياته، فيرى أنْ لا تعارض مع هذا ومع أوامر الله ونواهيه، بينما الجهل والجاهلية يأتيان بالضد من هذا الأسلوب القرآني لذلك حقَّر شأنهم وسفّه آراءهم غير العقلية التي تصل بهذا الكائن العظيم -الإنسان- إلى مرتبة الحيوانية التي لا عقل لها.. وهكذا جاءت المفردات القرآنية المرتبطة بهذا الموضوع حسب ما يأتي:

- الفقه والتفقه بكل صيغها ٢٠ مرة
- الفكر والتفكر بكل صيغها ١٨ مرة
- العقل بكل صيغه ٤٩ مرة

---

(١) مجمع الأشتات، الكتاب الأول ‖ الرفيق الأعلى بحث في برهان العقل والحكمة والفيزياء الكونيتين، ص ١٦-١٧٣.

(٢) مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، د. عماد الدين خليل، ص٩٤.

- العلم بكل صيغه وتراكيبه ٧٨٦ مرة ومنها ٢٠ مرة بصيغة عالم، علماء، عالمون
- بينما نرى الجهل والجاهلية ٢٤ مرة ومنها ١٠ مرات بصيغة جاهلون، جاهلين

ومن الجدير بالذكر في هذا المجال إن المسلمين هم أول مجموعة في التاريخ البشري جعلت البحث العلمي ممكناً بالصيغة المتعارف عليها الآن وهذا ما يشهد به الغربيون أنفسهم. يقول الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي عن موقف الإسلام من العلم في كتابه (الرسول والعلم) :

(ويأبى القرآن الكريم إلا أن تبنى العقائد على أساس البرهان القائم على النظر العميق، والتفكير الهادئ، ولأجل هذا صاح القرآن الكريم في أصحاب العقائد الباطلة: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١]... ﴿ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾، [النمل:٦٤]. ولا عجب أن تكررت في القرآن الكريم هذه العبارات الموقظة للفكر من غفلته، والمحررة للإنسان من ربقة تقليده وجموده، مثل: ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ ﴾، ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ ﴾، ﴿ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾، ﴿ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾، ﴿ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾، ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾، ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾.. وحسبك أن تقرأ هذه الدعوة الصريحة إلى التفكير ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴾، [سبأ: ٤٦].

فالإسلام كما فرض على الناس أن يتعبدوا فرض عليهم أن يتفكروا، والعقيدة في الإسلام تقوم على العلم لا على التسليم الأعمى. ولم يخش القرآن الكريم عواقب الدعوة إلى النظر والتفكر والعلم أن تأتي بنتائج تناقض حقائق الدين ومسلماته، لأن فكرة الإسلام: أن الحقيقة الدينية لا يمكن أن تناقض الحقيقة العلمية، فالحق لا ينقض الحق، واليقين لا يعارض اليقين، إنما يعارض اليقين الظن، وتنافي الحقيقة الشك أو الوهم أو الافتراض.. ومن هنا لا يمكن بحال مناقضة صحيح المنقول لصريح المعقول، وإذ بدى

لنا في بعض الأحيان تناقض ظاهري، فلابد أن يكون المنقول غير صحيح، أو المعقول غير صريح.. وهذا يقع كثيراً: أن يظن ما ليس من الدين ديناً، وأن يحسب ما ليس من العلم علماً، فليس كل أفهام أهل الدين ديناً، كما أنه ليست كل نظريات أهل العلم علماً يقينياً ثابتاً.

إن القرآن يعتبر الحق داعية إلى الإيمان، ودليلاً إليه، قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، [الحج: ٥٤]، فهذه المعاني الثلاثة مترتب بعضها على بعض: فالعلم يتبعه إيمان ترتيب بلا تعقيب، ليعلموا فيؤمنوا. والإيمان تتبعه حركة القلب من الإخبات والخشوع لله تعالى.. وهكذا يثمر العلم الإيمان، ويثمر الإيمان الإخبات والتواضع لله رب العالمين[1].. إذن فالمعادلة الإسلامية للإنسان هي علم يتبعه إيمان يتبعه خشوع وإخبات ونفس مستقرة، وهذه المعادلة هي التي تحول الإنسان من حالة الاضطراب النفسي إلى حالة الاستقرار، ومن هيجانه إلى رقراقيته، فتزكي نفسه فيصبح سوي الطباع، طيب المعشر، يحظى برضا الله والناس. وهذه المعادلة سبقت الشعار السابق الذكر (أؤمن بما أرى)، أي إن الإسلام يؤكد أن الإيمان يبنى على اليقين والعلم ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾، [الأنعام: ٧٥].

على إن الإسلام العظيم فضل الإيمان بالغيب على الإيمان بالأدلة المحسوسة، فجعل أصحابه أصحاب الإيمان الكامل فعرّفهم القرآن الكريم بأنهم المؤمنون والمتقون، وكيف لا وهم الذين صفت نفوسهم وقلوبهم وصحّت عقولهم بحيث آمنوا بالغيب كله دون الأدلة التي يبحث عنها أصحاب هذا الجيل، فكان إيمانهم كاملاً بما أخبرهم ربهم إلى الدرجة التي تعاملوا معه وكأنهم رأوه، فاطمأنت قلوبهم وزكت أنفسهم فملكوا الدنيا وربحوا الآخرة.

يأمرنا الله تعالى بتدبر عظيم خلقه وعجائب قدرته ليزداد يقيننا وإيماننا وتقوى حجتنا

(١) عن كتاب (الرسول والعلم) للأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي، ص١٣-١٥ بتصرف.

في جدال المعاندين، فيقول سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾، [يوسف:١٠٥].. ولقد علمنا رسول الله ﷺ ضرورة التفكر والتدبر لآيات الله في كونه، فعن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ رَقَدَ عِنْدَ رَسولِ الله ﷺ فَاسْتَيْقَظَ فَتَسَوَّكَ وَتَوَضَّأَ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فَقَرَأَ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ فَأَطَالَ فِيهِمَا الْقِيَامَ وَالرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ ثُمَّ انْصَرَفَ فَنَامَ حَتَّى نَفَخَ ثُمَّ فَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ سِتَّ رَكَعَاتٍ كُلَّ ذَلِكَ يَسْتَاكُ وَيَتَوَضَّأُ وَيَقْرَأُ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ ثُمَّ أَوْتَرَ بِثَلَاثٍ فَأَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ فَخَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا وَفِي لِسَانِي نُورًا وَاجْعَلْ فِي سَمْعِي نُورًا وَاجْعَلْ فِي بَصَرِي نُورًا وَاجْعَلْ مِنْ خَلْفِي نُورًا وَمِنْ أَمَامِي نُورًا وَاجْعَلْ مِنْ فَوْقِي نُورًا وَمِنْ تَحْتِي نُورًا اللَّهُمَّ أَعْطِنِي نُورًا »[1]... وهنا نشير إلى أن نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء ومن ثم صلاته ودعاءه ليدلل على أهمية التدبر والتفكر في خلق الله لزيادة اليقين والإيمان ولاطمئنان القلب والجوارح.

المطلب الثاني

الإعجاز لغة واصطلاحاً

أ- تعريف الإعجاز:

كلمة الإعجاز لغة من (أعجز)، وأعجزه الشيء إذا لم يتمكن من مجاراته ومنه معجزة أي شيء خارق للعادة يأتي على يد الأنبياء عليهم السلام، والمصطلح معجزة، يستخدم لكل حالة صعبة المنال إذا تم تحقيقها، وكذلك إعجاز. يقول الإمام الرازي في هذه الكلمة: (أعجزه) الشيء فاته، و(عجّزه تعجيزاً) ثبّطه أو نسبه إلى العجز، و(المعجزة) واحدة و(معجزات) الأنبياء عليهم السلام، وهي غير المعجزة بفتح الجيم وكسرها

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه- باب صلاة المسافرين وقصرها برقم ١٢٨٠-، وأخرجه البخاري والنسائي وأبو داود وأحمد.

وتعني عدم القدرة، و(العجزُ) أي الضعف باب ضرب، و(عجِزت) من باب طرب[١].. وفي المحيط عرف الإعجاز كلاماً: أن يؤدى المعنى بأبلغ أسلوب، الارتفاع عن مدى قدرة البشر.

تأتي مادة (ع ج ز) في لغة العرب لمعنيين أخذ الإعجاز والمعجزة من أحدهما، وهو: الضعف والعجز، تقول عجز عن الشيء يعجز عجزاً فهو عاجز إذا ضعف.. وتقول: أعجزني فلان إذ عجزت عن طلبه وإدراكه، ومنه قوله تعالى عن لسان الجن: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾، [الجن: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، [العنكبوت: ٢٢]، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، [الشورى:٣١].. يقول ابن منظور: ومعنى الإعجاز الفوت والسبق، والمعجزة: واحدة معجزات الأنبياء عليهم السلام الدالة على صدقهم، وسميت معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بها. وفي الاصطلاح: أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة. وتعريف الإعجاز يشمل أوجه الإعجاز القرآني كلها والتي منها الإعجاز العلمي. والإعجاز العلمي هو إخبار القرآن الكريم والسنة النبوية بحقيقة أو حقائق أثبتها العلم التجريبي وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن النبي صلى الله عليه وسلم[٢].

يقـول الأسـتاذ عـبد الحمـيد العبيدي في معرض تفصيله في موضوع معجزة القرآن الخالدة:

يعـرف علماؤنـا القـرآن الكـريم بأنـه ((كلام الله المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسـلم المعجـز المتلو المتواتر))، فإن (كلام الله) نوعان القرآن الكريم والحديث القدسي

---

(١) مختار الصحاح، أبو بكر الرازي، ص٤١٣-٤١٤ بتصرف.

(٢) معجم الألفاظ الكونية في القرآن والسنة، إعداد الشيخ إسماعيل القريشي، مجلة الإعجاز، العدد الثالث، ربيع الثاني ١٤١٨هـ، ص٦٠-٦١.

وكلاهما من الله قولاً ومعناً، وفرقهما عن الحديث الشريف أن المعنى من الله والقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفرق القرآن عن الحديث القدسي يأتي من ثلاثة أوجه، الأول: أن القرآن الكريم معجز في نظمه وبيانه ولغته وبها يختلف عن الحديث القدسي. والثاني: أن قارئه له أجر مضاعف لعشر مرات وأكثر كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما الحديث القدسي أجره أقل من ذلك. والثالث: أنه به تتم الصلاة بينما الحديث القدسي لا يصلح في إتمام الصلاة إلا من وجه الدعاء وهذا محبب وليس بشرط.

وأما (المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم) فهو ما ثبت من أساليب الوحي التي جاءت بها السنة المطهرة والتي كان ينقلها سيدنا جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي بأشكال عدة كما جاء في السنة الصحيحة عنه صلى الله عليه وسلم.

وأما (المتلو) فهو ما يتلى منه تلاوة ولفظاً صحيحاً منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى يومنا هذا وإلى قيام الساعة.

وأما (المتواتر) هو ما صح بنقله متواتراً من جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما جاء من طريق أو طريقين يترك ولا يؤخذ به، وما جاء منقولاً عن جميع أصحاب رسول الله من كتبة الوحي فهو متواتر صحيح وهذا ما أجمع عليه علماء الأمة.

وأما (المعجز) -وهذا مقصدنا- فهو كلام الله والكلام صفة المتكلم أي لا يستطيع أن يأتي بمثله أحد ولا يستطيع أن يحيط بكل مقاصده أحد. فمهما كثرت التفاسير وتعددت أشكالها وكتبت البحوث وعقدت المؤتمرات فلن يستطيع أحد أن يحيط بإعجاز هذا الكنز العظيم ومثل هذا كمثل من يريد أن يضع البحر المحيط في إناء، ولله المثل الأعلى.

يقول الدكتور ((سمير الرجبو)) متحدثا عن نفس الآية الكريمة: (فمن فضل الله تعالى على عباده أن جعل القرآن متجدداً مصداقاً لهذه الآية الكريمة لذلك وضع في قرآنه الحقائق العلمية والكونية ما يعجز الناس المتقولين على القرآن وهذه الحقائق سيظهرها الله تعالى عبر العصور أي أن عطاء القرآن الكريم مستمر لجيلنا وللأجيال التالية إلى يوم

القيامة وهذا من إعجازه)[1]، وقد أشار المؤلف إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أخرجه البخاري في كتاب العلم: قال أبو هريرة رضي الله عنه: «حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعائين فأما أحدهما فبثثته فيكم وأما الآخر فلو بثثته لقطع مني هذا البلعوم»[*].. فمعلوم أن جبريل الأمين عليه السلام كان يتدارس القرآن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنة الأخيرة لحياته الشريفة صلى الله عليه وسلم، وكانت هذه الاجتماعات السرية لا يحضرها أحد سواهما.. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج لأصحابه بين الآونة والأخرى ليعلمهم أن يضعوا هذه الآية في المكان المخصص لها من السورة المعنية لها وبتسلسل أمره الله تعالى به، وهو ما يعرف بعلم المناسبة في علوم القرآن الكريم. فأية أسرار تحملها هذه التسلسلات المعجزة، أهي لغوية حسب؟، أم سرد قصصي حسب؟، أم للعظة والتذكير؟، أم لأسرار أخرى ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديث عديدة، الله ورسوله أعلم.

ب- تعريف المعجزة:

هي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة. يظهر على يد مدعي النبوة موافقاً لدعواه.

ج- شروط المعجزة:

١- أن تكون المعجزة خارقة للعادة غير ما اعتاد عليه الناس من سنن الكون والظواهر الطبيعية.

٢- أن تكون المعجزة مقرونة بالتحدي للمكذبين أو الشاكين.

٣- أن تكون المعجزة سالمة عن المعارضة، فمتى أمكن أن يعارض هذا الأمر ويأتي بمثله، بطل أن تكون معجزة.

د- الفرق بين المعجزة والكرامة والسحر:

قد يكرم الله تعالى بعض أوليائه من المتقين الأبرار بأمر خارق يجريه له، ويسمى

---

(١) رحلة بين الحقيقة والخيال في رحلة ذي القرنين ويأجوج ومأجوج، د. سمير الرجبو، ص٧٨.

(*) هذا الحديث يقصد به أن تفسير القرآن الكريم يحتاج إلى جهد عظيم، يراجع فتح الباري.

ذلك: الكرامة.

وثمة فرق شاسع بين المعجزة والكرامة ، لأن الكرامة لا يدعي صاحبها النبوة، وإنما تظهر على يده لصدقه في اتباع النبي. لأن هؤلاء الأبرار ما كانت تقع لهم هذه الخوارق لولا اعتصامهم بالاتباع الحق للنبي صلى الله عليه وسلم.

وهـذا يبين لنا أن شرط الكرامة للولي صدق الاتباع للنبي صلى الله عليه وسلم، لكن لـيس مـن شرطـه العـصمة ، فـإن الولي قد يقع في المعصية، أما الأنبياء فقد عصمهم الله تعالى.

أما السحر فهو أبعد شيء عن المعجزة أو الكرامة، وإن كان قد يقع فيه غرابة وعجائب، لكنه يفترق عن المعجزة والكرامة من أوجه كثيرة تظهر في شخص الساحر وفي عمل السحر.

فمما يفترق به الساحر عن الولي:

١ - ركوب متن الفسق والعصيان.

٢ - الطاعة للشيطان.

٣- التقرب إلى الشياطين بالكفر والجناية والمعاصي.

٤ - الساحر أكذب الناس وأشدهم شراً.

وأما عمل السحر فقد يكون مستغربا طريفا، لكنه لا يخرج عن طاقة الإنس والجن والحيوان، كالطيران في الهواء مثلا، بل هو أمر مقدور عليه لأنه يترتب على أسباب إذا عرفها أحد وتعاطاها صنع مثلها أو أقوى منها.

لذلك ما أن نواجه السحر بالحقيقة حتى يذهب سدى، ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾، [طه: ٦٩].

ومن هنا خضع السحرة لسيدنا موسى عليه السلام، لأنهم وهم أعرف الناس بالسحر، كانوا أكثر الناس يقينا بحقية معجزته، وصدق نبوته، فما وسعهم أمام جلال المعجزة الإلهية إلا أن خروا سجدا وقالوا: ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾[طه: ٧٠].

هـ- تنوع المعجزة وحكمته: تنقسم المعجزة إلى قسمين:

القسم الأول: المعجزات الحسية:

مثل: معجزة الإسراء والمعراج ، وانشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابع النبي صلى الله عليه وسلم، تكثير الطعام القليل...

القسم الثاني: المعجزات العقلية:

مثل الإخبار عن المغيَّبات، والقرآن الكريم.

وقد جرت سنة الله تعالى كما قضت حكمته أن يجعل معجزة كل نبي مشاكلة لما يتقن قومه ويتفوقون فيه. ولما كان الغرب قوم بيان ولسان وبلاغة، كانت معجزة النبي صلى الله عليه وسلم الكبرى هي: القرآن الكريم.

و- تحدي القرآن للعرب وبيان عجزهم:

١- لقد تحدى الله العرب - وهم أهل الفصاحة- بل العالم بالقرآن كله على رؤوس الأشهاد في كل جيل بأن يأتوا بمثله، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٣-٣٤].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]. فعجزوا عن الإتيان بمثله.

٢- ولما كبلهم العجز عن هذا، فلم يفعلوا ما تحداهم، فجاءهم بتخفيف التحدي، فتحداهم بعشر سور، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ١٣ -١٤].

٣- ثم أرخى لهم حبل التحدي، ووسع لهم غاية التوسعة فتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة، أي سورة ولو من قصار السور، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

يذكر الأستاذ محمود بن عبد العزيز الفداغ في كتاب (الجداول الجامعة في العلوم

النافعة) أن الإعجاز إثبات العجز، والعجز ضد القدرة وهو القصور عن فعل الشيء وإذا ثبت الإعجاز ظهرت قدرة المعجز، والمعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة.. وتكلم عن شروطها وأنواعها فذكر إنها نوعان حسية -كمعجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام- وعقلية كالقرآن الكريم[١].

ورغم قرب هذا المصطلح (المعجزة والإعجاز) الدال على الأمر الخارق المقرون بالتحدي السالم عن المعارضة[٢] إلى الذهن ، إلا أن المتتبع للمصطلح القرآني أو النبوي لا يجده على هذه الشاكلة، وما وجد في مادة (عجز) في الكتاب والسنة لا تذكر ما يدل على مثل هذا المصطلح إلا بألفاظ أخرى لها نفس الدلالة مثل (الآية، البينة، البرهان، السلطان) كما في سور الأنعام والإسراء وهود وإبراهيم والقصص والرحمن والبينة وغيرها وهو ما سنتطرق إليه لاحقاً. كما وأنك لا تجد مصطلح (إعجاز) في كتب التفسير وعلوم القرآن إلا في مواضع معدودة، وهذا لعمري لا يمنع من القول بأن المعنى المراد من التعريف الآنف الذكر كان يؤخذ من مصطلحات أخرى كانت متداولة عند العرب في وقت التنزيل وما بعده إلى أن أثرت اللغات واللهجات الأخرى على سجية العرب في الكلام واللسان.

أما أهل الأصول والعقائد والبلاغة فإنهم أفاضوا في استعمال هذا المصطلح أكثر من غيرهم كما في الموافقات للشاطبي والعقيدة الطحاوية ودلائل الإعجاز للجرجاني، يقول الأستاذ نعيم الحمصي في كتابه (فكرة إعجاز القرآن) في الصفحة ٤٥ ما نصه: (ولا ريب أن فكرة إعجاز القرآن كانت من أقوى البواعث على نشأة علم البلاغة إن لم تكن أقواها جميعاً).

وعن الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة نقرأ هذه الأسطر:

إن معجزة القرآن العلمية تظهر لأهل العلم في كل مجال من مجالاته، فهي ظاهرة في

---

(١) الجداول الجامعة في العلوم النافعة، محمود بن عبد العزيز الفداغ، ص ١٤٤-١٤٥.

(٢) تفسير القرطبي وفتح الباري ورسائل إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني ص ٧٥ ، وانظر كتاب الإعجاز العلمي في القرآن والسنة-تاريخه وضوابطه-، عبد الله بن عبد العزيز المصلح، ص١٢.

نظمـه، وفى إخـباره عن الأولين، وفى إنبائه بحوادث المستقبل، وحكم التشريع وغيرها، ولقد شاع مصطلح الإعجاز العلمي في عصرنا، للدلالة على أوجه إعجاز القرآن والسنة التي كشفت عنها العلوم الكونية ونظراً لجدة البحث في حقل الإعجاز العلمي في القرآن - بالنسبة لغيره من حقول الدراسات القرآنية - فسوف نقدم في هذا البحث تأصيلاً لهذا العلـم بغـية إعانـة المـشتغلين في هـذا الحقـل عـلى ارتـياد آفاقـه. ونـبدأ بتعـريف الإعجـاز. الإعجـاز لغـة: مـشتق مـن العجـز. والعجز: الضعف أو عدم القدرة، وهو مصدر أعجز بمعنى الفوت والسبق (انظر لسان العرب لابن منظور مادة عجز ٥/ ٣٧٠ والمفـردات للـراغب الأصـفهاني). والمعجـزة في اصـطلاح العلـماء: أمـر خارق للعادة، مقـرون بالـتحدي، سـالم من المعارضة (انظر معنى ذلك في تفسير القرطبى ١/ ٩٦وفتح الـبارى ٦/ ٥٨١). وإعجـاز القـرآن: يقصد به إعجاز القرآن الناس أن يأتوا بمثله. أي نـسبة العجز إلى الناس بسبب عدم قدرتهم على الإتيان بمثله. ووصف الإعجاز هنا بأنه علمـي نـسبة إلى العلم. والعلم: هو إدراك الأشياء على حقائقها أو هو صفة ينكشف بها المطلـوب انكـشافاً تامـاً (راجـع الـراغب الأصـفهانى: المفردات ص ٣٤٣ والشوكاني: إرشاد الفحول ص ٤) والمقصود بالعلم في هذا المقام : العلم التجريبي.

أمـا الإعجـاز العلمـي فهـو إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية المطهرة بحقيقة أثبـتها العلـم التجريبي التطبيقي اليقيني المثبت والمتحقق واقعاً ومشاهدةً الذي لا يعتريه التـبديل والتغيـير بمـرور الـزمن وثـبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن التنـزيل[(١)]. وبكـلام أوضـح مـا سـبق القرآن الكريم به من الإخبار عن أمور وظواهر وحـالات علمـية عـلى اخـتلاف أشـكالها وصـورها منذ تنزله المبارك، واكتشفها إنسان التطور والتقدم العلمي والتقني والرقمي والمعلوماتي والحاسوبي في القرون الأخيرة.

وعليه فإن الإعجاز العلمي هو إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتها العلـم التجريبـي وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول مما يظهر صـدقه فـيما أخـبر بـه عن ربه سبحانه وتعالى.. وفي ذلك شروط تتجلى بالآيات القرآنية

(١) كتاب الإعجاز العلمي في القرآن والسنة -تاريخه وضوابطه-، عبد الله بن عبد العزيز المصلح، ص١٨.

وعلاقتها بالآيات الكونية:

١ - مناسبة المعجزة القرآنية- بما تتضمنه من حقائق علمية-لعالمية الرسالة الإسلامية:

لما كان الرسل قبل محمد يبعثون إلى أقوامهم خاصة، ولأزمنة محدودة فقد أيدهم الله ببينات حسية مثل: عصا موسى عليه السلام وإحياء الموتى بإذن الله على يد عيسى عليه السلام وتستمر هذه البيانات الحسية محتفظة بقوة إقناعها في الزمن المحدد لرسالة كل رسول حتى إذا تطاول الزمن وتقادم وضعف أثر الرسالة الصافي، اختفت قوة الإقناع الحسية، وبعث الله رسولاً آخر بالدين الذي يرضاه، وبمعجزة جديدة وبينة مشاهدة . ولما ختم الله النبوة بمحمد ضمن له حفظ دينه وأيده ببينة كبرى تبقى بين أيدى الناس إلى قيام الساعة قال تعالى: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾، [الأنعام:١٩] ومن ذلك ما يتصل بالمعجزة العلمية. وقال تعالى:﴿ لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾، [النساء: ١٦٦]، وفى هذه الآية التي نزلت رداً على تكذيب الكافرين بنبوة محمد (انظر سبب النزول ابن الجوزي ٢/ ٢٥٧، الطبري ٥/ ٢٢، ابن كثير ١/ ٥٩٠، الجلالين ص ١٣٧) بيان لطبيعة المعجزة العلمية التي تبقى بين يدى الناس، وتتجدد مع كل فتح بشرى في آفاق العلوم والمعارف ذات الصلة بمعاني الوحي الإلهي. قال الخازن عند تفسير هذه الآية: "لكن الله يشهد لك يا محمد بالنبوة بواسطة هذا القرآن الذي أنزله عليك" (الخازن في مجموعة من التفاسير ٢/ ٢١٠) وقال ابن كثير: "أنزله بعلمه أي فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان وما يحبه الله ويرضاه وما يكرهه ويأباه وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل" (ابن كثير ٥٦٠/ ١) وقال أبو العباس ابن تيمية: فإن شهادته بما أنزل منه وأنه أنزله بعلمه فما فيه من الخبر وخبر عن علم الله يسن خبراً عمن دونه (الفتاوى ١٤/ ١٩٦) وإلى هذا المعنى ذهب كثير من المفسرين (ابن الجوزي ٢/ ٢٥٧، الزمخشري ١/ ٥٨٤، أبو حيان ٣/ ٣٩٩، الآلوسي ٦/ ١٩ ،٢٠، الشوكاني ١/ ٥٣٩، البيضاوي والنسفي والخازن في كتاب مجموعة من التفاسير ٢١٠، الجلالين ص١٣٧). وهكذا تسطع بينة الوحي المنزل على محمد بما نزل

فيه من علم إلهي يدركه الناس في كل زمان و مكان ويتجدد على مر العصور ولذلك قال: " ما من الأنبياء نبى إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة " (البخاري: فتح البارى ٩ / ٣، مسلم: كتاب الإيمان)، قال ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث: "ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة وخرقه للعادة في أسلوبه وفى بلاغته، وإخباره بالمغيبات فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شئ مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه فعم نفعه من حضر ومن غاب ومن وجد، ومن سيوجد " (فتح البارى لابن حجر: ٩/ ٧).

٢- **جريان العلم وراء ما أخبر عنه القرآن:** وبينة القرآن العلمية يدركها العربي والأعجمي، وتبقى ظاهرة متجددة إلى قيام الساعة، ففي القرآن أنباء نعرف المقصود منها لأنها بلسان عربي مبين، لكن حقائقها وكيفياتها لا تتجلى إلا بعد حين. قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ ﴾، [ص ٨٧- ٨٨]. قال الفراء في تفسير الحين أنه: "بعد الموت وقبله.. أي في المستأنف" (القرطبي ١٥/ ٢٣١) وذهب السدي الكبير إلى هذا المعنى (أبو حيان ٧/ ٤١٢) وقال ابن جرير الطبري: إن الله اعلم المشركين بهذا القرآن أنهم يعلمون نبأه بعد حين من غير حد منه لذلك الحين بحد، ولا حد عند العرب للحين (الطبري ٢٣/ ١٢١) .

٣- **استقرار الحقيقة المخبر عنها:** وشاء الله أن يجعل لكل نبإ زمناً خاصاً يتحقق فيه فإذا تجلى الحدث ماثلاً للعيان أشرقت المعاني التي كانت تدل عليها الحروف والألفاظ في القرآن وتتجدد المعجزة العلمية في قوله تعالى: ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾، [الأنعام :٦٧]، ويبقى النبأ الإلهي محيطاً بكل الصور التي يتجدد ظهورها عبر القرون .

وقال ابن جرير الطبرى: "أي لكل خبر مستقر، يعنى قرار يستقر عنده ونهاية ينتهي إليها ليتبين حقه وصدقه من كذبه وباطله" وسوف تعلمون يقول: "وسوف تعلمون أيها المكذبون بصحة ما أخبر به" (الطبرى ٧/ ١٤٧). وقال ابن كثير : أي لكل خبر وقوع، ولو بعد حين، كما قال تعالى : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾، وقال ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾، [الرعد ٣٨] (ابن كثير ٢/ ١٤٤)، وإلى هذا ذهب كثير من المفسرين.

(القرطبي ٧/ ١١، الشوكاني: ٢/ ١٢٨، الرازي: ٧/ ٢٦،٢٥ القاسمي: ٦/ ٥٧٥ أبو السعود ٣/ ١٤٧، البقاعي: ٧/ ١٤٥، ١٤٦) .

٤- أنباء الأرض والسماء في القرآن والسنة تتجلى في عصر الاكتشافات: إن خبر القرآن والسنة وما فيهما من أوصاف لما في الأرض والسماء، هو نبأ إلهي عما في الأرض والسماء ممن هو أعلم بما خلق فيهما من أسرار قال تعالى: ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، [يونس ١٨] فالخبر بما في الأرض والسماء نبأ عما في الأرض والسماء. لقد نزل القرآن في عصر انتشار الجهل وشيوع الخرافة، والكهانة، والسحر والتنجيم في العالم كله وكان للعرب النصيب الأوفى من هذه الجاهلية والأمية كما بين القرآن ذلك بقوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، [الجمعة : ٢]. في ذلك العصر وعلى تلك الأمة نزل الوحي وفيه علم الله، يصف أسرار الخلق في شتى الآفاق ويجلي دقائق الخلق في النفس البشريه يقرر البداية في الماضي ويصف أسرار الحاضر ويكشف غيب المستقبل الذي ستكون عليه سائر المخلوقات. وعندما دخل الإنسان في عصر الاكتشافات العلمية وامتلك أدق أجهزة البحث العلمي وتمكن من حشد جيوش من الباحثين في شتى المجالات يبحثون عن الأسرار المحجوبة في آفاق الأرض والسماء وفى مجالات النفس البشرية يجمعون المقدمات ويرصدون النتائج في رحلة طويلة عبر القرون ولما أخذت الصورة في الاكتمال والحقيقة في التجلي وقعت المفاجأة الكبرى بتجلي أنوار الوحي الإلهي، الذي نزل على محمد قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام بذكر تلك الحقيقة في آية من القرآن أو بعض آية أو في حديث لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – أو بعض حديث بدقة علمية معجزة وعبارات مشرقة وبهذا أنبأنا القرآن.

٥- اللقاء حتمي والمعجزة واقعة: إننا على وعد من الله عز وجل بأن يرينا آياته فيتحقق لنا- بهذه الرؤية – العلم الدقيق بمعاني هذه الآيات كما قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾، [النمل :٩٣] ومخلوقاته من آياته ومنها ما جاء في القرآن وصفاً ونبأ عن آياته في السماوات والأرض . وروى الطبري عن مجاهد: ﴿ سَيُرِيكُمْ

ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَا ﴾، قال: في أنفسكم والسماء والأرض والرزق (الطبري: ٢٠/ ١٨). وقال أبو حيان في البحر المحيط : سيريكم آياته : تهديد لأعدائه بما يريهم الله من آياته تضطرهم إلى معرفتها والإقرار أنها آيات الله وقيل: آيات في أنفسكم وسائر ما خلق مثل قوله: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَـٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾، وقيل: معجزات الرسول وأضافها إليه لأنه هو مجريها على يدي الرسول ومظهرها من جهته(أبو حيان: ٧/ ١٠٣) وبمثل ما قال أبو حيان قال البقاعي في نظم الدرر(البقاعي: ١٤/ ٢٣٠،٢٢٩) ومما سبق يتبين لنا أن البشرية على موعد من الله متجدد ومستمر بكشف آياته في الكون، وفى كتابه أمام الأبصار، لتقوم الحجة وتظهر المعجزة. أن الوحي في القرآن والسنة؛ يفيض بالخبر عن أوصاف المخلوقات، وهذه الأبحاث العلمية التجريبية؛ تتجه بدراستها وبحثها إلى نفس الميدان؛ الذي وصفه القرآن وتحدث عنه الرسول - صلى الله عليه وسلم -. فاللقاء حتمي والمعجزة – لا شك – واقعة. لقد جاءت العلوم البشرية التجريبية شاهدة بصدق ما أخبر به القرآن من تحريف سائر الأديان كما بين ذلك موريس بوكاي في كتابه "التوراة والإنجيل والقرآن في ضوء المعارف الحديثة"، والتي جاءت شاهدة ومجلية لدقائق المعاني؛ في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية - ذات التعلق بالأمور الكونية - وهذه مناكب دعاة الإسلام؛ على اختلاف تخصصاتهم العلمية، تتزاحم لبيان هذه المعجزات العلمية، وبدأ عدد من الدعاة، من المسلمين، يتجهون إلى بيان هذه المعجزات العلمية كما بدأ عدد من كبار علماء الكون من غير المسلمين، يتجهون إلى نفس الميدان مثلما فعل سبعة من كبار علماء الأجنة والتشريح وأمراض النساء من غير المسلمين في لجنة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في المؤتمر الطبي السعودي الذي عقد في الرياض عام ١٤٠٤ م فمنهم من أسلم مثل البرفيسور تاجاتات تاجاسن الذي أعلن إسلامه في أحد مؤتمرات الإعجاز العلمي وكما سنبين لاحقاً ومنهم من شهد بحقيقة المعجزة العلمية فحان حين تجلى معاني كثير من آيات القرآن الكونية، وعدد- في نفس المجال- من الأحاديث النبوية و﴿ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾، [الأنعام : ٦٧]، وإذا كان النقص يعتري- بعض الدراسات في مجال الإعجاز العلمي في القرآن والسنة فلا يصح أن يكون ذلك حكماً على

جميعها وإن هذا ليوجب على القادرين من علماء الإسلام أن يسارعوا لخدمة القرآن والسنة في مجال العلوم الكونية كما خدمها السلف في مجال اللغة والأصول والفقه وغيرها من مجالات العلوم الشرعية فنحن أمام معجزة علمية كبرى تنحني أمامها جباه المنصفين من قادة العلوم الكونية في عصرنا(١).

المطلب الثالث

تأريخ الإعجاز

قد يتصور بعض الناس أن الإعجاز وليد المرحلة الحاضرة، فنقول له كلا بالتأكيد، فالإعجاز القرآني مر بعدة مراحل بدأً بالإعجاز اللغوي وهو ما أعجز فصحاء اللغة في عصر التنزيل بأن يأتوا بسورة من مثله بعد أن أعجزهم أن يأتوا بمثله أو بعشرة سور من مثله كما نص القرآن الكريم. ثم جاء بعد ذلك الإعجاز الأدبي في القرآن الكريم ومن عمالقته الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني وهم من علماء القرن الخامس الهجري، وهناك من تكلم بإعجاز الصرفة من علماء المعتزلة والشيعة. وجاءت مرحلة أخرى هي مرحلة الإعجاز البياني وفيها تحدث الكثيرون عن الصورة الفنية ونظم ترتيب الكلمات بشكل حسي وفني رائع ومن المتحدثين في هذا الضرب صاحب كتاب (في ظلال القرآن) رحمه الله تعالى الذي يعتبر بحق من أروع من تكلموا وأبدعوا في هذا الضرب من الإعجاز. وإذ نعيش في عصر العلوم والأرقام فقد جاء رد القرآن الكريم أقوى من المؤامرة عليه، لما فيه من الإشارة والمثل العلميين ما يدحض كل متقول بعدم علمية القرآن، ففي القرآن الكريم حقائق علمية تتعلق بالعلوم الكونية والطبية والهندسية والرياضية الرقمية، على أن هناك من أشار إلى هذا من علماء الأمة كالمحاسبي والإمام الغزالي رحمهما الله.

وسنحاول في السطور التالية تلخيص تأريخ الإعجاز بمختلف أنواعه في ساحة الفكر الإسلامي:

إن استقراء المصادر العلمية الأصلية، يوضح لنا خلو القرن الهجري الأول ومعظم

(١) عن الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بمكة المكرمة.

الثاني تقريباً من الدراسات القرآنية التي تتصل بإعجاز القرآن والتي تستهدف الكشف عن مواطن هذا الإعجاز ووجوهه.. وما ذلك إلا لسببين[١] هما:

١- لم يستهو العقل المسلم في بدء الرسالة النظر في مثل هذه القضايا العميقة والمسائل الدقيقة، وذلك لارتفاع مستواها العلمي والديني عما هم عليه وقتئذٍ، فيكفيهم الإيمان بأن القرآن هو معجزة الرسول - صلى الله عليه وسلم - التي أيده الله تعالى بها.

٢- كان الصحابة والتابعون يتهيبون مقام القرآن الكريم ويقدسون آياته، ولذا لم يسمحوا لأنفسهم أن يلجوا مجالات الجدل والخلاف والقول في شرح آيات القرآن، فلقد كانوا يتحرجون من تفسير هذه الآيات، حتى لا يجدوا أنفسهم في عداد من يقول بالرأي.

وبعد عصر النبوة ثم عصر الخلفاء الراشدين وردح من زمن الدولة الأموية، فقدت السليقة العربية صفاءها، وبدأت الثقافات الفارسية واليونانية تأخذ طريقها إلى المجتمع الإسلامي على أيدي أبناء الأقطار التي فتحها المسلمون[٢].

يقول الأستاذ عبد بن عبد العزيز المصلح أمين عام هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة بمكة المكرمة:

(لقد تنبه المسلمون لأهمية الإعجاز في القرآن الكريم في وقت مبكر وأعطوه عنايتهم، وكانت بدايات تلك الاهتمامات منصبة على الإعجاز البياني لأنه الأظهر في إقامة الحجة في زمن النزول وما بعده لما كان للعرب من فصاحة وبيان، على أن هذا الاهتمام لم يكن في زمن الصحابة والتابعين لعدة أسباب منها قربهم من عهد التنزيل، أو انشغالهم بالجهاد والدعوة، أو لابتعادهم وعدم احتياجهم إلى القضايا الجدلية الشائكة

---

(١) مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري، د.أحمد جمال العمري.. وانظر كتاب الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق، الاستاذ الدكتور كارم السيد غنيم، ص٣٨ بتصرف.

(٢) مباحث في إعجاز القرآن، د. مصطفى مسلم، دار المنار-جدة،ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.. وانظر كتاب الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق، أ.د. كارم السيد غنيم، ص٣٨ .

التـي لا يبنـى علـيها عمل تعبدي يقربهم من الله تعالى، أو لقربهم من عجز الخصوم عن المعارضـة وإذعـانهم لتـصديق القـرآن الكريم ومن ثم انتهاء عهد المعارضة بإسلام أهل الجزيـرة كلهـم، وغـير ذلـك مـن الأسـباب. إلا أن دخـول أمـم غير عربية إلى الإسلام كالفـرس والـروم والهـنود وغـيرهم ومـا كان من شأن حضاراتهم السابقة وتأثيرها على بعض الناس دفع بأهل العلم من المسلمين إلى التصدي لكل هذا بعدة أساليب منها تبيان أوجه الإعجاز القرآني العديدة)[١].

ولعـل الفكـرة قـد نـشأت في أواخـر القرن الثاني الهجري، حين كانت البصرة تموج بالتيارات الفكرية المختلفة، من فقهاء ومحدثين ولغويين وأدباء وفلاسفة متكلمين، ودعاة إلى مـذاهب خارجـة عـن الإسـلام كالثـنوية والمانـوية والسُّمنية والدهرية والزرادشتية وغيرها. ولقد تطور علم الكلام بعد ظهوره تطوراً عجيباً، اتصل فيه بكل العلوم الدينية وغـير الدينـية، ووضـع المـتكلمون القـرآن موضـع بحـوثهم، وجعلـوه محـور جـدالهم ونقاشـهم، يحفـزهم لـذلك حرصـهم عـلى كـتاب ربهـم ورفعة شأنه، ومن ثم مواجهة الـشعوبية المتطرفة التي تغلغلت إلى النفوس وأثارت النعرات الكاذبة بقصد الإساءة إلى العرب والإسلام[٢].

أول مـن نسب إليه استخدام هذا اللفظ هو النظام البصري المعتزلي المتوفى سنة ٥٣١ هـــ الـذي قـال بالإعجـاز بالـصرفة – أي أن الناس قد صرفوا عن أن يأتوا بمثله– وهو مـذهب باطـل بطبيعة الحال، وقد تصدى له أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ[٣].

---

(١) عـن كـتاب الإعجاز العلمي في القرآن والسنة –تاريخه وضوابطه–، عبد الله بن عبد العزيز المصلح، ص ١١، بتصرف.

(٢) مفهـوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري، د.أحمد جمال العمري.. وانظر كتاب الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق، أ.د. كارم السيد غنيم، ص٣٩ .

(٣) عن كتاب الإعجاز العلمي في القرآن والسنة –تاريخه وضوابطه–، عبد الله بن عبد العزيز المصلح، ص ١٥، بتصرف، وانظر البرهان الكاشف للزملكاني وميزان الاعتدال للذهبي والأعلام للزركلي.

يفصل الأستاذ نعيم الحمصي في كتابه (فكرة إعجاز القرآن) بعض جوانب فترة القرن الثاني الهجري، إذ ظهرت في هذه الفترة جماعة الكلاميين بعد ظهور المعتزلة، وكان ظهور مذهبهم هذا رد فعل لظهور طبقة المفكرين ولمناهضة أرباب الديانات الأخرى للإسلام مناهضة علمية . وبعد ظهور هذا الإتجاه ظهرت جماعة المفسرين ثم جماعة الأدباء المنافحين عن القرآن، ومن أراد الإستزادة عليه الرجوع إلى المصدر الأصلي(١).

بعد ذلك جاء القرن الثالث الهجري ليحمل معه سمات أكثر وضوحاً لمسألة الإعجاز كمصطلح مستعمل، وهو ما بينه لنا الأستاذ الحمصي في كتابه فكرة إعجاز القرآن، وكذلك الأستاذ الدكتور كارم غنيم الذي نجده يقول:

(اضطر المفسرون في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع إلى الكلام في الإعجاز لأن القرآن يتطرق إلى التحدي في عدة مواضع منه، وإن كان ابن جرير الطبري (٣١٠ هـ) من أشهر رجال هذه الفترة، وكان مثالاً احتذاه المفسرون المتأخرون كلهم، فقد عمد إلى تبسيط الصورة وعدم تعقيدها كما فعل الكلاميون قبله وبعده، فكان لا يأتي ببراهين إلا من القرآن نفسه، ويكتفي بشرح آيات التحدي وجلائها. وقد جاء على أثره من المفسرين الأولين حسن بن محمد القمي (٣٧٨هـ) في القرن ذاته، كما لا ننسى الرمّاني (٢٩٦-٣٨٦هـ) الذي تحدث عن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم وكذلك الخطابي (٣١٩-٣٨٨هـ) الذي دحض فكرة الإعجاز بالصرفة. وقد ظهرت في هذا القرن ظاهرة لم تكن واضحة في القرن السابق وهي أن الأدباء أصبحوا يؤلفون كتباً مستقلة في البلاغة تعنى بالإعجاز القرآني)(٢).

جاء القرن الخامس الهجري، فكان بحق العصر الذهبي لبيان إعجاز القرآن ويرجع الأستاذ نعيم الحمصي هذا إلى الحركة الفكرية العامة التي نضجت في هذا العصر بعد أن انقضى دور الترجمة والنقل الذي قام به المسلمون، فانتقلوا إلى دور الهضم والإنتاج، وقد

(١) فكرة إعجاز القرآن، الأستاذ نعيم الحمصي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠م.
(٢) الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق، أ.د. كارم السيد غنيم، ص ٣٠، ٣٩،بتصرف.

ظهر الباقلاني (٤٠٣ هـ) ليؤلف كتابه المشهور (إعجاز القرآن) رداً على الحركة التي قامت في عهده والتي تعاكس فكرة إعجاز القرآن. وظهر أيضاً ابن حزم الأندلسي فألف كتابه (الفصل في الملل والنحل) في إعجاز القرآن، وكذا ظهر عبد القادر الجرجاني (٤٧١هـ) الذي ألف (دلائل الإعجاز) و (الرسائل الشافية) فتحدث عن النظم القرآني المعجز، وكذلك ظهر القاضي عبد الجبار (٤١٥هـ) الذي تكلم عن الإعجاز البلاغي واللفظي في الفصل السادس عشر من كتابه (المغني) .. واستمر هذا الإتجاه في القرن السادس الهجري فشرف بظهور كل من الراغب الأصفهاني (٥٠٢ هـ) والزمخشري (٥٣٨ هـ) وابن عطية الغرناطي (٥٤٢ هـ)، وكان من غير المفسرين رجال أفاضوا في مسألة الإعجاز وبينوا أوجه القرآن الكريم ومنهم الغزالي (٥٠٥ هـ)، والقاضي عياض (٤٩٦-٥٤٤ هـ) الذي ألف (الشفا بتعريف حقوق المصطفى - صلى الله عليه وسلم -) والذي تحدث فيه عن الأوجه الأربعة في إعجاز القرآن .. ثم ظهر فخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ) في القرن السابع، وكان من أشهر أعلام المفسرين فيه بل والمتحدثين عن إعجاز القرآن، وقد لحقه في قرنه القرطبي (٦٧١ هـ) صاحب (الجامع لأحكام القرآن) والبيضاوي (٦٨٥ هـ) صاحب (أنوار التنزيل)، ولا ننسى السكاكي (٦٢٦ هـ) صاحب (مفتاح العلوم) وابن أبي الأصبع المصري (٦٥٤هـ) .. ثم توالت القرون وجاء العلوي اليمني (٦٢٩-٧٢٩هـ) صاحب (الطراز) وابن تيمية (٧٢٨ هـ) وابن قيم الجوزية (٧٥١ هـ) وابن كثير (٧٧٤ هـ) وشمس الدين الأصفهاني (٧٤٩هـ) وبدر الدين الزركشي (٧٩٤ هـ) والفيروزآبادي (٨١٧ هـ) وجلال الدين السيوطي (٩١١ هـ) وأبو مسعود (٩٨٢ هـ) والشوكاني (١٢٥٠هـ) والآلوسي (١٢٧٠ هـ)، عبد الرحمن الكواكبي(١٢٦٥-١٣٢٠هـ)[1]. ولاننسى الدعوات العظيمة للتدبر العلمي التي أطلقها أبو حامد الغزالي، أبو الفضل المرسي، الفخر الرازي، وغيرهم من السلف الصالح.

---

(١) الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق، أ.د. كارم السيد غنيم، ص٣٠-٤٠، بتصرف.

في القرن الرابع عشر الهجري ظهرت النزعة العلمية بقوة واضحة وازداد نشاط العلماء المسلمين – وغير المسلمين أحياناً- في بيان أوجه الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، نظراً لأن لغة الزمن الحديث والمعاصر هي لغة العلوم والمخترعات والمكتشفات حيث أضحى الإلحاد اليوم هو الإلحاد العلمي الذي يبحث عن نظريات علمية كبدائل لفكرة الخلق وقدرة الخالق الحكيم مهيمناً على تفكير البشر. فقيض الله تعالى رجالاً وقفوا ضد هذا التيار المدمر وضمنوا تفاسيرهم إشارات، قصيرة أحياناً، ومفصلة أحياناً أخرى، في الإعجاز العلمي للقرآن الكريم ومنهم صاحب الزمان الإمام بديع الزمان النورسي في (رسائل النور)، الإمام محمد عبدة، محمد رشيد رضا في تفسيره المعروف (المنار)، محمد محمود حجازي في (التفسير الواضح)، سيد قطب في (الظلال)، طنطاوي جوهري في (الجواهر)، مصطفى صادق الرافعي صاحب (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية).

أما في قرننا الخامس عشر الهجري الذي نعيش فقد برز عدة كتاب ومفسرين ومؤلفين في هذا الضرب من علوم القرآن منهم محمد متولي الشعراوي صاحب (الخواطر)، سعيد حوى صاحب (الأساس)، أبو الأعلى المودودي صاحب (تفهيم القرآن)، أبو العزائم صاحب (أسرار القرآن)، ولا يفوتنا ذكر الدور البارز لكل من مصطفى محمود، كامل البوهي، سيد دسوقي، محمد فريد وجدي، محمد الطاهر بن عاشور، عبد الرزاق نوفل، محمود ناظم نسيمي، عبد المجيد الزنداني وآخرون كثر غيرهم إذ أصبح هذا الموضوع من أهم المواضيع التي حظيت بالاهتمام الكبير من لدن الباحثين والكتاب والمؤلفين من ذوي الاختصاصات العلمية المختلفة من المسلمين وغيرهم وأصبحت المؤلفات الحديثة في هذا الموضوع المهم بالعشرات وكلها فتوح وبركة وما ذلك إلا من نصر الله لكتابه ودينه[1].

---

(١) الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق، أ.د. كارم السيد غنيم، صفحات مختلفة، بتصرف.

المطلب الرابع

أنواع الإعجاز

يتجلى لنا وصف المصطفى صلى الله عليه وسلم للقرآن الكريم وأنواع إعجازاته بالحديث الشريف الذي يرويه لنا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: «أَمَا إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «أَلا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ»، فَقُلْتُ: مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «كِتَابُ الله فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ الله وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ الله وَهُوَ حَبْلُ الله الْمَتِينُ ونوره المبين وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الَّذِي لا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ وَلا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ ولا تَتَشَعَّبُ مِنهُ الآراء وَلا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ ولا يَمَلُّهُ الأتقياء وَلا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ وهُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾ مَن عُلِّم عِلْمُهُ سَبَق ومَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»(١).

فمعلوم أن للحديث علوماً عديدة نستطيع بها الحكم على الحديث بكونه صحيحاً، حسناً، أم ضعيفاً، متواتراً أم آحاداً، ومنها علوم الجرح والتعديل والإسناد وطبقات الرواة وشروط عدالتهم وغيرها، إلا أن المهم هو كيفية التعامل مع الحديث الحسن لغيره والضعيف بأصنافه، هل يعمل به أم لا؟، والقاعدة المهمة التي عمل بها أهل الحديث في هذا الموضوع هي التشدد في أحاديث التشريع والحلال والحرام، والتساهل في أحاديث الفضائل والترغيب والترهيب(٢) والتي منها الحديث الشريف الذي بيناه آنفاً.

ولو قسمنا أنواع الإعجازات القرآنية في هذا الحديث لوجدناه يشمل كل أمور الحياة

---

(١) أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وأخرجه الدارمي.

(٢) ومنها قول ابن حنبل وابن المبارك وابن المهدي، عن كتاب علوم الحديث للأستاذ الدكتور عبد الكريم زيدان، والأستاذ الدكتور عبد القهار داود عبد الله، ص ٤٩.

ومنها العلوم بل فيه بشرى للمسلمين في أن لهم قدم السبق في العلوم وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «وَلا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، مَن عُلّم عِلمُهُ سَبَق».

هذه البشارات هي مصداق قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل:٨٩]. لاحظ أن تنزيل الكتاب كما تبين الآية جاء لأربعة أسباب، أولها ﴿ ....تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ.... ﴾، وهذه الـ (كل شيء) هي كلية شاملة لكل أمور الدنيا والآخرة وليست مقتصرة على أمر دون آخر، ويدخل في نفس المعنى قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾، [يوسف:١١١]، ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾، [الروم:٥٨]. السبب الثاني هو: ﴿ ....وَهُدًى.... ﴾ أي هداية وصلاح لكل البشرية في أمور حياتها ودنياها كما في قوله تعالى في مكان آخر: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾، [صّ:٨٧]، وهذا السبب عام لكل البشرية. السبب الثالث هو ﴿ ....وَرَحْمَةً....﴾ للناس في خروجهم من الظلمات إلى النور ودخولهم الجنة في الآخرة، وتدخل ضمن المعنى ذاته قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾، [الأنبياء:١٠٧]، وهذا السبب أيضاً يشمل كل الناس. أما السبب الرابع فهو خاص للمسلمين فقط، ﴿ ....وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ.... ﴾، ولم يقل بشرى للعالمين بل حددها خاصة للمسلمين في أن لهم البشرى بالنصر والغلبة لهذا الدين وكذلك السبق العلمي لكل الأمم الأخرى إذا ما تدبروا القرآن وتمسكوا به. وإذن أعطانا القرآن الكريم البشرى ومفاتيح السبق ونحن الذين قصّرنا في ذلك كما فعلنا في غيره.

لقد قسم سلف الأمة إعجاز القرآن الكريم إلى عدة أشكال، فقد ذكر القرطبي في مقدمة الجزء الأول أن في القرآن الكريم عشرة صنوف من الإعجاز، منه النظم البديع المخالف لكل نظم معهود من لسان العرب ومن غيرها، والجزالة التي لا تصح من

مخلوق بحال، ومنها الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب، وفي هذا يقول ابن الحصار القرطبي المالكي – وهو أحد الصالحين من أهل الحفظ والحديث والفقه– كما جاء في ترتيب المدارك للقاضي عياض ٢/٥٥٨: (وهذه الثلاثة النظم والجزالة والأسلوب لازمة لكل سورة بل هي لازمة كل آية، وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر، وبها وقع التحدي والتعجيز). ومنها التصرف في لسان العرب، ومنها الإخبار عن الأمور التي تقدمت في أول الدنيا إلى وقت نزوله. ومنها أيضاً الوفاء بالوعد المدرك بالحس في العيان في كل ما وعد الله تعالى من أخبار مطلقة كوعده بنصر رسوله - صلى الله عليه وسلم - وإخراج الذين أخرجوه من وطنه، أو أخبار مقيدة بالشرط كقوله تعالى: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ﴾، [الأنفال: من الآية٦٥].. ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾، [التغابن:١١].. ﴿ ....وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣ ﴾، [الطلاق]. ومنها الإخبار بالمغيبات في المستقبل كإظهار الإسلام على الأديان الأخرى، ودخول المسجد الحرام ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾، [الفتح: من الآية٢٧]، ونصر الروم على الفرس الذي جاء الإخبار عنه في سورة الروم. ومنها ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قوام جميع الأنام في الحلال والحرام وسائر الأحكام، ومنها الحكم البالغة، ومنها التناسب في جميع ما تضمنه ظاهراً وباطناً من غير اختلاف، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾، [النساء:٨٢][(١)]... وقال آخرون أن فيه من الإعجازات ما لا يحيط به عقل بشر لقصور عقولهم، بينما ذكر آخرون ومنهم صاحب مناهل العرفان أن لكل جيل حصة من القرآن فنراه يقول في (ج٢/ ص٢٢٢):

(١) عن تفسير القرطبي، مقدمة الجزء الأول، بتصرف.. وانظر علوم القرآن الكريم، الأستاذ الشيخ عبد الرحيم فرغل البليني، تحقيق الدكتور رشيد نعمان التكريتي، طبع دار الرشد، بغداد، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م، ص ٧٤-٧٧، بتصرف.

(ومـن شـواهد مـا نذكـر أنـنا نلاحظ في كثير من ألفاظ القرآن أنها اختيرت اختيارا يـتجلى فـيه وجـه الإعجاز. من هذا الاختيار وذلك في الألفاظ التي نمر بها على القرون والأجـيال مـنذ نـزل القـرآن إلى الـيوم فـإذا بعض الأجيال يفهم منها ما يناسب تفكيره ويلائم ذوقه ويوائم معارفه وإذا أجيال أخرى تفهم من هذه الألفاظ عينها غير ما فهمته تلـك الأجـيال ولـو اسـتبدلت هذه الألفاظ بغيرها لم يصلح القرآن لخطاب الناس كافة وكـان ذلـك قـدحا في أنه كتاب الدين العام الخالد ودستور البشرية في كل عصر ومصر، فـسبحان من أنزل هذا القرآن مشبعا لحاجات الجميع وافيا تجارب الجميع ملائما لأذواق الجمـيع متفقا ومعارف الجميع مما يدل دلالة واضحة على أنه كلام الله وحده أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً)، وغير ذلك من الآراء.

وإذا أردنـا تقـسيم إعجـازات القـرآن العظيم على قدر عقولنا القاصرة فنقول وبالله التوفيق أن للإعجاز القرآني أقسام عدة فضلاً عن ضرورة إعجازه [١]نذكر منها:

١ - **لغوي**: إذ أعجز أساطين الفصحاء، وأخرس ألسنة فحول البيان، واحتار في أمره رجال الشعر والنثر، وتحيرت العقول واندهشت في أسلوبه الخلاب، ووقف أمامه الفكر. وهذا النوع يقسم إلى البلاغي والبياني.

٢ - **تـشريعي**: إذ اعتنـى القـرآن الكريم بتربية الفرد فحرر بعقيدة التوحيد عقله من سـلطان الخرافة والوهم والشرك، وفك أسره من عبودية الأهواء والشهوات حتى يكون عـبداً خالـصاً لله. ثـم انـتقل القـرآن الكريم بإعجازه التشريعي إلى بناء المجتمع عقائدياً واجتماعـياً واقتـصادياً وقـيام نظـام الحكم، حيث قرر قواعد ومبادئ الدولة الإسلامية، وأسس نظام الشورى وشرع لها المبادئ العادلة والمساواة الحقيقية بين الأفراد. وقرر أيضاً الزواجـر الاجتماعـية والعقـوبات الـرادعة وهـي الجـنايات والحـدود، فالقـرآن دستور تـشريعي كامـل يقـيم الحـياة الإنسانية على أفضل صورة وأرقى مثال دون فوارق طبقية اجتماعية أو اقتصادية ودون تمييز جنسي.

---

(٢) لاحظ الفصل الخامس -الإعجاز بالضرورة-.

٣- **غيبي**: اشتماله على علوم الغيب وقصص السابقين واللاحقين إضافة إلى ما سيكون من أمور الدنيا عند نهايتها.

٤- **صوتي**: إذ تنبعث من أصول تلاوته وأحكامها أصول الموسيقا وقواعد أحكامها، إضافة إلى روعة النظم الموسيقي للألفاظ القرآنية كما في سور عديدة ، وعلى سبيل المثال لا الحصر في الأجزاء الثلاثة الأخيرة منه.

٥- **نفسي**: إذ يبعث القرآن الكريم عند تلاوته شعوراً عجيباً في النفس البشرية حتى عند عتاة الفسقة والكفرة والجبارين من العرب وغيرهم، هذا الشعور هو خليط من الرهبة والهيبة والخشوع والإنقياد والذهول والراحة والطمأنينة والسكينة والبكاء والحزن بل والندم على ما فات من الذنوب وغيرها من خلجات النفس اللوامة. يقول الخطابي في "بيان إعجاز القرآن" في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب إليه الناس، هو صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً، إذا قرع السمع خلص منه إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه. تستبشر به النفوس، وتنشرح به الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه، عادت مرتاعة، قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، وتقشعر منه الجلود، وتفزع له القلوب، ويحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها.

٦- **قصصي**: فالمشهد القصصي القرآني ينقلك في آية واحدة نقلات زمانية ومكانية عديدة ومشوقة وبشكل متسلسل سهل ومتنوع أين منه أسلوب الدراما الحديثة، وهذا ما نشاهده جلياً في السرد القرآني لقصص الأنبياء والأمم السالفة، وهو واضح بأبهى صوره في سور يوسف، الكهف، مريم وغيرها. وعليه يعتبر القرآن الكريم المؤسس الحقيقي لهذا الأسلوب الفني.

٧- **علمي**: ويقسم هذا الصنف أيضاً إلى أنواع كثيرة في شتى مجالات العلوم الطبيعية والطبية كالفيزياء والكيمياء والطب والفلك والهندسة والرياضيات والإحصاء والأرض والبحار والنبات والحيوان والنفس البشرية وغيرها الكثير. فقد روعيت في القرآن الكريم في مجال العلوم الكونية أمور واعتبارات لا يصدر مثلها عن مخلوق وهي:

أن الله تعالى لم يجعل هذه العلوم الكونية من موضوع القرآن وذلك لأنها خاضعة لقانون النشوء والارتقاء.. ثم إن القرآن دعا إلى هذه العلوم من باب النظر والبحث والانتفاع بها في الكون من نعم وعبر ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾، [يونس:١٠١].. وبعد فإن القرآن حين عرض لهذه الكونيات أشعرنا أنها مرغوبة لله تعالى ومقهورة تحت مراده وتصرفه ونفى عنها ما علق في أذهان الضالين الذين توهموها آلهة ذات تأثير وسلطان بينما هي خاضعة لله وسلطانه، وكذلك أشعارنا أنها هالكة في نهاية الأمر ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، [القصص:٨٨]. وإعجاز القرآن العلمي ليس في اشتماله على النظريات العلمية التي تتجدد وتتبدل وتكون ثمرة للجهد البشري في البحث والنظر، وإنما إعجازه في حثه الإنسان على التفكير والنظر في الكون، فهو لا يشلّ حركة العقل في تفكيره أو يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم كما حدث للكنيسة عندما شلّت حركة العقل وهاجمت العلوم.

فالقرآن الكريم فيه إشارات علمية سبقت مسار الهداية وهي كثيرة جداً وجاءت في سياق الهداية للعقل البشري بأن يبحث ويتدبر من جهة، ومن جهة أخرى يرد على المتقولين بعدم علميته بل ويتحداهم من أن الله تبارك وتعالى سيريهم أن هذا الكتاب وهذا الدين هو الحق الواجب الإتباع، ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾، [الأنعام:٦٧][١].

وستظل إعجازات القرآن المختلفة إلى يوم القيامة شاهداً على عظمة هذا الكتاب الكريم وهذا الدين الخالد.

(١) الجداول الجامعة في العلوم النافعة، محمود بن عبد العزيز الفداغ، ص ١٤٤-١٤٥. وانظر كتاب الاستاذ الدكتور كارم السيد غنيم (الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق)،ص٤٢-٥١، بتصرف.

المطلب الخامس

التفسير والتأويل (*)

كما بينا في فصل سابق فإن التفسير هو ما كان راجعاً إلى الرواية، والتأويل ما كان راجعاً إلى الدراية، هذا ما قاله بعض علماء الأمة، فما معنى هذا الكلام ؟ لغرض فهم أكثر شمولية علينا معرفة ماهية التفسير ،مدارسه، تاريخه، تطوره، وفرقه عن التأويل.

التفسير في اللغة هو التفصيل من الفسر، وكلاهما بمعنى الإبانة وكشف المغطى، وهذا المعنى اللغوي يستعمل في الكشف عن المحسات والمعقولات، فتفسير كلام الله تعالى هو بيانه بشرح آياته وجلاء العبارات الموجودة فيه.. وأما التفسير كعلم من العلوم الإسلامية فهو علم نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها والأسباب النازلة فيها، وكيفية النطق بألفاظها ، وبيان مدلولاتها وأحكامها، وشرح معانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، ثم أن علم تفسير القرآن الكريم يعنى بترتيب الآيات: مكيها ومدنيها، محكمها ومتشابهها، ناسخها ومنسوخها، خاصها وعامها، مطلقها ومقيدها، مجملها ومفصلها، حلالها وحرامها، وعدها ووعيدها، وغير ذلك من التفاصيل. وقد عرف العلماء التفسير بأنه: علم يُبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد من حيث دلالته على مراد الله وبقدر الطاقة البشرية. يقول محمد شمس (التفسير هو الكشف والبيان، وهو ما لا نجزم به إلا إذا ورد عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أو عن الصحابة الذين شهدوا نزول الوحي وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع. وقد وضع علماء الإسلام شروطاً صارمة للتفسير لأهميته وخطورته وفي هذا الموضوع تفاصيل كثيرة، فارتأينا أن نبين كمثال على ذلك ما وضعه السيوطي رحمه الله تعالى في كتابه (الإتقان) من شروط توجب على القائم بالتفسير أن يستوفيها، وهي إتقانه لخمسة عشر علماً وهي:

١. علم اللغة: لمعرفة شرح مفردات الألفاظ ومعلوماتها بحسب الوضع.
٢. علم النحو: لأن المعنى يختلف باختلاف الإعراب.

(*) أنظر الفصل الثالث الخاص بعلوم القرآن / المصطلحات والمعاني.

٣. علم الصرف: فعن طريقه تعرف الأبنية.

٤. علم الاشتقاق.

٥. علم المعاني: وبه يعرف خواص ترتيب الكلام.

٦. علم البيان: وبه يعرف خواص الكلام من حيث موضع الدلالة.

٧. علم البديع: وبه يعرف وجوه تحسين الكلام.

٨. علم القراءات: وبه يعرف كيفية نطق الآيات ومخارج الحروف.

٩. علم أصول الدين.

١٠. علم الفقه وعلم أصول الفقه: وبه تعرف الأحكام من دلالات النصوص باعتبار المعاني وضعاً واستعمالاً في الخاص والأمر والنهي والمطلق والمقيد والعام والتخصيص والمشترك والحقيقة والمجاز، منطوقاً ومفهوماً، وضوحاً وخفاءً في الدلالات القطعية والظنية والغامضة.

١١. علم أسباب النزول(١):وبه تفهم الآية بحسب ما أنزلت فيه من أحداث.

١٢. علم الناسخ والمنسوخ: وبه يعرف المحكم وغيره.

١٣. الأحاديث الصحيحة المبينة للمجمل والمبهم.

١٤. الموهبة: وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم.

وقد مر التفسير عبر العصور الإسلامية بعدة مراحل كما قسمها الدكتور كارم غنيم(٢):

- المرحلة الأولى: التفسير المأثور عن النبي - صلى الله عليه وسلم - .
- المرحلة الثانية: التفسير المأثور عن الصحابة والتابعين، ويقسم إلى خمسة أقسام وهي تفسير القرآن بالقرآن، والتفسير بالسنة النبوية الشريفة، وبأسباب النزول،

(١) لاحظ الفصل الثالث الذي يحوي مختصر عن علم أسباب النزول وجمع وترتيب القرآن الكريم.

(٢) الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق، أ.د. كارم السيد غنيم، بتصرف. لمعرفة معاني المصطلحات لاحظ الفصل الثالث (مصطلحات ومعاني في علوم القرآن الكريم).

والتفسير اللغوي والبلاغي، والتفسير الإجتهادي، ومن أبرز من برع فيه سيدنا علي وسيدنا ابن عباس وسيدنا عبد الله بن مسعود والسيدة عائشة، ومن التابعين سعيد بن جبير ومجاهد وابن عيينة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

- المرحلة الثالثة: التفسير المعني باللغويات.
- المرحلة الرابعة: مرحلة التفسير بالرأي، وهو نوعان تفسير محمود وتفسير مذموم.
- المرحلة الخامسة : مرحلة إبراز أوجه الإعجازات القرآنية وعلى رأسها الإعجاز العلمي للآيات الكونية في القرآن.

كما يمكن تقسيم أنواع التفسير إلى: التفسير بالمأثور، التفسير بالرأي، التفسير الفقهي، التفسير الأدبي، التفسير اللغوي، التفسير الصوفي والإشاري، التفسير الموضوعي، التفسير البلاغي، التفسير الفلسفي، التفسير العلمي.. وبعد فإن هناك ثلاثة أصول للتفسير هي : تفسير القرآن بالقرآن، التفسير النبوي، والتفسير اللغوي[١].

أما التأويل فهو مأخوذ من الإيالة وهي السياسة، فكأن المؤول يسوس الكلام ويضعه في موضعه. والتأويل ملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ، وهو يعتمد على الاجتهاد ويعرف بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب واستعمالاتها بحسب السياق، ومعرفة الأساليب العربية واستنباط المعاني من كل ذلك[٢]..يقول الأستاذ كارم السيد غنيم في هذا: إن التأويل نوعان:

أ - نوع يعتمد على السماع ويفهم طبقاً لقواعد اللغة العربية .

ب- ونوع يعتمد على المشاهدة وبه تتجلى التفاصيل والكيفيات من خلال استقراء الواقع في الآفاق وما تحمله مسيرة الزمن من وقائع وأحداث من خلال ما يفتح الله به على أهل كل عصر من الكشوف والمنجزات العلمية فإذا استقر النبأ أرى الله عباده تفاصيل ودقائق ما حمله النص من دلالات فتكتمل الحقيقة

(١) الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق، أ.د. كارم السيد غنيم، بتصرف .

(٢) علوم القرآن، محمد حسن شمس، بتصرف .

ويتجلى الإعجاز ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، [الأنعام: ٦٧] .

والتأويل عملية معقدة جداً كما يصفها الدكتور أحمد الحجاجي، فالمؤول يجد في النص شيئاً لا يجده في ظاهره، لذا فقد اختلفت مواقف علماء المسلمين من التأويل وتعددت الآراء فيه، وقيل فيه الكثير:

فقيل هو نفسه التفسير، وقيل التفسير أعم من التأويل، وقيل العكس، وقيل التفسير هو بيان وضع اللفظ والتأويل باطن اللفظ فالتفسير إخبار عن دليل المراد والتأويل بيان حقيقة المراد، وقيل التفسير هو المعنى الظاهر للآية والتأويل هو ترجيح بعض المعاني المحتملة للآية. يقول السيوطي في إتقانه: التفسير هو كشف معاني القرآن والتأويل هو ما استنبطه العلماء العارفون من المعاني الخفية والأسرار الربانية اللطيفة التي تحملها الآية الكريمة. ويقول الماتريدي والقشيري وغيرهما: التفسير في المعنى لا يحتمل غيره فهو قطع وشهادة على أن الله تعالى عنى باللفظ هذا، والتأويل ترجيح أحد الاحتمالات بالدليل بلا قطع ولا شهادة. فالتفسير مقصور على السماع، فما بين في الكتاب والسنة يسمى تفسيراً، وليس لأحد أن يتعرض له باجتهاد ولا غيره، لأنه من باب الدراية، والتأويل ما استنبطه العلماء العالمون بمعاني الخطاب، فهو من باب الدراية[١]. ولقد أجمع علماء التفسير على أن الأصل في تفسير القرآن أن يقوم على ظاهر معنى ألفاظه، دون تأويل إذا لم يمنع منه مانع من العقل والشرع، وأما إذا منع من ظاهر المعنى مانع فهناك مذهبان:

١. مذهب السلف الصالح من علماء الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، الذي يقول بالأخذ بظاهر المعنى والتصديق به مع تفويض معرفة حقيقته إلى الله تعالى بما يتفق مع كمال ذاته وصفاته عملاً بالآية (٧) من آل عمران. ومن علماء السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل الإمام مالك بن أنس وسفيان الثوري

---

(١) لمزيد من التفاصيل في هذا الموضوع بالإمكان الرجوع إلى المراجع الأصلية والمصادر المتخصصة، ومن أكثرها تسهيلاً واختصاراً كتاب (الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق) للأستاذ الدكتور كارم السيد غنيم، وكذلك كتاب (التفسير والمفسرون).

ومقاتل بن سليمان وأحمد بن حنبل وداود بن علي الأصفهاني.

٢. مذهب الخلف من العلماء الذين تبعوهم، وقد رأوا باجتهادهم أهمية التأويل عند الضرورة منعاً من الوقوع بالتشبيه وقطعاً لدابر كل شبهة قد تعلق بالقلوب بشأن صفات الله تعالى، خصوصاً بعد أن اعتنق الإسلام خلق كثير من أمم من غير العرب كانت لها تقاليد وفلسفات وأفكار متأصلة في تركيبها وبنيتها الاجتماعية، وهذا ما قاله الطبري والغزالي والزمخشري والرازي والسيوطي وغيرهم من علماء الخلف.

على أن هذا الأمر من الخطورة بمكان إذا ترك دون تقنين، فعلى الرغم من أن علماء المسلمين قد أجازوا التأويل في التفسير إذا لم يكن هناك مانع شرعي من ذلك، فإن التوسع فيه قد فتح باب الشطط في التخيل والتصور وأوقع بعض المؤولين في مزالق خطيرة، فادعوا أن للقرآن ظاهراً وباطناً، وأن الباطن له عدة بواطن لا يعرفها حق المعرفة إلا أشخاص معينون يوحى إليهم، وأنهم يسمعون الكلام الموحى به، ولكنهم لا يرون من يكلمهم.. فكان التفسير الباطني للآيات القرآنية مليئاً بالكفر والزيغ والأباطيل والافتراءات والشرك والإلحاد كما أوضح ذلك العلامة البقليني، وتكونت فرق الباطنية الذين ادعوا أن النصوص ليست على ظواهرها وأن لها معاني باطنية لا يعرفها إلا المعلم، وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية[(١)].

يقول الأستاذ أحمد حسن الباقوري حول موضوع التفسير العلمي لآيات الله تعالى ما معناه: إننا يجب أن نأخذ الموضوع مأخذ الأمة الوسط لا تفريط ولا إفراط، فلا نجزم بأنها التفسير الذي قصده الله تعالى للآية، ولا نذهب مذهب قدامى المتورعة في تفسير القرآن وتأويله، فنقول كما كانوا يقولون ((آمنا بكتاب الله على مراد الله)).. ولسنا نرتاب -جنبك الله الشبهة- في أن كلا الأمرين غير خليق بالاعتناق لمن أراد إنصاف القرآن

---

(١) الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق، أ.د. كارم السيد غنيم، بتصرف.

الكـريم مـن نفسه. فأما الأمر الأول القائم على الجزم بمثل ما ذكره أهل التفسير العلمي للآيات، فهو مع أنه اجتهاد مثوب لا يستطيع أحد أن يزعمه وسيلة إلى صولة الجزم وبرد اليقـين، فـإن الـسبيل إلى هـذا اليقين لا يكون إلا بإخبار الله على لسان المعصوم ، أو ربما يكـون الخـروج علـيه والإعـراض عـنه خروجاً على ما تقتضي به الضرورة وتسوق إليه المـشاهدة، ورأي هـذا أو ذاك في مثل هذه الأمور الغيبية، ومما لم يرد به عن المعصوم خبر ولم تقـض بـه ضرورة حـس أو عيان.. ومن هنا نرى أن أسلافنا إذا لاح لهم حول آيات القـرآن معنـى لم يـرد بـه عـن المعصوم خبر ولا قضت به ضرورة حسن أو عيان، نراهم - على ميلهم إليه وارتباطهم له- لم يكونوا يضعونه موضع التفسير أو التأويل للآية، وإنما كانـوا يجعلـونه بمعزل عن تفسيرها وتأويلها، حتى يجمعوا بين الفضيلتين: فضيلة التأثم مـن القـول في القـرآن بغـير علـم، وفـضيلة التنبيه إلى أن في الآية معنى خليقاً بالرعاية والاعتبار.

وساق الأستاذ أحمد حسن الباقوري أمثلة على قوله هذا من تفاسير عديدة ومنها صاحب محاسن التأويل ومنها قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾، [الشورى:٢٩]، فيقول نقلاً عنه رحمه الله، فلا يبعد أن يتخابرا ويجتمعا فكراً، إذا لم يجتمعا جسماً، فلينظر الفلكيون إلى ما حوته هذه الآية المكنوزة في القرآن الكريم، وليعلم المعجبون منا بالعلوم العصرية الضاربون صفحاً عن العلوم الإسلامية، ما في كتاب الله من الحكمة والبيان.. ونص رحمه الله بقوله: لا يخفى أن القرآن العظيم نزل لبيان الحق وتعليم الدين أولاً وبالذات. لكن -تمهيداً لهذه السبيل- أتى بشذرات من العلوم الفلكية والطبيعية، وصرف بصائر الناس إلى التفكر في خلق السموات والأرض، وما هن عليه من الإبداع فوجه أبصارهم إلى التأمل في خلق الإنسان وما هو عليه من التركيب العجيب، وإلى غير ذلك من الأمور الفلكية والطبيعية في أكثر من ثلاثمائة آية، فالمفسرون -رحمهم الله- فسروا هذه الآيات وشرحوا معانيها على مقدار محيط علمهم بالعلوم الفلكية والطبيعية. ولا يخفى ما كانت عليه هذه الآلات في زمنهم من النقصان، فهم معذورون إذا لم يفهموا معاني هذه الآيات التي تحير عقول

فلاسفة هذا العصر المتضلعين بالعلوم العقلية. لذلك لم يفسروا هذه الآيات حق تفسيرها. بل أولوها وصرفوا معانيها عن الحقيقة إلى الكناية، أو إلى المجاز.. ذلك ما ذكره العلامة جمال الدين القاسمي سنة ١٩١٤م وهو أحد طلاب الإمام محمد عبدة.

وأما الأمر الثاني الذي يطبق فيه الآخذون به في شعارهم القائل ((آمنا بكتاب الله على مراد الله))، فلا ندخل في تعليل الأسباب ونلهث وراء الفلسفة والعلوم والاجتهاد فإنه غلو شديد في الاحتياط ينتهي بسالكي سبيله إلى التعطيل وتجريد القرآن عن معانيه الداعية إلى الانتفاع منه.. ولو أن المسلمين حرموا نعمة الاجتهاد، ومنعوا أن يعملوا آراءهم في كتاب الله – متقيدين بلغته ومقاصده- لحرموا خيراً كثيراً. وقد ثبت في أصول الفقه – على ما يروي ذلك العلامة الفخر الرازي في كتابه مفاتيح الغيب- أن المتقدمين إذا ذكروا وجهاً في تفسير الآية فإن ذلك لا يمنع المتأخرين من استخراج وجه آخر في تفسيرها، ولولا جواز ذلك لصارت الدقائق التي استنبطها المتأخرون في تفسير كلام الله تعالى مردودة باطلة، ومعلوم أن هذا القول لا يقول به إلا مقلد لا وزن له.. وربما قال قائل: أوليس الله تعالى قال في كتابه العزيز: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾، [آل عمران:٧]، وعلينا أن نؤمن بالمتشابه على مراد الله وإن لم نفهمه، فنفوض الأمر فيه إلى الله؟، فيكون مثل المفوضين في المتشابه كمثل الذين يقولون: آمنا بكتاب الله تعالى على مراده. نقول: صحيح أن أهل السنة والجماعة – وهم أهل العلم الصحيح- يقفون على قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ثم يبتدئ بقوله: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾، أي إن الله تعالى هو العالم بتأويله ومعناه، إلا أن ذلك لا يمنع من اجتهاد المجتهد بناء على أسس علمية رصينة، لكن لا يأخذ هذا من باب الإلزام فإن أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر الاجتهاد، وفي جميع الأحوال يكون اليقين والإيمان ملازمين للعالم والمجتهد بما جاء في كتاب الله على مراد الله.وهؤلاء الراسخون في العلم يأتم بهم ويذهب مذهبهم اتباعهم والآخذون عنهم،

وعلى ذلك لا يكون إيمان المسلمين بالقرآن قائماً على التعطيل ولكنه يكون قائماً على الفهم، وحسن التأويل، وكل تأويل يزيد المسلم اطمئناناً إلى فهم الآية من كتاب الله واجب عليه أن يأخذ به، وأن يجري على سنته، ما دام متعبداً بحدود اللغة التي نزل بها، وملتزماً حدود الشريعة التي أوضح معالمها ورفع أعلامها(١).

إن الإسلام دين الوسط فلا يمنع التدبر والتفكر ولا يلزم الناس بما لم يؤثر عن رسول الله ﷺ فيعطي الأمور حقها من الربط والتأمل – وليس التفسير– وللناس في ذلك مذاهب فمن شاء أخذ به ومن شاء تركه فالعبرة في تذكير الناس بكتاب ربهم وسبقه للعلوم وليس بالدخول في جدال سفسطي يقسي القلوب وينخر المحبة في الله والاعتصام بحبله المتين.

وهنا أود أن أشير إلى حقيقة مهمة وهي: إن النظر إلى الصور المختلفة لكتاب الله المنظور أي الكون تعطي انطباعات مختلفة للناظر فمنهم من يعجب به جميعاً، ومنهم من يركز النظر إلى النجوم، ومنهم من يعجب بالبحر، أو الغروب، أو الطيور المهاجرة، أو بما تحت البحار وأعماق الأرض وهكذا. وكذلك الحال للقرآن والكون المسطور ((أو الكتاب المسطور)) تنظر إليه وتقرأه فتجد فيه من المناظر والكنوز والإعجازات ما لا تنتهي عجائبه حتى قيام الساعة كما أخبر المصطفى ﷺ، فمهما حاولت وصفه والولوج إلى أسراره فلا تستطيع أن تعطيها حقها، وهذا الكنز العظيم مهما أخذت منه فلا ينقص منه شيء فهو منهل لنا كما هو أمانة في أعناقنا نصونه ونخدمه جيلاً بعد جيل ونسعى للنهل من عيونه الرقراقة وكنوزه البراقة ما حيينا كما فعل أسلافنا وسيفعل أحفادنا حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

إذن للتفسير القرآني أنواع وأساليب مختلفة وهو يختلف عن التأويل الذي يعني فيما يعنيه التفسير التفصيلي والدخول في أعماق المسائل. وقد وردت كلمة (التأويل) ثلاث

---

(١) خاتمة الأستاذ أحمد حسن باقوري على كتاب (ويسألونك عن ذي القرنين) لمولانا أبو الكلام آزاد، ص ١٨٢ – ١٨٩، بتصرف.

مـرات في سـورة يوسف ومرتين في الكهف. والتأويل والاستنباط أمران مباحان للفكر الإسلامي على مر العصور دون شرخ لأصول وأطر التفسير العامة ليس في علوم القرآن التقلـيدية المعـروفة كاللغة والبلاغة والبديع والبيان والمعاني والنحو والصرف، وأسباب النـزول، والناسـخ والمنسوخ، وعلـوم القـراءات، وأصـول الـدين، والفقـه وأصوله، ومقاصـد الشريعة، والحديث وعلومه فحسب، وإنما في كل العلوم الدنيوية الأخرى- إذ أن التفسير لعموم اللفظ لا لخصوص السبب- مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء:٨٣]، وقوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأعراف :٥٣].

إن تأويل نصوص القرآن والسنة نوعان كما يقول الشيخ الزنداني في كلمته إلى المؤتمر الثاني للإعجاز الطبي في القرآن والسنة الذي انعقد بالقاهرة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م وهما:

- نوع يعتمد على السماع ويفهم طبقاً لقواعد اللغة العربية التي نزل بها القرآن، وما صح في بيانها من النصوص والآثار.
- نـوع يعـتمد على الرؤيا والمشاهدة، وبه تتجلى التفاصيل والكيفيات، وسبيله مشاهدة هـذه الحقائق في الواقع في كل الآفاق وفي المعامل والمختبرات، أو فيما تحمله لنا مسيرة الزمن من الوقائع والأحداث. فإذا تضمنت بعض نصوص الكتاب والسنة دلالة على سنة من السنن الكونية أو حقيقة من الحقائق العلمية فلا بد أن تحمل ألفاظ النصوص معنى هذه الدلائل بطريقة يتغير معها المعنى ولا يلتبس بها المراد، وأن تتوارث أجيال الأمـة ذلـك المعنـى الـصحيح جيلاً بعد جيل طبقاً لقواعد اللغة التي نزل بها القرآن الكـريم وفهمهـا المخاطـبون وقـت نـزوله، لأنه يستحيل أن يغلق فهم معنى آية من

كتاب الله تعالى على أهل جيل بأكمله، وهذا من مقتضى الحفظ الذي ضمنه الله تعالى لكتابه. يقول الأستاذ الدكتور كارم غنيم: (وبعد فإذا اعتبرنا الكلام في تجلية جوانب الإعجاز العلمي للقرآن الكريم ضرباً من ضروب التأويل، فإن التأويل غير الملتزم بالضوابط والأصول ما هو إلا رأي شخصي مردود على صاحبه، وباب الاجتهاد مفتوح وليس مقصوراً على فريق دون آخر، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده وإلى أن تقوم قيامة الناس)[(١)].

ولعلنا هنا نقف باحترام لكل العاملين في مجال توضيح هذه العلوم للأمة، والمتصدين لهذه المسؤولية العظيمة كثر، ولكن هناك إنجازات مميزة تفرض نفسها على الواقع الثقافي الإسلامي، ولعل من أبرز وجوهها العمل الطيب الذي قام به مجموعة من المؤلفين وهو كتاب (معجم تفاسير القرآن الكريم)، والذي صدر الجزء الأول منه عام ١٩٩٧، ثم رأت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة أن تعيد نشر الجزء الأول مع الجزء الثاني في هذه الطبعة، وذلك بالتعاون مع دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في سلسلة الدراسات الإسلامية. وجاء الجزء الأول شاملاً لتسعة وثمانين تفسيراً من تفاسير القرآن الكريم صدرت في مختلف العصور، قام بإعداده رهطٌ من علماء جامعة القرويين في فاس بالمملكة المغربية.. وقد لقي هذا المعجم قبولاً حسناً عند صدوره الأول في مختلف الأوساط العلمية والمحافل الثقافية التي تعنى بإحصاء العلوم الإسلامية بخاصة. وأما الجزء الثاني فقد جاء جامعاً لمائة تفسير مما لم يرد في الجزء الأول. واتبع المصنف في هذا الجزء منهجاً شرحه في المقدمة التي كتبها بقول: "أن مفهوم التفسير، عندي، يقوم على أن التفاسير إما كلية، أو جزئية، والاهتمام ينصب بالدرجة الأولى على التفاسير الكلية المستوعبة، أما التفاسير الجزئية لبعض أجزاء القرآن، فهي من الكثرة والتنوع بحيث لا يمكن حصرها، على أنه يعتبر منها ما يختص بتفسير سورة أو عدة سور، أما تفاسير بعض الآيات الخاصة، فلا تعدُّ ولا تحصى، ومن تصميم التفسير ومهمّه، تفسير آيات الأحكام، وقصص الأنبياء المأخوذة من القرآن، وكتب أسباب النزول، وكتب الناسخ والمنسوخ،

(١) الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق، أ.د. كارم السيد غنيم، بتصرف.

وكتب غريب القرآن، وإعرابه، ونظائر القرآن، وكتب القراءات، لا التجويد، بشرط أن تكون تعني بالتوجيه والتعليل.. " .

من خلال هذا المفهوم، وفي إطار هذه الرؤية الشاملة، وعملاً وفق هذا المنهج، قام المصنف، في الجزء الثاني بالتعريف بمائة نص زائدة على ما في الجزء الأول من قبل، بين مخطوط ومطبوع مما وقف عليه، ويشير في المقدمة إلى أنه " جمع مائة أخرى وهي في متناول اليد " . وتجدر الإشارة إلى أن المنظمة الإسلامية أنجزت بعملها هذا معجماً لتفاسير القرآن الكريم لم يسبق أن عرفته المكتبة الإسلامية بهذه الإحاطة والاستيعاب والشمول.

لقد ظلّ الصحابة والتابعون بعد أن التحق الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالرفيق الأعلى، يتدارسون القرآن الكريم مفسرين آياته، مستنتجين منها ما يعنُّ لهم من قضايا وأحداث، فقد كان لهم مصدراً للمعرفة، والعين الثرّة التي تتدفق عطاء، على مستوى العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلمية جميعاً، فشغلتهم دراسة القرآن الكريم عن كل شيء؛ يتعبدون به في صلواتهم وتهجدهم، وينصاعون لتوجيهاته في تشريعاتهم وأمور دينهم ودنياهم، ويحتكمون إليه في قضاياهم ومشكلاتهم ولكي يفهموه حق فهمه اهتموا بشرح كلماته وبيان معانيه، وتفسير أحكامه، فكان القرآن الكريم محور كل العلوم وهدف كل الدراسات على مر العصور والأزمان... ومن حقائق التاريخ أن التفاسير المبكرة وصلت كلها تقريباً في مسلسلات الرواة، وأسانيد القراء، وهي من خصوصيات الثقافة الإسلامية المروية بالأسانيد. وكان لا بد أن يهتم الباحثون بالمراجع الأصلية للثقافة الإسلامية في علوم القرآن والحديث التي يعتمد عليها عند دراسة مناهج المفسرين ومذاهبهم، لذا قامت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، تيسيراً للرجوع إلى أمهات هذه المراجع، بوضع معجم لتفاسير القرآن الكريم، يرصد جهود المفسرين، ويبحث مذاهبهم في التفسير، ويتقصى مصادر دراساتهم، ويقدم نماذج من أعمالهم مما يمكّن الباحث من معرفة جهد كل مفسر ومذهبه لئلا يخطئ القصد والهدف، وحتى لا يلتبس عليه سبيل الهدى، فيضلّ عن الاستفادة منه.

المطلب السادس

البعد المستقبلي في الخطاب القرآني

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾، [الإسراء:٨٩]، ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾، [الروم:٥٨]، ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾، [الزمر: ٢٧].

والتصريف في اللغة هو التفصيل وهو قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس:٣٧]، ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف:١١١].

ففي الآية الأولى (سورة يونس) نلاحظ أن تفصيل الكتاب جاءت لتنفي عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – صفة افتراء أو اختراع القرآن من عنده – حاشاه – وما ذاك إلا بتفصيل كل أمور الحياة من لغة وبلاغة وتشريع وقصص غيبية من التأريخ أو من المستقبل وحياة ما غاب عن الحس البشري من أكوان ومخلوقات كالملائكة والجن والشياطين إضافة إلى الأمور العلمية في الآفاق والأنفس والتي يبلغ عدد آياتها التصريحية والتلميحية والاستنباطية أكثر من ١٠٠٠ آية في كافة مجالات العلوم الفيزيائية والكيميائية والكونية والطبية والهندسية والرياضية وهو أكثر بكثير من آيات العبادات والمعاملات التي استنبطت منها ومن علوم الحديث علوماً فقهية عديدة، أي باختصار (تفصيل كل شيء) وهو ما عبرت عنه الآية الأخرى من سورة يوسف، وهو أيضاً قوله تعالى في سورة البينة ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ ﴾ والخطاب مفتوح لكل

مشركي وكفار العصور والأزمان بعد بعثته - صلى الله عليه وسلم - وإلى يوم القيامة لأن الكتب القيمة التي هي تفصيل كل شيء - وليس العبادات فقط- موجودة ضمن الصحف المطهرة التي أنزلت على المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وكما تنص الآية المباركة.

ولعل أهم ضرورة لإعجاز القرآن في مجال العلوم وسبقه لها هو كونه الكتاب الخاتم المعجز لكل العصور والأمم على اختلاف ألوانهم وثقافاتهم ولغاتهم وتقاليدهم وعلومهم، فلو كان الأمر يخص البلاغة لاختص القرآن بالعرب فقط، وهذا مخالف لنصوص عديدة في القرآن الكريم من أن الكتاب الخاتم والرسول الخاتم جاء للناس- بل للثقلين- كافة وإلى قيام الساعة، وهو الوعد الإلهي الخالد ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣][١]. وإذن تكفل الخطاب القرآني بالرد على كل الفتن والضلالات والأفكار المنحرفة وإلى قيام الساعة كما جاء في الحديث الشريف آنفاً، وليس فقط على الكفار والمشركين وقت النزول، أي أن هناك بعداً مستقبلياً في الخطاب القرآني يرد به على كل من يتجرأ أن يقف ضد الوحدانية بشقيها الألوهية والربوبية أو يمنع شرع الله تعالى من أن يطبق في الأرض.

سنضرب مثلين اثنين عن البعد المستقبلي في القرآن الكريم، إذ من المعروف أن أحد أسس التفسير هو علم أسباب النزول الذي يبين سبب نزول الآية فيأتي التفسير الخاص بتلك القصة أو الحادثة التي تأتي بعد تحد أو سؤال اليهود أو استفزاز أو واقعة لقريش أو المنافقين أو تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم بعد أمر أهمه أو تعليم أو تشريع للأمة في أمور دينها وغير ذلك من الأسباب، على أن أغلب العلماء اتفقوا أن التفسير يكون لعموم اللفظ لا لخصوص السبب. ومع ذلك نلاحظ أن أغلب الآيات العلمية لم يتفق علماء التفسير على أسباب نزولها أو أنها ليس لها سبب نزول أصلاً فنزلت هكذا، كما وأن فيها

---

(١) انظر الفصل الخامس المتعلق بضرورة الإعجاز .

من المحكم غير القابل للنسخ لأنها آيات القدرة والخلق وليست آيات الأحكام والعبادات والأخلاق والمعاملات(*)، فضلاً عن كونها تحمل على الحقيقة لا على المجاز رغم أن المفسرين من السلف الصالح قد حملوا بعضها على المجاز[1]، وهنا يأتي البعد المستقبلي في الخطاب الذي يعتمده القرآن الكريم... فلنتدبر قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠]... فبالله عليكم ما لقريش ولأمور خلق السموات والأرض أو خلق الكائنات، وهل كانت من ضمن اهتماماتهم؟، وما قرأنا في السير أن اليهود سألوا ذلك أيضاً.. جاء في كتب الحديث ما نقله أهل السير كالبخاري وغيره من أن البدء كان الله تعالى وحده.. فقد أخرج البخاري في باب بدء الخلق حديثاً شريفاً برقم (٢٩٥٣)، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِي اللهُ عَنْهمَا قَالَ دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَعَقَلْتُ نَاقَتِي بِالْبَابِ فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ: «**اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ**»، قَالُوا قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا مَرَّتَيْنِ ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ: «**اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ**»، قَالُوا قَدْ قَبِلْنَا يَا رَسُولَ الله قَالُوا جِئْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ، قَالَ: «**كَانَ الله وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ**»، فَنَادَى مُنَادٍ ذَهَبَتْ نَاقَتُكَ يَا ابْنَ الْحُصَيْنِ فَانْطَلَقْتُ فَإِذَا هِيَ يَقْطَعُ دُونَهَا السَّرَابُ فَوَالله لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ تَرَكْتُهَا.. وَرَوَى عِيسَى عَنْ رَقَبَةَ عَنْ قَيْسِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ سَمِعْتُ عُمَرَ رَضِي اللَّهم عَنْهم يَقُولُ قَامَ فِينَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مَقَامًا فَأَخْبَرَنَا عَنْ بَدْءِ الْخَلْقِ حَتَّى دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ وَأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ حَفِظَ ذَلِكَ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ.

لكن هذا الحديث لم يكن سبباً لنزول هذه الآيات الكريمات.. فلم إذن نزلت الآية؟،

(*) هناك من آيات المثال العلمي ما صنف من المتشابه، ومنها ما صنف من المحكم وهو الأقل، ولكن الحقيقة هي أن آيات الحقائق العلمية وبعد إثباتها اليوم بشكل لا جدال فيه أصبحت في طور الآيات المحكمة.

(١) راجع موضوع مصطلحات ومعاني في علوم القرآن الكريم الذي بيناه في فصل سابق .

ولمن الخطاب؟!... الخطاب هنا مستقبلي وهو لكفار من نوع آخر وهم، والله أعلم، ملحدوا زماننا الحاضر من يهود أو متهودي هذا العصر، فأكبر نظريتين علميتين تتعلقان بأخطر وأهم مسألتين ألا وهي الخلق للكون والإنسان، واللتان عملتا على تأسيس مدرسة الإلحاد في عصرنا هذا هما نظريتا (الإنفجار الكبير) والخاصة بنشأة الكون، و(أصل الأنواع) والخاصة بنشأة الكائنات ومنها الإنسان. ذلك أنهما – على الرغم من دحض الثانية علمياً فيما بعد وبشكل نهائي، وأما الأولى فحصلت لها تعديلات عديدة- نحتا دور الخالق واعتبرتا أن المسألة خاضعة للصدفة الذكية والزمن وغير ذلك من التبريرات المضحكة، وانساق وراءهما خلق كثير فتكون التيار العلماني الناكر لدور الخالق تحت شعار أؤمن بما أرى (Seeing is believing)، فجاء الجواب القرآني المعجز وبكلمات قليلة، فرتق السموات والأرض وفتقهما هو أصل الكون[*]، والماء هو أصل الأحياء، أفلا يؤمن هؤلاء الملحدون[١].

في هذا السياق يقول ستيفن هوكنغ عملاق الفيزياء الحديثة وهو يشبه الكون بكرة هائلة ((بأن الكون قد بدأ في نقطة في قطبها بالانفجار الأول، وهو لم يصل إلى خط استواء توسعه النهائي في هذه الكرة بعد، وسيرجع إلى نقطة انفجاره الأول بعد غلبة قوى الجذب على الدفع، فيعود الزمن وتكون الرجعة غير نظامية، أو سيعود للانكماش نحو قطب التحكم الموازي لقطب الانفجار في الطرف الآخر من الكرة في نقطة سماها (big crunch). وفي كلا الحالتين فإن للمادة بداية ونهاية وللزمن بداية ونهاية وهما يتحركان بثلاثة أسهم.. ولذلك قرر هوكنغ (أنه ما دام للزمن بداية فنحن نستطيع أن نفترض وجود الخالق)))[٢].. وهنا يجد المحلل العلمي مدى توصل الفكر العلمي لنتيجة

(*) الرتق في اللغة يعني الجزء الواحد ويطلق على القماش، والفتق يعني الإنفصال-أنظر مختار الصحاح ولسان العرب-.

(١) ارجع لكتابنا (الفلك) وهو الكتاب الثالث الثالث ضمن سلسلة ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية، طبع دار الكتب العلمية ببيروت، وكذلك كتابنا (تفصيل النحاس والحديد في الكتاب المجيد)، طبع نفس الدار، ففيهما تفاصيل هذا الموضوع.

(٢) نقض الإلحاد، د. هاني يحيى نصري، ص ١٤٥.

نهايـة العـالم بالطـي أو الانجـذاب نحو الداخل كما بينت الآيات الكريمة بالضبط، والله أعلم.

مثال آخر: يقول الله تعالى: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾، [النساء].

هذه الآيات نزلت محدثة عن وعود الشيطان الرجيم الخبيثة في أمانيه للناس، ومنه أنه يأمرهم أن يبتكوا آذان النعام، وأن يغيروا خلق الله. ترى ما معنى هذا.

يبتك في اللغة تعني يقطع أو يشق، ففي **مختار الصحاح** (ص١١٧) : ب ت ك البتك القطع وبابه ضرب ونصر وبتك آذان الأنعام قطعها شدد للكثرة.

تفسير البيضاوي (٢/ ٢٥٥): ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام يشقونها لتحريم ما أحـل الله وهـي عـبارة عـما كانت العرب تفعل بالبحائر والسوائب وإشارة إلى تحريم ما أحـل ونقـص كل ما خلق كاملا بالفعل أو القوة، ولآمرنهم فليغيرن خلق الله عن وجهه وصـورته أو صـفته. ويـندرج فـيه مـا قيل من فقوء عين الحامي وخصاء العبيد والوشم والوشر واللواط والسحق ونحو ذلك وعبادة الشمس والقمر وتغيير فطرة الله تعالى التي هي الإسلام واستعمال الجوارح والقوى فيما لا يعود على النفس، كمالا ولا يوجب لها من الله سبحانه وتعالى زلفى وعموم اللفظ يمنع الخصاء مطلقا لكن الفقهاء خصوا في خصاء الـبهائم للحاجة والجمل الأربع حكاية عما ذكره الشيطان نطقا أو أتاه فعلا.... وكذا قال القرطبي والطبري وابن كثير وسائر أهل التفسير. ولم يكن للآية سبب للنزول اتفق عليه العلماء.

إذن معنـى ذلـك أنـه كـان من عادات العرب قبل الإسلام أنهم كانوا يقطعون آذان

البهائم والأنعام، وكانت لهم عادات أخرى كالسائبة، والبحيرة، وكانوا يغيرون خلق الله تعالى بالوشم وفقء العيون وغير ذلك. وجاء الإسلام وحرمها، إلا أن كثيراً من هذه العادات استمرت إما لجهل الناس في أمور دينهم، أو لهوىً متبع، أو لغيره.

لا حظ البعد المستقبلي في الخطاب القرآني: لو لاحظنا الخطاب القرآني: اللام هنا تفيد التوكيد والمستقبل، والنون أيضاً تفيد التوكيد، وقد كررتا خمسة مرات في هذه الآيات في (لَأَتَّخِذَنَّ)، (وَلَأُضِلَّنَّهُمْ)، (وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ)، (وَلَآمُرَنَّهُمْ)، (وَلَآمُرَنَّهُمْ). والتكرار في اللغة يفيد القصد من المعنى، أي أن الأمر يتعدى عادة العرب وأقوام أخرى في الجاهلية إلى زمن قادم.

اليوم وبعد ١٤٢٣ عاماً، في البرازيل يستسخون ثوراً من خلية من أذن بقرة، ويغيرون خلق الله تعالى في التناسل، وتأمرهم أحلامهم بأن هذا سيؤدي إلى فوائد للبشرية، وتركوا الأسلوب الصحيح الذي أثبتت الأجيال صوابه لأنه فطرة الله وناموسه وسنته، واتبعوا أسلوباً أعوجاً يعلم الله تعالى ما سيكون من وبال أمره على الجينات البشرية لأن العلم أثبت أنه ما من خلية نلتهمها إلا وكان أثرها الجيني علينا سواء عاجلاً أم آجلاً . وما لجنون البقر وأمراض الحيوان والإنسان التي حدثت وتحدث حديثاً إلا دليلاً على وهم وخطأ ما يعتقدون....... والأمثلة من هذا القبيل كثيرة.

كما وأن من المعلوم أن علوم القرآن جميعها جاءت بعد عصر البعثة الشريفة، وأقدمها النحو الذي دفعت الضرورة المتأتية من دخول أقوام ليسوا بعرب إلى الإسلام وتلفظهم الخاطئ لعربية القرآن الإمام علي رضي الله عنه إلى تأسيسه، وأصبح أحد علوم العربية والقرآن، وهكذا بقية العلوم القرآنية الأخرى التي جاءت مع مراحلها الزمنية، ومن ثم أصبحت هذه العلوم أساساً اعتمد عليه المفسرون اللغويون والبيانيون والبلاغيون وغيرهم عبر العصور، فلم يعترض أحد من الصحابة أو التابعين ومن تبعهم على ذلك بحجة أن هذا الأمر لم يكن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه لا يجوز الاستعانة بعلوم جديدة لتفسير الكتاب ولم يدّع أحد أنه تفسير بالرأي الخاطئ أو بالهوى. ولكن عندما جاءت ضرورة الالتفات إلى آيات القرآن العلمية – آيات القدرة– في عهد العلوم

والاكتشافات والحقائق العلمية التي لا تتغير- وليست نظريات قابلة للتغيير- والتي تزيد كما ذكرنا على ١٠٠٠ آية في مختلف العلوم، رأينا الكثيرين يدعون أن هذا إقحام وبدعة إما لجهلهم بالعلوم الحديثة أو لأغراض أخرى لا تخفى على القارئ الكريم، ونسي هؤلاء المساكين أن آيات القرآن الكريم المتعلقة بآيات دلائل القدرة الإلهية والمرتبطة بالوعد الإلهي السابق الذكر - وليس آيات الأحكام - متجددة عبر عصور التطور البشري وهذا هو سر إعجازه الذي كما وصفه المصطفى بأنه لا ينقضي.

المطلب السابع

فقه الإعجاز وضوابطه

سنتطرق في هذا المطلب إلى الضوابط الأساسية لمن يعمل في هذا الحقل العلمي المهم. فكما أسلفنا أن الإعجاز العلمي في القرآن والسنة -كما اتفق على تسميته- هو محاولة ربط اكتشافات علمية وحقائق تطبيقية أثبتت في هذا العصر ولاسيما بعد عصر الثورة الصناعية وإلى الآن مع ما سبق به القرآن العظيم قبل أكثر من ١٤٠٠ عام خلت لجعل المستمع أو المتلقي أو القارئ أمام حقيقة واضحة وجلية هي أن كون الله المنظور يطابق كون الله المقروء وعليه فإن هذا الكتاب وهذا الدين هو حق مطلق شامل وكامل لكل زمان ومكان وبالتالي فهو الأولى بالاتباع والتصديق والعمل.. ويقسم هذا الحقل من العلم إلى قسمين:

١- **الإعجاز العلمي**: ويقصد به الآيات القرآنية أو الأحاديث الشريفة ذات المدلولات العلمية الواضحة المصرح بها تصريحاً مباشراً، أو ملمح إليه التي سبقت علومنا التجريبية الحاضرة وحسب ما تم تعريفه آنفاً. وإذن الإعجاز العلمي فهو إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي أخيراً وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول. وهكذا يظهر اشتمال القرآن أو الحديث على الحقيقة الكونية التي يؤول (يصير وينتهي) إليها معنى الآية أو الحديث ويشاهد الناس مصداقها في الكون فيستقر عندها التفسير ويعلم بها التأويل كما قال تعالى: ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ

مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، [الأنعام: ٦٧]، وقد تتجلى مشاهد أخرى كونية عبر القرون، تزيد المعنى المستقر وضوحاً وعمقاً وشمولاً لأن الرسول قد أوتي جوامع الكلم، فيزداد بها الإعجاز عمقاً وشمولاً، كما تزداد السنة الكونية وضوحا بكثرة شواهدها المندرجة تحت حكمها .

٢- **التفسير العلمي**: ويقصد به الدخول في تفسير الآية القرآنية ذات المدلول والإشارة العلمية – أي آيات القدرة – كي تفهم بشكل يتناسب مع الحقائق العلمية التي اكتشفها ويكتشفها الإنسان بالأسلوب البحثي الذي لا يقبل الجدل عبر مراحل تطوره المستمرة، مع مراعاة أصول اللغة وعلوم القرآن والحديث. فالأمة تحتاج في كل جيل إلى نفر يتزود بالعلوم والشروط اللازمة لتفسير كلام الله تعالى في آيات القدرة تفسيراً يتلاءم مع ما توصل إليه العلم اليقيني التجريبي على الأساس الذي ذكرناه وهو (العلم يتسلق إلى القرآن وليس العكس). وإذن التفسير العلمي هو الكشف عن معاني الآية أو الحديث في ضوء ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية. هذا التفسير الذي يتحقق عبر دعامتين أساسيتين هما:

أ . فهم الظواهر الكونية عبر قنوات المعرفة المنضبطة لتحقيق اليقين العلمي في مختلف المجالات.

ب. الإحاطة بالمعاني المستنبطة من النصوص الشرعية وفق منهج التفسير المعتمد عند علماء الأمة الإسلامية، وفي هذا السياق يقول الشيخ عبد المجيد الزنداني: ((ولما كانت أبحاث الإعجاز العلمي متعلقة بالتفسير العلمي للآيات الكونية ومتصلة بشرح الأحاديث في هذه المجالات، فهي فرع من فروع التفسير وجزء من شرح الحديث، وتقوم على مصادر هذين العلمين، ولما كانت قائمة على إظهار التوافق بين نصوص الوحي وبين ما كشف عنه العلم التجريبي من حقائق الكون وأسراره، فهي كذلك تقوم على مصادر العلوم التجريبية إلى جانب العلم المتعلق بتاريخها كما تتصل أيضاً بعلم أصول الدين))(*).

(*) انظر كتاب تأصيل الإعجاز العلمي للقرآن والسنة للشيخ عبد المجيد الزنداني، ص٢٥، ٢٦، ٢٧.

وتراعى في كلا النوعين ثلاثة عوامل هي وجود الإشارة إلى الحقيقة العلمية في النص القرآني أو الحديثي – من الحديث الشريف- بشكل واضح لا مرية فيه، ثبوت النص وصحته، ثبوت الحقيقة العلمية ثبوتاً قاطعاً بالشكل الذي فصل آنفاً في التعاريف. فإذا ما توفرت هذه العوامل يمكن دراسة المسألة لاستخراج وجه الإعجاز(١). إذن فكل جهد يبذل في هذا المجال من قبل الباحثين لابد أن يصدر – وبالتزام تام ومنضبط- عن هذه المشكاة المضيئة من الوحي والمتمثلة بنصوص القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ ثم إن هذه الجهود لابد أن تتوفر لدى من يبذلها ثوابت وقواعد علمية لأبحاث الإعجاز العلمي وهي:

أ- عِلمُ الله هو العِلمُ الشامل المحيط الذي لا يعتريه خطأ ولا يشوبه نقص، وعِلمُ الإنسان محدود يقبل الازدياد ومعرض للخطأ.

ب- هناك نصوص من الوحي قطعية الدلالة، كما أن هناك حقائق علمية كونية قطعية. وفي الوحي نصوص ظنية في دلالتها، وفي العلم نظريات ظنية في ثبوتها.

ت- لا يمكن أن يقع صدام بين قطعي من الوحي وقطعي من العلم التجريبي، فإن وقع في الظاهر فلأن هناك خللاً في اعتبار قطعية أحدهما.

ث- عندما يُري الله عباده آية من آياته في الآفاق أو في النفس، مصدقة لآية في كتابه أو حديث من أحاديث رسول الله ﷺ يتضح المعنى ويكتمل التوافق، ويستقر التفسير وتتحدد دلالات ألفاظ النصوص بما كشف من حقائق علمية، وهذا هو الإعجاز.

ج- إن نصوص الوحي قد نزلت بألفاظ جامعة تحيط بكل المعاني الصحيحة في مواضعها التي قد تتتابع في ظهورها جيلاً بعد جيل.

ح- إذا وقع التعارض بين دلالة قطعية للنص، وبين نظرية علمية، رُفِضت هذه النظرية لأن النص وحي من الذي أحاط بكل شيء علماً، وإذا وقع التوافق بينهما كان النص

---

(١) انظر كتاب الإعجاز العلمي في القرآن والسنة – تاريخه وضوابطه-، عبد الله بن عبد العزيز المصلح، ص ٢٨.

دليلاً على صحة تلك النظرية، وإذا كان النص ظنياً والحقيقة العلمية قطعية يؤول النص بها.

خ- إذا وقع التعارض بين حقيقة علمية قطعية وبين حديث ظني في ثبوته فيؤول الظني من الحديث ليتفق مع الحقيقة القطعية وحيث لا يوجد مجال للتوفيق فيقدم القطعي(*).

د- جمع النصوص القرآنية والحديثية المتعلقة بالموضوع لتخرج بالنتيجة الصحيحة التي لا يعارضها شيء من تلك النصوص بل يؤيدها.

ذ- جمع ومراعاة كل ما يتعلق بالموضوع المراد بحثه من علوم القرآن والحديث مثل القراءات الصحيحة والنطق السليم، تفاسير الآيات والأحاديث، أسباب النزول، النحو والصرف والإعراب والبلاغة والبيان، الناسخ والمنسوخ، الحقيقة والمجاز، العام والخاص، المطلق والمقيد، المجمل والمبين، الظاهر والمؤول والمنطوق والمفهوم، سياق النص وتسلسل الآيات والسور، الفقه وأصوله ومقاصد الشريعة، معاني الحروف وعدم تفسيره بما لا يقتضيه الوضع العربي، فقه اللغة، فقه التأريخ.

ر- مراعاة قواعد أساسية في البحث منها: العموم مقدم على الخصوص، والإطلاق على التقييد، والإفراد على الاشتراك، والترتيب على التقديم والتأخير، والتأسيس على التأكيد، والبقاء على النسخ، والحقيقة الشرعية على العرفية وهذه بدورها على اللغوية، والسياق والسباق، عموم اللفظ على خصوص السبب، المشترك اللفظي يمكن حمله على واحد من معانيه، عدم البحث في الأمور الغيبية كموعد قيام الساعة والجنة والنار، الابتعاد عن تسفيه العلماء من السلف والخلف، عدم الاعتماد على الاسرائيليات والروايات الضعيفة، الابتعاد عن الأمور المثيرة للجدل والتي هي من قبيل المتشابه التي لا مجال لفهمها أو تناولها بالبحث، والاعتماد على أمهات الكتب والمراجع والمصادر الرصينة والموثوقة، حصر البحث في كل ما يظهر وجه الإعجاز

(*) انظر كتاب (تأصيل الإعجاز العلمي للقرآن والسنة) للشيخ عبد المجيد الزنداني، وكتاب (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة -تأريخه وضوابطه-)، للشيخ عبد الله بن عبد العزيز المصلح.

ومـا يظهر الربط بين الحقيقة العلمية والشرعية بأسلوب علمي يتناسب مع ما ثبت في المختبر والمعمل والحقل والتقنيات، التحلي بالصدق والصواب والصبر والكفاءة العلمـية والأهـم من كل ذلك صدق النية في التوجه إلى الله تعالى لإعلاء كلمته بين الناس وخصوصاً ممن ابتعدوا عن منهجه أو جهلوه(١).

وبـما أن بحـوث الإعجـاز العلمي يلزمها الاتصاف بالمنهجية والموضوعية، اقتضت مصلحة ضبط مسيرة تلك البحوث التأكيد على الملامح الآتية:

١- إثبات عدم إحاطة البشر -وقت تنزل القرآن- بالحقيقة العلمية التي ورد ذكرها في نـص مـن نـصوص القـرآن والسنة، وهذا الملمح يعتبر بمثابة البعد التاريخي في قضية الإعجـاز العلمي، وذلك لأن الناس في عصر التنزيل لم تكن عندهم الخلفية العلمية التي تـؤهلهم لإدراك تلـك الحقـيقة خـصوصاً وأن اكتـشاف الحقائق العلمية تستلزم أدوات وإمكانـات لم تكن متوفرة في ذلك الزمن. أجل إن إثبات هذا الواقع التأريخي لبني البشر في عـصر التنـزيل هـو بمـثابة شرط لابـد مـن توفـره في مـسيرة إثبات الإعجاز العلمي للوصول إلى نتيجة صحيحة في هذا المضمار.

٢- الـتأكد مـن ظهـور دلالـة النص على الحقيقة المكتشفة سواء ذكرتها بصراحة أو أشـارت أو أومـأت إلى تلك الحقيقة العلمية والتي قد تكون في مجال أحد آفاق الكون أو الإنـسان، ولا بد هنا من التأكد بأن يكون النص في ثبوته قطعياً إن كان من سنة المصطفى - علـيه الصلاة والسلام- ومن ثم التأكد من دلالة النص وهذا يقتضي القيام بالخطوات الآتية:

أ . دراسـة الألفـاظ مـن ناحـية اللغـة وكـذلك معرفة إعراب الألفاظ والجمل من الناحية النحوية إذ الإعراب يوضح المعنى.

ب. الاسترشـاد من دلالة السياق والسباق وأسباب النزول ومعرفة أقوال المفسرين

---

(١) كتاب الإعجاز العلمي في القرآن والسنة –تاريخه وضوابطه–، عبد الله بن عبد العزيز المصلح، ص (٢٨ -٣٢، بتـصرف. لغـرض معـرفة معـاني بعـض المـصطلحات، لاحـظ الفـصل الثالث (مصطلحات ومعاني).

التـي توفـق ما نظنه من المعنى ومعرفة الأقوال المخالفة لذلك مع الاستئناس بما ورد من أوجه القراءات الصحيحة للآية وألفاظها.

جـ. استقراء النصوص القرآنية التي لا علاقة لها بالموضوع الذي نحن بصدده وتبين جزئيات تضافرها على المعنى المراد.

د. التزام قواعد التفسير كما هو متعارف عليه عند المفسرين.

هـ. عـند الـبحث مـع غـير العرب يستفاد من عدة تفاسير كي نتثبت من أن الترجمة للمعـاني إن كانـت بعـيدة الدلالـة عـن المراد من المعنى الصحيح في اجتهاد من المفسرين.

و. إمكانية تظافر جهود أكثر من باحث في موضوع واحد أو الاستعانة بعدة علماء في اختـصاصات مختلفة ممـن يتوفـر فيهم شروط وكفاءة الباحث العلمي الصادق الموضوعي غير المنحاز.

وبـذلك نتهـي مـن الشق الأول من البُعد الموضوعي من أبعاد البحث الإعجازي، ونبدأ في بيان الشق الثاني وهو:

١- دراسـة الـواقعة المشاهدة والتثبت منها بشكل يقيني أي في المجال الذي هو قيد الدراسـة؛ وذلـك لأن تحـصيل المعـارف وإدراك الحقائـق يعـتمد عـلى حـسن استخدام الحواس ومنافذ الفكر مع الأسلوب الصحيح في المقارنات والاستنتاجات.

٢- بيان وجه الإعجاز -تحديد مناط الإعجاز- وذلك من خلال إبراز وجه المطابقة بـين مـا يـدل الـنص علـيه مـع الظاهـرة الكونـية التـي شهدت بثبوتها وصحتها قواطع البراهين(١).

وتتمثل أوجه الإعجاز العلمي في القرآن والسنة فيما يلي:

١. الـتوافق الدقـيق بـين مـا في نـصوص الكتاب والسنة، وبين ما كشفه علماء

---

(١) مقالـة الدكـتور عـبد الحفـيظ الحـداد، باحـث في هيـئة الإعجاز العلمي ‖ مجلة الإعجاز العلمي، العدد الخامس، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ص٥٣.

الكون أمثال البروفسور كيث ل. مور وهو من أشهر علماء العالم في علم الأجنة وكتابة في علم الأجنة مرجع عالمي مترجم إلى سبع لغات منها الروسية واليابانية والصينية والذي جاء بعد اقتناعه بأبحاث الإعجاز العلمي ألقى محاضرة في ثلاث كليات طبية بالمملكة العربية السعودية عام (١٤٠٤هـ) بعنوان (مطابقة علم الأجنة لما في القرآن والسنة) من حقائق كونية وأسرار كونية لم يكن في إمكان بشر أن يعرفها وقت نزول القرآن.

٢. تصحيح الكتاب والسنة لما شاع بين البشرية في أجيالها المختلفة من أفكار باطلة حول أسرار الخلق مثل ما كان شائعاً بين علماء التشريح من أن الولد يتكون من دم الحيض واستمر ذلك الاعتقاد إلى أن اكتشف المجهر في القرن السادس عشر الميلادي بينما نصوص القرآن والسنة تقرر أن الولد يتكون من المنى وقد رد علماء المسلمين من أمثال الأمام ابن القيم والأمام ابن حجر وغيرهم أقوال علماء التشريح في عصورهم بنصوص الوحي وذلك مثل ما قاله ابن حجر وزعم كثير من أهل التشريح أن منى الرجل لا أثر له في الولد إلا في عقده وأنه إنما يتكون من دم الحيض وأحاديث الباب تبطل ذلك (الفتح : ١١/ ٤٨٠).

٣. إذا جمعت نصوص الكتاب والسنة الصحيحة وجدت بعضها يكمل بعضها الآخر فتتجلى بها الحقيقة مع أن هذه النصوص قد نزلت مفرقه في الزمن وفى مواضعها من الكتاب الكريم وهذا لا يكون إلا من عند الله الذي يعلم السر في السماوات والأرض.

٤. سن التشريعات الحكيمة التي قد تخفى حكمتها على الناس وقت نزول القرآن وتكشفها أبحاث العلماء في شتى المجالات مثلما كشفه العلم حديثاً من الحكمة في تحريم أكل لحم الخنزير والاعتزال المقصور على الجماع في المحيض ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ

ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

٥. عدم الصدام بين نصوص الوحي القاطعة التي تصف الكون وأسراره على كثرتها، وبين الحقائق العلمية المكتشفة على وفرتها، مع وجود الصدام الكثير بين ما يقوله علماء الكون من نظريات تتبدل مع تقدم الاكتشافات ووجود الصدام بين العلم وبين ما قررته سائر الأديان المحرفة والمبدلة. تنبيه وكلامنا هنا محصور في قضايا الإعجاز العلمي الذي تسفر فيه النصوص عن معاني لكيفيات وتفاصيل جديدة عبر العصور أما ما يتعلق بالعقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق فقد بينها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ووضح تفسيرها (التفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ٣٤).

وكخلاصة يتبين إن التفسير العلمي للقرآن مرفوض إذا اعتمد على النظريات العلمية التي لم تثبت ولم تستقر ولم تصل إلى درجة الحقيقة العلمية. ومرفوض إذا خرج بالقرآن عن لغته العربية. ومرفوض إذا صدر عن خلفية تعتمد العلم أصلاً وتجعل القرآن تابعاً. وهو مرفوض إذا خالف ما دل عليه القرآن في موضع آخر أو دل عليه صحيح السنة. وهو مقبول بعد ذلك إذا التزم القواعد المعروفة في أصول التفسير من الالتزام بما تفرضه حدود اللغة، وحدود الشريعة والتحري والاحتياط الذي يلزم كل ناظر في كتاب الله. وهو - أخيراً - مقبول ممن رزقه الله علماً بالقرآن وعلماً بالسنن الكونية لا من كل من هب ودب فكتاب الله اعظم من ذلك(١).

المبحث الثاني

النظرة اللغوية للإشارة والمثل العلمي في القرآن

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾، [النمل: ٦]، وهذا هو المعنى الشمولي للعلم في الإسلام فمصدره هو القمة العليا للعلم وهو الخالق العظيم،

(١) عن الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بمكة المكرمة.

أرأيت لو أنك ذهبت إلى رجل خبير وسألته عن أمر معنى فأجابك بكلام حكيم مختصر تملؤه العبارات المعبرة عن المعنى الدقيق وبأقصر الطرق، وتتخلله براهين وأمثلة تنم عن خبرة عظيمة ودراية كبيرة، ألا أنك احتجت إلى وقت طويل لفهم معانيها وسبر أغوارها. فهكذا هو كلام الله -ولله المثل الأعلى- لا تنقضي عجائبه ولا يشبع منه العلماء، فنحتاج إلى تدبره وفهمه أكثر وأكثر وصدق الإمام الرازي بقوله: «إن لله كونان كون مقروء وكون منظور فكلما أزددنا علماً بالكون المنظور ازددنا علماً بالكون المقروء»، وصدق علماء الأمة حينما قالوا إننا نحتاج إلى تفسير للقرآن الكريم كل مئة عام. فكل زمان يأتي علينا نرى تجدد القرآن معه وهذا هو لعمري إعجازه العظيم الذي جعله الله تعالى المعجزة الأبدية لهذه الأمة العظيمة، ومن إعجازه أنه لا يحيط بإعجازه أحد ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، [هود: ١].

إن الإشـارة القـرآنية إلى العلـم أو مجمـوعة العلوم تكون بشكل مثل ضمن قصة أو إشـارة تـربط حالة اجتماعية نزلت فيها الآية القرآنية مع أمر ضمن قوانين ونواميس رب العالمين وفي هذا تفصيل كثير لعل أقل ما يذكر في تفصيله ما جاء في تبويب هذا النوع من العلـوم القـرآنية بصورة مستقلة كما فعل صاحب البرهان الإمام الزركشي رحمه الله تعالى حيث جعل هذا العلم (علم الأمثلة الكائنة في القرآن) العلم الحادي والثلاثون من ضمن سبع وأربعين علماً. كما ذكره الإمام السيوطي رحمه الله تعالى في تصنيفه للعلوم القرآنية في كتابه (الإتقان في علوم القرآن) كعلم مستقل.

فالقرآن الكريم -الكون المقروء- هو كالكون المنظور متناغم في الظواهر فالريح مثلاً ظاهـرة يدرسها أهل علم الأنواء الجوية والأرصاد، ويدرسها المهندس المعماري والمدني، وأصـحاب علـوم الـبحار، وعلـم الزراعة والأرض، واختصاصات أخرى في الفيزياء، فكلهـا تـدرس ظاهره واحدة، ولكن كل واحدة تنظر لها من منظار معين تصب جميعاً في فائـدة البـشرية.. النار يدرسها الكيمياوي والفيزياوي والمهندس والعسكري وغيرهم.. وهكـذا بقـية الظواهـر. فكلـما زادت معارفـنا بـشيء وتمحصناه أكثر فأكثر -على أساس اسـتغلالنا لعقولنا واتبعنا المنهج البحثي أكثر فأكثر- فإننا نستطيع استخدام هذه المعارف

والعلوم لبناء فهمنا للكون الذي نعيش فيه، ثم تتحول هذه المعارف مع الأجيال إلى بديهيات، والبديهيات تزداد يوماً بعد يوم ويزداد البناء المعرفي لنا ونستطيع أن ننتقل من مرحلة إلى مرحلة أخرى للتصور وبناء مفاهيم أوسع وأشمل حتى نصل إلى مرحلة نضرب المثل لظاهرة ما اجتماعية أو اقتصادية أو رياضية أو أي ظاهرة أخرى مع الحدود المعرفية التي وصلتنا، وهكذا فإن الحكم والأمثال تزداد بازدياد معرفة الشعوب وتطورها العلمي والثقافي.. أما الحقائق الكونية وقوانين الكون فباقية كما هي منذ خلق الكون ولم ولن تتغير إلى يوم القيامة ولكن فهمنا لها يتطور، وقد يتحول فهمنا للكون إلى إساءة لقوانينه.

وهكذا القرآن الكريم فهو كما هو وسيبقى إلى يوم القيامة وكلما ازدادت معارفنا ازددنا فهماً له ولأسراره وأمثلته وإشاراته التي جعلت كمثال أو قصة تربط حالة اجتماعية أو إنسانية أو قصة في التاريخ مع حالة طبية أو هندسية أو فلكية أو جغرافية أو غيرها. فهذه التصنيفات البشرية التي صنفناها لتسهيل فهمنا وتوسيع تخصصاتنا لما حولنا من ظواهر الكون، فمن الطبيعي أن نجعلها بذات التصنيف للعلوم في آيات الكتاب المسطور كما هي في آيات الكتاب المنظور. وهذه هي روعة القرآن الكريم وعظمته وسر بقائه، إنه كون يكتشف يوماً بعد يوم ليعطي للإنسانية حقيقة نزوله من خالق الكون المنظور الذي نكتشفه يوماً بعد يوم.. وكم كان عظيماً وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: «لا تنقضي عجائبه ولا يشبع منه العلماء».

بدءاً سنحاول أن نفهم المثل القرآني من وجهة نظر اللغة والتفسير اللذين لا غنى عنهما لأي باحث في هذا المجال. ولنضرب مثلاً على ذلك وهو ما جاء من دعوة قرآنية واضحة للتدبر والتفكر والبحث العلمي في سورة الجاثية بقوله تعالى:

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ

يَعۡقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾
وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٧﴾ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ
بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩﴾ مِّن
وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي
سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ
لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

إذا تدبرنا هذه الآيات الكريمات نجد وبسهولة أن الربط الكبير بين آيات الله المنظورة (الكونية) وبين الآيات المقروءة (ويقصد بها آيات القرآن) واضحاً جلياً، بل إنه أمر إلهي أمر به الله تعالى الناس جميعاً، فهو سبيل إلى معرفة الخالق وحقيقة الخلق.

ثم تدبر قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ
سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ
لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ
يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ
أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٥٠﴾
وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا
كَبِيرٗا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا
بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ
قَدِيرٗا ﴿٥٤﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا
﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٥٦﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ
إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ
بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ
ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴿٥٩﴾ ﴾.

فإذا لاحظت أن تسلسل النص المبارك في الآيات كان : آيات القدرة من الآية (٤٥) إلى الآية (٤٩)، ثم بعدها خاطبنا الله تبارك وتعالى قائلاً: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝ ﴾، أي فصلنا لهم هذا الأمور ومع ذلك كفر أكثر الناس، ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم وللأمة من بعده ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾، أي لا عليك من أمرهم واستمر بالجهاد بالقرآن جهاداً مستمراً مضنياً.. ثم استمر ذكر آيات القدرة (من الآية ٥٢ إلى الآية ٥٤) وكذلك الآية (٥٩)، لتبين نوع هذا الجهاد - وهو ما يفهم من خلال تسلسل وسياق الآيات أو ما يعرف بالسياق والسباق[1] - فيكون الجهاد هنا جهاد المناجزة بالعلوم المختلفة التي ذكرتها الآيات المباركات، فختم تعداد كل هذه الأنعم المتمثلة بآيات القدرة في مجالات العلوم المختلفة بقوله سبحانه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾، والله أعلم... وهكذا نبدأ التدبر والفهم الصحيح للإعجاز العلمي في الكتاب العزيز بأنه أحد أوجه الدعوة والجهاد الذي أمرنا به.

لعل أروع ما كتب في الصورة الفنية والحسية في القرآن الكريم هو ما جادت به قريحة الشهيد الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى في كتبه القيمة (التصوير الفني في القرآن الكريم) و(الظلال) وغيرها إلا أنني سأتطرق إلى رأي باحث آخر هو الدكتور محمد حسين علي الصغير.

لنستعرض رأي الدكتور محمد حسين علي الصغير صاحب كتاب ((الصورة الفنية في المثل القرآني)) مستشهدا بتفاسير عديدة كالرازي والمنار والزمخشري والشوكاني وسيد قطب وكتب أخرى كروح البيان للبيروني والدر المنثور للسيوطي وغرائب القرآن للنيسابوري وغيرها في أمهات المصادر، وقد استطاع المؤلف أن يعطي تفاصيل عن المثل وأبعاده اللغوية والاصطلاحية ثم المثل القرآني مفهومه، صيغه، أهميته، بيئته وأفكاره ثم تقسيم المثل إلى ألفاظ جارية مجرى الأمثال وتقاسيم أخرى، ثم الصورة والشكل في المثل

(١) أنظر الفصل الثالث الخاص بعلوم القرآن / مصطلحات ومعاني.

القـرآني كالاسـتعارة والتـشبيه والمجاز والإيجاز والإطناب، ثـم دلالات الألفاظ في المثل القـرآني (لفظيـة، صـوتية، اجتماعـية إيحائـية وهامـشية)، ثم الصورة والمضمون في المثل القرآني ثم وظيفة المثل القرآني (فنية، نفسية، عقلية ودينية). وقد ألحق عمله بملاحق منها جهود السابقين في المثل القرآني كالجنيد القواريري والحكيم الترمذي ونفطويه وابن خلاد ومحمد السلمي وابن الفضل والماوردي والقضاعي وابن أبي الأصبع الصمدي وابن قيم الجـوزيه والزركـشي والسيوطي. ومن المحدثين سيد قطب والكوز كناني النجفي وأمين الخـولي وعـبد المجـيد عابدين ومنير القاضي ومحمود بن الشريف ومحمد طاهر الموسوي ومحمـد جابـر الفياض وعبد الرحمن محمود والشيخ أحمد عامل الخضري وغيرهم.. وقد ارتأيـت أن أنقـل بعـض تفاصـيل من كتابه لما لها من علاقة بموضوعنا وما لها من أهمية وفائدة، يقول الدكتور الصغير:

((وتـتدفق روعـة التعبـير الفنـي والـتلاحم التـصويري في مجال الموازنة بين الإيمان والكفـر، أو الحـق والـباطل، أو المـؤمن والكافر. وتتجلى قوة المثل البيانية في التنظير لهما بسلـسلة مـتلاحقة مـن الاستعارات، وكوكبة صالحة من العبارات المجازية يشد بعضها بعضا، فتنثال انثيال السيول في تشخيص الحقيقتين، وتقويم المتقابلين.

أولا: يبدأ حديث الموازنة بقوله ﷻ: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾، [الأنعام: ١٢٢]، ففي هذا المثل تصوير لطبيعة الإيمان، وتقرير لحقيقة الضلال، فعبر عنهما تعبيراً استعارياً حينا ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ وتعبيرا مجازيا حيناً آخر ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ وقد أريد بهذين التعبيرين تقرير الحقيقة المطلقة التي يتسم بها الفريقان الموحد والفريق الكافر. فالميت بالكفر لا ترجيله حياة معنوية، والمهتدى بالإيمان يستمد الحياة الأزلية في كل الأزمان، لأن الكفر موت وضلال، والإيمان نور وحياة، ومن مات بالكفر فهو في حيرة أبدية، ومن حيا بالإيمان فهو على نور ربه. والأمر إن كلاهما حقيقة نابضة تلمسها النفس الإنسانية، وتؤكدها التجربة المؤثرة. والعبرة في هذا المثل أن يطالب المسلم نفسه بأن

يكون حيا عالما على بصيرة من دينه وأعماله وحسن سيرته في الناس، وقدوة لهم في الفضائل والخيرات، وحجة على فضل دينه على جميع الأديان، وعلو آدابه على جميع الآداب" لا كأولئك الذين زين لهم الضلال، فاستأنسوا بالإلحاد دون الركون إلى حصن حريز.. ويخلص من هذه المقارنة إلى أن الضلال انقطاع عن الحياة فهو الظلمات بعينها بشتى صورها، وأن الإيمان قوة حيوية ورؤية مدركة فهو نور في الدرب، ونور في الضمير ونور في الإدراك. وكما زينت حياة المؤمنين بهذه الدلالات والظلال، فقد زين للكافرين كفرهم وضلالهم فهم في ضيق وتشرد وحيرة من أعمالهم الضائعة التي قطعت صلتهم بالهدى، وصرمت علاقتهم بالله.

ثانيا: تتلاحق الأمثال في خضم المقارنات بين الفريقين فتلمس البعد الرمزي والحسي الاستعاري يعتنقان في تقرير هؤلاء في قوله ﷻ: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾، [الأعراف: ٥٨] فالتربة الصالحة ذات عطاء صالح ومرونة. والتربة الخبيثة ذات عسر ومرارة وصعوبة، وكذلك شأن المؤمن وحديث الكافر، فالأول مثله الأرض الطيبة وعمرانها، والثاني مثله الأرض السبخة وغامرها. تخرج التربة الصالحة نباتها وغلتها بيسر وسلامة، وتتعسر الأرض الخبيثة بالإخراج ولا يكون قطافها إلا نكداً.. والناس صنفان: جاهل متمرد، وموحد مهتد، وعطاء كل منهما بحسب طبيعته إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وكذلك تصريف الآيات وضرب الأمثال إنما يستقبلها ذو القلب السليم، والاستجابة الفورية والانفعال المباشر، لينتفع بمضامينها، ويشكر بركاتها، لأن الشكر نابع من الأعماق، ومتفرغ عن السرائر.. وتبدو المقارنة نفسها ببعدها الاستعاري(*) في قوله ﷻ: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، [فاطر:١٢]، فكما لا يشتبه البحران، ولا يتماثل ماء كل منهما.. فهذا

(*) سنعرج على هذه الآية المباركة علمياً عند الكلام عن كيفية تدبر المثل العلمي في القرآن الكريم.

سلسال يسوغ للشاربين، وهذا أجاج تلفظه الطباع، فكذلك لا يتماثل الإيمان ولا الكفر، ولا يستوي المؤمن والكافر، كما حمل أكثر المفسرين الآية على ذلك.

ثالثاً: يتأكد تصوير الأمور المعنوية بالواقع الحسي المشخص فيبدو ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، [هود:٢٤]، بما يحس ويلمس، فالأعمى في مقابلة البصير وكلاهما أمران حسيان، والأصم في مقارنة السميع وهما معنيان ماديان ذلك في مقابلة الأمر المعنوي بما يكشفه من الأمر الحسي، وكما لا تتوافق هاتان الحالتان المتقابلتان عند ذوي التمييز فكذلك لا تتوافق حالة الكافر والمؤمن، ولا يستوي شأن الإيمان وشأن الكفر، وهذا التمثيل وارد في القرآن ومتجانس في تشبهه كما في قولهﷻ في سورة فاطر:

﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

فكما لا يستوي الأعمى والبصير في الحس والإدراك، فكذلك لا يستوي المؤمن والكافر، وكما لا يتماثل الظل والحرور لا يتماثل الهدى والضلال، وكما افترق الأحياء عن الأموات نبضاً وحركة فقد افترق المسلمون عن الكافرين قيمة ومقارنة. وهناك المعنى العرفاني والذي عبر عنه البروسي بقوله: هل يستوي المستكن في الظلمات الطبيعية والهوى ومن هو مستغرق في بحر نور جمال المولى، فالأول كالأعمى إذ لا يقدر أن يرى الملكوت من ظلمات السلك. والثاني كالبصير، فكما إن المستغرق في البحر والغائص فيه لا يرى غير الماء فكذا لا يرى أهل البصيرة سوى الله.

رابعاً: وكما ضرب الله مثلاً للفريقين بالأعمى والاصم، والبصير والسميع، والظلمات والنور، والظل والحرور، والاحياء والأموات، ضرب لهما الأمثال بقولهﷻ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا رَّابِيًاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ

فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾، [الرعد:١٧](*).

فعن عطاء ضرب الله ﷻ مثل الحق والباطل فمثل الحق السيل الذي يمكث في الأرض فينتفع الناس به ومثل الباطل مثل الزبد الذي لا ينفع الناس ومثل الحق مثل الحلي الذي يجعل في النار فما خلص منه انتفع به أهله وما خبث منه فهو باطل. وقال الزمخشري ((هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه، وكما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلا لهما، فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم أنواع المنافع، وبالفلز الذي ينتفعون به صوغ الحلي منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة، ولو لم يكن إلا الحديد الذي فيه البأس الشديد لكفى به، وأن ذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهر يثبت الماء في منافعه، وتبقى آثاره في العيون والآبار والحبوب والثمار التي تنبت به مما يدخر ويكنز، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة. وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة بزبد السيل الذي يرمي به، وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب.

وصفوة القول: أن الله تعالى ضرب مثلاً للحق في ثباته وبقائه، وللباطل في فنائه واستئصاله بهذه الأمور المدركة، للاستدلال بها على عنصري الصلاح والفساد، وبيان عاقبة المتيقن في الآخرة، والفجرة عند الحساب، ليستبين الحق لسالكيه، ويبرز الباطل لناظريه. والحق معنى متمثل بأهله، والباطل رمز مشخص بحزبه، وبتمثيلهما عياناً تتجلى الحقائق من كل شائبة مجردة عن كل زيف ودرن. كما خلص الماء المتحدر في الأودية فأخرج نباته زاهياً بقدر وحكمة، وكما امتازت المعادن عن غثائها في جواهرها وأصولها النافعة فأزيل وضرها وثبت جوهرها فانتفع بذلك الناس في شتى شؤونهم ومرافقهم في الحياة. وكما خلصت هذه الأجناس من زبدها وجفائها فكذلك يخلص الإيمان في النفوس، ويستقر التوحيد في القلوب، أما تلك الأوضار الضارة فهي كالباطل فيما يجلبه من كوارث نفسية ومعنوية في الدنيا والآخرة، كذلك يضرب الله الأمثال ((أي مثل

(*) سنعرج على هذه الآية المباركة علمياً عند الكلام عن كيفية تدبر المثل العلمي في القرآن الكريم.

الضرب العجيب يضرب الله الأمثال في كل باب لكمال العناية بعباده، واللطف بهم)).

خامساً: وبعد أن استوفى المثل هذه الظواهر الحسية والطبيعية في خضم الموازنة بين الفريقين، ضرب لهما مثلاً جديداً يصور حقيقة الإيمان ومعتنقه وحقيقة الكفر ومقترنه، بكلمتين: طيبة وخبيثة مثلهما بشجرتين من جنسهما فقالﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم]..فالكلمة الطيبة تعبير مجازي عن الأيمان، والكلمة الخبيثة نقل استعاري إلى الكفر، فجعل مثل المؤمن في إيمانه، كالشجرة الطيبة لا ينقطع ثمرها ولا يتلاشى بهاؤها، فهي ثابتة تتحدى الرياح، فلا تزيلها العواصف ولا تزلزلها الأعاصير، في معترك حياة تهدم الحق ولكن لا تقوى عليه وتشيد الباطل ولكن لا يتكامل بناؤه، وإذا بالحق يعلو ولا يعلى عليه، وإذا بالباطل متضائل مضمحل خائر القوى، وذلك مثل الكافر في عناده، مصوراً بالشجرة الخبيثة المتزلزلة الواهنة التي لم يكتب لها بقاء، ولم يثبت لها قرار، فما هي إلا لمحة وتزول، فلا جذور راسخة، ولا تربة زكية، ولا عطاء ولا نماء. وفي هذا إشعار إلى صلاحية الفطرة الإنسانية في تقويم ذاتيتها بالإيمان إذ له الخلود والاستمرار والعلو، وفيه تحذير من التشبث بالباطل فهو كالطحلب لا ينقذ من الغرق، وكزبد تتقاذفه الأمواج، لهذا نجد العارفين بالله يذهبون إلى أبعد من هذا شأواً، فيضعون بعض المقارنات السليمة في الآية، يقول النيسابوري ((معرفة اللهﷻ والاستغراق في محبته وطاعته هي كالشجرة الطيبة بل لا طيب ولا لذيذ إلا هي، لأن المدركات المحسوسة إنما تصير مدركة لملاقاة شيء من المحسوس شيئا من الإحساس، أما نور معرفة الله وإشراقها، فإنها ينفذ ويسرع في جميع جواهر النفس حتى أنه يكاد يحجبه، ثم أن سائر اللذات منقطعة متناهية ولذة المعرفة لا تكاد تنتهي إلى حد، وأن عروق هذه الشجرة ثابتة راسخة في جوهر النفس الناطقة، ولها شعب وأغصان صاعدة في هواء العالم الروحاني يجمعهما التعظيم لأمر الله، ومنشؤها القوي النظرية وغاياتها الحكمة العملية بأقسامها وأصولها وفروعها.... وإذا عرفت

الكلمة الطيبة والشجرة سهل عليك معرفة ضديهما)).

سادساً: وبعد هذا التلوين الغني لحقيقة الكفر والإيمان، يقيم الله المؤمن مكان الحر الطليق والكافر مكان العبد المملوك في مثل جديد هو قوله ﷻ: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، [النحل:٧٥]، وهنا يتميز التعبير الرمزي عن الأوثان والأصنام، والتمثيل الحسي للعجز والقدرة، والتطوير في خصائص الأسلوب الاحتجاجية، ببداهة من التعبير والإقناع، فإن من كان مملوكاً عاجزاً لا يقدر على الإنفاق والتصرف، قد غلت يداه وكبلت قواه، ليس كمن هو سيد أمره وملك نفسه ورجل ثروته وماله، يتصرف في ذلك أنى يشاء. فهل يستوي هذا وهذا، وهذا رمز إلى أن الله ﷻ مالك الأمر وهو المتصرف به، وأن الأصنام جامدة لا نبض لها ولا عقل ولا إرادة، فكيف تتصرف بكم وأنى تتحكم فيكم، فحجهم بذلك وقضى على دعوى الإشراك الباطلة الخبيثة بدعوى الإيمان الحقة الخيرة.. والطريف في الأمر أن المثل القرآني يميل إلى التعبير الرمزي عن حقيقتي الكفر والإيمان بهذا الأسلوب المنتزع من واقع العالم المعاصر للدعوة الإسلامية فيصوره أمراً حسياً قابلاً للفهم المتبادل بين القوى المتناحرة كافة، ويعود إليه في موضعين:

الأول: قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، [النحل:٧٦]، فقد علموا ببداهة أن الله يأمر بالعدل والإحسان وهو على الخط الواضح والنهج البين، وأن الأصنام لا حول لها ولا قوة فهي حجارة خرساء صماء، وقد علم الناس أن الآمر بالمعروف والهادي إلى السنن غير الرجل الأخرس الذي لا يعي، وغير الأبكم الذي لا يعقل ضعفاً وبلادة، فكيف والحالة هذه يتساوى الصنم وهو العاجز الواهن بالله وهو القادر الخالق البارئ المصور، اذن لا يستويان قط، وبهذا البعد الرمزي حجهم في الاستدلال على بطلان عبادتهم، وترجيح الهدى على الضلال من خلال حياتهم العامة، فيما يدركونه جيداً.

الثاني: ويعود المثل على هذه النقطة الحساسة في مجال التنظير بين عبادة المشركين وعبادة الموحدين في قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، [الزمر:٢٩]، فأنت تلمح هنا رجلا يتخاصم فيه الشركاء، ويتشاجرون بشدة فهم بين أخذ ورد، ودفع ومنع وهو بينهم موزع الآراء، مزعزع الاستقرار لا يدري ما يصنع، فلكل فيه رأي، ولكل عليه تكليف، وهو في طيخاء مظلمة، لا ينقذه عقل، ولا يشفع له تفكير، فكل يريد إفراده بالخدمة وإيثاره بالمنفعة، وهو يعد ولا يفي، أو يفي ولكنه يعجز عن الإتمام، فتتقاذفه الأهواء في دوامة صراع نفسي مرير، وهذا مثل المشرك أو الكافر، أما المؤمن فهو الذي يتوجه لسيد واحد، ومالك مقرر لا يتعدى أمره، ولا يتجاوز ضروراته ولا يخلط بخدمة أحد سواه، ومن كان هذا شأنه فقد ظفر بعواقب أمره، ونال غاية خدمته.

وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في جميع الأحوال فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذي يقطع الرحلة على هذه الأرض على هدى لأن بصره أبداً معلق بنجم واحد على الأفق فلا يلتوي به الطريق. ولأنه يعرف مصدراً واحداً للحياة والقوة والرزق، ومصدرا واحداً للنفع والضرر، ومصدرا واحداً للمنح والمنع، فتستقيم خطاه إلى هذا المصدر الواحد يستمد منه وحده، ويعلق يديه بحبل واحد يشد عرقه. ويطمئن اتجاهه إلى هدف واحد لا يزوغ عنه بصره، ويخدم سيداً واحدا يعرف ماذا يرضيه فيفعله وماذا يغضبه فيتقيه... وبذلك تتجمع طاقاته وجهده وهو ثابت القدمين على الأرض متطلع إلى إله واحد في السماء.. أما المشرك فيعيش مرهق الأعصاب، قلق النفس، خائر القوى، لا يعرف اتجاهه ولا يضبط حدوده، ولا تنتهي لواعجه وآهاته، فهو في حيرة مرعبة، وعزلة قاتلة، وشدة متناثرة هنا وهناك. فماذا يعبد؟ وما هي نتائج عبادته؟ وهو يغلط هواه، ويخدع فطرته، لا يصل إلى ميناء، ولا يقوده ربان، تلعب به الأمواج وتهدر عليه الشبهات، فأحلامه في مهب العاصفة كبيت من ورق، أو عمارة من ثلج تقذفها الأعاصير، وتذيبها تقلبات المناخ. فإلى أين أيها المغرور بسلطان الأرض والسماء؟ بعيداً عن الأمن والدعة ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾، [محمد:٣]، فما بعد الحق إلا الباطل، وما بعد الهدى إلا الضلال.

ويخلص من هذه الموازنات المترادفة بعدها البلاغي الأصيل، وأسلوبها التعبيري الهادف، وأمثالها المرنة المستساغة، والتدرج في كل ذلك من عالم الطبيعة في ضوء ومناخ، إلى الظواهر الأرضية في الإنبات والعسر والسباخ، إلى العالم الحسي في العمى والصم، إلى التنقل بموسيقى اللفظ وجرس الكلمة وربطها بطيب الثمار، وجلجلة الصوت وضمها إلى خبث الإخراج، إلى المحسوسات في الأشخاص والمفارقات في الأعيان، إلى خضم المنازعات والخصومات، إلى النتيجة الكبرى في إقامة الحق ودرء الباطل))(١).

المبحث الثالث

آراء العلماء

سنحاول في السطور القادمة أن نعرض آراء لعلماء أجلاء من الفترات والمراحل التي استعرضناها آنفاً من خلال جولة حرة معهم لنتعرف على تصوراتهم حول هذا الموضوع.. لقد سبق لعلماء وكتاب مسلمين كثيرين أن عملوا في هذا الحقل في هذا العصر، وحتى علماء الأمة الأوائل ممن حاولوا أن يفسروا القرآن كالرازي لم تخل تفاسيرهم من علوم عصرهم. أما في عصرنا هذا فكان كثير من المشايخ والعلماء رحمهم الله وجزاهم ألف خير حاولوا الربط بين العلوم الدينية كل حسب عصره كالشيخ طنطاوي في تفسيره الجواهر، وفي هذا الوقت هناك علماء أجلاء كالزنداني في اليمن، وكثير من علماء مصر والعراق والخليج والشام وغيرهم من العلماء الأعلام في كافة دول العالم الإسلامي..

فها نحن نقرأ ونسمع يومياً عن جهود طيبة لهذا العالم أو ذاك من علماء العلوم الحديثة ممن يعملون لصالح دينهم وكتابهم العظيم لينوروا بصيرة إخوانهم ويعلموهم كم

(١) كتاب الصورة الفنية في المثل القرآني، د. محمد حسين علي الصغير، ص٢٨٢-٢٩١، بتصرف.

مـن الخـير هـم عليه إن تمسكوا بكنز الكنوز، القرآن المعجز، الذي ما جاءت نظرية من النظريات الحديثة مدعمة ببراهين عملية إلا كان القرآن العظيم قد سبقها أو تطرق إليها بالإشـارة أو بالتفصيل، حتى أنك ترى آية صغيرة من ثلاث كلمات أو أربع تحوي علوماً متعددة وكثيرة ومتداخلة وكذلك ليجعلوا حجة المسلمين أقوى بالدليل المادي إضافة إلى الدلـيل الغيبـي الـذي أنـبأنا بـه القرآن العظيم أمام كل من يحاول المساس بهذا الدين أو يتمـشدق بما يسمى بحضارة الغرب أو ((جاهلية الغرب)) بمعنى أدق، لأنه من له علم بدون خلق فهو كمن لا عقل له وصدق القائل:

لـو كـان للعلـم مـن دون التقـى شرف   لكـان أشرف خلـق الله إبلـيس

هـذا اللعين الذي أوتى علم الدنيا والآخرة ليس له أي شرف على من له خلق كريم وأدب رفـيع، وإذ كـان الجهـاد في الإسـلام متعدداً ومتنوعاً وهو كل عمل قام به المسلم لجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، فإن كلمة الله وقرآنه ودينه أمانة في أعناقنا نجاهد في سبيلها بالقول والفعل والسيف والقلم.

هـناك من أنكر الإتجاه العلمي في القرآن الكريم ومنهم أبو إسحاق الشاطبي ومحمد الذهبـي ومحمـد رشـيد رضـا ومحمـد المراغـي وعاطـف العراقي وعبد الكريم الخطيب وغيرهم، وقد قام الأستاذ الفاضل الدكتور كارم السيد غنيم بالرد على حججهم في كتابه (الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق).

وهـنا مـن المهـم أن نستـشهد بـبعض الآراء القيمة في هذا الموضوع لكي نستطيع في النهاية أن نصل إلى المفهوم الصحيح لهذا الموضوع وسنختار آراء مختلفة ومن كل الفترات السابق ذكرها. على أننا عند عرضنا لهذه الآراء لن نبدي رأينا فيها عدا بعض الملاحظات البـسيطة، لأن تفاصـيل هـذا الكـتاب توضـح رأينا بشكل جلي، وتبين لكل ذي لب أن المعـارض لهـذا المـنهج بشروطه التي ذكرناها يبتعد عن حقيقة وضرورة الإعجاز القرآني نفـسه، بـل وأنـه يجعـل من أكثر من خمس القرآن الكريم– أكثر من ١٠٠٠ آية وهو عدد آيـات القـدرة والخلـق – مجـرد آيـات لا تستدعي التدبر والتفكر الذي من معانيه عظمة

الخالق في الخلق وفي النص القرآني معاً.

فالإعجاز العلمي ينقسم العلماء حوله بين مجيز ومتحفظ ومتحمس ومانع : فالمؤيد والمتحمس يجيزه ويدعو إليه ويرى فيه فتحاً جديداً وتجديداً في طريق الدعوة إلى الله وهداية الناس إلى دين الله ... وفريق المانعين أو المتحفظين يرى في هذا اللون من التفسير خروجاً بالقرآن عن الهدف الذي أنزل من أجله، وإقحاماً له في مجال متروك للعقل البشري يجرب فيه ويصيب ويخطئ . ولذلك وبعد أن وضحنا المنهجية التي تحكم البحث في مجال الإعجاز العلمي ومنهج السلف والمفسرين كان لابد من استعراض رأى الفريقين ومناقشة حججهم .

المطلب الأول

الآراء المانعة والآراء المتحفظة

المانعون من التفسير العلمي: أما المانعون من التفسير العلمي فيمثلهم في هذا العصر شيخ الأزهر الأسبق الشيخ محمود شلتوت والأستاذ سيد قطب، ود. محمد حسين الذهبي. وهؤلاء المانعون يقولون:

١. أن القرآن كتاب هداية، وإن الله لم ينزله ليكون كتاباً يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم، ودقائق الفنون، وأنواع المعارف .

٢. أن التفسير العلمي للقرآن يعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان، والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأي الأخير .

٣. إن التفسير العلمي للقرآن يحمل أصحابه والمغرمين به على التأويل المتكلف الذي يتنافى مع الإعجاز، ولا يسيغه الذوق السليم.

٤. ثم يقولون: إن هناك دليلاً واضحاً من القرآن على أن القرآن ليس كتاباً يريد الله به شرح حقائق الكون، وهذا الدليل هو ما روى عن معاذ أنه قال: " يا رسول الله إن اليهود تغشانا ويكثرون مسألتنا عن الأهلة فما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يزيد

حتى يستوي ويستدير، ثم ينقص حتى يعود كما كان فأنزل الله هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾، [البقرة ١٨٩]...

يذكر لنا سيد قطب رحمه الله تعالى ضمن تفسير (الآية ١٨٩) من سورة البقرة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ....﴾ أموراً مهمة نسردها بالنص لأهميتها: ((والإجابة العلمية عن هذا السؤال ربما كانت تمنح السائلين علماً نظرياً في الفلك؛ إذا هم استطاعوا – بما لديهم من معلومات قليلة من ذلك الحين – أن يستوعبوا هذا العلم. ولقد كان ذلك مشكوكاً فيه كل الشك، لأن العلم النظري من هذا الطراز في حاجة إلى مقدمات طويلة، كانت تعد بالقياس إلى عقلية العالم كله في ذلك الزمان معضلات. من هنا عدل عن الإجابة التي لم تتهيأ لها البشرية، ولا تفيدها كثيرا في المهمة الأولى التي جاء القرآن من أجلها. وليس مجالها على أية حال هو القرآن. إذ القرآن قد جاء لما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية. ولم يجئ ليكون كتاب علم فلكي أو كيميائي أو طبي.. كما يحاول بعض المتحمسين له أن يتلمسوا فيه هذه العلوم؛ أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يتلمسوا مخالفاته لهذه العلوم! إن كلتا المحاولتين دليل على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب ووظيفته ومجال عمله. إن مجاله هو النفس الإنسانية والحياة الإنسانية. وأن وظيفته أن ينشئ تصوراً عاماً للوجود وارتباطه بخالقه، ولوضع الإنسان في هذا الوجود وارتباطه بربه؛ وأن يقيم على أساس هذا التصور نظاماً للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته. ومن بينها طاقته العقلية، والتي تقوم بعد تنشئتها على استقامة، وإطلاق المجال لها لتعمل بالبحث العلمي في الحدود المتاحة للإنسان – وبالتجريب والتطبيق وتصل إلى ما تصل إليه من نتائج، ليست نهائية ولا مطلقة بطبيعة الحال. إن مادة القرآن التي يعمل فيها هي الإنسان ذاته: تصوره واعتقاده، ومشاعره ومفهوماته، وسلوكه وأعماله، وروابطه وعلاقاته.

أما العلوم المادية، والإبداع في عالم المادة بشتى وسائله وصنوفه فهي موكولة إلى عقل الإنسان وتجاربه وكشوفه وفروضه ونظرياته بما أنها أساس خلافته في الأرض، وبما أنه مهيأ بطبيعة تكوينه والقرآن يصحح له فطرته كي لا تنحرف ولا تفسد، ويصحح له

النظام الذي يعيش فيه كي يسمح باستخدام طاقاته الموهوبة له، ويزوده بالتصور العام لطبيعة الكون وارتباطاته بخالقه، وتناسق تكوينه، وطبيعة العلاقة القائمة بين أجزائه - وهو أي الإنسان أحد أجزاءه- ثم يدع له أن يعمل في إدراك الجزئيات والانتفاع بها في خلافته. ولا يعطيه تفصيلات لأن معرفة هذه التفصيلات جزء من عمله الذاتي.. وإني لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن، الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه وأن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها.. كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه!.. إن القرآن كتاب كامل في موضوعه، وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها.. لأنه هو الإنسان ذاته الذي يكشف هذه المعلومات وينتفع بها.. والبحث والتجريب والتطبيق من خواص العقل في الإنسان. والقرآن يعالج بناء هذا الإنسان نفسه بناء شخصيته وضميره وعقله وتفكيره. كما يعالج بناء المجتمع الإنساني الذي يسمح لهذا الإنسان بأن يحسن استخدام هذه الطاقات المذخورة فيه. وبعد أن يوجد الإنسان السليم التصور والتفكير والشعور، ويوجد المجتمع الذي يسمح له بالنشاط، يتركه القرآن يبحث ويجرب، ويخطئ ويصيب في مجال العلم والبحث والتجريب. وقد ضمن له مضامين التصور والتدبر والتفكير والصحيح.. كذلك لا يجوز أن نعلق الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن أحيانا عن الكون في طريقة لإنشاء التصور الصحيح لطبيعة الوجود وارتباطه بخالقه، وطبيعة التناسق بين أجزائه.. لا يجوز أن نعلق هذه الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن، بعروض العقل البشري ونظرياته ولا حتى بما يسميه ((حقائق علمية)) مما ينتهي إليه بطريق التجربة القاطعة في نظره.. إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة. أما ما يصل إليه البحث الإنساني -أياً كانت الأدوات المتاحة له- فهي حقائق غير نهائية ولا قاطعة، وهي مقيدة بحدود تجاريه وظروف هذه التجارب وأدواتها.. فمن الخطأ المنهجي -بحكم المنهج العلمي الإنساني ذاته- أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية وهي كل ما يصل إليه العلم البشري!.. هذا بالقياس إلى ((الحقائق العلمية)).. والأمر أوضح بالقياس إلى النظريات والفروض التي تسمى ((علمية)).. ومن هذه النظريات والفروض كل النظريات الفلكية، وكل النظريات الخاصة بنشأة الإنسان وأطواره؛ وكل النظريات

الخاصة بنفس الإنسان وسلوكه. وكل النظريات الخاصة بنشأة المجتمعات وأطوارها.. فهذه كلها ليست ((حقائق علمية)) حتى بالقياس الإنساني. وإنما هي نظريات وفروض كل قيمتها إنها تصلح لتفسير أكبر قدر من الظواهر الكونية أو الحيوية أو النفسية أو الاجتماعية. إلى أن يظهر فرض آخر يفسر قدراً أكبر من الظواهر، أو يفسر تلك الظواهر تفسيراً أدق! ومن ثم فهي قابلة دائمة للتغير والتعديل والنقص والإضافة؛ بل قابلة لأن تنقلب رأسا على عقب، بظهور أداة كشف جديدة، أو بتفسير جديد لمجموعة الملاحظات القديمة!

وكل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متعددة متغيرة - أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلفنا- يحتوي أولا على خطأ منهجي أساسي. كما إنها تنطوي على معان ثلاثة كلها لا تليق بجلال القرآن الكريم.

الأولى: هي الهزيمة الداخلية التي تخيل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع. ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم أو الاستدلال له من العلم. على حين أن القرآن كتاب كامل في موضوعه، ونهائي في حقائقه. والعلم لا يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبته بالأمس، وكل ما يصل إليه غير نهائي ولا مطلق لأنه مقيد بوسط الإنسان وعقله وأدواته وكلها ليس من طبيعتها أن تعطى حقيقته واحدة نهائية مطلقة.

الثانية: سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته. وهي أنه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان بناء يتفق -بقدر ما تسمح طبيعة الإنسان النسبية- مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الإلهي. حتى لا يصدم الإنسان بالكون من حوله، بل يصادقه ويعرف بعض أسراره، ويستخدم بعض نواميسه في خلافته. نواميسه التي تكشف له بالنظر والبحث والتجريب والتطبيق وفق ما يهديه إليه عقله الموهوب له ليعمل لا ليتسلم المعلومات المادية جاهزة.

الثالثة: هي التأويل المستمر -مع التمحل والتكلف- لنصوص القرآن كي نحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر وكل يوم يجد فيها جديد.

وكل أولئك لا يتفق وجلال القرآن، كما أنه يحتوي على خطأ منهجي كما أسلفنا ولكن هذا لا يعني ألا ننتفع بما يكشفه العلم من نظريات - ومن حقائق عن الكون والحياة والإنسان في فهم القرآن.. كلا إن هذا ليس هو الذي عنينا بذلك البيان. ولقد قال الله ﷻ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾، [فصلت:٥٣]. ومن مقتضى هذه الإشارة أن نظل نتدبر كل ما يكشفه العلم في الآفاق وفي الأنفس من آيات الله وأن نوسع بها يكشفه مدى المدلولات القرآنية في تصورنا.. فكيف؟ ودون أن نعلق النصوص القرآنية النهائية المطلقة بمدلولات ليست نهائية ولا مطلقة؟ هنا ينفع المثال: يقول القرآن الكريم مثلاً: ﴿ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾، [الفرقان: ٢].. ثم تكشف الملاحظات العلمية أن هناك موافقات دقيقة وتناسقات ملحوظة بدقة في هذا الكون. الأرض بهيئتها هذه وببعد الشمس عنها هذا البعد، وبعد القمر عنها هذا البعد، وحجم الشمس والقمر بالنسبة لحجمها، وبسرعة حركتها هذه، وبميل محورها هذا وبتكوين سطحها هذا وبآلاف من الخصائص. هي التي تصلح للحياة وقوائمها فليس شيء من هذا كله فلتة عارضة ولا مصادفة غير مقصودة هذه الملاحظات تفيدنا في توسيع مدلول ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ وتعميقه في تصورنا.. فلا بأس من تتبع مثل هذه الملاحظات لتوسيع هذا المدلول وتعميقه.. وهكذا.. هذا جائز ومطلوب.. ولكن الذي لا يجوز ولا يصلح عملياً، هذه الأمثلة الأخرى:

يقول القرآن الكريم: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾، [المؤمنون:١٢]. ثم توجد نظرية من النشوء والارتقاء لوالاس وداروين تفترض أن الحياة بدأت خلية واحدة وأن هذه الخلية نشأت في الماء، وأنها تطورت حتى انتهت إلى خلق الإنسان فنحمل نحن هذا النص القرآني ونلهث وراء النظرية. لنقول: هذا هو الذي عناه القرآن!! لا.. إن هذه النظرية أولا ليست نهائية. فقد دخل عليها من التعديل في أقل من قرن من الزمان ما يكاد يغيرها نهائياً. وقد ظهر منها من النقص المبني على معلومات ناقصة عن وحدات الوراثة

التي تحتفظ لكل نوع بخصائصه ولا تسمح بانتقال نوع إلى نوع آخر، ما يكاد يبطلها. وهي معرضة غدا للنقض والبطلان.. بينما الحقيقة القرآنية نهائية وليس من الضروري أن يكون هذا معناها. فهي تثبت فقط أصل نشأة الإنسان ولا تذكر تفصيلات هذه النشأة. وهي نهائية من النقطة التي تستهدفها وهي أصل النشأة الإنسانية وكفى ولا زيادة. ويقول القرآن الكريم: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، [يس: ٣٨]، فيثبت حقيقة نهائية عن الشمس وهي أنها تجري.. ويقول العلم: إن الشمس تجري بالنسبة لما حولها من النجوم بسرعة قدرت بنحو ١٢ ميل في الثانية ولكنها في دورانها مع المجرة التي هي واحدة من نجومها تجري جميعا بسرعة ١٧٠ ميل في الثانية. ولكن هذه الملاحظات الفلكية ليست هي عين مدلول الآية القرآنية. إن هذه تعطينا حقيقة نسبية غير نهائية قابلة للتعديل أو البطلان.. أما الآية القرآنية فتعطينا حقيقة نهائية- في إن الشمس تجري- وكفى.. فلا نعلق هذه بتلك أبداً(*).

ويستمر الشيخ الجليل بقوله: يقول القرآن الكريم: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾. ثم تظهر نظرية تقول: إن الأرض كانت قطعة من الشمس فانفصلت عنها.. فنحمل النص القرآني ونلهث لندرك هذه النظرية العلمية. ونقول: هذا ما تعنيه الآية! لا ليس هذا الذي تعنيه! فهذه نظرية ليست نهائية. وهناك عدة نظريات عن نشأة الأرض في مثل مستواها من ناحية الإثبات العلمي! أما الحقيقة القرآنية فهي نهائية ومطلقة. وهي تحدد فقط إن الأرض فصلت عن السماء.. كيف؟ ما هي السماء التي فصلت عنها؟ هذا ما لا تتعرض له الآية.. ومن ثم لا يجوز أن يقال عن أي فرض من الفروض العلمية في هذا الموضوع. أنه المدلول النهائي المطابق للآية! وحسبنا هذا الاستطراد بهذه المناسبة، فقد أردنا به إيضاح المنهج الصحيح في الانتفاع بالكشوف العلمية في توسيع مدلول الآيات القرآنية وتعميقها، دون تعليقها بنظرية خاصة أو بحقيقة علمية خاصة تعليق تطابق

(*) سنعرج على هذه الآيات المباركات علمياً عند الكلام عن كيفية تدبر المثل العلمي في القرآن الكريم.

وتصديق.. وفرق بين هذا وذاك))[١]؟.

ولكن هل تكفي هذه الحجج لرفض التفسير العلمي؟

إن كـون القـرآن الكـريم كـتاب هدايـة لا يمنع أن ترد فيه إشارات علمية يوضحها الـتعمق في العلـم الحـديث، فقد تحدث القرآن عن السماء والأرض، والشمس، والقمر، والليل والنهار، وسائر الظواهر الكونية، كما تحدث عن الإنسان، والحيوان والنبات. ولم يكـن هـذا الحـديث المستفيض منافياً لكون القرآن كتاب هداية، بل كان حديثه هذا أحد الطرق التي سلكها لهداية الناس .

أما تعليق الحقائق التي يذكرها القرآن بالفروض العلمية فهو أمر مرفوض وأول من رفضه هم المتحمسون للتفسير العلمي للقرآن .

أمـا أن هـذا اللـون مـن التفـسير يتضمن التأويل المستمر، والتمحل، والتكلف فإن التأويل بلا داع مرفوض . وقد اشترط القائلون بالتفسير العلمي للقرآن شروطاً من بينها أن لا يعـدل عـن الحقـيقة إلى المجـاز إلا إذا قامـت القرائن الواضحة التي تمنع من إرادة الحقيقة .

وأمـا الاسـتدلال بما ورد في سبب نزول الآية (يسألونك عن الأهلة) فهو بحاجة إلى أن يثـبت وإلا فهـو معـارض بـما رواه الطـبري في تفـسيره عـن قتادة في هذه الآية قال : "سـألوا النبـي لم جعلـت هـذه الأهلـة؟ فأنزل الله فيها ما تسمعون (هي مواقيت للناس والحـج) فجعلهـا لصوم المسلمين ولإفطارهم ولمناسكهم وحجهم ولعدة نسائهم ومحل ديـنهم في أشياء والله أعلم بما يصلح خلقه". وروى عن الربيع وابن جريج مثل ذلك . ففـي هـذه الـروايات التـي سـاقها الطبري والسؤال هو : لم جعلت هذه الأهلة؟ وليس الـسؤال مـا بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يزيد حتى يستوي ويستدير ثم ينقص . ولذلك فإنه لا دليل في الآية على إبعاد التفسير العلمي[٢].

---

(١) هـذا مـا جاء من نص في تفسير في ظلال القرآن، سيد قطب، ج/ ١، ص١٨١-١٨٤ . وقد ناقشنا بعض هذه الآراء في كلامنا عن البعد المستقبلي للخطاب القرآني، فنرجو الانتباه كي لا يحصل اللبس.

(١) عن الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بمكة المكرمة.

وإذا أردنا أن نقول إنه يمكن لنا أن نقبل الآراء المانعة على أنها تتحفظ على المسألة إما لعدم إلمام بحقيقة العلوم التطبيقية اليقينية، أو لأنها لا تريد مجرد المقارنة بين كلام الله تعالى وفعل البشر، وبالتالي يمكننا أن نتفهم رفضهم على أنه تحفظ، وبالتالي فإن هذه الآراء تكون متحفظة، ولا يقصد بها الآراء التي ترفض هذا الاتجاه، بل إنها ترسي الدعائم الأساسية والأسلوب الصحيح للبحث العلمي الشرعي في مجال التفكر بخلق الله وتأثيره في الدعوة إليه. وفعلاً فقد صحح هذا الأسلوب أخطاء كثيرة وقع بها عن غير قصد عدد غير قليل من الباحثين الذين اهتموا بموضوع الإعجاز العلمي.. وقد ذكرنا بعض هؤلاء العلماء الأجلاء في معرض كلامنا عن المتكلمين في الإعجاز.

المطلب الثاني

الآراء المؤيدة والمتحمسة

هذه الفئة تتراوح بين الحماسة المفرطة غير الملتزمة بشروط محددة لفقه الإعجاز وبين عدم التدقيق في أمور علمية أو لغوية أو شرعية.

في كتابه العلوم الطبيعية في القرآن يقول يوسف مروه في هذا الصدد: يحتوي القرآن على ١١٤ سورة منها ٨٨ سورة مكية و٢٦ سورة مدنية (نسبة إلى المكان الذي نزلت فيه وحيا على النبي صلى الله عليه وسلم) أطول سورة فيه هي سورة البقرة وعدد آياتها ٢٨٦ آية وأقصر سورة ثلاث هي: سورة العصر (مكية) والكوثر (مكية) والنصر (مدنية) وعدد آياتها كل منها ثلاث، ومن السور القرآنية ما يحمل أسماء بعض المواضيع الفيزيائية والفلكية والأحداث الكونية مثل النور والرعد والدخان والنجم والقمر والمعارج والتكوير والإنفطار والإنشقاق والبروج والشمس والليل والضحى والزلزلة والفلق والتكاثر والعصر والفجر. ومنها ما يحمل أسماء بعض المخلوقات الحية من الإنسان والحيوان مثل الإنسان والناس والشعراء والأنبياء والنساء والأحزاب والبقرة والنحل والنمل والعنكبوت والعلق والفيل. ومنها ما يحمل أسماء شخصيات لعبت أدواراً تاريخية معينة بينها أنبياء وحكماء وملوك مثل آل عمران ويونس وهود ويوسف وإبراهيم

ولقمان ومحمد ونوح وطه وسبأ ومنها ما يحمل أسماء بعض الأحداث التاريخية مثل الفتح والكهف والإسراء والمجادلة والنبأ ومنها ما يحمل أسماء المعادن والفاكهة مثل الحديد والتين وأخرى تحمل أسماء للشعوب والقبائل مثل الروم وقريش.. وفي القرآن آيات بينة واضحة تدل على تجزئة الذرة وغزو الفضاء ونسبية المعرفة الإنسانية وإطلاق الحقيقة الكونية (الله جل جلاله) فهو قد قضى بتحديد وعجز المعرفة الإنسانية عن إدراك عظمة الكون وأصله قبل أن يكتشف آينشتاين قوانين النسبية الخاصة والعامة بأكثر من ثلاثة عشر قرنا. وإذا عبرنا بطريقة كمية عن هذه المواضيع العلمية القرآنية ومقدار ورودها ووجودها في القرآن لتبين لنا أن اكثر من عشر الآيات القرآنية تتعلق بمواضيع العلوم الطبيعية وعلى وجه التدقيق ٦٧٠ آية تبحث في شتى المواضيع العلمية موزعة كما يلي:

الرياضيات (٦١ آية) والفيزياء (٦٤ آية) والذرة (٥ آيات) الكيمياء (٩ آيات) والنسبية (٦٢ آية) الفلك (١٠٠ آية) المناخيات (٢٠ آية) المائيات (١٤ آية) وعلم الفضاء (١١ آية) علم الحيوان (١٢ آية) علم الزراعة (٢١ آية) علم الأحياء (٣٦ آية) الجغرافية العامة (٧٣ آية) وعلم السلالات البشرية (١٠ آيات) علم طبقات الأرض (٢٠ آية) وعلم الكون وتاريخ الأحداث الكونية (٣٦ آية) وفي وصف العلم والعلماء والحث على طلب العلم (٦٤ آية)[(١)].

وقد اعتمد الكاتب يوسف مروة على كتب قيمة لابد من الإشارة إليها هنا منها ((التكامل في الإسلام)) لأحمد أمين، و((القرآن والعلم)) لأحمد محمود سليمان، ((القرآن والعلوم العصرية)) للشيخ طنطاوي جوهري، و((الإسلام والخدمة الاجتماعية)) للدكتور فؤاد عبد الله، و((الفلسفة التربوية)) وغيرها. وعلى قدر رأينا المتواضع فإن المؤلف لم يذكر علوماً كثيرة أخرى كالطب والهندسة والهندسة الوراثية وعلم النفس والأحلام والباراسايكولوجي وكلها علوم حديثة وبعضها تطور بعد طبع كتابه. إن عملية ربط آية معينة بعلم محدد وهي عملية غير صحيحة لأننا قد حبسنا تلك الآية الكريمة بهذا العلم وأن الحقيقة هي أن الآية تعني أكثر من ذلك ولكنها تشير إلى إشارات

---

(١) العلوم الطبيعية في القرآن الكريم، يوسف مروه، ص٧٤-٧٧.

علمية تخص علماً معيناً أو أكثر.

أما الأستاذ الحكيم الشيخ جوهري طنطاوي، رحمه الله تعالى، فقد أكد على ضرورة العلوم الدنيوية والاهتمام بها بجانب العلوم الدينية، ويبرز ذلك جلياً في كتبه الكثيرة حول هذا الموضوع وأبرزها تفسيره ((الجواهر في تفسير القرآن)) والواقع في ستة وعشرين جزءا، وقد نبه فيه كثيراً إلى ضرورة اهتمام علماء الشريعة والفقه واللغة بالعلوم الدنيوية وتنوير العامة إلى دراستها وفهمها لأن في فهمها فهم للقرآن الكريم من جوانب عديدة.

قد يعد بعضهم الكتب والبحوث التي ألفت في مجال الإعجاز العددي في القرآن الكريم تدخل ضمن هذا الصنف من الآراء، إذ أنها استخدمت الأرقام في مقارنات مع آيات الله، وفي هذه النظرة اجتزاء غير موضوعي للمسألة، إذ أن الأمر كله لله تعالى وكل الاكتشافات للحقائق العلمية وبضمنها الثوابت العددية والرقمية تتسلق نحو النص القرآني وليس العكس. إلا أننا لا نجافي الحقيقة إذا ما قلنا أن البحوث والكتب التي اعتمدت المقارنات مع نظريات علمية قابلة للدحض – وليست حقائق- تدخل ضمن هذا الصنف من الآراء.

قبل ألف عام قال الصوفي جلال الدين الرومي ((لو فلقت الذرة لوجدت فيها نظاماً شمسياً))، وقبل أكثر من تسعمائة عام قال الصوفي فريد العطار ((الذرة فيها شمس ولو شقت الذرة وجدت فيها عالماً وكل الذرات في العالم في عمل لا تعطيل فيه))، وذكر الصوفي بن عربي أرقاماً عن الكواكب سماها الرقائق فيها فترات دوران الكوكب حول نفسه أو حول الشمس في الأيام أو الساعات وإن لم توضح في أقواله. هذه الومضات الربانية تغذي البعض بكثير من المعارف وقد سميت بالعلم اللدني[١].

إن القرآن الكريم عقل كوني هذا ما توصل إليه الحارث المحاسبي عن طريق المنطق الفلسفي العميق وبما أن الكون قائم في تركيبه على أسس عددية وكل الأنظمة الكونية

(١) أنظمة رياضية في برمجة حروف القرآن الكريم، د. أحمد محمد إسماعيل، ص١٦٥.

محسوبة في تقديرات عددية ومنطقية لذا وبالمقابل فإن القرآن في تركيبه قائم على أنظمة عددية ومنطقية بالمقايسة ويصبح القول بأن القرآن عقل كوني والكون عقل قرآني حقيقة أكتشفها الحارث المحاسبي قبل أن يثبتها رياضياً الدكتور المهندس أحمد محمد إسماعيل في كتابه الرائع ((أنظمة رياضية في برمجة حروف القرآن الكريم))[1].

إن بريسلي في كتابه (الإنسان والزمن) يؤكد بقناعة أن هناك عقلاً كونياً وأكد العلماء العرب هذه الحقيقة منذ زمن بعيد. ويمكن القول، ما دام هناك توافق بين ثوابت الكون وثوابت القرآن، وما دام القرآن كوناً مقروءاً والكون قرآناً منظوراً، فالمصدر الأساس للكون والقرآن هو الله القدير.. الكون كل ما فيه من حركة وزمن ومادة تحكمه كميات تقاس بالأعداد قسم منها ثوابت والقسم الآخر يعتبر من المتغيرات و إن اكتشاف أسرارها يعطي دلالات في تفسير الخلق والكون كما إن دراسة الثوابت وعلاقة بعضها ببعض يعطي الدليل القاطع بأن الحياة والكون لا يمكن أن تكون صدفة إذا كانت العلاقة مبرمجة.. وإن كل حدث عندما يخضع في مفردات خصائصه إلى ثوابت دائمة لا يمكن أن يكون قد حدث صدفة ولا يمكن أن يكون من صنع مخلوق لأن المخلوق لا يستطيع صنع شيء خالد لأنه فاقد لصفة الخلود.

الصدفة لا تخلق نظاماً وإن خلقته مرة في حدود فمن المستحيل أن تعمم الصدفة أنظمة شاملة ودائمة والصدفة التي تخلق نظاماً يكون احتمال الصدفة قائماً في إلغائها لهذا النظام وبذلك تنتهي صفة الاستمرار.. إن هناك آلاف القوانين الفيزياوية في الكون ولكن عندما يجد العلماء إن قوانين حركة المياه الجوفية مماثلة لقوانين انتقال الكهرباء ومماثلة لانتقال الحرارة والمغناطيسية يتحتم علينا أن نقول أن هذا التماثل لا يمكن أن يكون صدفة ولابد أن يكون واضع القوانين واحداً صممها عن قصد ودراية إذ لا يمكن لهذه القوى غير العاقلة أن تنسق مع بعضها وتتفق على أن يكون لها قوانين متناظرة، وفي هذا دليل على وحدة الخلق الدالة على وجود خالق واحد.

---

(١) المصدر السابق، ص٧-٨.

إن الداروينية رغم المآخذ عليها قد وجهت الأنظار إلى حقائق لا يمكن تجاهلها وهو كيف إن الفقريات لها نفس الخصائص في عدد الفقرات والأصابع وعظام اليد والرقبة؟ كيف يمكن لآلاف الأنواع أن تتشابه في هذه الخصائص رغم أن كل نوع له طريقته الخاصة بالحياة ومنتشرة في كل أرجاء المعمورة؟ لابد أن واحداً هو الذي صممها حتى لو كانت من أصول واحدة.. يبدو أن عنصر التماثل أو التناظر أحد القوانين الأساسية في الكون. والتناظر هو أن الكائنات من أحياء وجمادات بلورات وذرات متناظرة -أي يمكن أن يكون شكلها متشابه عندما تقطع بمستوى معين-، فالزهرة والحيوانات وورقة الشجر والإنسان والذرة والبلورة كلها متناظرة الأشكال. ويبدو أن الجمال والتناظر متلازمان فكل جميل متناظر في معظم الأحيان والكون البديع الذي تحس بجماله الساحر في ليلة قمراء لابد أن يكون متناظراً. وعنصر التناظر موجود في سور القرآن في مفردات حروفه وكلماته.. والتكوير والدوران عنصر آخر من عناصر الكون بل هو أحد قوانينه الأزلية. الدوران في بعض أجزاء الذرة وفي النجوم والمجرات في الأقمار والمذنبات الكل يدور باستمرار وبدون انقطاع وقد أفرد الله لهذه الصفة سورة خاصة في كتابه تتحدث عن أهوال يوم القيامة وهي(سورة التكوير).. لقد جعل الله في كتابه سوراً متناظرات كما تتناظر الزهرة في نصفيها والإنسان في جزئيه على جانبي مستوي عمودي يقطعه وكما تتشابه الفقريات في عظام هياكلها جعل الله السور القرآنية تتشابه في أحرف سورها وفق نظام يستند على أحرف الكلمة الأولى في السور(١).

إن ما توصل إليه الباحث الدكتور أحمد محمد إسماعيل وقبله الحارث المحاسبي كان قد توصل إليه الكثيرون إما عن طريق الفلسفة والجدل الفكري والمنطق السليم أو عن طريق الربط الصحيح للآيات المباركات فمثلاً بين فيلسوف الإسلام أبو حامد محمد الغزالي رحمه الله هذا المعنى قبل حوالي الألف عام، على أنه انتقد المتفلسفين وأهل الكلام من الذين بهروا بفلسفات أقوام آخرين كما ذكرنا في المبحث الأول. وكذلك الإمام الفخر الرازي رحمه الله صاحب كتاب التفسير الكبير وصاحب الموسوعة العلمية الكبيرة إذ نراه

(١) أنظمة رياضية في برمجة حروف القرآن الكريم، ص١١-١٣.

يقـول ((إن لله كـونان كـون مـنظور وكون مقروء فكلما زاد علمنا بالكون المنظور ازددنا علماً بالكون المقروء)). وقد دعا الإمام الغزالي إلى فهم الظواهر الكونية ونواميس الله في الكـون والإنسان ودراسة العلوم الهندسية والطبيعية والطب والحساب والفلك وغيرها عـلى أن يـصب هـذا كلـه في مـصب خدمـة الدين وليس إثبات صحته، بل العكس هو الـصحيح، ووصـف مـن لا يعتقد بصحة الحقائق والإثباتات العلمية، وليس النظريات القابلة للجدل،بأنه لم يفهم الدين بشكله الحقيقي الواسع، وقد كانت كتبه رحمه الله ومنها ((تهافت الفلاسفة)) و((إحياء علوم الدين)) وغيرها من التي بحثت في هذا الأمر، بحق مـن أهـم الإنجـازات الفكـرية في عصره والعصور اللاحقة، فقد فصّل الرجل رحمه الله تعالى وجازاه خير الجزاء تفاصيل عظيمة يعجز عنها كبار علمائنا اليوم.

على أن هذه الفئة إذا ما تم تنقيح عملها وفقاً للضوابط فإنها ستكون رافداً مهماً لعمل الإعجاز الدعوي والتربوي.

المطلب الثالث

الأمة الوسط

أمـا مجيـزوا التفسير العلمي وهم الكثرة فيمثلهم الإمام محمد عبده، وتلميذه الشيخ محمـد رشـيد رضـا ،والـشيخ عـبد الحمـيد بـن باديس، والشيخ محمد أبو زهرة ومحدث المغـرب أبـو الفيض أحمد بن صديق الغماري، ونستطيع أن نعد منهم الشيخ محمد الامين الـشنقيطي، صـاحب أضـواء البـيان في تفـسير القـرآن بالقرآن . وهؤلاء الذين يتبنون التفـسير العلمي للقرآن يضعون له الحدود التي تسد الباب أمام الأدعياء الذين يتشبعون بـما لم يعطـوا . ومـن هـذه الحدود : ١- ضرورة التقيد بما تدل عليه اللغة العربية فلا بد مـن: أ) أن تراعـى معـاني المفردات كما كانت في اللغة إبان نزول الوحي. ب) أن تراعى القواعد النحوية ودلالاتها. جـ) أن تراعى القواعد البلاغية و دلالاتها. خصوصاً قاعدة أن لا يخـرج اللفـظ مـن الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة كافية. ٢- البعد عن التأويل في بيان إعجاز القرآن العلمي. ٣- أن لا تجعل حقائق القرآن موضع نظر، بل تجعل هي الأصل:

فما وافقها قبل وما عارضها رفض. ٤ - أن لا يفسر القرآن إلا باليقين الثابت من العلم لا بالفروض والنظريات التي لا تزال موضع فحص وتمحيص، أما الحدسيات والظنيات فلا يجوز أن يفسر بها القرآن، لأنها عرضة للتصحيح والتعديل - إن لم تكن للإبطال - في أي وقت[١].

يقول الشيخ الجليل والعلامة الفضيل محمد متولي الشعراوي رحمه الله تعالى في كتابه ((معجزة القرآن)): (قبل التحدث عن حقائق الكون فإننا يجب أن نجيب عن سؤالين هامين: السؤال الأول هو محاولة ربط القرآن بالنظريات العلمية وهذا أخطر ما نواجهه ذلك أن بعض العلماء في اندفاعهم في التفسير وفي محاولاتهم ربط القرآن بالتقدم العلمي يندفعون في محاولة ربط كلام الله بنظريات علمية مكتشفة يثبت بعد ذلك إنها غير صحيحة وهم في اندفاعهم هذا يتخذون خطوات متسرعة ويحاولون إثبات القرآن بالعلم والقرآن ليس في حاجة إلى العلم ليثبته فالقرآن ليس كتاب علم ولكن كتاب عبادة ومنهج)[٢].

يقول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ولغوياً من معان الوسطية الاعتدال والاتزان والتوازن والعدل ووسطية المكان وعلى هذا الأساس نبدأ برأي الدكتور عماد الدين خليل إذ يقول:

إن الذي يقرأ كتاب الله بتمعن، في محاولة للإلمام بطبيعة موقفه من العلم، يجد نفسه أمام حشد من الآيات البينات ممتدة وفق أبعاد أربعة توازي المسألة العلمية في اتجاهاتها كافة، يتناول أولها مسائل تتعلق بحقيقة العالم وآفاقه وأهدافه فيما يعرف بفلسفة العلم

(١) عن الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بمكة المكرمة.

(٢) نقلاً عن كتاب معجزة القرآن للشيخ الشعراوي رحمه الله.

ونظـرية المعـرفة، ويتناول ثانيها منهج الكشف عن الحقائق العلمية المختلفة ويوضحها، ويعرض ثالثها لمجموعة من السنن والقوانين في مجالات العلم المختلفة وبخاصة الطبيعية والجغـرافية وعلـوم الحـياة، فـيما يـسمى بالعلـوم المحـضة أو الـصرفة، ويدعـو رابعهـا لاسـتخدام هـذه الـسنن والقوانـين التي كشف عنها منهج تجريبي في البحث ومن أجل ترقية الحياة وتنميتها على طريق خلافة الإنسان لأعمار العالم وفيما يعرف بالعلوم التطبيقية (التقنـية).. وما من شك أن هناك ارتباطاً وثيقاً ومحكماً بين هذه الأبعاد، يقود أحدهما إلى الآخـر ((فالفلـسفة تحلـل أهـداف العلـم والمـنهج يطـرح طـريقة عمـل للكـشف عن الحقائـق)): السنن والنواميس التي تحكم الكون والعالم والحياة وتحمي صيرورتها الزمنية ذات الـنظام المعجز، وهذه السنن والنواميس تمنح الإنسان -بدورها- (المعادلات) التي يـتمكن بهـا مـن أن يدخل إلى صميم التركيب المعجز هذا لبنية الكون والعالم والحياة من أجل الاعتماد تلك السنن والنواميس لتنفيذ قدر من التطبيقات العلمية[١].

ويقـول في مكان آخر: (صحيح أن كتاب الله ما جاء لكي يكون كتاباً علمياً وكما هو معروف تماماً كما أنه ما جاء لكي يكون كتاب جغرافية أو تأريخ أو أي من حقول المعرفة المتـنوعة. وصـحيح أن إلحـاح بعـض المفكـرين المعـاصرين عـلى تحميل آيات الله معاني وتفاسـير علمية لم يقصد إليها البتة قد دفع بعضهم الآخر وبرد فعل يتميز بالإلحاح نفسه عـلى نفي أن تكون للقرآن أية صلة بأي حقيقة علمية. فإن الفعل الخاطئ كما هو معروف يـولد رد فعـل خاطـئاً يـساويه في القـوة ويخالفه في الاتجاه. وهكذا فإن مبالغة طائفة من المفكـرين في تحـويل القـرآن الكريم إلى كتاب رياضيات أو فلك وفيزياء وطب وتشريح دفـع طائفـة أخـرى إلى وضع جدار عازل بين القرآن والمعطيات العلمية وكأن كتاب الله جـاء لكـي يخاطـب الإنسان بمعزل عن العالم الذي هيئ له والكون الذي يتحرك فيه إن هـذا التـضاد المتطـرف يجـب أن لا يـضيع علينـا الرؤية الصحيحة لموقف القرآن في هذه المـسألة العلمـية. إن القـرآن يظـل في حالـة حضور دائم في قلب العالم والكون ويعايش سـننها ونواميـسها ويحدثـنا عنها. والأمر بديهي أن تتطابق معطيات القرآن ومعطيات

(١) مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، د. عماد الدين خليل، ص٧-٨.

العلـم وتـتوازيا لا أن تتـضادا أو تقـوم بينهما الحواجز والجدران. ذلك أن مصدر العطاء واحـد وهـو الله جـل وعـلا صانع السنن والنواميس ومنزل القرآن خالق الكون والعالم وباعث الإنسان ﴿قل كل من عند الله﴾)[١].

هـناك من الحقائق العلمية ما أصبح بمثابة القوانين النهائية، بل بداهات مسلّم بها لا تقـبل نقـضاً ولا تغـيراً، مـا كان العربي يوم نزول القرآن الكريم يلم بأبعادها (العلمية)، ومـن ثـم فـإن تفـسير الآيـات القـرآنية التي تناولت هذه الحقائق وأكدت عليها، كما أنه سيتكئ على بداهات علمية بالنسبة للقرون الأخيرة على الأقل، فإنه سيكشف وفي الوقت نفـسه عـن جانـب مـن جـوانب الإعجـاز العديـدة التي تضمنها القرآن الكريم وأشار إليها[٢].

ويعطـي الأسـتاذ الدكـتور عـماد الـدين خليل الأطر الرئيسية للتعامل مع الإعجاز بقـوله: ويجب أن نلاحظ أن ليس كل ما طرحه القرآن الكريم في واحد من حقول العلم العديـدة أريد به أن يكون (إعجازاً) للأجيال التالية، ولم يكن معروفاً -بالتالي- في عصر النزول. فثمة صنفان من الآيات نطالعهما في أي حقل من الحقول: صنف جاء على سبيل (الإخبار) ولفـت الأنظار إلى خليقة الله وإبداعه في الكون والعالم والنفس، وهو يعرض لحقائـق وظواهر وموجودات كانت معروفة في عصرها، كما هي معروفة في كل عصر... وصـنف آخـر تـضمن إشـارات لحقائـق وسـنن ونواميس (علمية) ما كانت معروفة في عـصرها، وتـولى العلـم -بمرور الزمن- الكشف عنها وهي التي تسمى عادة بالإعجاز العلمـي للقـرآن الكريم.. كما يجب أن نلاحظ أن ما طرحه القرآن الكريم لا يمثل كشفاً بكافة الحقائق العلمية، فالقرآن الكريم ليس كتاباً علمياً، وإنما يكتفي بالكشف عن بعض الحقائـق والإشارة إلى بعضها الآخر، وتبقى حشود أخرى في الحقائق وأكثر بكثير تركت للإنـسان حـرية الكـشف عـنها. والمنهج الذي طرحه القرآن نفسه ويمثل ضرورة إيمانية ملحة لمواصلة هذا الكشف[٣].

---

(١) مقالة الدكتور عماد الدين خليل مجلة العربي، العدد / ٢٤١ ديسمبر ١٩٧٨.

(٢) مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، د. عماد الدين خليل، ص١١١.

(٣) مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، د. عماد الدين خليل، ص١١٤.

وقد أعطى الدكتور عماد الدين خليل أمثلة عديدة عن الإعجاز القرآني في كتابه الرائع (موقف القرآن الكريم من العلم) في النبات والحيوان والفلك والطب والطب النفسي والجغرافية وغيرها.

يذكر الدكتور محسن عبد الحميد في كتابه الموسوم ((النورسي الرائد الإسلامي الكبير)) الذي ذكر فيه أفكار بديع الزمان سعيد النورسي -رحمه الله- ونظرته إلى القرآن التي سبقت عصرنا هذا بعشرات السنين إذ يقول: فالنظام والتدرج هو أساس الوجود كله وأي خروج عليه يعني إدخال الفساد عليه. وهو خروج واضح على تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فالقرآن هو الكون المقروء والسنة هي الكون المطبق في الحياة العملية[1]. ويضيف الدكتور محسن عبد الحميد في كتاب آخر نقلاً عن كتاب ((الإسلام في عصر العلم)) للدكتور محمد أحمد الغمراوي، وكتاب ((الإسلام والفكر العلمي)) للأستاذ محمد المبارك، ما نصه:

ما من باحث منصف يدرس القرآن الكريم إلا يكتشف فيه حقيقة كونية هائلة منهجا ومعرفة.. أما المنهج فيتجلى في وضع القرآن الكريم المبادئ الأساسية للوصول إلى حقائق الوجود منها التنبيه إلى السببية والغائية فيه وعد الاستسلام إلى الظنون والانتقال من المحسوس إلى المجرد واتباع طرق الاستقراء والاستدلال والنظر من خلال استعمال الطاقة البشرية المادية كلها.. وأما المعرفة العلمية الكونية فقد وردت إشارات متنوعة في كثير من الآيات القرآنية، تكشف أسرار الوجود وما أودع الله فيها من القوانين المادية من خلال الحديث المفصل عن مظاهر القدرة الإلهية.. وإذا أضفنا إلى ذلك موقف الرسول الكريم من العلم والتعلم والفهم السديد لصحابته وتابعيه لإدراك المقاصد القرآنية في الدعوة إلى فهم أسرار الوجود أدركنا أن حقيقة التغيير الحضاري الذي نتج في العالم الإسلامي من منطلق مواجهة المسلمين للحضارات العالمية يومئذ مواجهة نشيطة معقولة بعقلية علمية دقيقة.. لقد كانت النتيجة الحتمية لذلك الموقف الرشيد ظهور مؤسسات

---

(١) عن كتاب ((سعيد النورسي رجل القدر في حياة أمة)) لأورخان محمد علي، ص١١٠-١١١، والإشارة فيه لكتاب الأستاذ الدكتور محسن عبد الحميد.

الترجمة الضخمة التي قامت بعمل حضاري تاريخي كبير في ترجمة علوم الفلك والرياضيات والطب والصيدلة.

ولم يثبت علماء الإسلام على ما ترجموه بل زادوا عليه وانطلقوا منه إلى صياغة منهج تجريبي كامل انتهى إلى قيام حضارة علمية عملية كانت سبباً في قيام أعظم تنمية اجتماعية حضارية في القرون الوسطى في العالم تجلت في التقدم الزراعي والصناعي والتجاري وأدت إلى رخاء مادي كبير في أجزاء مهمة من العالم الإسلامي ونتجت منها كذلك المؤسسات الصحية والثقافية والمدارس والجامعات وألوف المكتبات التي حملت مشاعل الحضارة قرونا من الزمان.. يقول كوستاف لوبون، ويعزى إلى بيكون أنه أول من أقام التجربة والترصيد اللذين هما ركن المناهج العلمية الحديثة مقام الأستاذ ولكنه يجب أن يعترف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم وقد أبدى هذا الرأي جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب ولاسيما هنبولد، فبعد أن ذكر هذا العالم الشهير أن ما قام على التجربة والترصيد هو أرفع درجة في العلوم قال (إن العرب ارتقوا في علومهم إلى هذه الدرجة التي كان يجهلها القدماء تقريباً)، ويقول سيدو (إن أهم ما اتصفت به مدرسة بغداد في البداءة هو روحها العلمية الصحيحة التي كانت سائدة لأعمالها). وكان استخراج المجهول من المعلوم والتدقيق في الحوادث تدقيقا مؤديا إلى استنباط العلل من المعلومات وعدم التسليم بما لا يثبت بغير التجربة مبادئ قال بها أساتذة من العرب في القرن التاسع الميلادي حائزين لهذا المنهاج المجدي الذي استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل للوصول إلى أروع الاكتشافات.

لم يستمر وضع العالم الإسلامي الحضاري بنفس القوة إذ بدأت عوامل الضعف والسقوط تتسلل إليه من الداخل، فتحمل إليه الخراب وتفقده الوحدة العقيدية وتقوم فيه كيانات سياسية مهترئة هزيلة فتسقط مصالح الأمة صريعة بيد الأهواء والمصالح الضيقة فينتهي الأمر إلى صراعات عنيفة تجلب الجهل والجوع والمرض، فتطمع فيه قوتان عظيمتان، الصليبية من الغرب والتتر من الشرق، فتخربان فيه كل شيء وتسقط بغداد بيد التتر عام (٦٥٦ هـ) ويبدأ بذلك عصر الركود، فتفقد الأمة تدريجياً روحها العلمية

واتجاهها العقلاني وفهمها الصحيح لأصول الإسلام ثم تنام حضاريا لتجد نفسها بعد قرون أمام الحضارة الغربية الحديثة بقضاياها الإنسانية وروحها العلمية ومخترعاتها الصناعية وتنظيماتها العمرانية فيقع جمع كبير من متعلمي الأمة في الفخ فيظنون أنهم أمام عالم جديد، ومنهج جديد وثقافة جديدة تتجلى فيها القوة والإنجازات الهائلة فيقعون مصروعين مبهورين يشعرون بعقدة نقص عظيم ويعبرون عن هزيمتهم الداخلية باندفاع شديد نحو الحضارة الغازية فيستسلمون إليه في خشوع دون وقفة تأمل أو مراجعة حساب، فيدخلون في عصر الأزمة الثقافية(١).

يشير الأستاذ الدكتور أحمد الكبيسي في إحدى محاضراته القيمة عن تفسيره بعض آيات سورة البينة بقولهﷻ: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ۝٢ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ۝٣﴾ [البينة]، إشارة مهمة هي أن الكتب القيمة هي داخل الصحف المطهرة، هذه الكتب متنوعة تشمل كل الحياة بل كل الكون ومنها العلوم الطبيعية، أي أن كل كتاب يعنى بأمر من أمور الدين والدنيا والآخرة والواحد يكمل الآخر كما يكمل الكون بعضه بعضاً.

أما الدكتور عبد الكريم زيدان فيقول في كتابه ((أصول الدعوة)) ما نصه: والعلوم الحديثة المتعلقة بالكون وبالذرة أو بالإنسان أو بالنبات وبالصناعات والكشوف الحديثة والمخترعات الحديثة، كل هذه تقوي عقيدة التوحيد وتزيد إيمان المؤمن لأنها تكشف عن دقة نظام الكون وعجائب خلق الله ولطائف صنعه الدالة على عظمة وواسع قدرته وعلمه، فإن دقة المصنوع تدل على عظمة الصانع وأن وراء هذه الصنعة البديعة والنظام الدقيق خالق عظيم(٢).. وقد فصل المفكر الإسلامي الأستاذ محمد الغزالي رحمه الله بعض جوانب هذا الموضوع في كتابه "دستور الوحدة الثقافية" .. وللدكتور الفاضل الشيخ محمد فاضل السامرائي رؤية وتحليل ثاقب حول هذا الموضوع فهو يقول أن الإعجاز

---

(١) أزمة المثقفين تجاه الإسلام في العصر الحديث، د. محسن عبد الحميد، ص١٦-١٨.

(٢) ((أصول الدعوة))، د. عبد الكريم زيدان، الطبعة الثالثة، ص٢٤.

قرآني وليس علمياً وأعطى دلائل وأمثلة على رأيه وكان ذلك خلال ندوة تلفزيونية عنوانها من بيوت الله.

أما المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ الفاضل الدكتور يوسف القرضاوي، فيتساءل في كتابه ((كيف نتعامل مع القرآن الكريم))، قائلاً: هل أدينا واجب القرآن كله؟، هل قرأناه كما ينبغي؟، هلا استمعنا إليه كما يجب؟، هل فهمناه حق الفهم؟، هل دعونا إليه دعوة صدق؟، ثم يجيب عن هذه الأسئلة قائلاً:

حقيقة وبكل مرارة أقول (والكلام للأستاذ الفاضل) لا أظن ذلك... لقد قصرنا كثيرا في هذا الواجب نحو القرآن الكريم، ثم يستطرد قائلاً في مكان آخر بعد أن يذكر كيف فهم الجيل الأول القرآن وكيف تعامل معه: أما نحن فنستمع إلى القرآن يتلى علينا ويحمل أشد الوعيد، ومع هذا يهيج الناس وكأن النار أو القيامة لم تذكر، ولقد فهم أعداء الإسلام هذه الحقيقة ولذلك فهم لا يجدون حرجاً في إذاعة القرآن الكريم في إذاعاتهم المختلفة، فهذا راديو إسرائيل، وذاك راديو لندن، وصوت أمريكا وغيرها من الإذاعات تذيع القرآن وكأنها مطمئنة إنه لن يغير شيئاً منا ولن يحرك فينا شيئاً ولن ينبه فينا غافلاً، مع أنه حين قرئ القرآن على العرب زلزلهم وغيرهم تغييراً تاماً حتى أن كفار مكة يمنعون أهلهم من سماعه يتلى خوفاً عليهم من أن يتغيروا إلى حال آخر.. ثم يعود فيتساءل كيف نفهم القرآن فهما صحيحا لاعوج فيه؟، والإجابة كما يقول الشيخ الفاضل في أنه:

١- لا بد أن نقرأ القرآن على أنه كتاب الله فلا نفرض عليه نحن البشر ضعفنا وقصورنا البشري، فهو كتاب الزمن كله والعالم كله ولا ينبغي أن نفرض عليه فكر أو فهم عصر معين أو بيئة معينة.. ويجب أن يظل كلام الله طليقا من أن نقيده ببيئة أو عصر أو بزمن ويفهم باعتباره نزل بلسان عربي مبين لا ألغاز فيه ولا عقد، وأن يفهم في إطار لغة العرب وألا نقحم أنفسنا على كتاب الله فنحرف الكلم عن مواضعه أو ندع الواضحات والمحكمات ونجري وراء المتشابهات وهذا من أخطر ما يكون، لأنه إفساد للقضية، ومن الخطر أن نضع الأدلة في غير موضعها فنستدل

بـما لـيس بدلـيل، ومـن الخطـر أن نعطـي الكلمات غير مدلولها في العربية. وهذه مـشكلة حقيقـية حـين يـريد البعض أن يحرف القرآن لهوى في نفسه فيعرض على القرآن ما ليس من مدلولاته.

٢- نقطـة أخـرى أؤكـد فيها في هذا الصدد -والكلام لا يزال للأستاذ الفاضل- وهي ضرورة فهـم الـنص القـرآني في ضـوء مجموع النصوص المتشابهة. وهذا أمر مهم ومعلـم مـن المعـالم في فهـم القرآن الكريم. لا تأخذ نصا واحدا وتقطعه عن بقية النصوص، فهذا يضلل عن المعنى الحقيقي، بعض الناس يفكك القرآن بعضه عن بعـض بـل يفكـك الآية الواحدة فالذين يريدون أن يأخذوا بعض القرآن وبعض آياتـه لا يمكـن أن يفهمـوا القرآن فهماً صحيحاً، ولابد أن نفهم القرآن بعضه مع بعـض، ونفهم الآية في صور أسباب نزولها وسياقها حتى لا نفهم على غير ما أراد الله ﷻ بها!!

٣- وهـنالك قـضية أخـرى يثـيرها البعض حول ضرورة تطوير الفهم للقرآن الكريم ليتناسـب مـع الـتطور في المجـالات الحياة الأخرى وأوضح أن هذه حجة بعض الذين يريدون أن يقحموا أنفسهم على القرآن ليساير القرآن أهواءهم ويقولون أن الـزمن يتغـير والحياة تتطور، والتطور سنة من سنن الحياة، فلا بد أن يتطور فهمنا للقرآن، نعم هذا الكلام صحيح في جملته، ولكن ليس معنى هذا أن يصبح القرآن خاضـعا لـتطور الـزمن، لأن القرآن هو الحاكم، وليس المحكوم عليه، هو المعيار الـذي يـرجع إلـيه الـناس إذا اختلفوا، فإذا أصبح أمر القياس بغيره ويحكم عليه غـيره فلـن يكـون لـنا شـيئا نرجع إليه ولم يعد لدينا مقياس نحتكم إليه، وأنه من الخطـأ والخطأ جداً أن نغير فهمنا للقرآن في كل وقت ولكن من الممكن أن يتطور فهمـنا للقـرآن الكـريم بمعنـى أن نستفيد من علوم العصر ومعارفه ولا مانع من هـذا، ومـن الممكـن أن يفـتح الله عـلى بعـض الـناس بأشـياء لم يفتح بها على من سـبقوهم، وفي عـصرنا الحـاضر هـناك ما يسمى بالتفسير العلمي للقرآن وبعضه مقبول والآخر غير مقبول.

٤- نقطة أخرى في القضية وهو أن كثيرا ممن يتعرضون لتفسير القرآن هم لا يفهمون اللغة العربية ولا يعرفون ابسط قواعد النحو والصرف والبلاغة. والقرآن الكريم لابد أن يفهم في ضوء اللغة العربية ومفاهيمها ومن لم يستعد للقرآن الكريم بعدة كاملة فلا يمكن أن يفهم القرآن!!

٥- إن أخطر الأشياء في فهم القرآن أيضاً هو ادعاء النسخ في القرآن إلى حد الإسراف.

٦- إن كليات الدين وقواعده الأساسية ينبغي أن تستمد من القرآن الكريم أساساً، كليات العقيدة، والتصرف، والسلوك، والأخلاق. أما السنة فتأتي مبينة بشتى أنواع البيان مقررة ومؤكدة ومفصلة لما جاء في القرآن الكريم.

٧- ينبغي أن نأخذ القواعد من القرآن الكريم، وأن يكون اهتمامنا بالأمور على قدر اهتمام القرآن الكريم بها. فنحن نهتم بأشياء لم تأخذ في القرآن إلا مساحة ضئيلة جداً، وأهملنا أشياء أخذت من القرآن مساحة ضخمة جداً. بل أحيانا وجهنا اهتمامنا لأشياء لم ترد في القرآن أساساً. فما اهتم به القرآن وجعله في بؤرة الاهتمام ينبغي أن يكون هو محور اهتمامنا وتفكيرنا وما أعطاه عناية قليلة يجب أن يأخذ القدر نفسه، وما أهمله يجب أن نهمله، وهذا الذي ينبغي أن يكون ولو أخذنا بهذا المعيار لتغيرت كثيرا من أمور حياتنا.

وبعد هذا التحليل الدقيق لكيفية تعاملنا مع القرآن يتساءل الأستاذ الفاضل قائلا: ونحن أمة القرآن لا نعمل بالقرآن، أمة سورة الشورى ولا تعمل بالشورى، وأمة سورة الحديد لا تتقن صناعة الحديد، وأمة أقرأ آخر أمة تقرأ، أمة العلم ما زالت معدودة في عالم التخلف والجهل فأين نحن إذن من القرآن الكريم[١]؟

وبعد هذه الجولة من آراء العلماء الأجلاء حول موضوع الإعجاز سنحاول الولوج إلى هذا الموضوع بربط بسيط بين بعض الآيات كأمثلة لما نعني.

---

(١) كتاب كيف نتعامل مع القرآن، سلسلة رسائل الجيب (٣)، الدكتور يوسف القرضاوي، صفحات مختلفة، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مكتب القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣ م.

المبحث الرابع

كيفية تدبر الإشارة العلمية في القرآن

المطلب الأول

الآيات

نعود الآن إلى موضوعنا الرئيس وهو كيف نفهم الإعجاز القرآني في مجال العلوم، ولنستمر في رحلتنا مع آيات الله ومع ما كتب حول تفسيرها فمثلا في قوله ﷻ: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾، [سبأ: ٦]، فإنك أخي القارئ ترى أن هذه الآية نزلت على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في موضوع مناقشته المستمرة مع أهل الكتاب من الذين أوتوا العلم قبله وهنا العلم هو علم الكتاب والدين.

ولو تفحصنا الآية لوجدنا بعد عصر البعثة النبوية الشريفة أصبح أهل العلم هم المسلمين وهم الذين أوتوا العلم وأورثوه بعد بني إسرائيل وأن هذه الآية تنطبق عليهم إذ يرى المسلمون أن القرآن بعد تدبرهم له ودراستهم له هو الحق ويهدي إلى صراط الله المستقيم والذي ثوابه الجنة. ثم يأتي عصرنا هذا فيكون أهل العلم (العلم الدنيوي) هم من المكتشفين والمخترعين وأصحاب النظريات من الكتابيين أو الكفرة أو من المسلمين المؤمنين منهم أو الذين ضلوا الطريق وكل الذين يبحثون في العلوم بشتى أنواعها، يعتقدون بأن هذا القرآن حق مطلق ويجدون ما اكتشفوه مختبرياً وحقلياً وفعلياً شاخصا أمامهم بآية أو آيتين من كتاب الله المعجز.

يقول الله ﷻ: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ [النمل: ٩٣]، ويقول تعالى أيضاً: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾،

[فصلت]، هذه الآية أيضاً تحس وكأنها نزلت في عصرنا هذا... ولنتدبر معاني هذا النص القرآني.

ما ظهر من نواحي الفلك وأطراف الأرض وآفاق السماء: نواحيها (مقاييس اللغة: لابن فارس ١/ ١١٤، ١١٥، لسان العرب: ١٥/ ٥،٦، الصحاح للجوهري: ٤/ ١٤٤٦، تاج العروس: ١/ ٢٧٩، المفردات للأصفهاني: ١٩).. (وآيات الله في آفاق الأرض والسماء تحمل معاني ثلاثة: الأول: المخلوقات التي خلقها الله في شتى آفاق الأرض والسماء مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [الشورى: ٢٩] الثاني: آيات القرآن التي تخبر وتصف أنواع المخلوقات، وهي آيات كثيرة. الثالث: البينات والمعجزات التي يظهرها الله تصديقاً لرسوله في شتى آفاق الأرض والسماء برؤية مصداقها من حقائق الخلق حينا بعد حين. قال الشوكانى عند تفسير الآية: سنريهم صدق دلالات صدق القرآن، وعلامة كونه من عند الله في الآفاق – أي في النواحي – وفى أنفسهم.. (فتح القدير: ٤/ ٥٢٣). وقال ابن كثير: أي سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله على رسول الله بدلائل خارجية في الآفاق. (تفسير ابن كثير ٤/ ١٠٦) وقال الزمخشري: ومعناه أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفى أنفسهم سيرونه ويشاهدونه فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب، الذي هو على كل شئ شهيد أي مطلع ومهيمن يستوي عنده غيبه وشهادته فيكفيهم ذلك دليلاً على أنه حق وأنه حق وأنه من عنده (الكشاف ٣/ ٤٥٨). وبهذا قال كثير من المفسرين عند تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣] وقال أبو العباس ابن تيمية: وأما الطريق العيانى فهو أن يرى العباد من الآيات الآفاقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغته الرسل عن الله حق كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (الفتاوى: ١٤/ ١٨٩). "وقال عطاء وابن زيد أيضاً: في (الآفاق) يعنى أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار، والرياح والأمطار، والرعد والبرق والصواعق والنبات والأشجار والجبال والبحار وغيرها "(القرطبي: ١٥/ ٣٧٤،٣٧٥) وروى هذا عنهما

عدد من أئمة التفسير (الطبرى: ٢٤/ ٢٥، أبو حيان ٧/ ٥٠٥، الخازن في مجموعة من التفاسير: ٥/ ٣٩٥، الشوكانى: ٤/ ٥٢٣) . فهذه آيات الله في كتابه تتحدث عن آياته في مخلوقاته وتتجلى بمعجزة علمية بينة تسطع في عصر الكشوف العلمية في آفاق الكون .

إن الله ﷻ تعهد أن يري من يقف أمام هذا الدين الحق بالحجة الدامغة حتى يتبين لهم أنـه لا غـبار عـلى هذا الدين ولا حجة أمامه، فكلمة ((سنريهم)) تُرى نُري من؟ الكفار عـلى عهـد سـيدنا محمـد ﷺ أم المـرتدون والمـنافقون والأعداء فيما يلي هذه الحقبة وحتى عـصرنا هـذا فـإن الله ﷻ تعهـد أن يـري العلماء الدنيويون أن ما يتوصلون إليه من نتائج علمـية موجـودة في كـتابه الذي أنزل قبل أكثر من ١٤٠٠ عام. وعلى الرغم من أن هذه الآيـات المباركات قد تم شرحها وتفصيلها من قبل علماء أجلاء وكتّاب وباحثون في هذا الحقل وغيره، إلا أننا سنقف عندها بشيء من التفصيل.

أرجـو مـن القارئ الكريم ملاحظة الربط العظيم بين الوعد الإلهي لبيان المعجزات والآيـات الإلهـية للـناس في الكـون وفي أنفـسهم وبـين نكـران البعض لموضوع الآخرة والحساب ولقاء الله وكيف أنها جاءت سببية للأولى.

وكلمة ((آياتنا))، الآيات وكما هو معروف تقسم إلى:

١. **آيات سمعية (آيات القرآن)**: كقوله ﷻ: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، [القلم:١٥] - وكذلك ما جاء في لقمان:٧، والمطففين:١٣- .. أي آيات الذكر والقرآن.

٢. **آيات بصرية (آيات الخلق والقدرة)**: كآيات الكون والخلق كقوله ﷻ: ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ....﴾، [الإسراء: من الآية١].. أي معجزاتنا وعجائب خلقنا.

٣. **آيات العذاب والعقوبة**: كقوله ﷻ: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾، [الأنعام: ١٥٨].. ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ

مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾، [الإسراء:٥٩]. أي آيات العذاب والعقاب.

فسواء كانت هذه الآيات من هذا النوع أو ذاك وسواء أكان المخاطبون أهل كفر أو ضلال أو إيمان ومن أهل زمن النزول أو ما تلاه حتى قيام الساعة فإنها جميعا من دلائل قوة وعظمة هذا الدين وهذا الكتاب العظيم الذي يفتح آفاق العقل إلى أقصاها يقول الأستاذ ((سعيد حوى)) في كتاب ((الله ﷻ)) ما نصه:

أما آيات الله فواضحة بينة ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾، [الأنعام:٥٥] وآيات الله نراها في ثلاثة:

١- الكون، ٢- القرآن، ٣- المعجزات والكرامات. وقد عبر القرآن عن كل من هذه الثلاثة بأنه آية تدل عليه:

الكون: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات]. ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥]. ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يس]. ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الروم].

القرآن: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ [يونس:٢٠]، ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد:٧]، ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾، [الرعد:٢٧]، ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ

يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾، [العنكبوت]. ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٠١].

المعجزات: ﴿ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ﴾ [آل عمران: ١٠١]. ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ ﴾ [القمر]. ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾، [هود: ٦٤]. ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، [آل عمران: ٤٩].

ونصوص القرآن تشير إلى أن في الكون آيات وليس آية، وفي القرآن آيات وليس آية، والمعجزات آيات وليست آية. إن عشرات الظواهر في الكون كل واحدة منها تدل على الله. وعشرات الظواهر في القرآن كل ظاهرة منها كافية للدلالة على الله. والمعجزات ظواهر تاريخية كل ظاهرة منها كافية للدلالة على الله. وفي كل ظاهرة آلاف الإشارات وكل واحدة منها تدل على الله، فالله أقام الحجة على الناس قياماً كاملاً ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾، [النساء: ١٦٥]، ﴿ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾، [غافر: ٥٠].

ولا زالت الكرامات في هذه الأمة تتوالى. وكل كرامة في هذه الأمة إنما هي معجزة لرسولها ﷺ. ومن ثم فكل كرامة هي في حد ذاتها دليل على صحة رسالة رسولنا ودليل

على أن الله موجود، إذ الكرامة كالمعجزة في كونها خرقا لعالم الأسباب.[(١)]

أما الأستاذ ((عبد المجيد الزنداني)) فيقول عن هذه الآيات المباركات: القرآن الكريم كتاب هداية لحياة الناس وليس كتاباً للهندسة والفلك والكيمياء يجب إن نجد فيه كل ما يتعلق بهذه العلوم من حقائق. وعد الله أنه سيري الناس آياته في الآفاق وأنه سيعرفهم بها ولقد تحقق الوعد في مجال هذه الحقائق العلمية في زمن التقدم العلمي والذي كشف عن هذه الحقائق وعرف الناس صدق ما جاء في القرآن عنها ليعلموا أن القرآن نزل بعلم الله وأنه الحق من ربهم.. من هذه الحقائق ما هو جلي واضح كالإخبار عن انفصال الأرض عن السماء، وأن الماء أصل الحياة، وأن اللبن يخرج من بين فرث ودم تباعاً، وأن من تصعد في السماء أصابه ضيق شديد في صدره، وأن في البحر نوعين من الموج موج داخلي في البحر وموج فوقه على السطح، وأن الزوجية موجودة في النباتات الأرضية تنبت وفق أوزان محددة، وأن المصنع الذي تخرج منه الحبوب هو المادة الخضراء الموجودة في النباتات، وأن مواقع النجوم عظيمة لا كما يحسبها البدوي، وأن السحب الركامية تتألف من أجزاء متناثرة فتكون كالجبال وهذا هو الشرط في وجود البرد، وأن نزول البرد لا يخضع لرسم جغرافي محدد دائماً تصريفه غير محدود. وهناك آيات قرآنية كشف التقدم العلمي عن معانيها ودقة ألفاظها كوصف السديم، وتوسيع السماء المستمر، وميزان الجذب الذي يربط أجزاء السماء ويجعلها كالبناء، وارتفاع السماء، وتميز الليل والنهار بعد فترة ليس فيها تميز، ودحو الأرض ودحرجتها، وإخراج ماء الأرض منها، وإخبار بأن سبب عودة القمر إلى هلال هو تنقله في منازل معلومة، والتفريق بين الشمس والقمر في نوع الضوء، والإعلان عما سيكون في وسائل النقل، والظلمات الثلاثة التي يحاط بها الجنين في بطن أمه، والحكمة في تعظيم تسوية البنيان، والحكمة في تحديد ثلاث قروء للمطلقة، والحكمة في وصف نكاح الحائض بأنه أذى، والحكمة في حث الأمهات على الرضاعة، وأن تحديد مدتها المثلى بعامين، والحكمة في تحريم لحم الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير[(٢)]. ثم أتت اكتشافات أخرى كأهمية العسل واكتشافات الهندسة

---

(١) عن كتاب ((الله ﷻ))، سعيد حوى، ص١٨-١٩.

(٢) توحيد الخالق، عبد المجيد الزنداني، ص٣٦٣.

الوراثية والطب والطب النفسي والأحلام والباراسايكولوجي وطب الأعصاب والجملة العصبية وغيرها مما سنحاول تفصيله في كتب أخرى بشكل مستقل[١].

وهـنالك ربـط في كلام الأستاذ الزنداني مع ما توصل إليه العلماء الروس حول تأثير الشمس حتى على بروز العلماء الكبار الذين يغيرون مجرى العلم والتطور البشري والذي تحدثـنا عـنه في فصل سابق، ثم نأتي نحن لنأخذ ما توصلوا إليه ونتعالى به على الله ونكابر ونـصيغ النظريات التي تلغي وجود الله أو تعد شرعه وقرآنه قانوناً قديماً أكل الدهر عليه وشرب فـلا يـستطيع مواكـبة العـصر، وإني لأرأف بحال هؤلاء المساكين الذين ينسبون الكمال لعقولهم وينكرونه على الله ﷻ، ألا ساء ما يحكمون.

أما الشيخ ((نديم الجسر)) مفتي طرابلس فيقول في كتابه ((قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن)) إنك إذا تدبرت هذه الآيات أمعنت النظر فيها وعلى ضوء العلوم الطبيعية التي يجب أن تكون واسع الاطلاع عليها، رأيت بجلاء أن القرآن قد تناول فيها على طرق الاستدلال التي سلكها علماء الدين والفلاسفة وتلاقوا فيها على الحق، وقد صدق الله وعده الحق فأراهم بعد عصور وعصور من آياته في الآفاق وفي (تكوين الإنسان) ما ألفوا فيه المطولات حتى تحقق فيهم قوله ﷻ: ﴿....إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[٢]، وهذا الكتاب من الروعة بمكان في أسلوب المناقشة والتأليف بحيث أنك لا تملك إلا أن تقرأه لتعلم كيف أن على المسلم أن يتسلح بسلاح العلم المادي بعد علم الدين الذي هو الأصل لأنه لا بديل أمامه مع كل ما يواجهه من تحديات.

لقد حسم الله تعالى موضوع آيات القرآن الكريم بأنه ليس لتنظيم أمور الناس في معاشهم وعبادتهم وأمور الدين والدنيا فقط، بل كتاب لكل شؤون الحياة، فأمرنا الله تعالى بالتدبر في آياته، والتدبر أي التفكر والبحث الطويل للاستدلال على عظمة آيات

---

(١) راجـع كتبـنا الأخـرى (المـنظار الهـندسي للقـرآن الكـريم)، (تفصيل النحاس والحديد في الكتاب المجيد)، (سلسلة ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية ١٥-كتاب).

(٢) كتاب قصة الإيمان ((بين الفلسفة والعلم والإيمان))، للشيخ نديم الجسر، ص٢٨٢-٢٨٣.

الله في كونه المنظور ومرآتها كونه المقروء، إذ يقول الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، [ص: ٢٩].

فهنا لم يقل ليتدبر آياته المؤمنون بل كان أمر التدبر لكل الناس مؤمنهم وفاسقهم كي يعلموا عظمة هذا الكتاب ليؤمنوا. كما أن الأمر حدد النتيجة وهي أن التذكر والإيمان به سيكون لأولي الألباب حصراً أي أصحاب العقول النيرة من العلميين الحقيقيين الذين لا تأخذهم العزة بالإثم ولا يكابرون ويعاندون أمام الحقائق القرآنية الدامغة التي ستأتي حتماً إذا ما تدبرنا القرآن جيداً فالتدبر أيها الأخوة هو مفتاحنا اليوم لفهم قرآننا بلغة جديدة هي لغة العلم والأرقام بعد أن فهمه السلف الصالح بلغة اللسان والإعجاز اللغوي ولغة الفكر وعقلوه وعملوا بما جاء به.

والله تعالى يبين لنا بعض آياته ويفصلها لنا فمنها علمية ومنها اجتماعية ومنها اقتصادية ومنها نفسية وهكذا: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم]..

فبالله عليكم هل يستطيع أحد أن يعد لنا كم علم حوته هذه الآيات المباركات وكم مجلد يمكن أن يكتب ويؤلف حولها؟ وهل يستطيع أحد أن يخبرنا لماذا اختلف المخاطبون مع اختلاف الآيات، فتارة قوم يتفكرون، ومرة للعالمين، وتارة لقوم يسمعون، وأخرى

يعقلـون، وهكـذا؟. أمـا سـورة الجاثـية فإنها من أولها إلى آخرها تتحدث حول موضوع الآيـات الإلهـية ونعمـة الله وربطهـا مع أولئك الذين يجحدون بهذه النظم والآيات فهي كلها تصب في هذا المعنى وتدور حول هذا المحور فأرجو من الاخوة القراء قراءتها بتدبر وتأمل خلال قراءتهم لهذه السطور وليعلم كيف أن اللهﷻ ينبه الناس لعظمة آياته ونعمائه ويبين لهم دلائل قدرته ويرشدهم إلى فهمها والاستفادة منها ثم يحذر وينبه كل من يحاول أن يطعـن بوحدانـية الله ورسـالات أنبـياءه وخـاتمهم المـصطفى صـلى الله علـيه وسـلم والقـيامة والـبعث والنشور والحشر والحساب وكل الغيبيات، ففي هذه السورة العظيمة كـما في غـيرها مـن الـسور كـل ما يزرع في الإنسان كل هذه المعاني العظيمة –ذكرنا هذه السورة خلال عرضنا في المبحث الأول-.

إن الإكثار من ذكر العلم والفكر والعقل في القرآن ظاهرة تستلفت النظر بشكل بارز ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤]، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴾ [النمل:٥٢]، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١١]، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢]، ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [يونس: ١٠١].. ومن ثم فإن المتأمل للقرآن يدرك أن الإسلام يفرض على المسلم أن يفكر ويفرض عليه أن يتعلم وأن العلم والفكر جزءان من شخصية المسلم في حين هما عند غير المسلم شهوة يتسلى بها أو باب معاش يرتزق منه أو هواية عند بعض الأفراد، وإذ يفرض الإسلام العلم فلأن بالعلم يعرف أن الإسلام حق(١). وهكذا فإننا نرى أن كل آيات القرآن تستثير في الإنسان التأمل والتفكير والتعلم والسماع والعقل والبحث العلمي.

المطلب الثاني
بعض الأمثلة عن الآيات العلمية

تقسم الآيات العلمية أو الإشارات العلمية في آيات كتاب الله المجيد إلى عدة أقسام:

---

(١) عن كتاب (الله جل جلاله)، سعيد حوى، ص١٥.

• **الآيات التصريحية**: وهو ما تصرح به الآية الكريمة بشكل جلي واضح لا يقبل الجدل عن أمر علمي أو ظاهرة علمية معينة تضرب كمثل ضمن النص القرآني وهذا النوع يحوي آيات عديدة منها على سبيل المثال لا الحصر الآيات التي تم مناقشتها في معرض عرضنا لآراء العلماء حول موضوع الإعجاز من قوله تعالى في سورة [يس الآية: ٣٨]: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾، يقول الأستاذ رعد الخزرجي حول المغزى العلمي العظيم لهذه الآية ما نصه: ((إن التسليم بصحة القرآن الكريم أمر حتمي لا جدال فيه عند كل مؤمن، ولكن طالما أشار القرأن الكريم إلى جريان الشمس فإن الموقف يتطلب التدبر في المعنى كما أمرنا الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾، [محمد: ٢٤]. فمن الأمور الواجب تدبرها هو التعمق بمعنى الجري، فالجري في لغة العرب هو تعبير لفظي يدل على السرعة العالية، ولا يوجد تعبير آخر أدل منه على ذلك، ويقر علماء الفلك اليوم من خلال قياس سرعات حركات الشمس المتعددة بأنها عالية جداً وأدناها أعلى من سرعة الصوت، ومن هنا فإن التعبير القرآني ﴿ ....وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى.... ﴾ يتوافق لفظياً مع حقيقة سرعات حركات الشمس، فهي تجري باتجاه الجاثي واللورا في مجرتنا – درب التبانة- بسرعة ١٩ كم/ ثا وبها يقرب من ٦٠ ضعفاً من سرعة الصوت، وهذه ليست بسرعة بطيئة كما كان يعتقد من قبل من خلال قياس حركتها الظاهرية من الشرق إلى الغرب أبطلها كوبرنيكوس عام ١٥٤٣م عندما أثبت بأن الأرض هي التي تدور حول الشمس مما يجعلنا نرى هذه الحركة الظاهرية. ثم جاء بعده وليم هرشل في القرن السابع عشر الميلادي مثبتاً حركة الشمس الفعلية في المجرة)).

وعن الآية ٣٠ من سورة الأنبياء ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾، والتي تناولناها في موضوع البعد المستقبلي في الخطاب القرآني نبين إن لفظ السماء في اللغة يعني كل ما علاك فنقول سما الرجل سمواً أي علا وأصبح ذا شأن كبير، وتحديد وجه الاستخدام يوضحه مجمل معنى الآية الكريمة التي يرد ذكرها ضمن النص القرآني، فسقف البيت سماء له، والسماء

جاءت في القرآن الكريم بعدة معاني منها سماء الغلاف الجوي منه قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴾، [الحجر:٢٢]، وسماء المجموعة الشمسية مثل قوله تعالى: ﴿ ....وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾، [يس:٤٠]، وسماء المجرة مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ ....﴾، [الملك:٥]، ثم سماء الكون والسماوات العلى أي سماء المجرات وما بعدها مثل قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾، [الأنبياء:١٠٤]، كما وجاءت بالمعنى المطلق أي جميع أنواع السماوات مثل قوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾، [البقرة:١١٧][١]..

وللأستاذ الدكتور منصور حسب النبي رأي آخر حول معنى هذه الآية المباركة غير الذي طرحناه في موضع آخر من الفصل السابق، ومختصره: ((إن لفظ السماء في هذه الآية يعني الغلاف الجوي وقد أوضح ذلك حبر الإسلام ابن عباس رضي الله عنهما بأن الله تبارك وتعالى قد فتق الغلاف الجوي بالمطر والأرض بالصدع، وتشير الحقائق العلمية اليوم بأن معظم مكونات الأرض كانت تضم الجزء الأكبر من الغلاف الجوي في طيات شقوقها ثم انفصل عنها. ومعنى الرتق في الآية الكريمة هو ذو مدلول لغوي على عدم التجانس والاندماج أي كانتا شيئين متلاصقين من حيث اللغة، وهذه حقيقة تنطبق على تفسير فصل الغلاف الجوي عن الأرض ويتوافق معها العلم الحديث)).

ومن الأمثلة القرآنية التصريحية أيضاً ما سبق وأن أشرنا إليه في معرض ما أدرجناه في موضوع المثل في القرآن من الناحية اللغوية وهو ما جاء في قوله ﷻ: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ

(١) انظر كتابنا الثالث ضمن سلسلة ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية وهو كتاب (الفلك)، وكذلك كتابنا (تفصيل النحاس والحديد في الكتاب المجيد)/ الفصل الثاني/ نشوء الكون، ففيهما تفاصيل مهمة في هذا الموضوع.

حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾، [الرعد:١٧]، وهنا تصريح واضح بأن هناك تشابهاً بين ما يحصل من تفاعلات كيميائية عظيمة وتحرير طاقة هائلة في عملية صناعة المعادن ومنها الحلي كالذهب والفضة وبين صراع فئات البشر التي تمثل الحق وما يقابلها من فئات الباطل، فكما أننا لانحس بما يحصل داخل أفران الصهر للمعادن من تفاعلات هائلة وكل ما يهمنا هو ما نحصل عليه في النهاية من حلي جميلة أو معادن رائعة نستخدمها في شتى مجالات الحياة، كذلك ما يحصل في صراعات البشر من تضحيات وخسائر إلا أن الغلبة في النهاية للحق وأهله، كذلك يضرب الله الأمثال للناس.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، [فاطر:١٢]، وهي الآيات التي سبق أن تطرقنا لها في نفس الموضوع – موضوع المثل القرآني من ناحية اللغة– ففي هذه الآيات تصريح واضح إلى وجود المياه المالحة والمياه العذبة، كما تشير الآية بوضوح إلى استخراج الحلي والسمك بأنواعها المختلفة من هذين النوعين من المياه، وكذلك جريان السفن في المياه وأهميته للبشر، وتفصيل هذه الآيات ومثيلاتها المتعلقة بعلوم البحار من الناحية العلمية يطول وسنذكر بعض تفاصيله في كتبنا اللاحقة بإذن الله تعالى. فالملاحظ هنا أن الآيات تتعلق بعلوم البحار، الأمر الذي يثير تساؤلاً منطقياً لمن يدعي أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو الذي كتب القرآن –حاشاه–، وهو كيف يتسنى له ذلك وهو الذي لم يعش في بيئة بحرية ولم يعهد العمل في البحار ولم يكن العلم في وقته قد وصل إلى تلك التفاصيل المهمة كي يستطيع أن ينقلها من غيره. وكذلك الحال مع آيات المطر والرياح والفلك والإنسان والنبات والحيوان وغير ذلك.

• **الآيات التلميحية**: وهو ما تمر عليه الآية ضمن النص القرآني مروراً سريعاً دون تفصيل إلا أن الآية تلمح إلى حقيقة علمية أو أمر يستدعي البحث العلمي، وفي هذا

أمثلة كثيرة أيضاً منها قوله تعالى: ﴿ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴾، [الكهف:١٨]، فقوله تعالى: ﴿ ....وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ.... ﴾، يلمح إلى معنى علمي أساسي جاءت بسببه عملية التقليب وهو أن استمرار أهل الكهف بنومهم مدة طويلة من الزمن على جنب واحد يؤدي إلى تقرح أعضاء الجسم وهو ما اثبته الطب الحديث، والأمثلة من هذا النمط كثيرة.

• **الآيات الاستنباطية:** وقد فصلنا معنى الاستنباط سابقاً ضمن موضوع التفسير والتأويل وأنواعهما، وهذا النوع أيضاً له عدة تطبيقات قرآنية ويختلف التفسير أو التدبر هنا بحسب المنظار الذي ينظر منه الباحث على أن لا يخرج عن الأطر التي حددها العاملون في حقل الإعجاز والتي تكلمنا عنها سابقاً، والأمثلة هنا أكثر من أن تحصى(*). أرأيت إلى قوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾، [الروم: ٤١]، ففي هذه الكلمات الطيبات حروف قلائل جمعت علوم البيئة والتلوث والفلك والبحار والجيولوجيا والاجتماع والتأريخ والأنثروبولوجي والنفس والاقتصاد والهندسة وغيرها يستطيع الباحث أن يستنبط منها حسب نظرته للآية، فالفساد قد يكون اجتماعياً بسبب عدم تطبيق شرع الله في الأرض وهذا ما تراه في المجتمعات الغربية وبعض المجتمعات الإسلامية، أو فساد في نظام الكون أو البيئة بسبب تدخل الإنسان في عمليات التوازن البيئي والكوني وعمله الذي يعتقد أنه صحيح بينما هو في الواقع غير ذلك. وما فتحة الأوزون وتلوث البيئة وانقراض الحيوانات والأمراض الجديدة كالإيدز مثلا والتي ظهرت في المجتمعات المتطورة والنامية إضافة إلى الظواهر الكونية والبيئية التي نراها من حرائق وأمطار وزلازل وعواصف إلا نتيجة لهذه التدخلات البشرية غير السليمة بحجة فهم الكون والأرض

(*) بإمكـان القـاريء الكـريم الـرجوع إلى كتب عديدة في موضوع الإعجاز ومنها كتابنا ((المنظار الهندسي للقـرآن الكريم)) ليتلمس معنى هذا النوع من الآيات القرآنية العلمية إضافة إلى الإعجازات العددية للآيات القرآنية.

والتطور العلمي، وفي هذا المجال تقول جماعة الحزب الأخضر (وهو حزب البيئة والمحافظة عليها): إن حال العلماء الذين يبحثون في كافة مجالات العلم مع الطبيعة وقوانينها كحال طفل وضع أمام كمبيوتر معقد وكل ما يفعله هو تخريب، إلا أنه يضحك معتقدا أن ما يفعله صحيح. ولقد قال أسلافهم من أهل حضارة المايا (حضارة ظهرت في المكسيك قديماً): إذا أوقدت نارا ووقفت أمامها فإن صورتك أو ظلك الذي تراه على الجدار هو ليست حقيقة إنما هو الظاهر ولكنك لا ترى الحقيقة.. اللطيف في الأمر أن هذه المقولة للقدماء أو المحدثين من أهل البيئة قد لخصها الله في كتابه الكريم بقوله: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾، [الروم: ٧]، فنحن إضافة إلى جهلنا بعلم الآخرة نجهل علوم الدنيا ونعمل بظاهرها فقط وليس بالحقيقة المطلقة. وعلى العموم مهما تطور العلم ومهما تقدم فإنه لن يصل إلى مرحلة الكمال لأنه نظرة صغيرة إلى الكون وعظمته وكبر حجمه ترينا كم نحن صغار وضئيلون أمام رب العزة وعلمه الذي لا نهاية له وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾، [لقمان: ٢٧].

لننظر إلى المسألة من زاوية أخرى ونتدبر آية تلميحية أخرى، يقول الله ﷻ : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾، [الكهف: ٥١]. ماذا لو أن الله تعالى قدر في حكمه أن يُري الناس جهراً كيف خلق السموات والأرض، وكيف خلق الكون، وخلق الإنسان، فهل سيبقى على الأرض من جاحد أو ملحد أو كافر أو مشرك أو منافق أو معاند أو مكابر أو متبع لطريق غير طريق الله وطريق الإسلام المستقيم، ولكنه ﷻ تعهد بأنه سيريهم هذه الآيات وقد حددها سبحانه في الآفاق وفي أنفسهم ويرونها أمامهم رأي العين وكما هي مذكورة في القرآن حتى يتبين لهم أن الإسلام هو الحق وأن أتباعه هو الطريق الأوحد الذي لا طريق غيره وأن كل الأساليب الوضعية الحياتية الأخرى إنما هي ضلالة لا تؤدي إلا إلى ضياع الإنسان وهلاكه وهذا ما نراه اليوم شاخصاً أمامنا في كل أرجاء العالم.

فهذه الهندسة الوراثية وما تجلبه لنا يومياً من اكتشافات عظيمة للبشرية وآخرها صيحة الاستنساخ البشري التي جلبت الفوائد للبشر باستخدامها التقنية الحديثة للهندسة الوراثية في بحوث الحيوان والنبات، ولكنها أساءت استخدام العلم بتغيير طريقة تناسل الكائنات من الطريقة التقليدية إلى طريقة صناعية تعتمد أخذ خلايا معينة من مناطق مختلفة من الجسم وزرعها بطريقة تقنية معينة في رحم الأم لتلد كائنا يشبه بالضبط الكائن الأصلي بكل صفاته دون الإكتراث إلى المعاني الخلقية وكرامة الكائن البشري(١)، ولك أيها القارئ الكريم أن تتلمس معنى الآية الكريمة التي تخبرنا أن الإنسان وبفضل حشر أنفه في كل ما يعنيه وما لا يعنيه -كما يقول أهل البيئة- سيعمل على تغيير التوازنات الطبيعية وتغيير خلق الله وإتلاف بيئته الجميلة التي سخرها الله له جاهزة بدون الحاجة إلى تغيير نمط تركيبتها تحت حجج شتى مثل خدمة البشرية، إذ يقول الله ﷻ متحدثاً عن لسان إبليس اللعين ومحاولاته لإغواء البشر وإبعادهم عن طريق الله المستقيم: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾، [النساء:١١٩]، والتي تطرقنا لها ضمن أمثلة البعد المستقبلي في الخطاب القرآني. ألا ترون أن هناك ربطاً بين ما يحصل الآن من تلاعبات في البيئة وتوازناتها وبين تغيير خلق الله ونمطه وأسلوب تكاثره الطبيعي كما أشرنا في موضوع البعد المستقبلي.

هناك إشارات لا حصر لها في علوم كثيرة نستطيع تلمسها في كل آية من آيات كتاب الله المسطور لتجدها أمامك في كتاب الله المنظور. إن كل ما يتمكن الإنسان من ولوجه واكتشافه وتطبيقه من علوم وتقنيات وصناعات ذات تأثير عظيم على البشرية تجد له إشارة في القرآن العظيم، فهذه النسبية العامة والخاصة لآينشتاين لا تزال محل جدال

---

(١) أثبتت البحوث أن هناك مشاكل كبيرة في السيطرة على نمو خلايا الكائنات المستنسلة بعد فترة من عمرها مما حدا بالعلماء إلى القول أنه من المبكر جداً الحكم على هذه التجربة بالنجاح... يراجع كتابنا (الوراثة والاستنساخ) وهو الكتاب العاشر ضمن سلسلة كتب (ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية).

عظيم بين العلماء، لا يمكن لنا من تحويلها إلى تطبيق عملي ذلك لاستحالة تحول حركة المادة إلى سرعة الضوء لأنها عندئذ ستتحول إلى طاقة وبالتالي لا يمكن لبشر أن يقوم بالرحلة عبر الأكوان بهذه السرعة، بينما تجد أن رحلة الإسراء والمعراج المباركة لرسول الله ﷺ كانت قد سبقتها بعدة قرون ومن أراد التفصيل عليه مراجعة قصة الإسراء والمعراج وربطها مع ما توصل له آينشتاين في نسبيته وليتأمل.. حيث لم يشهد تاريخ البشرية ولن يشهد تطبيقاً عملياً لنظريات آينشتاين الرائعة –العامة والخاصة– إلا في حادثة أرادها الله تعالى أن تكون منعطفاً للبشرية بكل وجوهها ومنها الوجه العلمي، ألا وهي حادثة الإسراء والمعراج، المعجزة الثانية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد معجزة القرآن(١).

وهنا نقطة مهمة جداً وهي أن هذه الحادثة جعلها الله تعالى تحصل بإذنه بعد أن كان صلى الله عليه وسلم محزونا لأمر الدعوة وهو يرى جبابرة قريش والعرب يفتكون به وبأصحابه ولم يجبه أحد من المدن الأخرى فجعل الله هذه المعجزة العظيمة والرحلة المباركة ليريه ملكوت السماوات وأفلاكها ومجرّاتها فيرى العجائب العظيمة التي تشيب لها الرؤوس فيصغر في عينه شأن هؤلاء الجبابرة وتهون الدنيا كلها أمامه فيندفع اندفاع الأسود لنصرة دين الله، وكان هذا فعلاً، وهذا المعنى نجده في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾، [الأنعام: ٧٥].. فحري بنا بل وما أحوجنا إلى أن نتأسى بذلك ونتأمل في آيات الله وعلومه لنعلم عظمته فيزداد يقيننا وإيماننا ونعود إلى ديننا.

يقول الله ﷻ في سورة الشورى الآية (١٦): ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴾.. يقول

(١) يراجع كتابنا (المنظار الهندسي للقرآن الكريم)، الباب الثالث، الفصل السابع، هندسة النقل والاتصالات في القرآن الكريم، وكذلك كتاب (الكون وأسراره في آيات القرآن الكريم)، للأستاذ حميد مجول النعيمي.

الأستاذ عبد المجيد الزنداني تعقيباً على هذه الآية الكريمة في كتابه توحيد الخالق: (والكافر يعلم إن كل نعمة يتمتع بها في نفسه كالسمع والبصر والعقل والصحة والحياة وكل نعمة ينتفع بها في الأرض كالنبات والحيوان والماء والهواء والخيرات المختلفة والمعادن وكل نعمة يستفيد منها في السماء كالشمس والقمر وتقلب الليل والنهار، يعلم الكافر أن كل هذه النعم الظاهرة والباطنة لم يخلقها بنفسه وأن لها رباً وخالقاً أنعم بها عليه ولكنه يجحد نعمه ويتناسى ويتعالى عن فضل خالقه عليه ويستخدم نعم ربه في المجاهرة بالكفر).

وهكذا فإن الاستنباط من الآيات الكريمات يتخذ عدة أشكال على أن كلها يجب أن لا تخرج عن القواعد التي ذكرناها آنفاً.

يقول الأستاذ الدكتور زغلول النجار: ((يشير القرآن الكريم في عدد من آياته إلى الكون وإلى العديد من مكوناته (السماوات والأرض، وما بكل منهما من صور الأحياء والجمادات، والظواهر الكونية المختلفة) وتأتي هذه الإشارات في مقام الاستدلال على القدرة الإلهية التي لا تحدها حدود، وعلى العلم والحكمة البالغين في إبداع هذا الكون، وذلك في معرض محاجة الكافرين والمشركين والمتشككين، وفي إثبات حقيقة الألوهية لرب العالمين . وعلى ذلك فإن الآيات الكونية في القرآن الكريم لم تأت من قبيل الإخبار العلمي المباشر وذلك لسببين : أولهما : أن القرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية، كتاب عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات، وهي من القضايا التي لا يمكن للإنسان أن يصل فيها إلى تصورات صحيحة بجهده منفردا، بل الإنسان محتاج فيها دوما إلى الهداية الربانية، وإلى الوحي السماوي، وثانيهما: أن التعرف على الكون واستقراء سنن الله فيه، وتوظيف تلك المعارف والسنن في عمارة الحياة على الأرض، وفي القيام بواجب الاستخلاف فيها قد تركت كلية لاجتهاد الإنسان عن طريق ملاحظاته المنظمة، واستنتاجاته المنطقية على فترات طويلة من الزمن، نظرا لاطراد السنن الإلهية، ولحدود القدرة الإنسانية، وللطبيعة التراكمية للمعرفة العلمية . ولكن لما كان القرآن الكريم هو كلام الله الذي أبدع هذا الكون بحكمته وقدرته، ولما كان من المحال أن يتعارض واقع

الخليقة مع حديث خالقها عنها، كان لابد وأن تحتوي الآيات القرآنية التي تتعرض للكون ومكوناته على عدد من الحقائق التي لو استفاد بها المسلمون لكان لهم قصب السبق في اكتشافها . ومن هذه الآيات الكونية في كتاب الله ما يتعرض للأرض، التي جاء ذكرها في أربعمائة وإحدى وستين آية كريمة، منها ما يشير إلى الأرض ككل، ومنها ما يشير إلى سطحها الخارجي الذي نحيا عليه أي إلى غلافها الصخري، وهذه الآيات التي تضم عددا من حقائق علوم الأرض يمكن تبويبها في المجموعات التالية)):

١- آيات تأمر الإنسان بالسير في الأرض، والنظر في كيفية بدء الخلق، وهي أساس المنهجية العلمية في دراسة علوم الأرض.

٢- آيات عديدة تشير إلى شكل وحركات وأصل الأرض، منها ما يصف كروية الأرض، ومنها ما يشير إلى دورانها، ومنها ما يؤكد على عظم مواقع النجوم، أو على حقيقة اتساع الكون، أو على بدء الكون بجرم واحد(مرحلة الرتق)، ثم انفجار ذلك الجرم الأولي (مرحلة الفتق) أو على بدء السماء في مراحل خلقها الأول بغلالة دخانية (مرحلة السديم)، أو على انتشار المادة بين السماء والأرض (المادة بين النجوم) أو على تطابق كل السماوات والأرض (أي تطابق الكون)

٣- آية قرآنية واحدة تؤكد على أن كل الحديد في كوكب الأرض قد أنزل إليها من السماء.

٤- آية قرآنية تؤكد على حقيقة أن الأرض ذات صدع، وهي من الصفات الأساسية لكوكبنا .

٥- آيات قرآنية تتحدث عن عدد من الظواهر البحرية الهامة من مثل ظلمات البحار والمحيطات (ودور الأمواج الداخلية والخارجية في تكوينها)، وتسجير بعض هذه القيعان بنيران حامية، وتمايز المياه فيها إلى كتل متجاورة لا تختلط اختلاطا كاملا، نظرا لوجود حواجز غير مرئية تفصل بينها، ويتأكد هذا الفصل بين الكتل المائية بصورة أوضح في حالة التقاء كل من المياه العذبة والمالحة عند مصاب الأنهار، مع وجوده بين مياه البحر الواحد أو بين البحار المتصلة ببعضها البعض.

٦- آيـات قـرآنية تتحدث عن الجبال، منها ما يصفها بأنها أوتاد، وبذلك يصف كلاً من الـشكل الخارجـي(الـذي عـلى ضخامته يمثل الجزء الأصغر من الجبل) والامتداد الـداخلي (الـذي يشكل غالبية جسم الجبل)، كما يصف وظيفته الأساسية في تثبيت الغـلاف الصخري للأرض، وتتأكد هذه الوظيفة في اثنتين وعشرين آية أخرى، أو دورها في شق الأودية والفجاج أو في سقوط الأمطار وجريان الأنهار والسيول، أو تكوينها من صخور متباينة في الألوان والأشكال والهيئة.

٧- آيـات قرآنية تشير إلى نشأة كل من الغلافين المائي والهوائي للأرض، وذلك بإخراج مكـوناتها من باطن الأرض، أو تصف الطبيعة الرجعية الوقائية لغلافها الغازي، أو تـؤكد على حقيقة ظلام الفضاء الكوني الخارجي، أو على تناقص الضغط الجوي مع الارتفـاع عـن سـطح الأرض، أو عـلى أن لـيل الأرض كـان في بـدء خلقها مضاء كنهارها.

٨- آيـات تـشير إلى رقـة الغـلاف الصخري للأرض، وإلى تسوية سطحه وتمهيده وشق الفجاج والسبل فيه، وإلى تناقص الأرض من أطرافها .

٩- آيات تؤكد على إسكان ماء المطر في الأرض مما يشير إلى دورة المياه حول الأرض وفي داخـل صـخـورها، أو تـؤكد عـلى عـلاقـة الحـياة بالمـاء، أو تلمح إلى إمكـانية تصنيف الكائنات الحية.

١٠- آيـات تـؤكد عـلى أن عملـية الخلـق قـد تمت على مراحل متعاقبة عبر فترات زمنية طويلة.

١١- آيـات قـرآنية تصف نهاية كل من الأرض والسماوات وما فيهما (أي الكـون كله) بعملـيـة معاكسة لعملية الخلق الأول كما تصف إعادة خلقهما من جديد، أرضا غير الأرض الحالـية وسـماوات غـير الـسماوات القائمـة هـذه الحقائق العلمية لم تكن معـروفة للإنـسان قـبل هذا القرن، بل إن الكثير منها لم يتوصل الإنسان إليه إلا في العقـود القلـيلة الماضـية عـبر جهود مضنية وتحليل دقيق لكم هائل من الملاحظات

والتجارب العملية في مختلف جنبات الجزء المدرك من الكون، وإن السبق القرآني في الإشارة إلى مثل هذه الحقائق بأسلوب يبلغ منتهى الدقة العلمية واللغوية في التعبير، والإحاطة والشمول في الدلالة ليؤكد على جانب هام من جوانب الإعجاز في كتاب الله، وهو جانب الإعجاز العلمي، ومع تسليمنا بأن القرآن الكريم معجز في كل أمر من أموره، لأن الوحي السماوي الوحيد الموجود بين أيدي الناس اليوم بنفس اللغة التي نزل بها (اللغة العربية)، ومحفوظ بحفظ الله كلمة كلمة وحرفاً حرفاً، إلا أن الإعجاز العلمي يبقى من أنجع أساليب الدعوة إلى الله في عصر العلم، ذلك العصر الذي لم يبق فيه من وحي السماء إلا القرآن الكريم، بينما تعرضت كل الكتب السابقة على نزوله إما للضياع التام؛ أو لضياع الأصول التي نقلت عنها إلى لغات غير تلك التي نزل الوحي السماوي بها، فتعرضت لقدر هائل من التحريف الذي أخرجها عن إطارها الرباني على الرغم من إيماننا بأصولها السماوية، وتسليمنا بصدق تلك الأصول، ومن هنا تتضح أهمية القرآن الكريم في هداية البشرية في زمن هي أحوج ما تكون إلى الهداية الربانية كما تتضح أهمية دراسات الإعجاز العلمي في كتاب الله مهما تعددت تلك المجالات العلمية، وذلك لأن إثبات صدق الإشارات القرآنية في القضايا الكونية مثل إشاراته إلى عدد من حقائق علوم الأرض، وهي من الأمور المادية الملموسة التي يمكن للعلماء التجريبيين إثباتها لأدعى إلى التسليم بحقائق القرآن الأخرى خاصة ما يرد منها في مجال القضايا الغيبية والسلوكية (من مثل قضايا العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات) والتي لا سبيل للإنسان في الوصول إلى قواعد سليمة لها وإلى ضوابط صحيحة فيها إلا عن طريق بيان رباني خالص لا يداخله أدنى قدر من التصور البشري))[1].

---

(١) إشارات قرآنية إلى علوم الأرض: الأستاذ الدكتور زغلول النجار، عن موقع الويب للهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

المبحث الخامس

إنجازات وشخصيات

المطلب الأول

أهم ما أنجز حديثاً في الإعجاز القرآني

يمكننا أن نقول إن هناك أهمية كبيرة وخطيرة لأبحاث الإعجاز العلمي، ولعل من أهم ثمارها:

١. امتداد بينة الرسالة في عصر الكشوف العلمية. إذا كان المعاصرون لرسول الله قد شاهدوا بأعينهم كثيراً من المعجزات، فإن الله أرى أهل هذا العصر معجزة لرسوله تتناسب مع عصرهم، ويتبين لهم بها أن القرآن حق، وتلك البينة المعجزة هي: بينة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، وأهل عصرنا لا يذعنون لشيء مثل إذعانهم للعلم، على اختلاف أجناسهم وأديانهم .

٢. تصحيح مسار العلم التجريبي. لقد جعل الله النظر في المخلوقات، الذي تقوم عليه العلوم التجريبية طريقاً إلى الإيمان به، وطريقاً إلى الإيمان برسوله ولكن أهل الأديان المحرفة كذبوا حقائقه، وسفهوا طرقه، واضطهدوا دعاته، فواجههم حملة هذه العلوم التجريبية، بإعلان الحرب على تلك الأديان، فكشفوا ما فيها من أباطيل، وأصبحت البشرية في متاهة، تبحث عن الدين الحق، الذي يدعو إلى العلم، والعلم يدعو إليه .
أن بإمكان المسلمين أن يتقدموا لتصحيح مسار العلم في العالم، ووضعه في مكانه الصحيح، طريقاً إلى الإيمان بالله ورسوله، ومصدقاً بما في القرآن، ودليلاً على الإسلام.

٣. تنشيط المسلمين للاكتشافات الكونية، بدوافع إيمانية. أن التفكير في مخلوقات الله عبادة، والتفكير في معاني الآيات والأحاديث عبادة، وتقديمها للناس دعوة إلى الله. وهذا كله متحقق في أبحاث الإعجاز العلمي في القرآن والسنة وهذا من شأنه أن

يحفز المسلمين على اكتشاف أسرار الكون بدوافع إيمانية تعبر بهم فترة التخلف التي عاشوها فترة من الزمن في هذه المجالات. وسيجد الباحثون المسلمون في كلام الخالق عن أسرار مخلوقاته، أدلة تهديهم أثناء سيرهم في أبحاثهم، تقرب لهم النتائج، وتوفر لهم الجهود. واجب المسلمين إذا علمنا أهمية هذه الأبحاث في تقوية إيمان المؤمنين، ودفع الفتن التي ألبسها الإلحاد ثوب العلم . عن بلاد المسلمين، وفى دعوة غير المسلمين، وفى فهم ما خوطبنا به في القرآن والسنة، وفى حفز المسلمين للأخذ بأسباب النهضة العلمية، تبين من ذلك كله أن القيام بهذه الأبحاث من أهم فروض الكفآيات. وصدق الله القائل: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ [البينة :١][1].

ولقد تكلمنا ضمن مسيرتنا في هذا الكتاب عن بعض ما تمخض عنه العمل في هذا الحقل المهم. ونذكر هنا مؤتمرات الإعجاز الإقليمية والمحلية التي عقدت في العراق عام ١٩٩٠م و٢٠٠١م، والأهم من ذلك هو المؤتمرات العالمية التي عقدت في مصر ولبنان والباكستان ودول إسلامية أخرى، وكذلك روسيا وأمريكا وأوربا. إذ وصل العدد حتى الآن في المؤتمرات العالمية والإقليمية إلى خمسة عشر مؤتمراً للإعجاز، فضلاً عن الندوات والمحاضرات والبحوث والمنشورات في شتى أنحاء العالم والتي كان من نتائجها إسلام العديد من علماء الغرب، وكذلك تغير نظرة الإنسان الغربي وغير المسلم وكذلك من ابتعد من المسلمين حول الإسلام وكتابه الكريم وسنة رسوله العظيم صلى الله عليه وسلم.

عقدت عدة مؤتمرات في مجالات العلوم المختلفة من أهمها المؤتمر العلمي العالمي الخامس الذي عقد بقاعة غورباتشوف بموسكو عام ١٩٩٣م والذي خرج بنتائج عظيمة منها إسلام ٢٦ عالم من كبار علماء العالم وفي شتى الإختصاصات واكتشاف سرعة الضوء من القرآن الكريم إضافة إلى توصيات غاية في الأهمية. وكذلك مؤتمر طبي في

(١) عن الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بمكة المكرمة.

السعودية حول مجالات الطب المختلفة ومنها الهندسة الوراثية وعلم الأجنة والوراثة حضره كبار علماء هذا العلم ومن بينهم العالم الكندي كيث إيل مور ورئيس قسم التشريح والأجنة في جامعة شيانج ماي شمال تايلاند وجولي سيمون ومارشال جونسون، ورئيس جمعية الباراسايكولوجي البريطانية، وغيرهم الكثير.

وفي المؤتمر العالمي السادس الذي عقد ببيروت عام ٢٠٠٠م أشار العالم الأمريكي المسلم أحمد خان وهو أحد العلماء الأمريكان من أعضاء الفريق العالمي الذي اشترك في الإنجاز العظيم الذي هزّ العالم وهو فك أسرار السلسلة الوراثية للإنسان أنه توصل إلى ربط رياضي بين تسلسل سور القرآن الكريم وتسلسل هذه السلسلة العظيمة وأنه سينشر بحثه هذا لاحقاً.

ثم جاء إنجاز آخر عام ٢٠٠٢ م أجرته جامعة كامبرج البريطانية بالتعاون مع كلية طب الأزهر المصرية ونشر في مجلات طبية مرموقة، والذي يقول أن كل المحاولات السابقة من إرجاع الشباب للإنسان من أدوية وعقاقير وأجهزة متطورة قد باءت بالفشل إلا أسلوب واحد فقط ألا وهو أسلوب التعبد الإسلامي من كثرة ذكر الله والعبادات المختلفة من صلاة وتلاوة قرآن. فقد ثبت علمياً بعد بحوث مضنية أن الهرمون الخاص بالأحلام والمسؤول المباشر عن تكوين الأحلام عند نوم الإنسان نوماً عميقاً - المعروف بنوم الريم (REM Sleep)- والذي يسمى علمياً بهرمون الميلاتونين يمكن أن يكون مسؤولاً عن إعطاء قوة جسمانية وطاقة كبيرة تحول الكائن البشري عند فرزه في غير أوقات النوم خصوصاً عند حالات السمو الروحي إلى شباب وقوة وحيوية كبيرة تبعد حالات الهرم والكبر والعجز والشيخوخة، وأنه يعطي أعظم تأثير له عند الصفاء الروحي والنفسي للإنسان المتيقظ في أوقات السحر ونهاية الليل. وبعد دراسات طويلة لعدة أساليب ثبت بما لايقبل الشك أن أسلوب العبادة الإسلامية يعطي أكبر فرز لهذا الإنزيم وهذا معناه أن أعظم قوة وطاقة جسمانية ونفسية تكون بهذا الأسلوب. لذلك حث الإسلام على هذه العبادات، بل وأن الله تعالى ربى نبيه ﷺ في بداية الدعوة على التعود على هذه الحالة من كثرة التضرع والخشوع والصلاة والذكر ليلاً، وقام ﷺ بتربية

الصحابة رضوان الله عليهم على هذا النوع من العبادة وحث الأمة عليه لما فيه من خير كبير، فاسمع إلى ربك وهو يعلمك كيف تقوي جسمك وذهنك ونفسك وروحك: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴾ [الإسراء:٧٩]... ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الطور:٤٩].. ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا ﴾ [الإنسان:٢٦]... ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرًا وَأَعۡظَمَ أَجۡرًاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴾ [المزمل: ٢٠]، لذلك بين رسول الإسلام أن الحافظ لكتاب الله أو جزء منه مع الخشوع والاتباع لا يصيبه الخرف في كبره.. وصدق الله ورسوله، وقائمة الإنجازات تطول.

وكم من باحث قد أعلن إسلامه أو عودته إلى الإسلام بعدما رأى من هذا الكنز ما جعله يعرف الحق ويهتدي إليه كما حصل لعلماء غربيون كثيرون أمثال عالم البحار الفرنسي ((كوستو))، والعلامة الفرنسي ((روجيه غارودي))، والسفير الالماني ((مراد هوفمان)) الذي أسلم وألف كتاباً سماه (الإسلام كبديل)، والسفير الإيطالي في السعودية، والقسيس الدكتور ملير الذي ألف عدة كتب عن عظمة القرآن والإسلام ونشرها عبر الشبكة العالمية (الإنترنت)، والقسيس إسحاق المصري نائب البابا البروتستانتي الذي أسلم وأسمى نفسه إبراهيم وفصّل قصة إسلامه في محاضرة شيقة[١]، والقس ديفيد بنجامين كلداني الذي أسلم هو الآخر وألّف كتاب (محمد في الكتاب المقدس)، ورئيس وزراء السويد السابق المقتول غدراً وظلماً ((أولف بالمه)) الذي أنقذ السويد من الإنهيار في ثمانينات القرن العشرين عندما طبق النظام الاجتماعي الإسلامي فيها بعد أن أصبحت

(١) المحاضرة مسجلة في شريط كاسيت، نشر في بداية تسعينات القرن العشرين.

على حافة الهاوية لولا أن قيض الله لها هذا الرجل الطيب الذي نصحها بتطبيق الإسلام وكان قد عرفه خلال حياته الدبلوماسية في الشرق، وتم له ذلك وأنقذت البلاد خلال أكثر من عام واعترفوا بفضل الرجل ولكن بدل أن يجازوه خيراً قتلوه وزوجته بتهمة معاداة السامية هذه التهمة التي هي الكلمة السحرية التي تقبل عندها أي جريمة يقترفها الموساد اليهودي. وكذلك رئيس جمعية الباراسايكولوجي البريطانية، والمغني الأسباني (أنطونيو ديمو) والأميرة البريطانية (مودا) والفنانة الإيطالية (مارسيلا مايكل أنجلو)، والسياسي الأمريكي المعروف (روبرت كرين).

نـنقل لكم صورة واحدة من عدة صور لإسلام أحد كبار علماء الطب في آسيا وهو البرفسور/ تاجاتات تاجاسون، عميد كلية الطب – جامعة شاينج ماي بتايلاند... إذ برزت له منذ زمن طويل عدة أسئلة دارت في ذهنه، الأولى: (من هو الله) والثانية (لا إله إلا الله). هذا ما حدث لهذا البروفيسور الذي فتح معه باب الحوار ما يربو على العامين انتهى الأمر بعده إلى إعلانه الصريح (لا إله إلا الله محمد رسول الله).. وإليكم خلاصة هذه القصة الممتعة والمثيرة:

- بدأت صلات هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة بالبرفيسور (تاجاتات تاجاسون) عندما عرضوا عليه بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتصلة بمجال تخصصه في علم التشريح وبعد أن أجاب على تساؤلات الفريق قال: نحن كذلك يوجد في كتبنا البوذية المقدسة أوصافاً لأطوار الجنين. نحن في شوق لأن نقف على ما جاء في تلك الكتب في لقائنا القادم.
- في العام التالي عندما جاء ممتحناً خارجياً لطلاب كلية الطب بجامعة (الملك عبد العزيز) سؤل عما وعدنا به. وفي أمانة علمية جديرة بالاحترام أجاب: ((أقدم لكم اعتذاري عن معلوماتي السماعية لقد أجبتكم دون أن أتثبت من هذه المعلومات ولكنى بالرجوع إلى تلك الكتب لم أجد شيئاً حول ذلك الموضوع)).
- عندئذٍ قدم له الفريق محاضرة كان قد أعدها البرفيسور (كيث مور) أستاذ علم التشريح بجامعة (تورنتو) بكندا وعنوانها مطابقة علم الأجنة لما في القرآن والسنة،

ثم سؤل هل تعرف البرفيسور (مور)؟ أجاب ((بالطبع إنه من كبار العلماء المشهورين في هذا التخصص وهو مرجع عالمي وإني لمندهش مما سجله هنا في هذه المحاضرة)).

- ثم سأله الفريق عدداً من الأسئلة في مجال تخصصه كان من بينها ذلك السؤال المتعلق بالجلد : هل هناك مرحلة ينعدم عندها الإحساس بألم الحرق؟؟ ((نعم إذا كان الحرق عميقاً ودمر عضو الإحساس بالألم))، حسناً ما رأيك إذن؟ إن القرآن الكريم الذي نزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - قبل من ألف وأربعمائة عام . قد أشار إلى تلك الحقيقة العلمية عندما ذكر الطريقة التى سيعاقب الله بها الكافرين يوم القيامة حيث يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾، فالقرآن هنا يقرر أنه عندما ينضج الجلد يخلق الله للكفار جلداً جديداً كي يتجدد إحساسهم بالألم وذلك تأكيد من جانب القرآن على أن الأطراف العصبية التى تجعل الإنسان يشعر بالألم موجودة في الجلد. قال ((هذا أمرُ يدعو للدهشةِ والغرابة حقيقة فتلك معرفة مبكرة جداً عن مراكز الإحساس والأعصاب في الجلد ولا أدرى كيف ذكر قرآنكم هذا!! ترى أيمكن أن تكون هذه المعلومات قد استقاها محمد نبى الإسلام من مصدر بشرى؟))، فأجابه الفريق بالطبع لا ففي ذلك الوقت لم تكن هناك معارف بشرية حول هذا الموضوع .
- استمرت تساؤلاته قائلاً: من أين إذن وكيف عرف ذلك، المؤكد عندي هو استحالة المصدر البشرى ولكنى أسألكم أنتم من أين تلقى محمد - صلى الله عليه وسلم - هذه المعلومات الدقيقة. فأجيب فوراً (من عند الله)، الله !! ومن هو الله ؟.. وبعد أن شرح له الفريق المفهوم الإسلامي للفظ الجلالة الأعظم راقته تلك الرؤية وعاد إلى بلاده ليحاضر عن هذه الظاهرة القرآنية التي عايشها وتأثر بها.
- حتى إذا ما جاء موعد المؤتمر الطبي السعودي الثامن واستمع في الصالة الكبرى التي خصصت للإعجاز على مدى أربعة أيام لكثير من العلماء ولا سيما غير المسلمين يحاضرون عن ظاهرة الإعجاز العلمي وفي ختام جلسات المؤتمر وقف البروفيسور

(تاجاتات تاجاسون) يعلن ((بعد هذه الرحلة الممتعة والمثيرة فإني أؤمن أن كل ما ذكر في القرآن الكريم يمكن التدليل على صحته بالوسائل العلمية وحيث أن محمداً نبي الإسلام كان أمياً إذن لابد أنه قد تلقى معلومات عن طريق وحي من خالق عليم بكل شئ . وإنني أعتقد أنه حان الوقت لأن أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)).. ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾، [سبأ: ٦] [(١)].

هنالك نشاطات أخرى تخص العمل في هذا الحقل المهم مثل البحوث والمجلات والمقالات والإصدارات والمؤسسات المعنية بالعمل والتخصص في هذا المضمار وهي أيضاً أصبحت كثيرة ومنتشرة في العالم بأسره، وجاءت الشبكة العالمية (الإنترنت) لتوسع انتشار أساليب التثقيف والتعريف بهذا العلم المهم وبالسبق والإعجاز القرآنيين ليتسنى للعالم معرفة عظمة هذا الدين ومطابقته لكل الأمور العلمية والعقلية والمنطقية بعيداً عن الأساطير والكلام غير المستساغ الذي ملأ عقول الناس بسبب ما أملاه اليهود وأعوانهم من جنود إبليس على الفكر البشري.

ونعرض هنا أيضاً لواحد من أهم التصانيف في الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، ألا وهو كتاب (الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق)، لمؤلفه الأستاذ الدكتور كارم السيد غنيم، الأستاذ مساعد بكلية العلوم – جامعة الأزهر:

تعرض المؤلف لنشأة الإعجاز وتطوره وأنه بدأ منذ القرن الثاني الهجري وكانت تتم تغذيته في كل قرن عن طريق العلماء والمفسرين حتى قويت النزعة العلمية بحلول القرن الرابع عشر الهجري على يد محمد رشيد رضا في المنار، وسيد قطب في الظلال، ومحمود محمد حجازي في " التفسير الواضح " ... ثم تحدث المؤلف عن أوجه الإعجاز القرآني (اللغوي – البلاغي – البياني – النفي – التاريخي – التشريعي – الغيبي – الموسيقي) مع التحفظ على هذا المصطلح الأخير فليس في القرآن أصول الموسيقي وقواعد أحكامها كما

(١)عن موقع الويب لهيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة على شبكة المعلومات الدولية.

نقل المؤلف عن بعض الكتاب، وتحدث عن الإعجاز العلمي مستشهداً بكلام الزنداني أمين هيئة الإعجاز العلمي السابق.

وفي الفصل الثاني: تحدث عن الآيات القرآنية فبدأ بالمعاني التي وردت في كلمة آية وبين الحكمة من ذكر الآيات الكونية في القرآن وأنها تحوى أصول وجوامع العلم الواسع الدقيق عن الكائنات.

وعن حكمة عدم جمع الآيات الكونية كلها في موضع واحد بالقرآن الكريم يقول:

١. لاقتران هذه الآيات بعقيدة البعث والتوحيد فناسب أن تذكر معها في مواضعها.

٢. إن العلم التفصيلي بها ليس من مقاصد الوحي الذاتية بل هو من كسب البشر .

٣. إنها لو جمعت في موضع واحد – كبيان جميع أطوار التكوين – لتعذر فهمها قبل تحصيل مقدماته بالبحث العلمي .

ثم ذكر سبباً لا علاقة له بالحكمة من عدم جمع الآيات الكونية في موضع واحد بالقرآن وهو الشقاق الديني والسياسي الذي تعرضت له الحضارة الإسلامية .

وتحدث في الفصل الثالث : تحت عنوان " القرآن كلمات الله " بكلام سبق ذكره في الفصول الأخرى. عن حكمة النزول القرآني منجما وافتراق المعجزة الإسلامية عن غيرها. الخ... (ومما يبعث على التساؤل في هذا الفصل الذي لم يتجاوز خمس صفات أنه أشار في مقدمته إلى أن جل مادته مأخوذة من كتابين هما " توحيد الخالق " للشيخ الزنداني، و"الإسلام يتحدى " لوحيد الدين خان... فإذا كانت مادة هذا الفصل متضمنة في فصول أخرى وما بقي منها مأخوذ من هذين الكتابين فما الداعي لمعالجته كفصل مستقل؟

أما الفصل الرابع: وعنوانه "تفسير القرآن الكريم – التطور الزمني والمذاهب المتنوعة" فقد عرف فيه المؤلف علم التفسير وبين أهميته ومراحله التي بدأت بالتفسير بالمأثور عن الصحابة والتابعين، ثم المرحلة الثالثة . التفسير المعني باللغويات فالرابعة التفسير بالرأي ثم المرحلة الخامسة وهي مرحلة إبراز وجه الإعجاز العلمي للآيات

الكونية في القرآن . ثم عاد بعد ذلك للحديث عن مذاهب واتجاهات التفسير قديماً وحديثاً .

أما الفصل الخامس: فقد تحدث فيه المؤلف عن شروط التفسير كما ذكرها الغزالي في إحياء علوم الدين والسيوطي في الإتقان، وديركودندروز ألب (أحد تلاميذ النورسي) ورشيد رضا، والبوطي .

وفي الفصل السادس: "وتحت عنوان" تأويل أي القرآن الكريم" أورد كلام بعض العلماء كالأصفهاني والثعلبي والسيوطي والماتريدي وغيرهم للتفريق بين التفسير والتأويل خلاصته: أن التفسير أعم من التأويل لأن الثاني إخبار عن حقيقة المراد بينما الأول إخبار عن دليل المراد وكشف لظاهر المعاني وأنه من باب الرواية مبيناً أن الأصل في تفسير القرآن قيامه على ظاهر معنى ألفاظه ما لم يمنع مانع عقلاً أو شرعاً فإذا وجد مانع فللعلماء مذهبان، مذهب السلف، ومذهب الخلف.

أما الباب الثاني: وعنوانه "شرح الآيات الكونية وفهم الإشارات العلمية قديماً وحديثاً على مر الزمان" فاستعرض فيه آراء المنكرين والمؤيدين لنزعة التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن – فذكر من المنكرين: الشاطبي، والذهبي، ورشيد رضا، والمراغي، وأمين الخولي – ومن المؤيدين: أبو حامد الغزالي، والرازي، والسيوطي، ومحمد فريد وجدي، ومصطفى محمود، والزنداني، وغيرهم ثم ناقش حجج المعارضين وفند أدلتهم مبيناً ما يلي :

١. أن القرآن نزل على البشرية على اختلاف ثقافات عصورها وتنوع علوم أهلها.

٢. أن استخدام علوم العربية في بيان أوجه الإعجاز القرآني لم يكن موجوداً في عصر النبوة وإنما في عصور متأخرة فلماذا نجيز لهؤلاء استخدام علومهم لتجلية جوانب الإعجاز العلمي لآيات القرآن .

٣. كون القرآن كتاب هداية للبشر وليس كتاب فلك أو أرصاد لا يتعارض مع كونه متضمناً لأدوات ووسائل الهداية التي قد تكون بالأحكام الشرعية كما تكون

بالدعوة للنظر والتأمل في بديع صنع الله.

٤. رد على القائلين، بأن ما يسمي حقائق علمية ليست سوى فروض ونظريات متغيرة لا يجوز ربطها بالنصوص المقدسة (إلا أن رده كان متسماً بالعمومية) وكان الأولى به القـول بـأن الإعجاز يتعامل مع الحقائق العلمية المستقرة ولا يتعامل مع النظريات المتغيرة ويربطها بالنصوص، فحقيقة أطوار الجنين مثلاً عندما تعامل معها الإعجاز فباعتـبارها حقـيقة علمـية لـن يأتي العلم يوماً لينفي وجود هذه الأطوار أو يرتبها بعكس ما يصورها القرآن "نطفة - علقة - مضغة " الخ .

الفصل الثاني من هذا الباب : خرافات وأباطيل يجب إزالتها وتحدث فيه المؤلف عن بعـض الإسرائيليات التي تسربت إلى كتب التفسير مبيناً أسبابـها مشيراً إلى ضرورة تنقية التفاسير من هذه الخرافات والاستفادة بعلماء التخصصات الكونية من المسلمين وغيرهم بعد أن توزن أقوالهم بميزان الشرع الحكيم .

الفـصل الـثالث : إسراف وتمحل يجب استبعاده وساق فيه المؤلف عدداً من النماذج التـي أدلت بدلوها في ميدان الإعجاز العلمي بغير منهجية دقيقة محاولة التأكيد على سبق القرآن للعلوم الحديثة مما أضر بالفكرة وطرحها .

وممـا يـؤخذ عـلى هـذا الفصل أنه لم يورد مرجعاً للنموذج التاسع الذي نقل فيه عن بعض الكتاب تفسيره لقول الحق سبحانه " والتين والزيتون " أنه " التين " هو بوذا حيث بـات لـيلة تحت شجرة التين " والزيتون " إشارة لعيسى، " وطور سينين " إشارة لرسالة موسى " والبلد الأمين " رمز للنوبة المحمدية .

الباب الثالث: " التأصيل الإسلامي لدراسة الآيات الكونية في القرآن " . وتحدث في الفـصل الأول مـنه عن " دعائم العلوم من منظور إسلامي" فذكر: الإثراء الإيماني خطر الولـوج لعالم الغيب، الأمانة العلمية – التميز بالشخصية الإسلامية – الانفتاح على كافة العلوم والمعارف، الإخلاص لله سبحانه .

وفي الفـصل الـثاني: تحـدث عـن معنى الكون والآفاق الكونية وخصائص العرض

القـرآني للكون كالشمول والإحاطة والديناميكية الدائبة وترشيد علاقة الإنسان بالكون وتحدث عن منهج القرآن في عرض آيات الكون وأنه بالقدر الذي يعين الإنسان على أداء رسـالته في الحياة ويهديه إلى طريق الله عبر صياغة تتواءم مع الأزمنة والبيئات والثقافات المختلفة .

الفـصل الـثالث: سـبل الدعوة الإسلامية في العصر الحديث: وتحدث فيه عن حكم الدعوة الإسلامية واختلاف وسائلها باختلاف المخاطبين وأن بحث الآيات الكونية يعد فتحاً تعاظم دور العلم في هذا العصر .

الفـصل الـرابع: "المنهجـيات المتفـرقة وأصـول المنهج الـصحيح لدراسـة الآيات الكونـية" . وقـد عـرض فـيه المؤلـف لأبـرز المنهجـيات الموجـودة في مجـالات التفسير والإعجاز العلمي ومن بينها منهجية د/ عبد الحافظ حلمي: والذي ركز في منهجيته على ضرورة توافر عدة أمور لمن يتصدى للبحث في مجال الإعجاز العلمي منها :

"١- التخصص .

٢- الإلمام بقواعد اللغة العربية .

٣- إجادة فهم الألفاظ القرآنية .

٤- الإلمام بعلوم القرآن .

٥- الاسـتعداد الشخـصي... وإذا لم تتوافـر هـذه الشروط في شخص واحد ينصح بتـشكيل فـريق عمـل يكـون بيـنه تنسيق واضح، وخطة سليمة حتى يمكن أن ينتجوا للناس عملاً مرموقاً".

كما تعرض لمنهجيات عدد من العلماء أمثال:الشيخ محمد أبو زهرة، الشيخ الزنداني/ د/ محمـد الغمـراوي، د/ الفـندي د/ محمـد على البار، د/ منصور حسب النبي. وبعد أن عـرض لآرائهـم ومنهجـياتـهم ونـاقش بعـضها انـتقل إلى الحـديث عـن أصول المنهج الصحيح لدراسة الآيات الكونية واضعاً عدداً من الضوابط منها :

١- الرجوع للمأثور عن النبي - صلى الله عليه وسلم - .

٢- الاستئناس بالتفاسير المختلفة .

٣- التضلع بعلوم مساعدة لعلوم العربية وعلوم القرآن .

٤- التثبيت من الحقائق العلمية .

٥- مراعاة تعدد المعاني للفظ الواحد .

٦- الوحدة الموضوعية .

٧- عدم سلخ الآيات عن سياقها الكلي .

٨- التزام شروط التأويل .

الفصل الخامس: "موسوعة التفسير المنشودة": وقد نادى المؤلف في هذا الفصل بضرورة إنشاء موسوعة تفسيرية للعلوم الكونية في القرآن تبرز الانسجام والتوافق بين الآيات القرآنية وحقائق العلوم الحديثة وبيان أوجه الإعجاز العلمي فيها، ويتمنى أن تقوم هيئة الإعجاز العلمي بمكة المكرمة مع مجمع البحوث الإسلامية والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر للعمل على إنفاذ هذه المهمة .

الباب الرابع: "نماذج تطبيقية" ويمثل هذا الباب في حقيقته نصف عنوان الكتاب، وقد عالجه المؤلف في فصلين: قدم في الفصل الأول نماذج لغير المسلمين وتناول فيه موضوعاً واحداً في كل مجال من المجالات الكونية .

١- توسع الكون : وبين فيه أن ذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾، [الذاريات: ٤٧] ويؤخذ عليه أنه لم يشر إلى المفسرين الذين ذهبوا إلى هذا المعنى فضلاً عن إغفاله الحديث عن أي ناحية شرعية أو لغوية للآية . كما لم يضمن حديثه أي مراجع علمية استقى منها معلوماته .

٢- ثم تحدث في علم الأرصاد الجوية عن السحب والأمطار ولم يذكر أية مراجع علمية كما جاء ربطه الشرعي محدوداً خالياً من المراجع التفسيرية أو اللغوية الضرورية جداً في بحث مثل هذا الموضوع ولم يبين أوجه الإعجاز، مما يقلل من صلاحية هذه النماذج بهذا الشكل لتقديمها لغير المسلمين .

٣- ثم تحدث في علم البحار والمحيطات عن الحواجز البحرية ولم تختلف طريقة عرضه عما سبق .

وفي الفصل الثاني: "نماذج للمسلمين" قدم المؤلف بعض الأمثلة نذكر منها :

- الجراد : وعرفه لغوياً – رغم عالميته – في حين أغفل الألفاظ التي كانت بحاجة إلى التعريف في النماذج السابقة لغير المسلمين، ومع إطالته وإسهابه في هذا النموذج إلا أنه لم يبرز وجه الإعجاز فيه بل اكتفى بقوله (وهذه محاولة متواضعة لإجلاء وجه الإعجاز لآية قرآنية شبه الله فيها انتشار الناس يوم البعث وتحولهم للعرض على ربهم بالجراد في انتشاره في أجواء الفضاء) أو هي صورة "تشبيهية لتقريب الموقف" ص٣٨٦. وهو نفس ما صنعه المؤلف في بعض الأمثلة التي ساقها في هذا الفصل عند حديثه عن:
- المن والسلوى، فأسهب في فضيلة المن ونعم الله على بني إسرائيل ولم يذكر إعجازاً واضحاً .
- أما نموذج النحل فقد عرضه بشكل ممتاز واضعاً له مقدمة وتمهيداً .. وتحدث عن أقوال المفسرين بشيء من التفصيل حول الآيتين، مبيناً أن كلمة "اتخذي" الواردة في الآية الكريمة "وأوحى ربك إلى النحل..." جاءت بصيغة المؤنث لتقدم لفتة علمية وهي: أن أغلب أعمال الحياة في الخلية تقوم بها الشغالات وهن إناث عقم وإضافة لهذا فإن الملكة يعتبر وجودها هو الأساس لحياة مجتمع النحل في الخلية، وأن هذا يمثل وجهاً جديداً للإعجاز في فهم هذه الكلمة القرآنية الكريمة ثم تحدث عن الآية الثانية "ثم كلي من كل الثمرات" فأورد مقولات المفسرين وأتبعها بالمعالجة العلمية ثم انتهى المقصود بالثمرات هنا "حبوب اللقاح" لعدم مقدرة النحل على قطع أو خدش جلد الثمار بل تأكل – فقط – ما تجده من عصير ظاهر نتيجة النضج المفرط لبعض الثمار أو قطع جلد بعض الثمار بواسطة بعض الطيور والحشرات، وعن المقصود بالسبل : بين أنها المسارات والمسالك الموجودة في الجو والتي يسلكها النحل في رحلاته للحصول على الطعام والغذاء عن طريق ما أودعه الله في دماغها من الخرائط والبوصلة وأجهزة قياس الارتفاع وسرعة الهواء التي تمكنها من التغلب على الصعاب ثم أنتقل إلى العسل "يخرج من بطونها شراب" فأورد مقولات المفسرين

في مكان خروج من أفواهها وأن كلمة بطون مجازية، أي بواطنها وأن اختلاف ألوانه مرجعه لاختلاف المراعي ثم أتبعه بالمعالجة العلمية وانتهى إلى أن الشراب يخرج من منطقة البطن التي توجد بِها حوصلة العسل وغدد إنتاج مواد أخرى وأن الشراب ليس المقصود به العسل فقط بل إلى جانب ذلك هناك سم النحل وغذاء الملكات والشمع إذ هو سائل قبل تعرضه للهواء.

- وعن الشفاء: " فيه شفاء للناس " أورد مقولات المفسرين ثم أتبعها بالمعالجة العلمية وبين أن الضمير عائد على الشراب وإن ركزت أغلب الدراسات على العسل وذكر من فوائده العلاجية: الشفاء من الأمراض الجلدية والجهاز الهضمي، والأمراض العصبية .

وينتهي هذا الباب: لننتقل إلى الباب الخامس والأخير، وقد خصصه المؤلف للحديث عن الندوات والمؤتمرات التي عقدت في السنوات الماضية لدراسة مجالات الإعجاز العلمي في القرآن والسنة .

ثم خصص الفصل الثاني للحديث عن الهيئات والجمعيات فذكر هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة بمكة المكرمة نشأتها وأهدافها ووسائلها ومنجزاتها ثم جمعية الإعجاز العلمي للقرآن والسنة بمصر .

وخصص الفصل الثالث لاستعراض بعض المشروعات الخاصة فبدأ بالحديث عن مشروع الإعجاز الهندسي في القرآن الكريم بالقاهرة الذي تتبناه دار المجد للدراسات والبحوث الهندسية، مبيناً أهدافه ووسائله .

ثم تحدث عن مشروع "آيات الإلهية " العالمي وهو موجه بالدرجة الأولى لغير المسلمين يعرض لهم سنن القرآن لكل اكتشاف ويعرض عليهم أصول المنهج العلمي من خلال آيات القرآن مبيناً أن المشروع يضم أكثر من مائة وعشرين موضوعاً في شتى العلوم الكونية والتجريبية، وأنه يعد نواة لمشروع أكبر وأضخم، هو مشروع "الموسوعة الكبرى لتفسير القرآن الكريم " .

وأنهى المؤلف كتابه بإيراد الكلمة التي ألقاها بمناسبة حفل تسلمه جائزة خدمة

الدعـوة والفقـه الإسـلامي - مـن وقـف المستـشار محمـد شوقي الفنجري في ٢٠/ ٦/ ١٩٩٢م.

ولا نملك في نـهاية المطاف إلا أن نشكر الله عز وجل أن وفق الدكتور كارم غنيم إلى هذا الجهد العلمي المشكور الذي يعد إضافة طيبة إلى المكتبة الإسلامية في حقل الإعجاز العلمي.. نسأل الله عز وجل أن يجزل له العطاء وأن يجري قلمه دائماً في خدمة بيان دلائل إعجاز القرآن الكريم والسنة. وعلى الله قصد السبيل(١).

المطلب الثاني

أهم علماء الإعجاز

لقـد كثـرت التآلـيف والتـصانيف في مـسائل الإعجـازات القرآنية المختلفة ومنها الإعجاز العلمي بأنواعه الطبية والفلكية والطبيعية والكيميائية والرياضية وغيرها، وإننا هـنا لا نريد حصراً وإنما نسوق الأمثلة على سبيل الإشارة والتعريف ببعض الأسماء التي أسـهمت وتـسهم في هـذا الحقـل الخـصيب وسـنركز عـلى جيـل ما بعد ستينات القرن العـشرين المـيلادي لقـرب هذا الزمن منا أولاً، ولتطور الحقائق العلمية فيه ثانياً، ولقوة تأثيره في حياة أجيالنا المعاصرة ثالثاً.

نـبدأ أولاً من الساحة العراقية ثم ننطلق بعدها إلى بقية ساحات الأمة الواسعة. ففي العراق مثلاً يعتبر الأستاذ الدكتور أنيس مالك الراوي -اختصاص كيمياء حياتية- بحق مـن رواد هذا الحقل وله إسهامات جليلة ومحاضرات رائعة وقيمة كان لها الدور الريادي في تعريف الناس في هذا البلد المؤمن الصابر المحتسب بهذا الموضوع الحيوي إلا أنه يؤخذ علـيه عـدم تألـيف الكتب في الإعجاز والاقتصار على المحاضرات والمقالات والبحوث والمؤتمـرات والـندوات التلفازية رغم أن الرجل له من المؤلفات العلمية الرصينة حوالي

---

(١) الإشـارات العلمـية في القـرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق، لمؤلفه الأستاذ الدكتور كارم السيد غنيم، الأسـتاذ مـساعد بكلـية العلـوم – جامعـة الأزهـر.. عـرض : محمود الصاوي : مدرس مساعد بكلية الدعوة – جامعة الأزهر.

العشرين مؤلف وبحوث علمية ورسائل دراسات عليا عديدة. ومثله الأستاذ الدكتور **محمد جميل الحبال** - طبيب اختصاص - إلا أن الأخير له مؤلفات في الإعجاز إضافة إلى إسهاماته الأخرى كالمحاضرات والمؤتمرات والبحوث والندوات التلفازية، وكذلك الأستاذ المهندس **علاء المدرس** الذي يعتبر من أوائل من كتبوا وألفوا في هذا الموضوع. ثم جاء دور الأستاذ **رعد الخزرجي** - ماجستير علوم- صاحب الإسهامات والمحاضرات الرائعة وصاحب الموسوعة العلمية القرآنية ذات الـ ٤٠٠٠ صفحة والتي لم تصدر لحد الآن، وتسنى للمؤلف أن يطلع على بعضها. كما لا ننسى إسهامات الأساتذة الأفاضل الآخرين كالأستاذ الدكتور **صبحي الراوي**-اختصاص فيزياء-، والدكتور **سمير الرجبو** -اختصاص زراعة-، والدكتور **أحمد عدنان**- اختصاص جملة عصبية-، والدكتور **عمر عبد الستار**- طبيب-، والدكتور **عمر الراوي**- طبيب-، والفلكي الشهيرالأستاذ الدكتور **حميد مجول النعيمي** وأساتذة الموصل الكرام، وغيرهم ممن يطول المقال بذكرهم فجزاهم الله تعالى عنا وعن دينه وكتابه وأمة حبيبه صلى الله عليه وسلم ألف خير.

أما ضمن ساحات العمل الأوسع فهناك الكثير من أسماء العلماء الأجلاء أصحاب الإختصاصات العلمية الدقيقة المختلفة نذكر منهم: محمد توفيق صدقي، حنفي أحمد، محمد أحمد العدوي، محمد بن أحمد الاسكندراني، عبد الله باشا فكري، عمر بن أحمد الملباري، الشيخ محمد بخيت المطيعي، الغازي أحمد مختار باشا، السيد كيراميت، محمد عفيفي الشيخ، الدكتور عبد العزيز باشا إسماعيل، الدكتور محمد صدقي، الدكتور محمد أحمد الغمراوي، الدكتور عبد الله شحاته، الدكتور محمد جمال الدين الفندي، الدكتور محمد يوسف حسن، الدكتور عبد الغني الراجحي، الدكتور عبد الرزاق سعود، العلامة وحيد الدين خان، علي عبد العظيم، نعيم الحمصي، صلاح الدين خشبة، الأستاذ عبد الرزاق نوفل، محمد محمد إبراهيم، مصطفى الدباغ، محمد عبد القادر الفقي، الدكتور توفيق علوان، الدكتور محمد علي البنبي، عبد المنعم السيد عشري، محمد عثمان الخشت، الأستاذ الدكتور منصور حسب النبي، الأستاذ الدكتور كارم السيد غنيم، الدكتور عبد

العليم عبد الرحمن، الدكتور طاهر توفيق، محمد إبراهيم شريف، الدكتور محمد السعيد إمام، عبد الحميد محمود طهماز، الدكتور عبد المجيد الزنداني، الدكتور محمد البار، رؤوف أبو سعدة، الدكتور عبد الحميد محمد عبد العزيز، لواء مهندس أحمد عبد الوهاب، الدكتور أحمد محمد صبري، الدكتور عبد الحليم منتصر، الدكتور عبد الحليم كامل، الدكتور عفيفي محمود عفيفي، الدكتور علي المرسي، الدكتور أحمد شوقي إبراهيم، الدكتور عبد الحافظ حلمي، الدكتور محمد كمال عبد العزيز، الدكتور محمد عبد العال، الدكتور عبد الفتاح طيرة، الدكتور محمد فوزي جاب الله، الدكتور محمد أحمد ضرغام، الدكتور ابراهيم شحاته قوشتي، الدكتور أحمد حسنين القفل، الدكتور عبد المحسن صالح، الدكتور عبد الكريم دهينة، الدكتور سالم نجم، الدكتور زين العابدين الشعراوي، محمد إسماعيل إبراهيم، محمد السيد أرناؤوط، الأستاذ الدكتور زغلول النجار، الأستاذ أنيس منصور وغيرهم الكثير(١).

وعلى صعيد علماء العالم هناك الدكتور موريس بوكاي، والدكتور كيث مور-عالم الهندسة الجينية-، والعالم جان كوستو- عالم البحار-، والدكتور أحمد ديدات - اختصاص بعلم الأديان المقارن - رحمه الله تعالى وغيرهم.

وسيستمر تدفق هذا الشلال الهادر من الإنجازات الإعجازية القرآنية إلى يوم القيامة تحقيقاً لوعد الله تعالى مع تدفق عطاءات هذا الكنز الذي لا تنقضي عجائبه ولا يشبع منه العلماء.

المطلب الثالث

تطبيقات

رغم أننا لم نخصص هذا الكتاب لغرض ذكر تفاصيل الإعجاز العلمي والعددي

---

(١) الأسماء عن كتاب (الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق)، للدكتور كارم السيد غنيم، ص٣٤-٣٧، بتصرف.

وأشكال تنوعه، وتركنا ذلك لكتب مفصلة ومتخصصة أخرى(*)، إلا أننا قد نحتاج لذلك هنا أو هناك كما سبق وأن ذكرنا بعض الأمثلة في هذا الكتاب، وكما سنوضح أدناه.. فلم يكتف الإعجاز العلمي بتبيان أحقية الإسلام وإعطاء البراهين الدامغة لعظمته حسب، بل إنه دخل في تثبيت بعض الأمور الفقهية والتشريعية كما سنبين في هذا التطبيق.

من التطبيقات الحديثة في ما أنجزه الإعجاز موضوع المواريث وموضوع النَسَب، وموضوع النسب هذا وما أقره الإسلام في ضرورة الحفاظ عليه أثبت العلم الحديث صحته ودقته فيما يعرف حديثاً بالبصمة الوراثية[١].

في هذا الموضوع يقول الأستاذ الدكتور عبد الرشيد محمد أمين بن قاسم.في بحثه في المتخصص المنشور في موقع الإسلام اليوم بتاريخ ٢٨/ ٤/ ١٤٢٥هـ- ١٦/ ٦/ ٢٠٠٤م. ما نصه:

تعتبر مسألة البصمة الوراثية ومدى الاحتجاج بها من القضايا المستجدة التي اختلف فيها فقهاء العصر، وتنازعوا في المجالات التي يستفاد منها وتعتبر فيها حجة يعتمد عليها كليا أو جزئيا، وقد شاع استعمال البصمة الوراثية في الدول الغربية وقبلت بها عدد من المحاكم الأوربية وبدأ الاعتماد عليها مؤخرا في البلدان الإسلامية ونسبة أعمال الإجرام لأصحابها من خلالها، لذا كان من الأمور المهمة للقضاة معرفة حقيقة البصمة الوراثية ومدى حجيتها في إثبات الأنساب وتمييز المجرمين وإقامة الحدود فالبصمة مشتقة من البُصم وهو فوت ما بين طرف الخنصر إلى طرف البنصر وبَصَمَ بصماً إذا ختم بطرف إصبعه، والبصمة أثر الختم بالإصبع[٢].. والبصمة عند الإطلاق ينصرف إلى بصمات

(*) انظر كتبنا الأخرى (المنظار الهندسي للقرآن الكريم)، (تفصيل النحاس والحديد في الكتاب المجيد)، سلسلة (ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية ١٥ كتاب لاختصاصات مختلفة).

(١) انظر أيضاً كتابنا (الوراثة والاستنساخ) ضمن سلسلة (ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية)، طبع دار الكتب العلمية ببيروت.

(٢) انظر : مادة (بصم) لسان العرب لابن منظور ١٢ / ٥٠ ، القاموس المحيط للفيروزآبادي ٩٧٤ ،
=

الأصابع وهي الأثر التي تتركها الأصابع عند ملامستها الأشياء وتكون أكثر وضوحاً في الأسطح الناعمة وهي اليوم تفيد كثيرا في معرفة الجناة عند أخذ البصمات من مسرح الحادث حيث لا يكاد يوجد بصمة تشبه الأخرى .. وقد تطورت الأبحاث في مجال الطب وتم اكتشاف محتويات النواة والصفات الوراثية التي تحملها الكروموسومات والتي يتعذر تشابه شخصين في الصفات الوراثية – عدا التوائم المتشابهة – وهي أكثر دقة وأكثر توفراً من بصمات الأصابع حيث يمكن أخذ المادة الحيوية الأساسية لنستخرج منها البصمة الوراثية من الأجزاء التالية :

١. الدم
٢. المني..
٣. جذر الشعر.
٤. العظم
٥. اللعاب.
٦. البول.
٧. السائل الأمينوسي (للجنين) .
٨. خلية البيضة المخصبة (بعد انقسامها ٤ – ٨).
٩. خلية من الجسم . والكمية المطلوبة بقدر حجم الدبوس تكفي لمعرفة البصمة الوراثية(١).

وقد ارتضى المجمع الفقهي بمكة التعريف التالي للبصمة الوراثية: " البصمة الوراثية هي البنية الجينية نسبة إلى الجينات أي المورثات التي تدل على هوية كل إنسان بعينه " (٢).

إن مصادر البصمة الوراثية موجودة في النواة من كل خلية في جسم الإنسان والجسم

=

المعجم الوسيط ص ٦٠ .

(١) انظر : البصمة الوراثية وتأثيرها على النسب لنجم عبد الله عبد الواحد ص ٥

(٢) انظر : قرارات مجمع الفقهي الإسلامي بالرابطة .

يحتوي على ترليونات من الخلايا ، وكل خلية تحتضن نواة هي المسئولة عن حياة الخلية ووظيفتها وكل نواة تحتضن المادة الوراثية بداية من الخواص المشتركة بين البشر جميعهم أو بين سلالات متقاربة وانتهاء بالتفصيلات التي تختص بالفرد وتميزه بذاته بحيث لا يطابق فرداً آخر من الناس ومصدر البصمة موجود على شكل أحماض أمينية (DNA) وتسمى الصبغيات لأن من خواصها أنها تلون عند الصبغ ويطلق عليها أيضاً " الحمض النووي " لأنها تسكن في نواة الخلية وهي موجودة في الكروموسومات، وهذه الكروموسومات منها ما هو مورث من الأب والأم ومنها ما هو مستجد بسبب الطفرة الجديدة NEO MUTATION.

والبصمة الوراثية تنتقل من الجينات وهذه الجينات تتواجد في الكروموسومات وهناك حوالي مئة ألف جين مورث في كل كروموسوم واحد، لذلك لو تم دراسة كروموسومين فقط بطريقة عشوائية لأمكن متابعة عدد كبير من هذه الصفات الوراثية في هذين الكروموسومين ولأصبح الجواب الصحيح في معرفة البصمة الوراثية للأبوة والبنوة بنسبة نجاح تصل لـ ٩٩.٩٪ نظراً لعدم تطابق اثنين من البشر في جميع هذه الصفات الوراثية.

مجالات الاستفادة من البصمة الوراثية: إن اكتشاف القوانين المتعلقة بالوراثة ومعرفة ترتيب عناصرها المشتركة والخاصة ومعرفة كيفية الاستفادة منها مما هيأه الله للبشر من العلم في هذا الزمان كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾. [سورة البقرة: ٢٥٥] .

ويمكن تطبيق هذه التقنية والاستفادة منها في المجالات التالية :

١. إثبات النسب أو نفيه وما يتعلق بذلك مثل تمييز المواليد المختلطين في المستشفيات أو في حال الاشتباه في أطفال الأنابيب أو عند الاختلاف أو التنازع في طفل مفقود بسبب الكوارث والحوادث أو طفل لقيط أو حال الاشتراك في وطء شبهة وحصول الحمل أو عند وجود احتمال حمل المرأة من رجلين من خلال بييضتين مختلفتين في وقت متقارب كما لو تم اغتصاب المرأة بأكثر من رجل في وقت واحد ،

أو عند ادعاء شخص عنده بينة (شهود) بنسب طفل عند آخر قد نسب إليه من قبل بلا بينة .

٢. تحديد الشخصية أو نفيها مثل عودة الأسرى والمفقودين بعد غيبة طويلة والتحقق من شخصيات المتهربين من عقوبات الجرائم وتحديد شخصية الأفراد في حالة الجثث المشوهة من الحروب والحوادث والتحقق من دعوى الانتساب بقبيلة معينة بسبب الهجرة وطلب الكلأ أو تحديد القرابة للعائلة .

٣. إثبات أو نفي الجرائم وذلك بالاستدلال بما خلفه الجاني في مسرح الجريمة من أي خلية تدل على هويته كما هو الحال في دعاوى الاغتصاب والزنى والقتل والسرقة وخطف الأولاد وغير ذلك.

ويكفي أخذ عينة من المني أو العثور على شعرة أو وجود أثر اللعاب عقب شرب السيجارة أو أثر الدم أو بقايا من بشرة الجاني أو أي خلية تدل على هويته. ونسبة النجاح في الوصول إلى القرار الصحيح مطمئنة لأنه في حال الشك يتم زيادة عدد الأحماض الأمينية ومن ثم زيادة عدد الصفات الوراثية. ومن أشهر القضايا التي استعملت فيها هذه التقنية فضيحة بيل كلنتون الرئيس الأمريكي في قضيته المشهورة مع ليونيسكي، حيث لم يعترف ويعتذر للجمهور الأمريكي إلا بعد أن أظهرت الأدلة الجنائية وجود بصمته الوراثية المأخوذة من المني الموجود على فستان ليونيسكي.

وحادثة أخرى وقعت بالسعودية ذكرها ممثل معمل الأدلة الجنائية للعلماء في مقر رابطة العالم الإسلامي بمكة أثناء مناقشة موضوع البصمة الوراثية وحاصل القضية أن امرأة ادعت أن أباها وقع عليها ونتج عن ذلك حصول حمل، وكان احتمال تصديقها ضعيف لأن الأب في الستينات من العمر ولقوة العلاقة التي تجمعه بالمتهمة فأجلوا موضوع التحليل حتى وضع الحمل لئلا يتضرر الجنين وعندما تم الوضع ومن خلال التحاليل وجد أن الطفل لا علاقة له بالمتهم (الأب)، والأغرب وجد أنه لا علاقة له بالمرأة المدعية، فاتضح أن القضية فيها تلاعب وأن أيدي خفية وراءها، فالنفي عن المتهم لا إشكال فيه أما النفي عن المرأة الحامل فيه تصادم مع الواقع، وبالرجوع لأسماء المواليد

الـذين ولـدوا في نفس اليوم بالمستشفى اتضح أنهم بلغوا (٣٠) طفلاً وعند حصر الصفات المطلوبة انحصرت في (١٢) طفلاً تم الاتصال بذويهم واحداً واحداً حتى تم الوصول للطفل المطلوب واتضح أن بصمته الوراثية دلت على ارتباطه بالمتهم (الأب) وأن هناك طفلاً لقيطاً أدخل المستشفى في نفس اليوم وعند التسليم تم التبديل لإخفاء الحقيقة والله المستعان .

طرق إثبات النسب في الشريعة الإسلامية: لا خلاف بين الفقهاء أن النسب الشرعي لا يثبت في حال تصادم النسب مع الواقع الحسي كما لو ادعت المرأة نسب طفل لزوجها الصغير الذي لا يولد لمثله وكذا لو أتت به قبل مضي ستة أشهر من الزواج . ويثبت النسب في الشريعة الإسلامية بالطرق التالية :

١. الفراش: وهو تعبير مهذب عن حالة اجتماع الرجل بالمرأة حيث تكون المرأة كالفراش لزوجها، ولما كان التحقق من حالة (الجماع) بين الزوجين شبه متعذر لكونها مبنية على الستر اكتفى الجمهور بمظنة الدخول خلافاً للحنفية الذين اكتفوا بعقد النكاح واعتبروا المرأة فراشاً لزوجها يثبت به النسب وذهب بعض المتأخرين كابن تيمية وابن القيم إلى اشتراط الدخول المحقق وعدم الاكتفاء بمظنة الدخول. ولا شك أن الأول أولى فعامة أحكام الشريعة مبنية على غلبة الظن وإثبات الدخول المحقق في كل حالة متعذر. وإثبات النسب عن طريق الفراش مجمع عليه بين الفقهاء لقوله صلى الله عليه وسلم: "الولد للفراش"

٢. الاستلحاق: وذلك بأن يقر المستلحق بأن هذا الولد ولده أو أن هذا أخوه أو أبوه وغير ذلك.. وقد اشترط العلماء للاستلحاق شروطاً أبرزها أن المُقر له بالنسب ممن يمكن ثبوت نسبه من المقِرِّ، فلو أقر من عمره عشرون ببنوة من عمره خمسة عشر لم يقبل إقراره لاستحالة ذلك عادة وعقلاً. فهل هذا الشرط يمكن تنزيله على البصمة الوراثية؟ هذا ما سيأتي الإجابة عليه في الصفحات التالية .

٣. البينة: وقد أجمع الفقهاء على أن النسب يثبت لمدعيه بناء على شهادة العدول بصحة ما ادعاه ويكفي في ذلك الاستفاضة بمعنى الشهادة بالسماع بأن يشتهر الأمر بين

الـناس حتـى يـصير معـروفاً بينهم ويقول جمع كبير من الناس سمعنا أن فلانا ابن فلان.

٤. القيافة: وهي مصدر قاف بمعنى تتبع أثره ليعرفه، يقال: فلان يقوف الأثر ويقتافه والقائـف هو الذي يتبع الآثار ويعرفها ويعرف شبه الرجل بأبيه وأخيه. والمراد بها هنا الذي يعرف النسب بفراسته ونظره إلى أعضاء المولود. وقد ذهب الحنفية إلى أن القـيافة لا يلحـق بهـا الـنسب لأنهـا ضرب مـن الظن والتخمين بينما ذهب جمهور العلـماء بالأخـذ بها لدلالة السنة والآثار عليها، ومنها حديث عائشة رضي الله عنها قالـت: دخـل عـلي رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم مسروراً تَبْرُقُ أسارير وجهـه، فقال: "ألم تريْ أن مجزّزاً المُدْلِجِي نظر آنفاً إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد وعلـيهما قطيفة قد غطيا رؤوسهما وبدت أقدامها فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعـض- رواه الـبخاري- ووجـه الدلالـة في ذلـك أن سرور النبـي صلى الله عليه وسلم دال على إقراره بالقيافة وحاشاه عليه الصلاة والسلام أن يسمع باطلاً فيقره أو يسكت عنه.

٥. القـرعة: وذلـك عـند التـنازع عـلى طفـل ولا بيـنة لأحدهم فيجرى القرعة وهذه أضـعف الطرق ولم يأخذ بها جمهور العلماء وهو مذهب الظاهرية وإسحاق ورواية عـند الحـنابلة وكـذا المالكـية في أولاد الإمـاء وهذه الطريقة غير معمول بها في هذا الزمان بفضل الله ثم التقدم العلمي في مجال تحليل الدم والبصمة الوراثية إذ شاعت واسـتقر العمـل بهـا في محـل التـنازع في النسب، ولا ريب أن القرعة لا يصار إليها لوجود الدليل المرجح.

هل البصمة الوراثية يثبت بها النسب؟: ذهب العلماء المعاصرون إلى اعتبار "البصمة الوراثـية" طـريقاً مـن طـرق إثبات النسب من حيث الجملة واختلفوا في بعض القضايا الفـرعية وقـد جاء في قرار المجمع الفقهي بالرابطة " خامساً: يجوز الاعتماد على البصمة الوراثية في مجال إثبات النسب في الحالات الآتية:

أ - حـالات التنازع على مجهول النسـب بمختلف صور التنازع التي ذكرها الفقهاء،

سواء أكان التنازع على مجهول النسب بسبب انتفاء الأدلة أو تساويها أم كان بسبب الاشتراك في وطء الشبهة ونحوه .

ب – حالات الاشتباه في المواليد في المستشفيات ومراكز رعاية الأطفال ونحوها ، وكذا الاشتباه في أطفال الأنابيب .

ج – حالات ضياع الأطفال واختلاطهم، بسبب الحوادث أو الكوارث أو الحروب وتعذر معرفة أهلهم، أو وجود جثث لم يمكن التعرف على هويتها أو بقصد التحقق من هويات أسرى الحرب والمفقودين " .

وقد رأى عدد كبير من الباحثين قياس البصمة الوراثية على القيافة من باب أولى أو اعتبارها قرينة قوية والتي يأخذ بها جمهور الفقهاء في غير قضايا الحدود وقد جاء في توصية ندوة الوراثة والهندسة الوراثية المنبثقة عن المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية : " البصمة الوراثية من الناحية العملية وسيلة لا تكاد تخطئ في التحقق من الوالدية البيولوجية والتحقق من الشخصية ، ولا سيما في مجال الطب الشرعي ،وهي ترقى إلى مستوى القرائن القوية التي يأخذ بها أكثر الفقهاء في غير قضايا الحدود الشرعية، وتمثل تطوراً عصرياً عظيماً في مجال القيافة التي يذهب إليها جمهور الفقهاء في إثبات النسب المتنازع فيه، ولذلك ترى الندوة أن يؤخذ بها في كل ما يؤخذ فيه بالقيافة من باب أولى" .
ومن خلال التوصية السابقة والبحوث المقدمة في هذا المجال نجد أن فريقاً من الفقهاء يرى قياس البصمة الوراثية على القيافة وأن الأحكام التي تثبت بالقيافة تثبت في البصمة الوراثية، ويظهر لي أن هذا القياس بعيد للأمور التالية:

١ . أن البصمة الوراثية قائمة على أساس علمي محسوس فيه دقة متناهية والخطأ فيه مستبعد جداً، بخلاف القيافة والتي تقوم على الاجتهاد والفراسة وهي مبنية على غلبة الظن والخطأ فيها وارد ففرق بين ما هو قطعي محسوس وبين ما بني على الظن والاجتهاد.

٢ . أن القيافة يعمل بها في مجال الأنساب فقط بخلاف البصمة الوراثية فهي تتعداها

لمجالات أخرى كتحديد الجاني وتحديد شخصية المفقود .

٣. أن القيافة تعتمد على الشبه الظاهر في الأعضاء كالأرجل وفيها قدر من الظن الغالب، أما البصمة الوراثية فهي تعتمد اعتماداً كلياً على بنية الخلية الجسمية الخفية وهي تكون من أي خلية في الجسم ونتائجها تكون قطعية لكونها مبنية على الحس والواقع .

٤. أن القيافة يمكن أن يختلفوا، بل العجيب أنهم يمكن أن يلحقوا الطفل بأبوين لوجود الشبه فيهما، أما البصمة فلا يمكن أن تلحق الطفل بأبوين بتاتاً ويستبعد تماماً اختلاف نتائج البصمة الوراثية ولو قام بها أكثر من خبير فالقياس بعيد فهذا باب وهذا باب.

وبناء على ما تقدم فالقيافة باب والبصمة الوراثية باب آخر وهو يعتبر بينة مستقلة أو قرينة قوية يؤخذ بها في الحكم الشرعي إثباتاً ونفياً وذلك للأمور التالية :

أن البينة لم تأت في الكتاب والسنة محصورة في الشهادة والإقرار فقط بل كل ما أظهر الحق وكشفه فهو بينة قال تعالى في قصة موسى مع فرعون: ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٠٥ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٠٦ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ .

وجه الدلالة : قال ابن القيم : " فالبينة اسم لكل ما يبين الحق ويظهره ومن خصها بالشاهدين أو الأربعة أو الشاهد والمرأتين لم يوف مسماها حقه، ولم تأت البينة قط في القرآن مراداً بها الشاهدان ، وإنما أتت مراداً بها الحجة والدليل والبرهان مفردة ومجموعة، وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: "البينة على المدعي " المراد به : أن عليه ما يصحح دعواه ليحكم له، والشاهدان من البينة، ولا ريب أن غيرها من أنواع البينة قد يكون أقوى منها، كدلالة الحال على صدق المدعي، فإنها أقوى من دلالة إخبار الشاهد ، والبينة والدلالة والحجة والبرهان والآية والتبصرة والعلامة والأمارة متقاربة في المعنى... فالشرع لم يلغ القرائن والأمارات ودلائل الأحوال، بل من استقرأ الشرع في

مصادره وموارده وجده شاهداً لها بالاعتبار ، مرتباً عليها الأحكام " .

• قوله تعالى: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾.

وجه الدلالة : أن موضع قد القميص اعتبر دليلاً على صدق أحدهما وتبرئة الآخر وسمى الله ذلك شهادة.

• في قصة فتح خيبر قال النبي صلى الله عليه وسلم لعم حيي بن أخطب: " ما فعل مسك بن حيي الذي جاء به من النضير ؟ قال أذهبته النفقات والحروب ، قال : العهد قريب والمال أكثر من ذلك ، فدفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الزبير فمسه بعذاب فقال : قد رأيت حيياً يطوف في خربة هاهنا ، فذهبوا فطافوا فوجدوا المسك في الخربة " .

وجه الدلالة : أن النبي صلى الله عليه وسلم عمل بالقرينة العقلية واعتد بها فكثرة المال وقصر المدة فيه دلالة على الكذب، وقد اعتد بهذا الدليل وأمر بضربه وحاشاه أن يأمر بضربه بلا حجة لأنه نوع من الظلم وهذا مستبعد في حقه صلى الله عليه وسلم فدل ذلك على اعتبار القرينة والعمل بموجبها .

فهذه الأدلة وغيرها دالة على أن الحق إذا تبين بأي وجه كان الأخذ به هو المتعين ، ولا شك أن بعض القرائن أقوى بكثير من الشهادة، فالشهادة يمكن أن يتطرق إليها الوهم والكذب وكذا الإقرار يمكن أن يكون باطلاً ويقع لغرض من الأغراض ومع هذا تعتبر الشهادة والإقرار بينة شرعية يؤخذ بهما لكونهما مبنيتان على غلبة الظن. وإذا علمنا أن نتائج البصمة الوراثية قطعية في إثبات نسبة الأولاد إلى الوالدين أو نفيهم عنهم، وفي إسناد العينة (من الدم أو المني أو اللعاب) التي توجد في مسرح الحادث إلى صاحبها بشهادة مختصين تعين الأخذ بها واعتبارها بينة مستقلة يثبت بها الحكم نفياً أو إثباتاً ولو نظرنا إلى واقع ثبوت النسب بالشهادة وكونها تبنى على غلبة الظن ويكفي فيها الاستفاضة والشهرة مع وجود الاحتمال بالخطأ مع واقع البصمة التي لا تكاد نتائجها

تخطئ في ذاتها، والخطأ الوارد فيها يرجع إلى الجهد البشري أو عوامل التلوث ونحو ذلك نستطيع أن نجزم بأن البصمة الوراثية حجة شرعية يوجب العمل بمضمونها إذا توفرت شروطها ومن تأمل مقاصد الشريعة والعدل والحكمة التي قامت عليها الأحكام ظهر جلياً رجحان هذا الأمر قال ابن القيم: "فإذا ظهرت أمارات العدل، وأسفر وجهه بأي طريق كان، فثم شرع الله ودينه، والله أعلم وأحكم وأعدل أن يخص طرق العدل وأماراته وأعلامه بشيء، ثم ينفي ما هو أظهر وأقوى دلالة وأبين أمارة، فلا يجعله منها، ولا يحكم عند وجودها وقيامها بموجبها، بل بين سبحانه بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة العدل بين عباده وقيام الناس بالقسط، فأي طريق استخرج بها العدل والقسط فهي من الدين ليست مخالفة له".

ضوابط إجراء تحليل البصمة الوراثية: اشترط الفقهاء الباحثين والأطباء المختصين في البصمة الوراثية شروطاً عديدة حتى تقبل.. والذين رأوا أنها تقاس على القيافة اشترطوا شروط القيافة مع بعض الزيادات، والشروط الواجب توفرها ما يلي:

١. أن لا يتم التحليل إلا بإذن من الجهة المختصة.

٢. يفضل أن تكون هذه المختبرات تابعة للدولة وإذا لم يتوفر ذلك يمكن الاستعانة بالمختبرات الخاصة الخاضعة لإشراف الدولة، ويشترط على كل حال أن تتوافر فيها الشروط والضوابط العلمية المعتبرة محلياً وعالمياً في هذا المجال.

٣. يشترط أن يكون القائمون على العمل في المختبرات المنوطة بإجراء تحاليل البصمة الوراثية ممن يوثق بهم علماً وخلقاً وألا يكون أي منهم ذا صلة قرابة أو صداقة أو عداوة أو منفعة بأحد المتداعيين أو حكم عليه بحكم مخل بالشرف أو الأمانة.

٤. أن يجري التحليل في مختبرين على الأقل معترف بهما، على أن تؤخذ الاحتياطات اللازمة لضمان عدم معرفة أحد المختبرات التي تقوم بإجراء الاختبار بنتيجة المختبر الآخر.

٥. توثيق كل خطوة من خطوات تحليل البصمة الوراثية بدءاً من نقل العينات إلى

ظهور النتائج النهائية حرصاً على سلامة تلك العينات، وضماناً لصحة نتائجها ، مع حفظ هذه الوثائق للرجوع إليها عند الحاجة.

٦. عمل البصمة الوراثية بعدد أكبر من الطرق وبعدد أكبر من الأحماض الأمينية لضمان صحة النتائج.

٧. أن يجري اختبار البصمة الوراثية مسلم عدل، لأن قوله شهادة، وشهادة غير المسلم لا تقبل على المسلم إلا الوصية في السفر ونحوه.

والخلاصة: أن البصمة الوراثية تكون بينة مستقلة يجب العمل بمقتضاها إذا توفرت الشروط اللازمة، وأنها لا تقاس على القيافة فهي باب آخر، وأن عامة المعاصرين يرون صحة الاعتماد عليها في حالات التنازع وحالات الاشتباه وحالات الاختلاط سواء في الأطفال أو الجثث أو الحروب والكوارث .

هل ينتفي النسب بالبصمة الوراثية دون اللعان؟ اللعان : شهادات تجري بين الزوجين مؤكدة بالأيمان مقرونة باللعن من جانب الزوج وبالغضب من جانب الزوجة . وقد شرع اللعان لدرء الحد عن الزوج إذا قذف زوجته بلا شهود أو أراد قطع نسب الحمل أو الطفل المولود عنه، وهي أيضا حماية وصيانة لعرض الزوجة ودفعاً للحد عنها. والطريقة التي جاءت به النصوص الشرعية لنفي النسب هو اللعان. فهل يصح نفي النسب بالبصمة الوراثية إذا جاءت النتائج تؤكد ذلك ويكتفي بها أم لابد من اللعان أيضاً؟

اختلف الفقهاء المعاصرون في صحة نفي النسب بالبصمة الوراثية فقط دون اللعان ويمكن تلخيص آرائهم على النحو التالي :

- القول الأول: لا ينتفي النسب الشرعي الثابت بالفراش (الزوجية) إلا باللعان فقط، ولا يجوز تقديم البصمة الوراثية على اللعان. وهذا القول عليه عامة الفقهاء المعاصرين ومنهم علي محيي الدين القرة داغي وعبد الستار فتح الله سعيد، ومحمد الأشقر، وعليه قرار مجمع الفقه الإسلامي بالرابطة وجاء فيه "لا يجوز شرعاً

الاعتماد على البصمة الوراثية في نفي النسب ، ولا يجوز تقديمها على اللعان " .

- القول الثاني: يمكن الاستغناء عن اللعان والاكتفاء بنتيجة البصمة الوراثية إذا تيقن الزوج أن الحمل ليس منه. وهذا الرأي ذهب إليه محمد المختار السلامي، ويوسف القرضاوي، وعبد الله محمد عبد الله.
- القول الثالث: إن الطفل لا ينفى نسبه باللعان إذا جاءت البصمة الوراثية تؤكد صحة نسبة للزوج ولو لاعن ،وينفى النسب باللعان فقط إذا جاءت البصمة تؤكد قوله وتعتبر دليلاً تكميلاً . وهذا الرأي ذهب إليه نصر فريد واصل، وعليه الفتوى بدور الإفتاء المصرية.
- القول الرابع : إذا ثبت يقيناً بالبصمة الوراثية أن الحمل أو الولد ليس من الزوج فلا وجه لإجراء اللعان وينفى النسب بذلك . إلا أنه يكون للزوجة الحق في طلب اللعان لنفي الحد عنها لاحتمال أن يكون حملها بسبب وطء شبهة ، وإذا ثبت عن طريق البصمة الوراثية أن الولد من الزوج وجب عليه حد القذف .وهذا الرأي ذهب إليه سعد الدين هلالي.

الأدلة :

أولاً : استدل القائلون بأن النسب لا ينفى إلا باللعان فقط بما يلي :

١ . قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩ ﴾.

وجه الدلالة : أن الآية ذكرت أن الزوج إذا لم يملك الشهادة إلا نفسه فيلجأ للعان ، وإحداث البصمة بعد الآية تزّيد على كتاب الله " ومن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد " .

٢ . عن عائشة رضي الله عنها قالت كان عتبة عهد إلى أخيه سعد أن ابن وليدة زمعة مني

فأقبضه إليك، فلما كان عام الفتح أخذه سعد فقال ابن أخي عهد إلى فيه فقام عبد بن زمعة فقال أخي وابن وليدة أبي ولد على فراشه فتساوقا (تدافعا) إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال سعد: يا رسول الله ابن أخي قد كان عهد إلي فيه، فقال عبد بن زمعة أخي وابن وليدة أبي ولد على فراشه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم هو لك يا عبد بن زمعة الولد للفراش وللعاهر الحجر ثم قال لسودة بنت زمعة احتجبي منه لما رأى من شبهه بعتبة فما رآها حتى لقي الله

وجه الدلالة : أن الرسول صلى الله عليه وسلم أهدر الشبه البين وهو الذي يعتمد على الصفات الوراثية وأبقى الحكم ا لأصلي وهو " الولد للفراش " فلا ينفى النسب إلا باللعان فحسب.

٣. حديث ابن عباس في قصة الملاعنة وفيه: "أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الإليتين، خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء... فجاءت به كذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لولا ما قضي من كتاب الله لكان لي ولها شأن".

وجه الدلالة : قال عبد الستار فتح الله : " إذا نفى الزوج ولداً من زوجته ولد على فراشه فلا يلتفت إلى قول القافة ولا تحليل البصمة الوراثية لأن ذلك يعارض حكماً شرعياً مقرراً وهو إجراء اللعان بين الزوجين ،ولذلك ألغى رسول الله – صلى الله عليه وسلم (دليل الشبه) بين الزاني والولد الملاعن عليه ... ودليل (الشبه) الذي أهدره رسو ل الله صلى الله عليه وسلم هنا يعتمد على الصفات الوراثية فهو أشبه بالبصمة الوراثية ومع ذلك لم يقو على معارضة الأصل الذي نزل به القرآن في إجراء اللعان"... وقال ابن القيم تعليقاً على الحديث السابق أن فيه " إرشاد منه صلى الله عليه وسلم إلى اعتبار الحكم بالقافة ، وأن للشبه مدخلاً في معرفة النسب ،وإلحاق الولد بمنزلة الشبه، وإنما لم يُلحق بالملاعن لو قدر أن الشبه له ، لمعارضة اللعان الذي هو أقوى منه الشبه له".

٤. إن الطريق الشرعي الوحيد لنفي النسب هو اللعان ولو أن الزوجة أقرت بصدق زوجها فيما رماها به من الفاحشة فإن النسب يلحق الزوج لقوله صلى الله عليه وسلم

الـولد للفـراش وللعاهـر الحجـر " ولا ينتفـي عنه إلا باللعان ، ثم كيف يجوز إلغاء حكم شرعي بناء على نظريات طبية مظنونة.

٥. إنـنا لا نـستطيع أن نعتمد على البصمة فحسب ونقيم حد الزنا على الزوجة، بل لابد من البينة ، فكيف تقدم البصمة على اللعان ولا نقدمها على الحد .

ثانياً : أدلة القائلين باعتبار البصمة الوراثية :

١. قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾، [النور:٦].

وجه الدلالة : أن اللعان يكون عندما ينعدم الشهود وليس ثمة شاهد إلا الزوج فقط حينئذ يكون اللعان. أما إذا كان مع الزوج بينة كالبصمة الوراثية تشهد لقوله أو تنفيه فليس هناك موجب للعان أصلا لاختلال الشرط في الآية .

٢. إن الآيـة ذكـرت درء العـذاب، ولم تذكـر نفـي النـسب ولا تـلازم بين اللعان ونفي النسب، فيمكن أن يلاعن الرجل ويدرأ عن نفسه العذاب ولا يمنع أن ينسب الطفل إليه إذا ثبت ذلك بالبصمة الوراثية.

٣. قوله تعالى: ﴿ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ ﴾ [يوسف].

وجـه الدلالـة: أن شـق القميص من جهة معينة اعتبرت نوعاً من الشهادة والبصمة الوراثية تقوم مقام الشهادة.

٤. إن نـتائج البـصمة يقينـية قطعـية لكونها مبنية على الحس، وإذا أجرينا تحليل البصمة الوراثـية وثـبت أن الطفـل مـن الزوج وأراد أن ينفيه، فكيف نقطع النسب ونكذب الحس والواقع ونخالف العقل، ولا يمكن البتة أن يتعارض الشرع الحكيم مع العقل السليم في مثل هذه المسائل المعقولة المعنى وهي ليست تعبدية. فإنكار الزوج وطلب

اللعان بعد ظهور النتيجة نوع من المكابرة والشرع يتنزه أن يثبت حكماً بني على المكابرة.

٥. إن الشارع يتشوف إلى إثبات النسب رعاية لحق الصغير ومخالفة البصمة لقول الزوج في النفي يتنافى مع أصل من أصول الشريعة في حفظ الأنساب، وإنفاذ اللعان مع مخالفة البصمة لقول الزوج مع خراب الذمم عند بعض الناس في هذا الزمان وتعدد حالات باعث الكيد للزوجة يوجب عدم نفي نسب الطفل إحقاقاً للحق وباعثاً لاستقرار الأوضاع الصحيحة في المجتمع.

الترجيح : قبل ذكر القول الراجح يجدر بي أن أشير إلى النقاط التالية:

١. لا خلاف بين الفقهاء في أن الزوج إذا لاعن ونفى نسب الطفل وجاءت النتيجة تؤكد قوله. فإن النسب ينتفي ويفرق بينهما لكن الزوجة لا تحد لوجود شبهة اللعان و "الحدود تدرأ بالشبهات".

٢. لا خلاف بين الباحثين في المسألة لو أن الزوجين رضيا بإجراء البصمة قبل اللعان للتأكد وإزالة الشبهة فإن ذلك يجوز في حقهما، بل استحسن بعض الفقهاء عرض ذلك على الزوجين قبل اللعان.. ويظهر لي أن البصمة الوراثية إذا جاءت مخالفة لقول الزوج فلا يلتفت لدعواه بنفي النسب وإن لاعن أو طلب اللعان، وأن نسب الطفل يثبت للزوج ويجري عليه أحكام الولد وإن جاءت موافقة لقول الزوج فله أن يلاعن وذلك للأمور التالية :

إن الشريعة أعظم من أن تبني أحكامها على مخالفة الحس والواقع، فإن الشرع أرفع قدراً من ذلك والميزان الذي أنزله الله للحكم بين الناس بالحق يأبى كل الإباء ذلك . فلو استلحق رجلاً من يساويه في السن وادعى أنه أبوه فإننا نرفض ذلك لمخالفته للعقل والحس فلا يمكن أن يتساوى أب وابن في السن مع أن الاستلحاق في الأصل مشروع . وقد رد جماهير العلماء دعوى امرأة مشرقية تزوجت بمغربي ولم يلتقيا وأتت بولد ، فإن الولد لا يكون لزوجها المغربي البتة لمخالفة ذلك للحس والعقل وهذا النفي ليس تقديماً

لقـوله صلى الله عليه وسلم: "الولد للفراش" إنما لمخالفة ذلك لصريح العقل والحس . قـال ابـن تيمـية: " فـلا تتناقض الأدلة الصحيحة العقلية والشرعية ، ولا تتناقض دلالة القـياس إذا كانـت صـحيحة، ودلالـة الخطاب إذا كانت صحيحة فإن القياس الصحيح حقيقـته التسوية بين المتماثلين وهذا هو العدل الذي أنزل الله به الكتب وأرسل به الرسل والرسول لا يأمر بخلاف العدل" .

إن آية اللعان قيدت إجراءه بما إذا لم يكن ثمة شاهد إلا الزوج ، ومفهومه أنه لو كان هـناك بيـنة مـن شـــهود فإنـه لا يجـرى اللعان بل يثبت ما رمى به الزوج زوجته . ومن البدهـي لـو كانـت هـناك بيـنة أخرى غير الشهادة فلا وجه لإجراء اللعان كما لو أقرت الـزوجة زوجها فيما رماها به من الزنا. فإذا منعنا وقوع اللعان لوجود سبب مانع له ، فما وجه إجرائه مع وجود بينة قطعية (البصمة الوراثية) تخالف دعوى الزوج . فإننا إذا قمنا بـذلك كـان ضربـاً مـن المكابرة ومخالفة للحس والعقل، واللعان معقول المعنى معروف الـسبب ولـيس تعـبدياً محضاً. قال ابن القيم: "والشاهدان من البينة، ولا ريب أن غيرها مـن أنـواع البيـنة قـد يكـون أقوى منها كدلالة الحال على صدق المدعي، فإنها أقوى من دلالـة إخـبار الـشاهد..".. فإذا علمنا أن الشهادة أقوى من قول الزوج في اللعان لأن الـشهادة مبنية على غلبة الظن أما قول الزوج في اللعان فهو متساوي الطرفين في الصدق أو الكذب أي بنسبة (٥٠ ٪) لأنه إما أن يكون صادقاً أو تكون الزوجة صادقة، فهل من الفقـه أن نـدع بيـنة قطعـية تـصل لـ ٩٩.٩ ٪ تؤكد كـذب الزوج ونأخذ ما هو محتمل للـصدق بنـسبة ٥٠٪ ونـنـسب ذلـك للشريعة ؟؟!! قال ابن القيم: "والله أعلم وأحكم وأعدل أن يخص طرق العدل وأماراته وأعلامه بشيء، ثم ينفي ما هو أظهر وأقوى دلالة وأبـين أمـارة، فلا يجعله منها، ولا يحكم عند وجودها وقيامها بموجبها، بل بين سبحانه بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة العدل بين عباده وقيام الناس بالقسط، فأي طريق استخرج بها العدل والقسط فهي من الدين ليست مخالفة له" .

- قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ....﴾، [الأحزاب: من الآية ٥].. فإلحاق نسب الطفل بأبيه مقصد عظيم من مقاصد الشريعة ، فإذا أثبتت البصمة

الوراثية نسب طفل وأراد الأب لأوهام وشكوك أو للتهرب من النفقة أو لأي غرض آخر – مع ضعف الذمم في هذا الزمان – فإن العدل يقتضي أن نلحق الطفل بأبيه ولا نمكن الأب من اللعان لئلا يكون سبباً في ضياع الطفل ..

- إن الاحتجاج بقصة اختصام عبد بن زمعة مع سعد بن أبي وقاص وإلحاق الرسول صلى الله عليه وسلم الولد بالفراش وأمره لسودة بالاحتجاب منه مع أنه أخوها، فقد قال ابن القيم: " وأما أمره سودة بالاحتجاب منه، فإما أنه يكون على طريق الاحتياط والورع لمكان الشبهة التي أورثها الشَّبَهُ البيِّن بعُتبة، وإما أن يكون مراعاة للشبهين وإعمالاً للدليلين فإن الفراش دليل لحوق النسب، والشبه بغير صاحبه دليل نفيه فأعمل أمر الفراش بالنسبة إلى المدّعي لقوته، وأعمل الشَّبه بعتبة بالنسبة إلى ثبوت المحرمية بينه وبين سودة، وهذا من حسن الأحكام وأبينها، وأوضحها، ولا يمنع ثبوت النسب من وجه دون وجه... وقال: وقد يتخلف بعض أحكام النسب مع ثبوته لمانع، وهذا كثير في الشريعة، فلا ينكر مِن تخلُّف المحرمية بين سودة وبين هذا الغلام لمانع الشبه بعتبة، وهل هذا إلا محض الفقه" . فدعوى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يلتفت لأمر الشبه (البصمة الوراثية) واستدلالهم بالحديث هذا هو استدلال بعيد، بل الحديث حجة عليهم حيث اعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم أمر الشبه لذا أمر بالاحتجاب. ففي حال التنازع على طفل ولد على فراش صحيح، ما المانع أن نعمل دليل الشبه ونثبت مقتضاه نفياً وإثباتاً، ويكون درء الحد عن الزوج لوجود شبهة اللعان وبهذا نعمل بالأدلة كلها لا سيما وأن الطفل ولد على الفراش فيتقوى إثبات النسب للطفل من جهة "الولد للفراش" ، ومن جهة البصمة الوراثية، هذا في حال نفي النسب وثبوت خلاف ذلك من جهة البصمة، أما إذا جاءت البصمة تؤكد قول الزوج فيجتمع دليل اللعان مع البصمة فينتفي النسب وندرأ الحد عن الزوجة لوجود شبهة اللعان . أما في حال الملاعنة فالأصل أن الطفل منسوب للزوج لأن الزوجة فراش له وجاء أمر الشبه (البصمة الوراثية) تؤكد ذلك الأصل فإننا نعمل بالأصل ونلحق الطفل بأبيه لدلالة الفراش والشبه ونكون أعملنا الشطر

الأول من الحديث " الولد للفراش " وندرأ الحد عن الزوج إذا لاعن لوجود شبهة الملاعنة والحدود تدرأ بالشبهات ونكون أعملنا الشطر الثاني من الحديث " واحتجبي عنه يا سودة " . ويجاب عن حديث الملاعنة بنحو ما تقدم فقد جاء في الحديث " إن جاءت به أصيهب أريضخ أثيبج حمش الساقين فهو لهلال، وإن جاءت به أورق جعداً جمالياً خدلج الساقين سابغ الإليتين فهو الذي رميت به – وهو شريك بن سمحاء كما في رواية البخاري – فجاءت به أورق جعداً خدلج الساقين سابغ الإليتين، أي شبيهاً لشريك بن سمحاء الذي رميت به – فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لولا الأيمان لكان لي ولها شأن" فقد أفاد الحديث أنه حتى لو تمت الملاعنة بين الزوجين وولد الطفل شبيهاً بالزوج صاحب الفراش فإنه ينسب له ولا ينفى عنه – ؛ لأن النص جاء بنسبته إليه لأنه أقوى بكثير من مجرد التشابه الظاهري الذي أخذ به رسول الله صلى الله عليه وسلم في إثبات النسب ويدرأ الحد عن الزوج لوقوع الأيمان وبهذا عملنا بالأدلة كلها وهذا من دقائق المسائل التي يحظى بها من رزقه الله حظاً وافراً من الفقه.

- إن اعتراضهم على عدم إقامة الحد على الزوجة اعتماداً على البصمة الوراثية واكتفاءً بها دليل على أنها ليست حجة بذاتها يجاب عنها من ثلاثة أوجه:

١. إن هناك فرقاً بين إثبات النسب أو نفيه وبين إقامة الحد القائم على المبالغة في الاحتياط فالحدود تدرأ بالشبهات بخلاف النسب فهو يثبت مع وجود الشبهة كما في قصة عبد بن زمعة، فلو ادعت المرأة أنها كانت مكرهة أو أنها سقيت شراباً به مادة منومة وزنا بها آخر فحملت منه كان ذلك كافياً في إسقاط الحد عنها، وكذا الرجل لو ادعى أنه أودع منيه في (بنك المني) وأن امرأة أخذت منيه بطريقة أو بأخرى واستدخلته وحملت بطفل وجاءت البصمة الوراثية تؤكد لحوق الطفل وراثياً بذلك الرجل لم يحد لوجود شبهة، لا لأن البصمة ليست حجة.

٢. إن من العلماء المعاصرين من يقول بإقامة الحد إذا ثبت ذلك بالبصمة الوراثية ولم يدع المتهم شبهة اعتماداً على هذه البينة وأخذاً بما أخذ به بعض الفقهاء المتقدمين كما قال ابن القيم: " والرجوع إلى القرائن في الأحكام متفق عليه بين الفقهاء، بل بين

المسلمين كلهم، وقد اعتمد الصحابة على القرائن فرجموا بالحبل وجلدوا في الخمر بالقيء والرائحة وأمر النبي صلى الله عليه وسلم باستنكاه المقر بالسكر وهو اعتماد على الرائحة... فالعمل بالقرائن ضروري في الشرع والعقل والعرف".

٣. إن الفقهاء نصوا على أن الملاعن لو بدا له أن يعود في قوله ويلحق ابنه الذي نفاه باللعان جاز له ذلك لزوال الشبهة التي لاعن من أجلها، فهل من الحكمة ومن العدل أن يتجاسر الناس للتعرض للعنة الله أو غضبه وندع البينة (البصمة الوراثية) ولا نحكمها بينهم، ثم بعد اللعان يعود ويلحق ما نفاه !! فإن هذا من الفقه البارد.

الخلاصة: أن البصمة الوراثية يجوز الاعتماد عليها في نفي النسب ما دامت نتيجتها قطعية كما يرد دعوى الزوج في نفي النسب إذا أثبتت نتائج البصمة الوراثية القطعية لحوق الطفل به، لأن قول الزوج حينئذ مخالف للحس والعقل وليس ذلك تقديماً للعان، وينبغي للقضاة أن يحيلوا الزوجين قبل إجراء اللعان لفحوص البصمة الوراثية لأن إيقاع اللعان مشروط بعدم وجود الشهود، فإذا كان لأحد الزوجين بينة تشهد له فلا وجه لإجراء اللعان.. والأخذ بهذه التقنية يحقق مقصود الشرع في حفظ الأنسابِ من الضياع ويصد ضعفاء الضمائر من التجاسر على الحلف بالله كاذبين، والله اعلم.

ومن هذا يستنتج أهمية الوصول لنتائج دقيقة تسبق اكتشافات العلم الحديث من خلال تدبر وتتبع آيات القرآن الكريم والأحاديث في السنة المطهرة، ومن هذا نتفهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وصفه للكتاب الكريم في الحديث الذي ذكرناه في مقدمة الكتاب (..من علم علمه سبق)، كما يتبين كيف يمكن للاكتشافات الحديثة في علم ما أن تجد صداها في آية أو حديث لتثبت حقيقة فقهية أو تشريعية تجد فيها خلاف بين الفقهاء، والله أعلم.

الفصل السابع

الإعجاز بالضرورة

المبحث الأول

مقاصد الشريعة في ضرورة الإعجاز

يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج:٨]... ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان:٢٠].

أي أن الذين لا يقبلون هذا الخطاب القرآني الواضح الجلي لكل ذي عقل سوي، ويتجرءون على الله تعالى هم ثلاث أصناف: غير العلميين أي الجهال وهم الأكثرية، غير المهتدين أي غير المؤمنين، وأخيراً الذين لا يملكون الدليل القاطع على كلامهم إلا ظناً وليس حقيقة، ومنهم العلماء من أصحاب الأهواء والأغراض السيئة. والعلماء هنا مطلقة وتشمل كل العلوم. ولقد علمنا القرآن أيضاً أن الناس أصناف وأن الكلام معهم حسب تصنيفهم:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:١٢٥].

فالصنف الأول أي الذي نتكلم معه بالحكمة هو صنف العلماء وأصحاب العقل السوي والنفوس الصافية أمثال حضراتكم. وأما الصنف الثاني فهم الذين يحتاجون إلى الموعظة الحسنة من الذين يتخبطون في العمل من أصحاب الأهواء الذين نجد فيهم بذرة أمل من خير ولكن الشيطان يسول لهم أعمالهم فيروه حسناً ويحسبون أنهم مهتدون. وأما

الصنف الثالث فهم الذين يخالفوننا الرأي فأمرنا أن نقدم لهم الحجة والدليل بالأسلوب الحضاري الذي يليق بالإنسان الناضج ذي العقل واللب السليم. وأما الجهال الذين تحكمهم عقدهم وأحقادهم فهؤلاء لا طائل من النقاش معهم فهم عميان لا عقل لهم كالبهائم بل هم أضل، وهؤلاء قال الله تعالى فيهم ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[الأعراف:١٩٩].

مقاصد الشريعة: لفظ الشريعة في أصل الاستعمال اللغوي الماء الذي يرده الشاربون، وهي في نفس الوقت طريق ومنهاج ومنبع يرتوي منه، ثم نقل هذا اللفظ إلى معنى الطريقة المستقيمة التي يفيد منها المتمسكون بها هدايةً وتوفيقاً[١].

تهدف الشرائع السماوية عامة وشريعة الإسلام بوجه خاص إلى تحقيق مصالح العباد وحفظها ومنع الضرر عنهم، إلا أن هذه المصالح ليست هي ما يراه الإنسان مصلحة له ونفعاً حسب هواه ورغبته، إنما المصلحة ما كانت مصلحة في ميزان الشرع الذي شرعه خالق الإنسان والكون معاً فهو سبحانه مسبب أسبابه وأصل وجوده، وهو سبحانه القيوم - أي القائم- على ديمومة هذا الكون وهذا الإنسان حتى ينتهي العالم بإذنه، وهو سبحانه الوحيد الذي أحاط بكل شيء علماً،ومن دواعي ومتطلبات هذه القيومية وهذه الإحاطة أن يحدد الأطر والقوانين والنواميس التي يمشي بها هذا الكون بشكل صحيح سواء أكان في المادة أو الروح، فيعرف تبعاً لذلك أن الأمر الفلاني مناسب للإنسان باستخدام الأسلوب الفلاني وهكذا.

ويقسم العلماء مقاصد الشريعة هذه إلى ثلاثة أقسام وهي حسب الأهمية والأولوية:

١- **الضروريات**: ومعناها أنها لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدين والدنيا على استقامة، بل فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الآخرة فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين. وهذه الضروريات

---

(١) الشريعة الإسلامية ومكانة المصلحة فيها، القاضي فاضل دولان، ص٣٦، وانظر (بين الفقه والقانون)، للأستاذ عبد الهادي أبو طالب،ص٧.

هي خمس، حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال. والحفظ يكون بأمرين فأما أحدهما فهو ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها وهو عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود، وأما الثاني فهو ما يدرأ عنها الاختلال ويحافظ عليها من كل ما يمكن أن يؤثر عليها أو يقوضها.

٢- **الحاجيات**: ومعناها أنها مفتقر إليها من حيث التوسعة ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة اللاحقة بفوت المطلوب، فإذا لم تراع دخل على المكلفين الحرج والمشقة، ولكنه لا يبلغ مبلغ الفساد العادي المتوقع في المصالح العامة وهي جارية في العبادات والعادات والمعاملات.

٣- **التحسينيات**: وهي الأخذ بما يليق من محاسن العادات وتجنب الأحوال المدنسات التي تأنفها العقول الراجحات، فهي التي تجعل أحوال الناس تجري على مقتضى الآداب العالية والخلق القويم. فإذا فاتت لا يختل نظام الحياة ولا يلحق الناس المشقة والحرج، ولكن تصير حياتهم على خلاف ما تقتضيه المروءة ومكارم الأخلاق والفطرة السليمة.

ولكل من هذه الأقسام الثلاثة مكملات وهذه بالتأكيد ليست على مرتبة واحدة، وقد نتجت عن هذه المصالح الثلاثة ومكملاتها عدة قواعد فقهية استنبطها الفقهاء[١].

إذن أول مقاصد الشريعة وأهمها هو الضروريات بأقسامها الخمسة، وأهم هذه الأقسام هو حفظ الدين ومن ثم النفس والعقل للكائن البشري الذي هو أهم مخلوق في هذا الكون بل خلق الكون لأجله، فجعل الله تعالى كل ما في الكون من أمور عظيمة لا يجحدها إلا مكابر مسخر بأمره لأجل خدمة هذا المخلوق. ومن ثم أنزل الكتب وأرسل الرسل ليبينوا للناس على مر الأجيال حقيقة وسبب وجودهم، وحذروهم من مغبة انقيادهم وراء ما خُلِقَ لأجلهم وترك ما هو أهم ألا وهو ما خُلقوا من أجله.

ولكن البشر بطباعهم المجبولة على العشوائية والإنفلات وحب الذات انقادوا وراء

(١) الإسلام والتنمية البشرية، الدكتور أسامة عبد المجيد العاني، ص٩-١٤ بتصرف.

أهواءهم ورغباتهم – وهذا هو شأنهم في كل زمان ومكان–، فعادوا الرسل وحاربوهم وأنكروا وجود خالقهم وغيروا شرعه الذي أنزله لهم فحرفوا الكتب والتعاليم الإلهية التي جاء بها المرسلون. وحيث أن هذا الأمر تكرر مع جميع المرسلين -عليهم السلام جميعاً- إلى ما بعد مبعث سيدنا عيسى عليه السلام، وحيث أن الرسل الكرام لا يمكن أن يستمروا بالإرسال من قبل الله تعالى لأن المسألة ستتكرر مع كل رسول يرسل، وهو ما أقره القرآن الكريم ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، [يّس:٣٠]. فكان لا بد من أمرين:

١. تدخل مباشر من لدن الخالق تعالى في إرسال نبي خاتم وكتاب خاتم يحفظ الدين والتشريع الإلهي من التحريف والتغيير والتلاعب الذي أصبح ديدناً للبشر مع أنبياءهم وما أرسل معهم من كتب هي أصلاً لتثبيت مصالحهم ومنعها من الضياع، لئلا تنهار المعادلة الأصلية والسبب الرئيسي من خلق خليفة الله على الأرض – الإنسان- لأن أصل وسبب الخلق لهذا الخليفة هو العبادة بمعناها الشمولي الذي يعني الإنقياد لله والطاعة والتذلل مع الحب والولاء لله تبارك وتعالى، وهو معنى قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

٢. جعل هذا الكتاب شاملاً لكل زمان ومكان حتى قيام الساعة ولكل البشر على اختلاف لغاتهم ،أجناسهم ،أطوار وأساليب تفكيرهم، نمط حياتهم، تقنياتهم، وغير ذلك من المتغيرات التي لا حصر لها. وعليه يجب أن يحوي هذا الكتاب على كل الأسباب والأسلحة التي تمكنه من إظهار تفوقه وسبقه وهيمنته وعلو شأنه مهما اختلفت أساليب محاربة أصحاب الأهواء من شياطين الإنس والجن ليس في اللغة حسب لأنه لم ينزل للعرب حصراً وإنما في كل ما يجعله غير قابل للتحدي في أي مجتمع بشري، فيكون سيداً مطلقاً في اللغة والفصاحة والبلاغة والبيان في عصر التنزيل وما تبعه، مهيمناً على بقية التشريعات السماوية السابقة والقانونية الوضعية السابقة واللاحقة، يحوي من العلوم والحقائق العلمية المختلفة ما يجعله سابقاً لكل اكتشاف سيكون في ما بعد تنزيله مما يعرفه الله تعالى في سابق علمه، وهكذا.

وهكذا كان النبي الخاتم محمد ﷺ، والكتاب الخاتم القرآن الكريم، والشريعة الإسلامية التي ختمت بها رسالات السماء إلى البشر ليحفظ بها الدين وتكون حجة الله تعالى قائمة على كل عباده عبر جميع المراحل الزمنية في كل الأجيال منذ بدء الخليقة حتى قيام الساعة لئلا يقولون يوم القيامة (يارب ولدنا ولم نجد ديناً يعرفنا بك فنتبعه) أو يقولون (لم يحفظ لنا الأجداد هذا الدين الحق فضيعوه وضيعونا معه)، أو غير ذلك من الحجج. فوضع الله تعالى في هذه الشريعة الخاتمة خصائص ومواصفات لم تكن في سابقاتها كي تتمكن من البقاء والاستمرار بمواجهة ومقاومة كل المؤامرات على النحو الذي ذكرناه باختصار في بداية الفصل الأول من الكتاب، وكان من خصائص هذه الشريعة:

١. أنها خاتمة للشرائع السماوية فلا يأتي بعدها أي تشريع آخر ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٤٠].

٢. غير قابلة للنسخ والتحريف لأن الله تعالى تعهد بذلك فوفر لها ما يحفظها أي وفر لها جميع الأسباب التي تمنعها من التغيير أو التحريف أو أية تدخلات بشرية ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩].

٣. أنها عامة وشمولية لكل زمان ومكان وجيل وجنس ولغة ولا تقتصر على مكان دون آخر أو جنس دون آخر أو زمان دون آخر: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ:٢٨]، ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾، [لأعراف:١٥٨] .

٤. تنسخ ما قبلها من الشرائع لا للنقص الذي في تلك الشرائع –حاشا لله– ولكن بسبب ما فعله البشر من تغيير عليها أفقدها قدسيتها من جهة، ولأنها كانت تخص أقواماً معينين وليس عامة البشر وفي كل الأزمان من جهة أخرى، فنعهد الله تعالى أن يظهر

هذه الشريعة الغراء على كل ما سبقها ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣٣]... ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح:٢٨]... ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف:٩].

٥. أنها كانت مرتقبة ومنتظرة من قبل الأمم السابقة ممن أرسلت فيهم الأنبياء والرسل عليهم السلام جميعاً، إذ أن هؤلاء الرسل الكرام كانوا قد أبلغوا أممهم أن آخر الأنبياء آخر الكتب هما الأولى بالاتباع – وهو ما ذكرناه في بداية الكتاب–.

وإذا كانت الشريعة الإسلامية بهذه الأوصاف كان لا بد لها من أسباب يجعلها باقية في كل زمان ومكان، ومناسبة لكل جيل وجنس، ومن هذه الأسباب بل وعلى رأسها أن الكتاب الذي أرسلت به معجز لا يمكن لبشر مهما أوتي من إمكانات وتقنيات أن يقلده لا من حيث البيان والبلاغة في اللغة والتعبير والتنسيق والترتيب حسب، بل من حيث المعنى والتشريع والحقائق الدامغة التي تدل على أنه من عند الله القادر الخالق العظيم.

فهذا الدين العظيم وهذا الكتاب العزيز مزود بأسلحة تجعله يتحدى البشر مجتمعين مع الجن في كل زمان ومكان بكل ما أوتوا من قوة وأساليب وتقنيات من أن يأتوا ولو بسورة واحدة من مثله ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة:٢٣]. وهذه الأسلحة منها الدليل والبرهان التاريخي أو الغيبي أو اللغوي أو المستقبلي أو العلمي بكافة صوره وأشكاله وغير ذلك مما فصلناه في معرض ذكرنا لأنواع الإعجاز في الكتاب المجيد.

فكيف يمكن للقرآن أن يصور لنا كل حالات النفس البشرية وإرهاصاتها بهذا التفصيل العظيم وهذه الثقة المطلقة بأن مصير كل البشر ممن – يتصفون بصفة العقل – سيكون مآلهم الإيمان بهذا الكتاب لأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، بل ويزيد في التحدي ليقول: ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾، [الأنعام: ٦٧]، أو قوله تعالى:

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينِۭ ﴾، [صٓ:٨٨].. فهل يمكن لبشر مهما أوتي من علم أن يكتب أو يؤلف كتاباً ويعطيه كل هذه الأبعاد والتحديات على مدى الدهور واختلاف الأزمان وتطور البشر دون أن يمس هذا الكتاب اختلاف ولو بحرف واحد. لا يمكن طبعاً لأن من طباع البشر وديدنهم التغيير والتبديل، وهذه تجربة بني آدم مع التأليف، فمع كل طبعة تنقيح، ومع كل مراجعة تصليح . وفي هذا يقول العماد الأصفهاني رحمه الله تعالى:

«إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل.. وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

لعل أهم ضرورة لإعجاز القرآن في مجال العلوم وسبقه لها هو كونه الكتاب الخاتم المعجز لكل العصور والأمم على اختلاف ألوانهم وثقافاتهم ولغاتهم وتقاليدهم وعلومهم، فلو كان الأمر يخص البلاغة لاختص القرآن للعرب فقط وهذا مخالف لنصوص عديدة في القرآن الكريم من أن الكتاب الخاتم والرسول الخاتم جاء للناس- بل للثقلين- كافة وإلى قيام الساعة، وهو الوعد الإلهي الخالد ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

تتميز تنظيمات الله تعالى بسلامتها من أي غرض وميل إلى الهوى وتفضيل لبشر على بشر في لون أو نسب أو جنس، فالخلق عند الله تعالى سواء، فضلاً عن نفوذ علمه وإحاطته بجميع خلقه. والناس لو سلمت تنظيماتهم الوضعية من الهوى والغرض فهي لم تسلم من النقص والعوج والزيغ، بدليل تناقض أحكامهم، بل إن الشخص الواحد يناقض نفسه فينقض اليوم ما أبرمه بالأمس. ويؤكد أهل الشريعة الإسلامية أن هذه الشريعة تعتبر أساساً ومصدراً لكل تشريع لأنها شمولية أي شاملة للجنس البشري لأي جيل في كل زمان ومكان بحيث لا يمكن أن تقوم مقامها شرعة أخرى لشمولها الأصول

والفروع والظاهر والباطن، فهي الحق وهي العدل وهي المصلحة وحيثما كان الحق والعدل والمصلحة فثم شرع الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة:٤٨].. ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، [الجاثـية:١٨].

والأحكـام التي تناولها الشرع الإسلامي ثلاثة: العقائد أو الأحكام الاعتقادية أو ما يعـرف بعلـم التوحـيد أو علـم الكـلام، والأخلاق أو الأحكام الخلقية، والمعاملات أو الأحكـام العملـية. وهذه الأنواع الثلاثة تشمل جميع أنواع تنظيم العلاقات من عبادات وحقـوق وواجـبات وأخـلاق وتعاملات وأقوال وأفعال وتصرفات بين الإنسان وربه، نفسه، أهله، جنسه، بيئته في الأرض والكون، وكل ما يحفظ حقوق الجميع بما يحفظ لكل ذي حـقٍ حقه، وما ينجي الكائن البشري في دنياه وآخرته. فحدد الإسلام العبادات التي يتقـرب بهـا الإنـسان مـن ربـه تعـالى مـن صـلاة وصـيام وزكـاة وحج، وتناول أحكام المعـاملات بين الناس، فنظم العقود وحدد أحكامها كعقد الإيجار والرهن وما إلى ذلك، وتـناول أحكـام ومـسائل الأحـوال الشخـصية وشـؤون الزواج وتنظيم شؤون الأسرة والعلاقـات الأسريـة وحقـوق كـل فـرد فيها، وأوضح السبل والإجراءات القضائية في المحاكم وطرق الإثبات، وبين مركز الحاكم بين المتقاضين، وحدد أحكام النظام الإداري والدستوري في الدولة، وبين السبل لاختيار رئيس الدولة وحقوقه تجاه الرعية وواجباته نحـوها، كما نظم القانون الدولي وعلاقات الدول ببعضها في الحرب والسلم. وكل ذلك نظم تنظيماً دقيقاً بقواعد قانونية رصينة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها لأنها مـن لـدن حكـيم علـيم بشؤون البشر وسائر الكون، ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴾، [البقرة:١٣٨][1].

---

(١) الشريعة الإسلامية ومكانة المصلحة فيها، القاضي فاضل دولان، ص٣٧-٤١، بتصرف.

وحيث أن الأحكام الشرعية الإسلامية التي نسخت ما قبلها تعهد الله بحفظها من أي تحريف أو تلاعب بشري قد يصيبها، فإنها خالدة باقية دائمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

إن معجزة القرآن الكريم تكفي لكل مؤمن برسل الله السابقين أن يؤمن بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ولولا التقليد المحض والهوى والمزمن من النفوس لآمن أتباع الرسل السابقين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، لأنه ما من أدلة تقام لإثبات نبوة نبي أو رسول إلا وكانت مثل هذه الأدلة وأكثر منها وأظهر منها موجودة في إثبات نبوته صلى الله عليه وسلم . لذلك من يؤمن بنبوة موسى أو عيسى أو أي نبي آخر –عليهم السلام جميعاً– وينكر نبوة المصطفى صلى الله عليه وسلم معتقداً أنه كذاب ليس برسول حاشاه صلى الله عليه وسلم – يكون متناقضاً في نفسه ولم يكن إيمانه بغير محمد مع إنكاره لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم إلا حصيلة الجهل والتعصب والتقليد بلا دليل ولا برهان، وهو يدخل في معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠]، لأن ما دعاه لأن يؤمن بمن آمن به يوجد مثله وأكبر منه يدعوه إلى الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فإذا رفض الإيمان بنبوته – صلى الله عليه وسلم – يكون مثله كمثل من يعتقد أن فلاناً عالم بالطب لأنه تلميذ في السنة الأولى بكلية الطب، ولكنه يرفض الاعتقاد بأن أستاذ هذا الطالب عالمٌ بالطب، والذي ظل يمتهن الطب عشرات السنين تدريساً في كلية الطب، ومعالجاً للمرضى في المستشفيات. ومن البديهي أن هذا الرفض مع ذاك الاعتقاد لا يصدر إلا عن جهل وتعصب وتقليد، فإذا ثبت أن محمد – صلى الله عليه وسلم – ورسول الله تعالى حقاً بدليل إعجاز القرآن الكريم وغيره من الأدلة وجب على الخلق جميعاً الإيمان بنبوته واتباعه والإنقياد إلى الشرع الذي جاء به من ربه والتسليم المطلق دون جدال أو مناقشة أو تعقيب[1]، إلا إذا كان ممن وصفهم الله تعالى بالجاهلين.

---

(١) عن مقدمة الدكتور عبد الكريم زيدان لكتاب (الشريعة الإسلامية ومكانة المصلحة فيها)، للقاضي فاضل دولان، ص١٢-١٣، بتصرف.

وعلى أساس ما ذكر فإن الإعجاز القرآني بكل صنوفه وأشكاله حتمية وضرورة لا غنى عنها، وأما نوع الإعجاز فقد قدره الله تعالى لكل زمن وجيل. وحيث أن عصرنا الراهن فيه من العلوم ما يذهل البشر ويصرفهم عن أي شيء آخر غيره ومنها اللغة وبلاغتها، فكان إعجاز القرآن العلمي بكل أشكاله ضرورة من ضرورات الشريعة ومقاصدها في ديمومة هذا الدين من جهة وفي بيان عظمته وتحديه من جهة أخرى ضماناً لبقاء المصلحة البشرية في عدم ضياعها بضياع الدين، والله أعلم.

المبحث الثاني

هل هو إعجاز علمي أم إعجاز قرآني؟

قد يقول قائل، إن الملاحظ اليوم أن الإسلام انتزع منا انتزاعاً وأصبحنا لا نستطيع تحسس كلمات القرآن الكريم ولا تأثيره الروحي كما كان يفعل الجيل الأول، ونزعت منا اللغة العربية عبر مراحل التأريخ وطغت لهجاتنا المحلية وافتقدنا التلذذ باللغة الأم، وشيئاً فشيئاً أصبح الجيل الحاضر يتكلم بالماديات كالأرقام والجداول والأشكال والإحصائيات فلا نستطيع إفهامه وإقحامه للتكلم باللغة العربية الفصحى والفقه والشريعة فقط، فهل من سبيل إلى حل هذه الإشكالية المعقدة؟، نقول وبالله التوفيق:

إن الجواب سهلٌ للغاية إذ لا إشكالية في المسألة ولا تعقيد، والسبيل الموصل إلى فهم هذه التقلبات واحتواء هذه المسألة هو أن يدرك القارئ أن الإسلام لا يعارض التطور ومواكبة المعاصرة بشرط أن لا يضيع الموروث، فلا معارضة ولا تضاد في إشغال الفكر والإفادة من الفراغ للأمور الحسابية والإحصائية ونظام الجداول والأشكال وما فيه من خدمة للبشرية واستغلال مرافق الحياة الكونية والأرضية وبين تعاليمه. فالإشغال للفكر والإفادة من مقتضيات العصر لا يمكن أن ننعتها بأنها نزقات الرجال[1] وإنما فيه ندحة[2] من الواقع التطوري لدى الأجيال، ولا يحق لأحدٍ أن يصور المسلمين بالصورة السابقة

---

(١) النزق: هو الطيش والخفة في كل الأمور، المعجم الوجيز، ص٦١١.

(٢) الندحة: السعة، المعجم الوجيز، ص٦٠٨.

وأن الإسلام انتزع منهم أو أنهم ضيعوا لغتهم، فالإسلام بخير ورعاية من الله، واللغة محفوظة محفوظة بتعهد الله سبحانه في حفظ قاموسها وهو القرآن الكريم ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾، [الحجر: ٩].

أما اللهجات فإنها من الممكن أن تكون من وسائل التعليم التي تقود إلى الإيمان، والعلماء لم يهملوا هذه القضية في تثبيت قواعد الدين كما نزلت أحرف القرآن في وقتها وهي تعالج العربية في لهجاتهم المنتشرة المشتهرة.. بقي للقارئ أن يعلم عظيم ما جعل الإسلام لمعتنقيه من مندوحة في مسألة الاختصاص بحيثيات الفقه والشريعة وكيف أن الأمة لا تلزم بامتلاك علمها إذا تولى ذلك نفر منها، وكما قال القرآن الكريم: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾، [التوبة:١٢٢].

ولك أن تعلم إن العودة إلى الدين تكون بالتدرج والبناء السليم وأول لبنات هذا البناء هو الجانب الإيماني المبني على الأسس المتينة لهذا الدين القيم، وهي الإيمان بالله تعالى خالقنا وخالق كل شيء إيماناً يجعلنا نتحسس عظمته ونخافه ونخشاه في الظاهر والباطن حتى يؤثر ذلك الإيمان في سلوكنا وتصرفاتنا ويمنحنا فرصة الهداية إلى تزكية أنفسنا كي نصل شيئاً فشيئاً إلى الخير والنور الذي أراده الله لنا، ونترك ما سواه من فلسفات عقيمة ونظريات وفرضيات من تيارات الوجودية الزائلة، فقد رسم الله تعالى لنا كل هذا ولا نحتاج إلى غيره. ثم يتحتم علينا الإيمان بالغيبيات كلها كما آمنا بالآيات الملموسة المشاهدة التي دلت على بداعة صانعها سبحانه، فكل ما يخبرنا به هو الحق اليقين، وهذه الآيات المتلوة هي إعجاز القرآن، كون الله المقروء- والتي سيتضح للقارئ الكريم تطابقها مع كون الله المنظور من خلال الكتب اللاحقة- وهكذا فإن الحل يكون بالقرآن أيضاً ولكن بشروط تم ذكرها خلال تجوالنا، وهذه الشروط هي قواعد العمل بالإعجاز القرآني.

الآن بإمكاننا أن نستخلص النتيجة النهائية لموضوع الإعجاز؛ ونجيب عن السؤال،

هل الموضوع الذي نحن بصدده هو إعجاز علمي أم إعجاز قرآني، أي هل أن مصدرية السبق العلمي تعود للثورة العلمية الحديثة أم للقرآن الكريم؟.. دعونا أولاً نناقش الأمر بناء على كل ما ورد من آراء لنستنتج ما يأتي:

١. إن الإعجاز القرآني في كل المجالات العلمية ليس بديلاً عن الإيمان الغيبي -حاشا لله-، ولا هو تحويل لأنظار العالم من مسلمين وغيرهم عن عظمة القرآن الروحية، وتطبيق شرائعه السمحاء وإقامة حدوده لخير ومصلحة البشر، بل إنه حجة للمسلمين على كل من يدعي أن القرآن الكريم، كتاب الله الخالد، لم يعد يوافق العقل والمنطق والعلوم التطبيقية من يهود وكفرة وغيرهم، إضافة إلى أنه دعوة إلى الشباب المسلم ممن غرتهم حضارة العم الأنكلوسكسوني، أكلة لحوم البشر، إلى سعة أفق القرآن الكريم وسماحة الإسلام ورحمته، وأن القرآن الكريم كما أنه جاء لإعطاء القوانين والسنن والنواميس البشرية، لم ينس النواميس والقوانين للعوالم الأخرى كالحيوان والنبات والجماد بل وحتى عوالم لم يتسنَّ لإنسان العصر الحديث بعد اكتشاف مكامنها كعوالم الجن والأرواح والملائكة والشياطين، وأن كل كلمة في القرآن ليست حشواً أو زائدة أو تكميلاً بلاغياً بل إنها جاءت لتشكل بمجموع القرآن كله كوناً مقروءاً، كل هذا يدخل ضمن معجزة القرآن الأبدية والتي لا تنتهي حتى قيام الساعة عسى أن يعود الناس إلى دينهم.

٢. إن العقل البشري قاصر أمام قدرة الله وإن إمكاناته واستغلال قدراته لا تزال في طور بدائي كما وضحنا ذلك، وعلى هذا الأساس فإن عقولنا قاصرة وكل تفسيراتنا للظواهر غير شمولية وإنما تتبع زاوية النظر التي ننظر إليها، وهنا تكمن خطورة هذا الموضوع ويجب علينا أن لا نحاول أن نجد تفسيرا لكل نظرية وربطها بالقرآن إذ إننا أمام نظريات قد تتطور أو تخطئ أو تصيب وليس من المعقول أن نأتي بكل نظرية ذاع صيتها ونحشو عليها تفسيراً من القرآن، بل نجتهد لفهم القرآن من هذا الباب فإن أصابت النظرية وتوافقت مع القرآن فهذا حجة لنا، وإن اختلفت مع القرآن فإن القرآن هو الصحيح المطلق وأن النظرية قاصرة وتحتاج إلى إكمال أو إعادة صياغة حتى

تـتحول إلى حقـيقة علمـية، وعـندها فقـط يكـون الكتاب العزيز حتماً قد سبقها ولو بالإشارة والتنويه. والأهم من ذلك أن القرآن هو المنهل لكل علم ففيه إشارات لكل ما يجعل الإنسان يبدأ رحلة البحث العلمي عن حقائق المخلوقات بكافة أشكالها.

٣. عـلى الـباحث في الإعجـاز القـرآني بـشتى صـنوفه ومـنها العلمـي التقـيد بالشروط والضوابط التي يحددها فقه الإعجاز الذي تناولناه بالتفصيل.

٤. إن موضـوع الموسـوعية في هذا الباب مطلوب ولكن على أن لا يكون البحث في هذا الموضـوع عـلى حـساب الدقـة، فكـما هو معلوم كلما كان البحث في اختصاص دقيق يعـتمد الأسلوب العلمي والبحثي الصحيح توصلنا إلى حقائق صحيحة، وكلما كان موسـوعيا كـان هامـشياً وذا تأثير قليل أو إطار عام لا يعطي دفعاً وحركة لهذا العلم بالقوة المطلوبة والزخم المرجو.

٥. إن توفـر شروط العمـل في هـذا المـيدان قـد لا تتوفر في شخص واحد فقط، فعندئذ يكون العمل الجماعي ضرورة، وفي ذلك الخير والبركة وزيادة في الدقة.

٦. إن طبيعة الإنسان وتركيبة عقله التي أنشأه الله عليها لها القدرة والقابلية على البحث والتجديد والعمل الخلاق وكما اثبت العلم أن المخ البشري فيه نصفان، النصف الأيمن مسؤول عن الأمور الفطرية والغريزية وهي المعلومات التي أودعها الله تعالى فينا فطرة، والنصف الأيسر مسؤول عن المنطق والأسباب والحجج أو بالمعنى الحديث ((العلم السببي والتطبيقي)) إذ أن الإنسان في حقب سحيقة في التأريخ كان يعتمد على النصف الأيمن وتدرج حتى صار يعتمد على الجزء الأيسر وأصبح الجزء الأيمن شبه معطل لهذا فإننا حين نبحث في العلوم الحديثة كل حسب اختصاصه ونقدمه دعما واجتهادا في تفسير القرآن فإننا نقدم خدمة للمسلمين ولغيرهم لفهم هذا القرآن وإعجازه ونعمل على إفهام غيرنا من الأمم أن لدينا كنزا سماويا فيه من العلوم والحقائق المعجزة وأنه الأولى بالاتباع والتصديق ومن الله التوفيق حيث أمرنا بالبحث والعمل ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾، [الأنعام:٦٧]... ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ

نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينِۭ ﴾، [صٓ:٨٨].

٧. إن كل ما نزل من القرآن سواء أكان هدفه تزكية نفس الإنسان و تأديبه، أم تعليمه، أم تنوير بصيرته، أم إشارة للاستفادة مما حوله، هو علم بل مجموعة علوم أنزلت من خالق السماوات والأرض لأنه حقيقة مطلقة وعلم مطلق لا يقبل التغيير.

٨. إن ما نحاوله هو محاولات ربط وليس تفسير ولا يصل إلى عمل وعلم المفسرين الأوائل (كل المفسرين جزاهم الله خيراً) بعد عصر النبوة والصحابة والتابعين كان كل منهم ينظر للآية من منظار يعتمد على قدر بحثه ودراسته وتتبعه للعلوم الفرضية والشرعية واللغوية والمادية وغيرها ويعطيها ما يستطيع من إيصال للقارئ، وفي كلٍ خير. وإن على أي إنسان يبحث في موضوع التفسير العلمي أو الربط العلمي للقرآن الكريم أن لا يخرج عن الأطر العامة المحددة بالعوامل الأساسية الثلاثة ألا وهي اللغة، والتفسير، والحقيقة العلمية، وألا يدع المسألة الربطية مفتوحة بدون حدود فهو حينئذ سيقع في خطأ التأويل غير الصحيح أو الربط غير المقصود بالآيات الكريمة.

وعلى هذا الأساس فإن الإعجاز هو إعجازٌ قرآنيٌ وليس علمياً لأن المصدر هو القرآن والعلم بكافة أصنافه هو التابع وليس العكس، ولهذا بدأ العلماء يتسابقون لأن يأخذوا من القرآن والسنة براءات اختراع لأفكارهم وأعمالهم، وعلى كل حال ليس المهم التسمية وإنما المهم فهم واضح لدور القرآن الكريم في حياة البشرية وكيف أنه بحق المنهل الثري والكنز العظيم الذي تستقى منه كل العلوم قديمها وحديثها، ماضيها وقابلها.. ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾، [الأنعام:٣٣] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وإلى اللقاء مع كتب أخرى والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، ومن الله التوفيق.

ملحق

القراءات وأحكام الترتيل

١ - الأحرف السبعة:

أ- التعريف:

لغـة: الحـرف في أصل كلام العرب معناه الطرف والجانب، وحرف السفينة والجبل جانبهما.

اصطلاحاً: الأحرف السبعة: سبعة أوجه فصيحة من اللغات والقراءات أنزل عليها القرآن الكريم.

ب- بيان الأحرف السبعة في الحديث النبوي:

لمـا كـان سبيل معرفة هذا الموضوع هو النقل الثابت الصحيح عن الذي لا ينطق عن الهوى، نقدم ما يوضح المراد من الأحرف السبعة:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حـياة رسـول الله صـلى الله علـيه وسلم، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثـيرة لم يُقْـرِئنيها رسـول الله صلى الله عليه وسلم، فكِدت أساوِره في الصلاة ، فتصبَّرت حتى سلّم ، فلَبَّبْتُهُ بردائه، فقلت من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ، قال: أقرأنِيْها رسـول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت له: كذبت، أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت بـه أقـوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان عـلى حـروف لم تُقـرئها، فقـال: «أرسـله، اقرأ يا هشام»، فقرأ القراءة التي سمعته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلـم: «كذلك أنزلت» ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اقـرأ يا عمر»، فقرأت التي أقرأني. فقال: «كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه».

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أقرأني جبريل على حرف، فلم أزل أستزيده، ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف».

جـ - الأحرف السبعة والقراءات السبع:

دلتنا النصوص على أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات نزل بها القرآن، ونود أن ننبه بأن الأحرف السبعة ليست هي القراءات السبع المشهورة، التي يظن كثير من عامة الناس أنها الأحرف السبعة. وهو خطأ عظيم ناشيء عن الخلط وعدم التمييز بين الأحرف السبعة والقراءات.

وهذه القراءات السبع إنما عرفت واشتهرت في القرن الرابع، على يد الإمام المقرىء ابن مجاهد الذي اجتهد في تأليف كتاب يجمع فيه قراءات بعض الأئمة المبرزين في القراءة، فاتفق له أن جاءت هذه القراءات سبعة موافقة لعدد الأحرف، فلو كانت الأحرف السبعة هي القراءات السبع، لكان معنى ذلك أن يكون فهم أحاديث الأحرف السبعة، بل العمل بها أيضاً متوقفاً حتى يأتي ابن مجاهد ويخرجها للناس...

وقد كثر تنبيه العلماء في مختلف العصور على التفريق بين القراءات السبع والأحرف السبعة، والتحذير من الخلط بينهما.

د- حقيقة الأحرف السبعة:

ذهب بعض العلماء إلى استخراج الأحرف السبعة بإستقراء أوجه الخلاف الواردة في قراءات القرآن كلها صحيحها وسقيمها، ثم تصنيف هذه الأوجه إلى سبعة أصناف، بينما عمد آخرون إلى التماس الأحرف السبعة في لغات العرب ، فَتكوّن بذلك مذهبان رئيسيان، نذكر نموذجاً عن كل منهما فيما يلي:

المذهب الأول: مذهب استقراء أوجه الخلاف في لغات العرب، وفي القراءات كلها ثم تصنيفها، وقد تعرض هذا المذهب للتنقيح على يد أنصاره الذين تتابعوا عليه، ونكتفي بأهم تنقيح وتصنيف لها فيما نرى، وهو تصنيف الإمام أبي الفضل عبد الرحمن الرازي، حيث قال:... إن كل حرف من الأحرف السبعة المنزلة جنس ذو نوع من الاختلاف.

أحدها: اختلاف أوزان الأسماء من الواحدة، والتثنية، والجموع، والتذكير، والمبالغة. ومن أمثلته: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴾، [المؤمنون: ٨]، وقرئ ﴿ لِأَمَـٰنَتِهِمۡ ﴾ بالإفراد.

ثانيها: اختلاف تصريف الأفعال وما يسند إليه، نحو الماضي والمستقبل، والأمر، وأن يسند إلى المذكر والمؤنث، والمتكلم والمخاطب، والفاعل، والمفعول به. ومن أمثلته: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩] بصيغة الدعاء، وقرئ: ﴿رَبُّنَا بَاعَدَ﴾ فعلا ماضيا.

ثالثها: وجوه الإعراب. ومن أمثلته: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢] قرئ بفتح الراء وضمها. وقوله ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥] برفع ﴿الْمَجِيدُ﴾ وجره.

رابعها: الزيادة والنقص، مثل: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ [الليل: ٣] قرىء ﴿الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾.

خامسها: التقديم والتأخير، مثل، ﴿فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١] وقرئ: ﴿فَيُقْتَلونَ ويَقْتُلُون﴾ ومثل: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ﴾، قرئ: ﴿وجاءت سكرة الحق بالموت﴾.

سادسها: القلب والإبدال في كلمة بأخرى، أو حرف بآخر، مثل: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] بالزاي، وقرئ: {ننشرها} بالراء.

سابعها: اختلاف اللغات: مثل ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [النازعات: ١٥] بالفتح و الإمالة في: ﴿أتى﴾ و ﴿موسى﴾ وغير ذلك من ترقيق وتفخيم وإدغام...

فهذا التأويل مما جمع شواذ القراءات ومشاهيرها ومناسيخها على موافقة الرسم ومخالفته، وكذلك سائر الكلام لا ينفك اختلافه من هذه الأجناس السبعة المتنوعة.

المذهب الثاني: أن المراد بالأحرف السبعة لغات من لغات قبائل العرب الفصيحة.

وذلك لأن المعنى الأصلي للحرف هو اللغة ، فأنزل القرآن على سبع لغات مراعيا ما بينها من الفوارق التي لم يألفها بعض العرب،فأنزل الله القرآن بما يألف ويعرف هؤلاء وهؤلاء من أصحاب اللغات، حتى نزل في القرآن من القراءات ما يسهل على جلّ العرب إن لم يكن كلهم، وبذلك كان القرآن نازلا بلسان قريش والعرب.

فهذان المذهبان أقوى ما قيل، وأرجح ما قيل في بيان المراد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم. غير أنا نرى أن المذهب الثاني أرجح وأقوى.

٢- القراءات السبع:

أ-تعريف القراءة:

لغة: مصدر لـ: قرأ.

واصطلاحا: مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القراء، مخالفا به غيره في النطق بالقرآن الكـريم مـع اتفاق الروايات والطرق عنه، سواء أكانت هذه المخالفة في نطق الحروف أم في نطق هيئاتها.

هـذا التعـريف يعـرف القراءة من حيث نسبتها للأمام المقرئ كما ذكرنا من قبل، أما الأصل في القراءات فهو النقل بالإسناد المتواتر إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

والمقـرئ: هـو العـالم بالقـراءات ، التي رواها مشافهة بالتلقي عن أهلها إلى أن يبلغ النبي صلى الله عليه وسلم.

ب-ضابط القراءة المقبولة:

لقد ضبط علماء القراءات القراءة المقبولة بقاعدة مشهورة متفق عليها بينهم ، وهي:

كـل قـراءة وافقـت العـربية ولـو بوجه، ووافقت رسم أحد المصاحف ولو احتمالا، وتواتر سندها، فهي القراءة الصحيحة.

يتبين من هذا الضابط ثلاثة شروط هي:

الشرط الأول: موافقة العربية ولو بوجه:

ومعنـى هـذا الشرط أن تكون القراءة موافقة لوجه من وجوه النحو، ولو كان مختلفا فـيه اخـتلافا لا يـضر مثله، فلا يصح مثلا الاعتراض على قراءة حمزة. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١] بجر الأرحام.

الشرط الثاني: موافقة خط أحد المصاحف ولو احتمالا:

وذلـك أن النطق بالكلمة قد يوافق رسم المصحف تحقيقا إذا كان مطابقاً للمكتوب، وقـد يوافقه احتمالاً أو تقديراً باعتبار ما عرفنا أن رسم المصحف له أصول خاصة تسمح بقراءته على أكثر من وجه.

مثال ذلك: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ رسمت {ملك} بدون ألف في جميع المصاحف،

فمن قرأ: (ملك يوم الدين) بدون ألف فهو موافق للرسم تحقيقياً، ومن قرأ: {مالك} فهو موافق تقديراً، لحذف هذه الألف من الخط اختصاراً.

الشرط الثالث: تواتر السند:

وهـو أن تعلم القراءة من جهة راويها ومن جهة غيره ممن يبلغ عددهم التواتر في كل طبقة.

جـ- أنواع القراءات حسب أسانيدها:

لقد قسم علماء القراءة القراءات بحسب أسانيدها إلى ستة أقسام:

الأول: المتواتـر: وهـو مـا نقلـه جمع غفير لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم إلى منتهـى السند، وهذا النوع يشمل القراءات العشر المتواترات (التي سنعددها في المبحث التالي).

الـثاني: المـشهور: وهو ما صح سنده ولم يخالف الرسم ولا اللغة واشتهر عند القراء: فلم يعـدوه من الغلط ولا من الشذوذ، وهذا لا تصح القراءة به، ولا يجوز رده، ولا يحل إنكاره.

الثالث: الآحاد: وهو ما صح سنده وخالف الرسم أو العربية، أو لم يشتهر الاشتهار المذكور، وهذا لا يجوز القراءة. مثل ما روى على ((رفارف حضر وعباقري حسان))، والصواب الذي عليه القراءة: ﴿ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ [الرحمن: ٧٦].

الـرابع: الـشاذ: وهـو مـا لم يـصح سنده ولو وافق رسم المصحف والعربية، مثل قراءة: ((مَلَكَ يومَ الدين))، بصيغة الماضي في ((ملك)) ونصب ((يوم)) مفعولاً.

الخامس: الموضوع: وهو المختلق المكذوب.

السادس: ما يشبه المدرج من أنواع الحديث، وهو ما زيد في القراءة على وجه التفسير.

وهـذه الأنـواع الأربعـة الأخـيرة لا تحـل القـراءة بها، ويعاقب من قرأ بها على جهة التعبير.

د- القراءات المتواترة وقُرّاؤها:

مـن الـضروري والطبيعـي أن يشتهر في كل عصر جماعة من القراء، في كل طبقة من

طبقات الأمة، يتفقون في حفظ القرآن، وإتقان ضبط أدائه والتفرغ لتعليمه، من عصر الصحابة، ثم التابعين، وأتباعهم وهكذا ...

ولقد تجرد قوم للقراءة والأخذ، واعتنوا بضبط القراءة أتم عناية حتى صاروا في ذلك أئمة يقتدى بهم ويرحل إليهم، ويؤخذ عنهم. فكان بالمدينة: أبو جعفر يزيد بن القعقاع، ثم شيبة بن نصاح، ثم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم.

وكان بمكة: عبد الله بن كثير، وحميد بن قيس الأعرج، ومحمد بن مُحَيّص. وكان بالكوفة: يحيى بن وثاب، وعاصم بن أبي النَّجود الأسدي، وسليمان الأعمش، ثم حمزة ابن حبيب، ثم الكِسائي أبو علي بن حمزة.

وكان بالبصرة: عبد الله بن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر، وأبو عمرو بن العلاء، ثم عاصم الجحدري،ثم يعقوب الحضرمي.

وكان بالشام: عبد الله بن عامر، وعطية بن قيس الكلابي، وإسماعيل بن عبد الله بن المهاجر، ثم يحيى بن الحارث الذماري، ثم شريح بن زيد الحضرمي.

ثم جاء الإمام أحمد بن موسى بن العباس المشهور بابن مجاهد المتوفى سنة (٣٢٤هـ) فأفرد القراءات السبع المعروفة، فدونها في كتابه: " القراءات السبعة " فاحتلت مكانتها في التدوين، وأصبح علمها مفرداً يقصدها طلاب القراءات.

وقد بنى اختياره هذا على شروط عالية جداً، فلم يأخذ إلا عن الإمام الذي اشتهر بالضبط والأمانة، وطول العمر في ملازمة الإقراء، مع الاتفاق على الأخذ منه، والتلقي عنه ، فكان له من ذلك قراءات هؤلاء السبعة، وهم:

١. عبد الله بن كثير الداري المكي، (٤٥-١٢٠ هـ).
٢. عبد الله بن عامر اليحصبي الشامي (٨-١٨ هـ).
٣. عاصم بن أبي النَّجود الأسدي الكوفي، المتوفى سنة (١٢٧هـ).
٤. أبو عمرو بن العلاء البصري، (٧٠-١٥٤ هـ).
٥. حمزة بن حبيب الزيات الكوفي، (٨-١٥٦ هـ).
٦. نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني، المتوفى سنة (١٦٩هـ).

٧. أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي النحوي الكوفي، المتوفى سنة (١٨٩هـ).

وقد علمت من مسرد أئمة الأمصار الإسلامية القراء أن القراءات أكثر من ذلك بكثير، لكن ابن مجاهد جمع هذه السبع لشروطه التي راعاها. وقد تابع العلماء البحث لتحديد القراءات المتواترة، حتى استقر الاعتماد العلمي، واشتهر على زيادة ثلاث قراءات أخرى ، أضيفت إلى السبع، فأصبح مجموع المتواتر من القراءات عشر قراءات، وهذه القراءات الثلاث هي قراءات هؤلاء الأئمة:

٨. أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدني، المتوفى سنة (١٣٠هـ).

٩. يعقوب بن إسحاق الحضرمي الكوفي، المتوفى سنة (٢٠٥هـ).

١٠. خلف بن هشام، المتوفى سنة (٢٢٩ هـ).

هـ - أهمية الأحرف السبعة والقراءات:

إن الأحرف السبعة والقراءات ظاهرة هامة جاء بها القرآن الكريم من نواح لغوية وعلمية متعددة، نوجز طائفة منها فيما يلي:

١ - زيادة فوائد جديدة في تنزيل القرآن:

ذلك أن تعدد التلاوة من قراءة إلى أخرى، ومن حرف لآخر قد تفيد معنى جديداً، مع الإيجاز بكون الآية واحدة.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في آية الوضوء: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾ [المائدة: ٦]، قرىء: {وأرجِلَكم} بالنصب عطفاً على المغسولات السابقة، فأفاد وجوب غسل القدمين في الوضوء، وقرىء بالجر، فقيل: هو جر على المجاورة، وقيل: هو بالجر لإفادة المسح على الخفين، وهو قول جيد.

٢- إظهار فضيلة الأمة الإسلامية وقرآنها:

وذلك أن كل كتاب تقدم كتابنا نزوله، فإنما نزل بلسان واحد، وأنزل كتابنا بألسن سبعة بأيها قرأ القارىء كان تالياً لما أنزله الله تعالى.

٣- الإعجاز وإثبات الوحي:

فالقرآن الكريم كتاب هداية يحمل دعوتها إلى العالم، وهو كتاب إعجاز يتحدى ببيانه

هـذا العـالم ، فـبرهن بمعجـزة بـيانه عـن حقـية دعـوته، ونـزول القـرآن بهذه الأحرف والقـراءات تأكـيد لهـذا الإعجاز، والبرهان على أنه وحي السماء لهداية أهل الأرض من أوجه هذه الدلالة:

إن هـذه الأحـرف والقـراءات العديـدة يؤيد بعضها بعضاً من غير تناقض في المعاني والدلائل، ولا تناف في الأحكام والأوامر، فلا يخفى ما في إنزال القرآن على سبعة أحرف من عظيم البرهان وواضح الدلالة.

إن نظـم القـرآن المعجـز، والـبالغ من الدقة غايتها في اختيار مفرداته وتتابع سردها، وجملـة وإحكـام تـرابطها، وتـناغمه الموسيقي المعبر يجري عليه كل ما عرفنا من الأوجه الـسابقة في الأحـرف والقـراءات ثـم يبقـى حـيث هو في سماء الإعجاز، لا يعتل بأفواه قارئـيه، ولا يختـل بـآذان سـامعيه، منزها أن يطرأ على كلامه الضعف أو الركاكة، أو أن يعرض له خلل أو نشاز.

النوع الثامن: أحكام تجويد القرآن:

أ- التجويد: غايته وحكمه وطرق تلقيه ومراتبه:

- **علم التجويد:** علم يعرف به كيفية النطق بالكلمات القرآنية.

وتجويد الحروف هو الإتيان بها جيدة اللفظ تطابق أجود نطق لها وهو نطق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- **غاية علم التجويد:** بلوغ الإتقان في تلاوة القرآن. أو هو: صون اللسان عن اللحن في تلاوة القرآن.

- **حقـيقة علم التجويد:** إعطاء كل حرف حقه ومستحقه في النطق، وإتقان الحروف وتحسينها وخلوها من الزيادة والنقص والرداءة.

- **حكم تعلّم التجويد:** فرض كفاية على المسلمين، إذا قام به البعض سقط عن الكل.

- **حكم العمل به:** فرض عين على كل مسلم ومسلمة من المكلفين عند تلاوة القرآن.

- **طريقة أخذ علم التجويد على نوعين :**

١. أن يسمع الآخذ من الشيخ، وهي طريقة المتقدمين.

٢. أن يقرأ الآخذ في حضرة الشيخ وهو يسمع له ويصحح.

والأفضل الجمع بين الطريقتين.

- **مراتب القراءة الصحيحة:**

١ - **التحقيق:**

لغة: هو المبالغة في الإتيان بالشيء على حقيقته من غير زيادة فيه ولا نقص عنه، فهو بلوغ حقيقة الشيء والوقوف على كنهه، والوصول إلى نهاية شأنه.

واصطلاحا: إعطاء الحروف حقها من إشباع المد وتحقيق الهمز وإتمام الحركات وتوفية الغنات وتفكيك الحروف وهو بيانها، وإخراج بعضها من بعض بالسكت والتؤدة، والوقف على الوقوف الجائزة والإتيان بالإظهار والإدغام على وجهه.

٢- **الحدر:**

لغة: مصدر من حَدَرَ يُحدر إذا أسرع، أو هو من الحدر الذي هو الهبوط، لأن الإسراع من لازمه.

واصطلاحا: إدراج القراءة وسرعتها مع مراعاة أحكام التجويد من إظهار وإدغام وقصر ومد، ومخارج وصفات.

٣- التدوير: فهو عبارة عن التوسط بين مرتبتي التحقيق والحدر.

٤- الترتيل: لغة: مصدر من رتل فلان كلامه، إذا أتبع بعضه بعضا على مكث وتفهم من غير عجله.

واصطلاحا: هو قراءة القرآن بتمهل وتؤدة واطمئنان وإعطاء كل حرف حقه من المخارج والصفات والمدود.

ب- حكم الميم والنون المشدّدتين:

١. عند لفظ ميم مشددة ينبغي إظهار الغنة مقدار [1]مقدار حركتين [2] مثل: أمّا، ثمَّ، عمّ، أمّن.

(١) الغنة : صوت خفيف يخرج من الأنف لا عمل للسان به .

(٢) الحركة : هي الوحدة القياسية لتقدير زمن المد والغنة، أو مقدار طيّ اليد وفتحها .

٢. عند لفظ نون مشددة ينبغي إظهار الغنة مقدار حركتين مثل: إنّ، إنّا، ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

جـ- أحكام النون الساكنة والتنوين:

١- الإظهار الحلقي:

- الإظهار: هو إخراج الحرف الساكن من مخرجه من غير وقف ولا سكت ولا تشديد.

- حروفه: الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء، وهي مجموعة في أوائل الكلمات

التالية: (أخي هاك علماً حازهُ غير خاسر). وتسمى هذه الحروف حروف الحلق، لأن مخرجها هو الحلق، ولذا سمي الحكم: الإظهار الحلقي.

طريقة النطق: نظهر النون الساكنة أو التنوين قبل:(الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء).

مثاله :

١. ن+ أ : {مِنْ آيَاتِنَا}، {مَنْ أَرَادَ}، {مَرَّةً أُخْرَى}، {مِلْحٌ أُجَاجٌ}.

٢. ن + هـ: {عَنْهُمْ}، {مِنْهُمْ}، {إِنْ هُمْ}.

٣. ن + ع: {إِنْ عُدْنا}، {أَنْعَمْتَ}، {يومٌ عَسِيرٌ}، {إثْماً عَظِيماً}.

٤. ن + ح: {منْ حَوْلِهِمْ}، {شَيءٌ حَفيظٌ} ، {أُسْوَةٌ حَسَنَة}.

٥. ن + غ: {مِنْ غَيْرِ}، {عملٌ غَيْر صالِح}، {منْ عذابٍ غَليظ}.

٦. ن + خ: {مَنْ خَلَقَ}، {كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ}.

٢- الإدغام: هو دمج النون الساكنة أو التنوين بحرف من حروف الإدغام بحيث يصيران حرفاً واحداً مشدداً، هو حرف الإدغام. حروف إدغام النون ستة: تجمعها كلمة (يرملون).

ينقسم الإدغام إلى قسمين :

القسم الأول: الإدغام بغنة: يكون عند التقاء النون الساكنة أو التنوين عند أحرف

كلمة : (ينمو).

كيفيته: أن تدغم النون فلا تقرأ، بل يشدد الحرف الذي يليها، وتظهر الغنة على هذا الحرف المشدد مقدار حركتين . مثاله:

١. ن + ي: {إِنْ يَرَوْا} ، {فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ} وتقرآن: " أيّروا " ، " فِئَتينْصرونه " .

٢. ن + و: {مِنْ وَالٍ}، {إِيمَانًا وَهُمْ} وتقرآن: " مِوَّال "،" إيمانَوَّهم".

٣. ن + م: {مِنْ مَاءٍ}، {صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} وتقرآن: " مِمَّاء " ، " صراطمّسْتقيماً ".

٤. ن + ن: {إِنْ نَحْنُ}، {مَلِكًا نُقَاتِلْ} وتقرآن: " إنَّحن "، "مَلِكنُّقاتل " .

ملاحظة: إذا وقع حرف الإدغام بعد النون الساكنة في كلمة واحدة، فلا يصح الإدغام، بل يجب إظهار النون الساكنة وقد وقع ذلك في القرآن بأربع كلمات هي: {دُنْيا}، {قنْوان} ، {بُنْيان}، {صِنْوان}.

ملاحظة: في موضعين من القرآن الكريم تظهر النون الساكنة عند الواو ولا تدغم بها وهما: {يس والقُرآنِ الحَكيم} تقرأ: "ياسين والقرآن الحكيم" . {ن والقلم} تقرأ: "نونْ والقلم" .

القسم الثاني: الإدغام بلا غنة: يكون عندما تقع النون الساكنة أو التنوين قبل حرف اللام والراء مثاله:

١. ن+ ل: {أَنْ لَوْ} فتقرأ : " الّو " {أَنْداداً لِّيُضِلُّوا} فتقرأ: " أندادَ لِّيضلوا " .

٢. ن + ر: {مِنْ رَب} فتقرأ : " مِرَّب ". {بشر رسولاً} فتقرأ: "بَشَرَ رَّسولاً".

٣- الإقلاب: هو قلب النون الساكنة أو التنوين ميماً قبل الباء مع مراعاة الغنة.

حرفة: الباء

كيفيته: عند ورود نون ساكنة أو تنوين وبعدهما باء، سواء في كلمة واحدة أو كلمتين، تقرأ النون ميماً، يبقى صوت الغنة على الميم مقدار حركتين.

مثاله:

١. {من بعد} تقرأ : " مِمْبعد ".

٢. {بسلطان مبين} : تقرأ: " بسلطنمبين ".

٣. {سميعٌ بصير}: تقرأ: " سميعمبصير ".

٤. {بشراً مبين}: " تقرأ: " بشرمبين ".

٥. {لينبذن}: تقرأ: " ليمبَذنّ ".

٦. {أنبآء}: تقرأ: " أمباء ".

٤- الإخفاء: هو حالة بين الإظهار والإدغام عار عن التشديد مع بقاء الغنة في الحرف الأول.

حروفه: سائر حروف الهجاء عدا حروف الإظهار، والإدغام، وحرف الإقلاب وهي مجموعة في أوائل البيت التالي:

صِفْ ذَا ثَنَا كَمْ جَاء شخصٌ قد سَمَا دم طيباً زدْ في تقى ضعْ ظالماً.

كيفيته: عند ورود حرف الإخفاء بعد النون الساكنة أو التنوين تلفظ النون مسموعة من الأنف ولا تشدد، ولا يشدد حرف الإخفاء الذي يليها .

ويكون الإخفاء في كلمة أو كلمتين مثاله:

١. ص: {انْصُرْنا}، {ولمن صَبَرَ}، {بريح صَرْصَر}، {ونخيلٌ صِوان}.

٢. ذ: {منذ}، {من ذا}، {وكيلاً ذريةً}، {ظل ذي}.

٣. ث: {الأنثى}، {أن ثبتناك}، {شهيداً ثم}، {نطفةٍ ثم}.

٤. ك: {فانكحوا}، {وإنْ كانت}، {علواً كبيراً}، {شيءٍ كذلك}.

٥. ج: {أنجيناه}، {من جاء}، {رُطباً جنياً}، {فصبرٌ جميل}.

٦. ش: {أنشره}، {ممن شهد}، {جباراً شقياً}، {ركنٍ شديد}.

٧. ق: {تنقمون}، {من قبل}، {رزقاً قالوا}، {عذابٌ قريب}.

٨. س: {الإنسان}، {ولئن سألتهم}، {قولاً سديداً}، {فوجٌ سألهم}.

٩. د: {أنداداً}، {وما من دابة}، {كأساً دهاقاً}، {يومئذ دُبُره}.

١٠. ط: {انطلقوا}، {من طيبات}، {حلالاً طيباً}، {كلمة طيبة}.

١١. ز: {أنزل}، {فإن زللتم}، {نفساً زكية}، {يومئذ رزقاً}.

١٢. ف: {ينفقون}، {فإن فاؤوا}، {عاقراً فهب}، {لاتيةٌ فاصفح}.

١٣. ت: {أنت}، {وان تصبروا}، {حلية تلبسونها}، {يومئذ تُعرضون}.

١٤. ض: {منضود}، {ومن ضل}، {قوماً ضالين}، {قوةٍ ضعفاً}.

١٥. ظ: {انظروا}، {من ظهير}، {ظلاً ظليلاً}، {سحابٌ ظلمات}.

ملاحظتان:

١ - عند إجراء عملية الإخفاء نحاول أن نُخرج الإخفاء من مخرج الحرف الذي يلي النون الساكنة أو التنوين. ومعرفة مخرج الحرف تكون بوضع الهمزة قبل هذا الحرف وتسكين الحرف. مثال: أصْ، أذْ، أثْ، أكْ، أجْ، أشْ ، أقْ ، أسْ ، أدْ، أطْ، أزْ، أفْ، أتْ، أضْ، أظْ.

٢ - يأخذ الإخفاء صفة الحرف الذي يلي النون الساكنة، يعني هذا أن الإخفاء يكون مفخما إذا كان الحرف الذي يلي النون الساكنة أو التنوين مفخماً. مثاله: {من طيبات}.

وإذا كان الحرف الذي يلي النون الساكنة أو التنوين مرققاً، فعندئذ يكون الإخفاء مرققا. مثاله: {من ذا الذي}.

د- أحكام الميم الساكنة.

١ - الإخفاء الشفوي: هو أن تأتي الميم الساكنة في آخر الكلمة، ويأتي بعدها حرف الباء، فعندئذ تخفى الميم الساكنة بالباء مع بقاء الغنة.

مثاله: {وهمْ بالآخرة}، {ترميهمْ بحجارة}، {أنتمْ به}.

٢ - الإدغام الشفوي: هو أن تأتي آخر الكلمة ميم ساكنة وتأتي بعدها ميما متحركة، فعندئذ تدغم الميم الساكنة بالمتحركة لتصبحا ميما واحدة مشددة تظهر عليها الغنة.

مثاله: {في قلوبهم مرض} تقرأ: " في قلوبهمّرض. "

{جاءكم من}، تقرأ: " جاءكمّن " .

{أزواجهم مثل} تقرأ: " أزواجهمّثل. "

٣ - الإظهار الشفوي: هو أن يأتي بعد حرف الميم الساكنة حروف الهجاء ما عدا الباء والميم في كلمة واحدة أو في كلمتين. ويكون أشد إظهاراً بعد الواو أو الفاء، لاتحاد مخرج الميم مع الواو، وقرب مخرجها مع الفاء.

مثاله: {ذلكم خير لكم}، {وإن كنتم على}، {ولكم فيها}، {عليهم ولا الضالين}، {عليهم فيها}، {ذلكم حكم}.

هـ- الإدغام.

١- إدغام المتماثلين: إذا التقى حرفان متماثلان أولهما ساكن والثاني متحرك أدغم الأول في الثاني.

مثاله: {ما لكم من}، {من نزّل}، {بل لا}، {ما كانت تعبد}، {اضرب بعصاك}. {اذهب بكتابي}، {يدرككم}، {إذْ ذَهَبَ}.

ملاحظات:

١- يجوز الإدغام والإظهار مع السكت.

والإظهار أرجح في قوله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة: ٢٨-٢٩] فتقرأ على الإدغام " ما لِيهّلَكَ " أو تظهر {ماليهْ * هلك} ويوقف على الهاء الأولى وقفة خفيفة من غير قطع نفس.

٢- إذا كان الحرف الأول واواً أو ياءً وبعدهما مثلهما متحركان فلا إدغام فيهما.

مثاله: {آمنوا وعملوا}، {الذي يوسوس}.

٣- وأما إذا كان الأول حرف لين، فيدغم في المماثل.

مثاله: {والذين آووا ونصروا} فتقرأ: "آوَوّ نصروا".

٢- إدغام المتجانسين: ويكون عندما يتفق الحرفان مخرجا - المخرج : هو محل خروج الحرف عند النطق به. ويختلفان صفة، ويكون في الأحرف التالية:

أ- التاء الساكنة: تدغم التاء الساكنة- بلا غنة- في موضعين: إذا جاء بعدها دال أو طاء.

١. ت+ د {أثقلت دعوا} تقرأ: " أثقلَتْدَّعَوا." {أجيبتْ دعوتكما} تقرأ: " أُجيبَدَّعوتكما"

٢. ت+ ط: {همت طائفتان} تقرأ: هَمّطَّائفتان". {قالت طائفة} تقرأ: قالَطَّائفة".

ب- الدال الساكنة: تدغم الدال الساكنة -بلا غنة - إذا جاء بعدها تاء.

مثاله:

١- د+ ت: {قدْ تبَين} تقرأ: " قَتَّبين ". و{ومَهّدْتُ} تقرأ: " ومَهّتّ. {لقد كِدْت} تقرأ: " لقدْكِتَّ "

جـ- الباء الساكنة: تدغم الباء الساكنة في الميم بعدها مع مراعاة الغنة في مكان واحد في القرآن هو: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢] تقرأ: " اركمّعنا ".

د- الذال الساكنة: تدغم الذال الساكنة - بلا غنة - إذا جاء بعدها حرف الظاء:

مثاله:

١- ذ + ظ: {إذ ظلمتم} تقرأ " إظَّلَمْتم ".

هـ - الثاء الساكنة: تدغم الثاء الساكنة - بلا غنة - إذا جاء بعدها حرف الذال.

مثاله:

١- ث + ذ: {يلهثْ ذلك} تقرأ: " يلهَذَّلك ".

و- الطاء الساكنة: تدغم الطاء الساكنة - بلا غنة - إذا جاء بعدها تاء.

مثاله:

١- ط+ ت: {أحطّت} تقرأ: " أحَتُّ ". {بسطت}. تقرأ: " بسَتّ " {فرطتم} تقرأ: " فرَتّم ".

ملاحظة: تبقى في هذه الحالة صفة التفخيم للطاء المدغمة ومن أجل ذلك يسمى إدغاماً ناقصاً.

٣- إدغام المتقاربين: إذا تقارب الحرفان مخرجاً وصفة، وكان الأول منهما ساكناً، وجب إدغامه في الثاني - بلا غنة - وذلك في حالتين:

اللام في الراء: مثل: {قلْ رب} تقرأ: " قُرَّب "

القاف مع الكاف: مثل: {ألمْ نخلقْكُم} تقرأ: " نَخْلُكّمْ ". يجوز في هذه الحالة إبقاء صفة تفخيم القاف فيكون الإدغام ناقصاً أو حذف هذه الصفة ويكون الإدغام كاملاً.

وتظهر جميع الأحرف الساكنة التي لم ترد لها أحكام خاصة عند بعضها البعض، وينبغي الانتباه إلى إظهار ما يلي:

الضاد الساكنة عند الطاء في نحو: {ممن اضطر}.

الضاد الساكنة عند التاء في نحو: {فإذا أفضتم}.

الظاء الساكنة عند التاء في نحو: {سواءٌ علينا أوَعظت}.

الدال الساكنة عند الكاف، نحو: {لقدْ كدت}.

حكم لام ال التعريف:

لـلام التعـريف الداخلـة عـلى الأسـماء حكـمان أولهـما وجب الإظهار قبل الأحرف القمـرية المجمـوعة في قـولهم: "ابغِ حجك وخف عقيمه" والثاني وجوب الإدغام قبل الأحرف الشمسية والتي هي في أوائل كلمات هذا البيت:

طب ثم صل رحماً تفز صف ذا نعم دع سوء ظن زر شريفاً للكرم

و- المدود

المد: هو إطالة زمن جريان الصوت بحرف المد.

حروف المد ثلاثة:

الألف الساكنة المفتوح ما قبلهاَ: ا.

الواو الساكنة المضموم ما قبلها: ُو.

الياء الساكنة المكسور ما قبلها: ي.

وهذه الحروف الثلاثة متضمنة في كلمة واحدة هي:

نوحيها.

أ - أقسام المد:

١- **المد الطبيعي أو الأصلي**: هو ما لا تقوم ذات الحرف إلا به، ولا يتوقف على سبب همـز بعـده أو سكون، مثاله: نوحيها. ومقدار مده حركتان، ولا يجوز الزيادة أو النقصان عن الحركتين.

٢- **المـد الفرعـي**: هو ما زاد على المد الأصلي، ويكون بسبب اجتماع حرف المد بهمز بعده أو سكون.

فالهمـز والـسكون سـببان للمد الفرعي، فعليه يكون المد الفرعي نوعان: مد بسبب الهمز، ومد بسبب السكون.

١ - المد بسبب الهمز:

أ- إن كـان الهمـز قـبل حرف المد فيسمى مد البدل: وسمي بدلاً لأن حرف المد فيه

بُدل من الهمزة الساكنة.

مثاله: {ءامنوا}، {أيماناً}، {أُوتوا}.

ب- إن كان الهمز بعد حرف المد: فهو نوعان:

المد المتصل: هو أن يأتي حرف المد والهمز بعده في كلمة واحدة ويسمى المد الواجب المتصل. ويمد خمس حركات.

مثاله: {إذا جآءَ نصر الله والفتح}، {وأحاطت به خطيئته}، {سُوءَ العذاب}.

المد المنفصل: هو أن يأتي حرف المد في آخر كلمة، والهمز بعده في كلمة أخرى تليها، ويسمى المد الجائز. ويمد خمس حركات، ونستطيع أن نقصره إلى حركتين.

مثاله: {يا أيها}، {الذي أنزل}، {توبوا إلى الله}.

ملاحظة: يمنع مد الألف في كلمة (أنا) حيثما وجد إلا في حالة الوقف، نحو: {قال أنا أحي وأميت}، {وأنا أعلم}.

٢- المد بسبب السكون: وهو نوعان:

أ- سكون عارض: وهو أن يكون الحرف قبل الأخير من الكلمة حرف مد، والحرف الأخير متحرك، فإن درجنا الكلام ووصلنا الكلمة بما بعدها كان المد طبيعياً، وإن وقفنا على الحرف الأخير بالسكون صار المد الذي قبل الحرف الأخير مداً بسبب السكون العارض ويسمى: مداً عارضاً للسكون. يمد ست حركات، أو أربع، أو حركتان .

مثاله: {إن الله شديد العقاب}، {قد أفلح المؤمنون}. {الحمد لله رب العالمين}.

ب- سكون لازم: وهو أن يأتي بعد الحرف المد سكون لازم وصلاً ووقفاً في كلمة واحدة، ومقدار مده ست حركات. وهو نوعان:

١- **كلمي**: وهو أن يأتي بعد حرف المد حرف ساكن في كلمة، فإن أدغم (أي كان الحرف الذي بعد المد مشدداً) فيسمى مثقلاً.

نحو: {ولا الضآلّين}، {الحآقّة}، {دابّة}.

ويلحق به مد الفرق، وهو عندما تدخل همزة الاستفهام على اسم معرف ب : "ال" التعريف، تبدل ألف "ال" التعريف، ألفاً مدية ليفرق بين الاستفهام والخبر.

مثاله:

{آلذَّكـرين}، {قـل ءآللهُ أذِنَ لكـم}، {ءآللهُ خيرٌ أمّا تشركون} وإن لم يدغم (أي إن

كان الحرف الذي بعد المد ساكناً غير مشدَّد) فيسمى مخففاً.

مثاله: {آلآن وقد}.

٢-الحرفي: يوجد في فواتح بعض السور، في الحرف الذي هجاؤه ثلاث أحرف أوسطها حرف مد والثالث ساكن. وحروفه مجموعة في: {بل كم نَقص} فإن أدغم سمي مثقلاً. مثاله: {آلم}، {المر}، {طسم}.

وإن لم يدغم سمي مخففاً. مثاله: {ن والقلم}، {ق والقرآن}، {المص}.

ملاحظة: حرف العين في فواتح السور يجوز أن يمد ست حركات، ويجوز أن يمد أربع حركات لأن الياء فيه ليست مدية بل هي حرف لين.

ب- لواحق المد

١- **مد العِوض**: ويكون عند الوقف على التنوين المنصوب في آخر الكلمة، فيقرأ ألفاً عوضاً عن التنوين، ويمد مقدار حركتين، وإذا لم يوقف عليه فلا يمد.

مثاله: {أجراً عظيماً}، {عفواً غفوراً}، {إلا قليلاً}.

يشترط في هذا المد أن يكون الحرف المنوّن غير التاء المربوطة والألف المقصورة.

٢- **مد التمكين**: هو ياءان أولاهما مشددة مكسورة والثانية ساكنة، وسمي مد تمكين لأنه يخرج متمكناً بسبب الشدة، ويمد مقدار حركتين.

مثاله: {حُييتم}، {النبيين}.

٣- **مد اللين**: وهو مد حرفي المد: الياء والواو الساكنتان، المفتوح ما قبلها، والساكن ما

بعدها سكوناً عارضاً في حالة الوقف. ويمد حركتين أو أربع، أو ست.

مثاله: {قريش}، {عليه}، {البيت}، {خوف}.

٤- **مد الصلة**: وينقسم إلى كبرى وصغرى:

أ- **مد الصلة الكبرى**: وهو مد هاء الضمير الغائب المفرد المذكر مضمومة أو مكسوره الواقعة بين متحركين (أي أن الحرف الذي قبلها من نفس الكلمة كان متحركاً والحرف الذي بعدها من الكلمة التي تليها كان متحركاً أيضاً) تشبع ضمه الهاء ليتولد عنها واو مدية أو تشبع كسرة الهاء ليتولد عنها ياء مدية، وتمد خمس حركات، ونستطيع أن نقصرها إلى حركتين كالمنفصل، وذلك إذا جاء بعدها همز.

مثاله: {وهو يحاوره أنا}، {وله أجر}، {به أحداً}.

ب- **مد الصلة الصغرى**: وهو مد هاء الضمير الغائب المفرد المذكر... وتمد مقدار حركتين إن لم يأتي بعدها همز.

مثاله: {أعذبه عذاباً}، {قلته فقد علمته}، {بكلمته ويقطع}.

ويستثنى منه فلا يمد: ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

ملاحظة: تقرأ: ﴿فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٩] بمد صلة على خلاف القياس مع أنها لم تقع بين متحركتين.

تنبيه: إذا اجتمع مدان من جنس واحد حالة القراءة وجب التسوية بينهما.

كان يجتمع المنفصل مع مثله أو مع مد الصلة الكبرى أما المد العارض للسكون أو اللين فلا تجب التسوية لا في العارض مع مثله ولا في اللين مع مثله ولا عند اجتماع العارض واللين.

مثاله:

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾.

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا﴾.

ملاحظات عامة:

١. أقوى المدود: اللازم، فالمتصل، فالعارض للسكون، فالمنفصل، فالبدل.

٢. إذا اجتمع سببان من أسباب المد قوي وضعيف، عمل بالقوي، نحو: {ولا آمّين}: مد بدل ومد لازم، فيعمل باللازم. ونحو: {وجاءوا أباهم}: بدل ومنفصل، فيعمل بالمنفصل.

٣. إذا وقع حرف المد في آخر الكلمة وأتى بعده حرف ساكن حذف حرف المد في الوصل نحو: {وقالوا اتخذ}، {لصالوا الجحيم}، {حاضري المسجد الحرام}.

ز- أحكام الراء.

ينبغي الاحتراز عن التكرير في لفظ الراء .

وكيفية الاحتراز عن التكرير بأن تلصق ظهر اللسان بأعلى الحنك لصقاً محكماً وتلفظ الراء مرة واحدة.

للراء عند اللفظ بها إحدى حالتين: الترقيق والتفخيم:

التفخيم: هو سِمَن يدخل على صوت الحرف حتى يمتلىء الفم بصداه

حروفه: (خُصّ ضَغْطٍ قِظْ) وتسمى أيضاً حروف الاستعلاء.

تفخم الراء في الحالات التالية:

إذا كانت مفتوحة أو مضمومة نحو: {رَبّنا}، {رُزقنا}.

إذا كانت ساكنة وقبلها فتح أو ضم (ولا عبرة للسكون الفاصل) نحو: {خردل}، {القّدْر}، {الأمُورْ}.

إذا كانت ساكنة وقبلها كسر عارض نحو: {ارْجِعوا إلى أبيكم}، {أمْ أرْتابوا}، {لِمَنْ ارتضى}.

إذا كانت ساكنة وقبلها كسر أصلي وبعدها حرف استعلاء غير مكسور في كلمة واحدة نحو: {مِرْصادا}، {قِرْطاس}، {فِرْقة}.

الترقيق: هو النطق بالحرف نحيفاً غير ممتلىء الفم بصداه.

حروفه: كل حروف الهجاء ما عدا حروف الاستعلاء، وتسمى حروفه أيضاً حروف الاستفال.

ترقق الراء في الحالات التالية:

إذا كانت مكسورة نحو {رِزقاً}.

إذا كانت ساكنة وقبلها ياء ساكنة نحو: {خيْر}، {قديْر}.

إذا كانت ساكنة وقبلها كسر (ولا عبرة للسكون الفاصل) وليس بعدها حرف استعلاء غير مكسور نحو: {أَنِذرهم}، {فِرْعون}، {مِريْة}، {السِّحْر}.

جواز الترقيق والتفخيم .

إذا سكنت الراء في آخر الكلمة وكان الساكن الفاصل بينهما وبين الكسر حرف مفخّم ساكن مثل {مِصْر} {قِطْر}.

إذا كانت الراء ساكنة وقبلها كسر أصلي وبعدها حرف استعلاء مكسور ففيها الوجهان مثل {فِرْقٍ}.

في حالة الوقف على هذه الكلمات: {فأسْرِ}، {أن أسرِ} حيثما وردت في القرآن. وكلمة {يَسْر}. وكلمة {وَنُذْر}.

ملاحظة: حروف الاستعلاء من حيث قوة التفخيم على الترتيب التالي: الطاء ،

فالـضاد، فالـصاد، فالظـاء، فالقـاف، فالغـين، وفالخـاء. وأقـوى تفخـيماً إذا كان حرف الاستعلاء مفتوحاً، بعده ألف نحو: {طائفة} ثم المفتوح وليس بعده ألف نحو: {طَبَعَ}، ثم المضموم نحو: {طُوبَا}، ثم المكسور نحو: {طِبتُم}.

حـ - صفات الحروف:

تعريف الصفة: ما قام بالحرف من صفات تميزه عن غيره كالجهر والشدة، وغير ذلك من الصفات اللازمة.

وتنقسم إلى قسمين:

الأول: الصفات التي لا ضد لها:

١- **الـصفير**: وهـو صـوت زائـد يـصاحب أحرفه الثلاثة، وسميت بالصفير لأنك تسمع لها صوتاً يشبه صفير الطائر. وحروفه ثلاثة: (ص، س، ز).

٢- **القلقلـة**: وهـو اضـطراب المخـرج عند النطق بالحرف ساكناً حتى يسمع له نبرة قـوية، والـسبب في هـذا الاضـطراب والتحريك شدة حروفها لما فيها من جهر وشدة، وحروفها: (قُطُبُ جَدٍ).

وأعـلى مـراتب القلقلـة الطاء، وأوسطها الجيم، وأدناها الباقي. ويجب بيانها في حالة الوقوف أكثر، وخاصة حالة الوقف على الحرف المشدد، نحو: {بالحقِّ}.

أمثلة:

{مريجْ}	{يجْعلون}
{بعيدْ}	{يَدْعون}
{واقْ}	{يَقْطعون}
{محيطْ}	{يَطْمعون}
{عذابْ}	{لَتُبلون}

٣- **اللـين**: وهـو إخـراج الحـرف في لـين وعـدم كلفة على اللسان نحو: {البيت}، {خوف}. وحروفه الواو والياء المفتوح ما قبلهما.

٤- **الانحراف**: وهو ميلان الحرف في مخرجه حتى يتصل بمخرج غيره، فميلان اللام يكون من طرف اللسان وميلان الراء يكون من ظهره وحروفه: اللام والراء.

٥- **التكريـر**: هـو ارتعـاد رأس اللسان عند النطق بالحرف، وتوصف الراء بالتكرير

لقابليتها له إذا كانت مشددة، ثم إن كانت ساكنة. وحرف التكرار هو الراء.

وينبغي تجنب تكرير الراء، بأن يلصق لافظها ظهر اللسان بأعلى الحنك لصقاً محكماً، بحيث تخرج الراء مرة واحدة ولا يرتعد اللسان بها.

٦- **التفشي**: حرفه الوحيد هو الشين.

ومعنى التفشي: انتشار خروج النفس بين اللسان والحنك وانبساطه في الخروج عند النطق بالحرف. ووصفت الشين بهذه الصفة لأنها تنبث وتنتشر في الفم عند النطق بها لرخاوتها.

٧- **الاستطالة**: حرفها الوحيد هو الضاد.

معنى الاستطالة: امتداد الصوت من أول حافة اللسان إلى آخرها.

وعند نطق "ا ض" ينطق اللسان على سقف الحنك تدريجياً من الأمام إلى الخلف، ويتخامد الصوت ويبقى جريانه يسمع متضائلاً مدة أقل من الحركتين بقليل، ويخرج من إحدى حافتي اللسان أو من كلتيهما معاً.

الثاني: الصفات التي لها ضد:

١- **الهمس والجهر**:

حروف الهمس عشر تجمعها جملة: فحثّه شخص سكت.

وحروف الجهر: باقي الحروف يجمعها: عَظُمَ وَزْن قارىء ذي غضّ جِدّ طَلَب.

معنى الهمس: جريان النّفَس عند النطق بالحرف لضعف الاعتماد على المخرج.

معنى الجهر: انحباس جريان النّفَس عند النطق بالحرف لقوة الاعتماد على المخرج.

٢- **الشدة والرخاوة**:

حروف الشدة: ثمانية تجمعها: أَجِدْ قَطٍ بَكَتْ.

حروف التوسط بين الشدة والرخاوة خمسة يجمعها قولهم: لِنْ عُمر، حروف الرخاوة: باقي الحروف وهي : ح، خ، ذ، ز، ث، س، ش، ا، ص، ض، و، غ، ف، هـ، ي.

ومعنى الشدة: انحباس جري الصوت عند النطق بالحرف.

ومعنى الرخاوة: جريان الصوت مع الحرف.

أما التوسط فلا ينحبس الصوت عند النطق بأحد حروفه كانحباسه في أحرف الشدة

ولا هو يجري كجريانه مع أحرف الرخاوة.

إذا انحصر صوت الحرف في مخرجه انحصاراً تاماً، فلا يجري جرياناً أصلاً ، سمي شديداً ، فإنك لو وقفت على قولك: " الحج " وجدت صوتك راكداً محصوراً. حتى لو أردت مد صوتك لم يمكنك.

وأما إذا جرى جرياناً تاماً ولم ينحصر أصلاً، فإنه يسمى رخواً كما في " الطش " . فإنك لو وقفت عليها وجدت صوت الشين جارياً تمده إن شئت.

وأما إذا لم يتم الانحصار ولا الجري فيكون متوسطاً بين الشدة والرخاوة كما في " الظل " فإنك لو وقفت عليه وجدت الصوت لا يجري مثل جري " الطش " ولا ينحصر مثل انحصار " الحج " بل يخرج على حد الاعتدال بينهما.

٣- الاستعلاء والاستفال:

حروف الاستعلاء سبعة، يجمعها قولهم: خُصَّ ضَغْطٍ قِظْ.

حروف الاستفال باقي الحروف، يجمعها قولهم: ثَبَتَ عِزّ مَّنْ يُجَوِّدْ حَرْفَهُ إذ سَلَّ شَكا.

معنى الاستعلاء: ارتفاع اللسان عند النطق بالحرف إلى الحنك الأعلى.

معنى الاستفال: انحطاط اللسان عند خروج الحرف إلى قاع الفم.

٤- الإطباق والانفتاح:

حروف الإطباق: ص، ض، ط، ظ.

حرف الانفتاح: باقي الحروف.

معنى الإطباق: هو إلصاق اللسان بالحنك الأعلى عند النطق بالحرف.

معنى الانفتاح: هو افتراق اللسان عن الحنك الأعلى، وعدم التصاقه به حال النطق بالحرف.

٥-الإذلاق والإصمات:

حروف الإذلاق: ستة مجموعة في قولهم: فر من لب.

حروف الإصمات: باقي حروف الهجاء.

وسميت حروف الذلاقة لسرعة النطق بها وخروجها من طرف اللسان.

وسميت حروف الإصمات بهذا لامتناع انفراد هذه الحروف أصولاً في الكلمات الرباعية أو الخماسية، فلا بد من وجود حرف أو أكثر من حروف الإذلاق في الكلمات

الرباعية أو الخماسية، فإن أنت لم تجد في كلمة رباعية الأصل أو خماسية حرف إذلاق فاحكم بأنها كلمة غير عربية.

ملاحظة: الصفات المتقدمة منها قوي ومنها ضعيف.

١- الصفات القوية: وهي: الجهر، والشدة، والاستعلاء، والاطباق، والاصمات، والصفير، والقلقلة، والتكرير، والانحراف، والتفشي، والاستطالة.

٢- الصفات الضعيفة: وهي: الهمس، والرخاوة، والاستفال،والانفتاح ،والاذلاق، واللين.

ط- أحكام متفرقة:

١- الروم: هو إضعاف الصوت بالحركة (الضمة أو الكسرة) حتى يذهب معظم صوتها، فيسمع لها صوت خفي يسمعه القريب المصغي دون البعيد، لأنها غير تامة.

٢- الاشمام: هو ضم الشفتين بُعَيْدَ الإسكان إشارة إلى الضم مع بعض انفراج بينهما ليخرج منه النفس، ولا يدرك لغير البصير. لأنه يسمع ولا يرى.

وتشم النون في قوله تعالى: {يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ} [يوسف: ١١] إشعارا بحذف حركة النون الأولى: تأمننا.

٣- السّكتات:

السكت هو قطع الصوت عند القراءة بدون تنفس مقدار حركتين. يجب السكت في أربعة مواضع على قراءة حفص:

١. قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا ...﴾ [الكهف: ١-٢].

٢. قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ [يس: ٥٢].

٣. قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ﴾ [القيامة :٢٧].

٤. قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

٥. وجاز في ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ۝٢٨ هَلَكَ﴾ الوجهان السكت والإدغام.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم:

أ) المصادر والمراجع:

١. أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، د. إبراهيم علي شعوط، الأستاذ بجامعة الأزهر، المكتب الإسلامي، ط/ ٥، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.
٢. الإتقان في علوم القرآن-٢ جزء-، الشيخ العلامة أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هجرية رحمه الله تعالى، دار الكتب العلمية، ط/ ١، بيروت – لبنان، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
٣. إتقان البرهان في علوم القرآن. د . فضل حسن عباس ط: الأولى. مطبعة دار الفرقان بعمان.
٤. أحجار على رقعة الشطرنج، وليم غاي كار، ترجمة سعيد جزائرلي، دار النفائس للطباعة والنشر.
٥. أزمة المثقفين تجاه الإسلام في العصر الحديث، د. محسن عبد الحميد، الطبعة الثالثة، مطبعة وزارة التربية، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
٦. الإسلام والتنمية البشرية، الدكتور أسامة عبد المجيد العاني، مطبعة أنوار دجلة، بغداد- العراق، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
٧. الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق، أ.د. كارم السيد غنيم، دار الفكر العربي، ط/ ١، القاهرة- مصر، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م .
٨. أصول الدعوة، د. عبد الكريم زيدان، دار الرشيد، بغداد، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م.
٩. أصول الفقه الإسلامي في نسيجه الجديد، الأستاذ المتمرس الدكتور مصطفى الزلمي، ط/ ٥، شركة الخنساء للطباعة المحدودة، بغداد- العراق، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
١٠. الإعجاز العلمي في القرآن والسنة(تأريخه وضوابطه)، عبد الله بن عبد العزيز

المصلح، ط / ١، هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة بمكة المكرمة، ١٤١٧هـ.
١١. الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالتها في القرآن الكريم، د. سليمان عمر قوش، الدوحة، قطر، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٦م.
١٢. الله جل جلاله، سعيد حوى، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان.
١٣. أنظمة رياضية في برمجة حروف القرآن الكريم، د. أحمد محمد إسماعيل، ط/ ١، بغداد، العراق، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.
١٤. البرد النضير لسونيتات شكسبير، الدكتور عبد الله مصطفى، الطبعة الأولى، دار الأنبار، بغداد، ١٩٩٧م.
١٥. البرهان في علوم القرآن -٤ أجزاء-، الإمام العلامة بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤ هجرية رحمه الله تعالى، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار الجيل، بيروت - لبنان، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
١٦. تاريخ الإسلام -٤أجزاء-، د.حسن ابراهيم حسن،دار الجيل ببيروت، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، ط/ ١٥، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
١٧. تأصيل الإعجاز العلمي للقرآن والسنة، الشيخ عبد المجيد الزنداني.
١٨. التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي، ط/ ٢، دار الكتب العلمية، طهران -إيران.
١٩. تفصيل النحاس والحديد في الكتاب المجيد، د. خالد العبيدي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.
٢٠. توحيد الخالق، عبد المجيد عزيز الزنداني، مكتبة المثنى، بغداد، ٣ أجزاء.
٢١. الجداول الجامعة في العلوم النافعة، جاسم بن محمد المهلهل الياسين و محمود بن عبد العزيز الفداغ ونبيل بن منصور بن يعقوب البصارة، ط/ ٢.
٢٢. الجواهر في تفسير القرآن، الأستاذ الشيخ طنطاوي جوهري، ٢٦ جزءاً، الطبعة الثانية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٥٠هـ.
٢٣. الدور الحضاري للأمة الإسلامية في عالم الغد، نخبة من الباحثين، إعداد مركز البحوث والدراسات بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي التاسع في دولة قطر، ط ١، جمادى الآخرة ١٤٢١هـ-أيلول ٢٠٠٠م.
٢٤. رحلة بين الحقيقة والخيال في سيرة ذي القرنين ويأجوج ومأجوج، د. عبد الستار

سمير الرجبو، دار الكتب للطباعة والنشر، بغداد، العراق، ١٩٩٥م.

٢٥. الرسول والعلم، الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي، دار الصحوة.

٢٦. سعيد النورسي رجل القدر في حياة أمة، ترجمة أورخان محمد علي، دار الرشيد، بغداد.

٢٧. **سلسلة ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية، د. خالد العبيدي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.**

٢٨. السيرة النبوية، أبو الحسن علي الحسني الندوي، دار ابن كثير، ط/ ١٢، دمشق- سوريا، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٢٩. الشريعة الإسلامية ومكانة المصلحة فيها، القاضي فاضل دولان، مطبعة أنوار دجلة، بغداد، العراق، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٣٠. شمس العرب تسطع على الغرب، المستشرقة الألمانية، زيغريد هونكه، نقله عن الألمانية، فاروق بيضون وكمال دسوقي، وراجعه ووضع حواشيه مارون عيسى الخوري، دار صادر، ط/ ١٠، بيروت -لبنان، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٣١. صِدَام الحضارات - إعادة صنع النظام العالمي، صامويل هنتجتن، ترجمة طلعت الشايب، دار الكتب المصرية، ١٩٩٨م.

٣٢. صراع الأفكار في المجتمع الإسلامي، د. محسن عبد الحميد، الطبعة الأولى، مطبعة وزارة التربية، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٣٣. صفوة البيان، محمد حسين مخلوف، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٦م.

٣٤. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ٣ أجزاء، دار القرآن الكريم، ط٢، بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٣٥. صناعة الحياة، د. محمد أحمد الراشد، دار المنطلق لنشر وتوزيع الكتب والقرطاسية، دبي، دولة الإمارات العربية المتحدة، ط/ ٢، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٣٦. الصورة الفنية في المثل القرآني، د. محمد حسين علي الصغير، دار الرشيد، بغداد.

٣٧. الطب النبوي، ابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق عبد الغني عبد الخالق.

٣٨. الظاهرة القرآنية والعقل، علاء المدرس، مطبعة العاني، بغداد، ط/ ١، ١٩٨٦م.

٣٩. علوم القرآن. منشورات جامعة القدس المفتوحة. ط : الأولى ١٩٩٣).

٤٠. علـوم الحـديث، د.عـبد الكـريم زيـدان/ عبد القهار داود عبد الله، مطبعة عصام، بغداد، ط/ ٢، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٨م.

٤١. العلوم الطبيعية في القرآن، يوسف مروه، دار مكتبة الهلال.

٤٢. علـوم القـرآن الكـريم، الأسـتاذ الشيخ عبد الرحيم فرغل البليني، تحقيق الدكتور رشيد نعمان التكريتي، طبع دار الرشد، بغداد، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٤٣. العلـوم المعـاصرة في خدمـة الداعـية المـسلم، مطابقـة الحقائـق العلمية مع الآيات القـرآنية، دكـتور محمـد جمـيل الحبال، ط/ ١، مطبعة الموصل، العراق، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٤٤. العـولمة والأقلمة، اتجاهان جديدان في السياسة العالمية، د.ريتشارد هيجوت، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط/ ١، ١٩٩٨م.

٤٥. في ظلال القرآن، ٦ أجزاء، لسيد قطب، دار الشروق، بيروت.

٤٦. القرآن محاولة لفهم عصري، مصطفى محمود، دار العودة.

٤٧. قصة الإيمان، الشيخ نديم الجسر مفتي طرابلس، مطبعة منير، بغداد، ١٩٨٣م.

٤٨. قـصص القرآن الكريم، د. أحمد الكبيسي، مجموعة شركات أرادم هولدنك التركية، إستانبول، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٤٩. **القوانين القرآنية للحضارات، د. خالد العبيدي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.**

٥٠. الكتاب المقدس، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٥١.

٥١. كـتاب المـنهاج، الـشيخ هاشـم محمـد، سلـسلة بعـدة أجزاء، دار البيان، الكويت، سنوات مختلفة.

٥٢. كـيف نتعامل مع القرآن الكريم، د. يوسف القرضاوي، سلسلة كتاب الجيب (٣)، المكتب الإسلامي، القاهرة.

٥٣. اللآلي الحسان، محمد بن عبد العزيز المسند، الجزء الثالث.

٥٤. اللآلـئ الحسان في علوم القرآن. تأليف د. موسى شاهين لاشين ط: الأولى. مطبعة دار التأليف بمصر.

٥٥. مباحث في علوم القرآن. د . صبحي الصالح: ط : العاشرة . دار العلم للملايين. بيروت.

٥٦. مباحث في علوم القرآن. مناع القطان. ط : الحادية عشرة . مطبعة المدني بمصر.

٥٧. المبشرات بانتصار الإسلام، د. يوسف القرضاوي، سلسلة رسائل ترشيد الصحوة (٩)، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ط١، عمان، الأردن، ١٤١٩هـ-١٩٩٦م.

٥٨. مجمع الأشتات (أربعة في كتاب)، الدكتور عبد الله مصطفى، الطبعة الأولى، مطابع التعليم العالي، بغداد، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

٥٩. مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم، د. عماد الدين خليل، مطبعة الزهراء الحديثة، ط/ ٢، الموصل، العراق، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٦٠. المستفاد من قصص القرآن، جزأين، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٦١. المصطلحات الأربعة في القرآن، أبو الأعلى المودودي، المطبعة الهاشمية، دمشق.

٦٢. مناهل العرفان في علوم القرآن. عبد العظيم الزرقاني. ط ٣ . مطبعة الحلبي وشركاه بمصر.

٦٣. المنظار الهندسي للقرآن الكريم، د. خالد العبيدي، ط١، دار المسيرة، عمان، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

٦٤. المنظار الهندسي للقرآن الكريم، د. خالد العبيدي، ط٢، دار المسيرة، عمان، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

٦٥. المنهج الحديث في العلوم الإنسانية، الدكتور فاروق السامرائي، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، أربد - الأردن، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٦٦. الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، أبي جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨هـ، رواية أبي بكر محمد بن علي بن أحمد الأدفوي النحوي، المكتبة العصرية، ط/ ١، ١٤٢٤ هـ-٢٠٠٣م.

٦٧. نظرات في تفسير القرآن الكريم، الدكتور محسن عبد الحميد، ط٢، شركة الرشد للطباعة والنشر، بغداد - العراق، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٦٨. نظرة علمية للكتب السماوية، د. فاروق الشيخ عبد الشيخ نجم العبدلي، شركة

الزاهر للطباعة، بغداد، العراق، ٢٠٠٠م.
٦٩. نظرتنا المعاصرة إلى الكون، د. طالب ناهي الخفاجي، دار الشهيد، بغداد.
٧٠. نقض الإلحاد، الأستاذ الدكتور هاني يحيى نصري، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط/ ١، بيروت-لبنان، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
٧١. هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، د. ماجد عرسان الكيلاني، الدار السعودية للنشر والتوزيع.
٧٢. واحات الإيمان، المجموعة الأولى والثانية، عبد الحميد البلالي، دار العودة.
٧٣. الوجيز في شرح القواعد الفقهية في الشريعة الإسلامية، الدكتور عبد الكريم زيدان، ط/ ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

ب) المعاجم والفهارس اللغوية:

١. قاموس المورد إنكليزي – عربي، منير البعلبكي، دار العلم للملايين،١٩٦٧.
٢. معجم تفسير كلمات القرآن، محمد عدنان سالم ومحمد وهبي سليمان، ط٢، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
٣. معجم اللغة العربية، مختار الصحاح، الإمام محمد أبو بكر بن عبد القادر الرازي، مكتبة النهضة، بغداد – ١٩٨٣م.
٤. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، ط/ ٢، بيروت، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.
٥. معجم تفسير كلمات القرآن، محمد عدنان سالم ومحمد وهبي سليمان، دار الفكر المعاصر، ط/ ٢، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
٦. المعجم الوجيز، طبعة دار التحرير، ١٩٨٩م.

جـ) البحوث والمؤتمرات:

١. الإعجاز القرآني، المؤتمر الأول للإعجاز القرآني الأول المنعقد بمدينة السلام بغداد للفترة ٢١-٢٦ رمضان ١٤١٠هـ الموافق ١٦-٢١ نيسان ١٩٩٠ م.
٢. بغداد مدينة السلام: مركز إحياء التراث العلمي العربي، بغداد ١٩٩٠م.
٣. يوم الغضب هل بدأ بانتفاضة رجب، الأستاذ سفر الحوالي، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

د) برامج الحاسوب:

١. برنامج القرآن الكريم على الحاسبة الإلكترونية، نسخة تحتوي تفاسير ابن كثير والقرطبي والجلالين، قرص مدمج، إصدار شركة صخر لبرامج الحاسوب، الإصدار السادس، ١٩٩١-١٩٩٦م.
٢. برنامج كليات رسائل النور للإمام النورسي، قرص مدمج.
٣. برنامج المترجم الوافي (ترجمة عربي - إنكليزي وبالعكس)، ATA Software، الإصدار/ ٢.
٤. برنامج مصحف النور للنشر المكتبي، قرص ٣،٥ إنج، إصدار شركة سيمافور للبرامجيات، الإصدار الثاني.
٥. برنامج مكتبة أصول الفقه، قرص مدمج يحوي مئات المجلدات من أمهات كتب ومراجع الفقه وأصوله، إصدار دار التراث، عمان، الأردن.
٦. برنامج مكتبة التفسير وعلوم القرآن، قرص مدمج يحوي أكثر من ٤٠٠ مجلد من أمهات كتب ومراجع التفسير وعلوم القرآن المختلفة، إصدار دار التراث، عمان، الأردن.
٧. برنامج المكتبة الألفية للسنة النبوية، نسخة تحوي على ١٠٠٠ مجلد من كتب الحديث الشريف، قرص مدمج، دار التراث، الإصدار الأول.
٨. برنامج مكتبة الحديث الشريف على الحاسبة الإلكترونية يحتوي على ٤٥٠ كتاب من كتب الحديث الشريف، قرص مدمج، شركة العريس للكومبيوتر وأنظمة الحواسيب.
٩. برنامج موسوعة الأحاديث القدسية، إنتاج شركة الوسائط التعليمية (أوديوميديا)، الإسكندرية - جمهورية مصر العربية، سنة ٢٠٠١م.
١٠. برنامج الموسوعة الإسلامية المعاصرة، قرص مدمج يحوي مئات الكتب من أمهات المراجع الشرعية والفقهية واللغوية، الإصدار الثالث، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.
١١. برنامج موسوعة بريتانيكا ٢٠٠٢م، مجموعة ٣ أقراص مدمجة لأحدث موسوعة بريطانية لعام ٢٠٠٢م.
١٢. برنامج موسوعة الحديث الشريف على الحاسبة الإلكترونية، نسخة تحتوي على

الكتب التسعة ومتونها، قرص مدمج، شركة صخر لبرامج الحاسوب.

١٣. بـرنامج موسـوعة الحـضارة الإسـلامية، سلـسلة أقـراص مدمجـة تبـين الحـضارة الإسلامية بتنوع دولها، إنتاج شركة (RDI).

١٤. بـرنامج موسـوعة الدكـتور طـارق السويدان، آية سوفت للإنتاج والتسويق الفني والبرامجيات، القاهرة- جمهورية مصر العربية.

١٥. الموسوعة الميسرة في علوم القرآن، قرص مدمج.

١٦. بـرنامج موسـوعة الـيهود والـيهودية والـصهيونية، د. عبد الوهاب المسيري، بيت العرب للتوثيق العصري والنظم.

هـ) مصادر أخرى:

١. شبكة المعلومات الدولية – مواقع علمية وتحليلية رصينة.

٢. قنوات فضائية وإذاعات مختلفة علمية وتحليلية رصينة.

أعمال المؤلف

أعمال منجزة

الكتب والبحوث:

١. كتاب (المنظار الهندسي للقرآن الكريم)، دار المسيرة، عمان- الأردن، ط / ١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

٢. كتاب (المنظار الهندسي للقرآن الكريم)، دار المسيرة، عمان - الأردن، ط / ٢، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

٣. كتاب (أنت والانترنت- جلّ ما تحتاجه من خدمات الشبكة العالمية-)، دار الرشد، ط/ ١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

٤. كتاب (القرآن منهل العلوم)، طبع الجامعة الإسلامية، بغداد، ط/ ١، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

٥. كراس (مواصفات الفحوص المختبرية لأعمال الهندسة المدنية)، مع مجموعة من المختصين،١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

٦. كتاب (القوانين القرآنية للحضارات -النسخة المختصرة-)، طبع ببغداد عام ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

٧. سلسلة كتب (ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية- ١٥ جزءاً-)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

أ. التأريخ والآثار.

ب. المادة والطاقة.

ت. الفلك.

ث. الأرض.

ج. الرياح والسحب.

ح. المياه والبحار.

خ. النبات والإنبات.

د. الحيوانات والحشرات.

ذ. الطب.

ر. الوراثة والاستنساخ.

ز. الصيدلة والأمراض.

س. الجملة العصبية والطب النفسي.

ش. الأحلام والباراسايكولوجي.

ص. الاقتصاد والاجتماع.

ض. آخر الزمان.

٨. كتاب (**القوانين القرآنية للحضارات - النسخة المفصلة-**)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

٩. كتاب (**تفصيل النحاس والحديد في الكتاب المجيد**)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

١٠. كراس تصاميم شبكات الخدمات المائية والصحية.

١١. عدة بحوث في مجال الهندسة المدنية منشورة في مجلات ومؤتمرات هندسية مرموقة داخل العراق وخارجه.

١٢. عدة بحوث ومقالات في مجال الإعجاز القرآني منشورة في صحف ومجلات ومؤتمرات مرموقة داخل العراق.

المرئيات:

مشارك بعدة حلقات تلفازية في محطات محلية وفضائية مثل:

١. (**آيات وحوار-٣٠ حلقة**) عرضت على مجموعة شبكة قنوات (ART) قناة إقرأ، الأوائل، عين الأوائل، والعالمية التابعة للـ (ART) وكذلك قناة الديار العراقية مع نخبة من المختصين مثل الأستاذ الدكتور أنيس مالك الراوي والأستاذ رعد الخزرجي والدكتور أحمد عبد الغفور السامرائي.

٢. برنامج (**العلم في القرآن -٣٠ حلقة**) عرضت على العراقية الفضائية مع الأستاذ

الدكتور أنيس الراوي.

٣. حلقـات (سر الحديد –٣٠ حلقة) إنتاج شركة كوديا للإنتاج الفني، عرضت من على شاشات قنوات مؤسسة دبي للإعلام عام ٢٠٠٥م.

٤. حلقـات (**آيـات وعلوم- ٢٠ حلقة**) عرضت من على شاشة قناة السياحة العربية عام ٢٠٠٥م.

٥. لقـاءات تلفازيـة في عـدة محطـات محلـية وفضائية كبعض اللقاءات مع محطة الشارقة الفضائية على هامش معرض الكتاب الدولي عام ٢٠٠٤م، فضلاً عن حوارات عديدة في صحف ومحطات تلفاز وراديو محلية.

مشاريع كتب:

١. كتاب (القصة الكاملة للتدخين)، جاهز للنشر.

٢. كتاب (لسنا بمأمن-لله جنود السماوات والأرض-)، جاهز للنشر.

٣. كتاب (الإرساء في حقوق النساء)، ، قيد التأليف والإعداد.

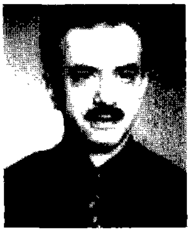
٤. كتاب (رياضيات التوحيد)، جهد مشترك مع باحث آخر، قيد الإعداد.

٥. كتاب (استنباط الحلول من أسباب النزول)، قيد التأليف والإعداد.

٦. كتاب جامعي عن المواد الهندسية، قيد التأليف الإعداد.

٧. كتاب جامعي عن الحديد والتصاميم الحديدية، قيد التأليف.

السيرة الذاتية للمؤلف



- الدكتور المهندس خالد فائق صديق العبيدي.
- مواليد بغداد ١٩٦٤م.
- حاصل على شهادة البكولوريوس في الهندسة المدنية من كلية الهندسة- جامعة بغداد عام ١٩٨٥م.
- حاصل على شهادة الماجستير في الهندسة الإنشائية / منشآت حديدية- من قسم هندسة البناء والإنشاءات- الجامعة التكنلوجية ببغداد عام ١٩٩٠م.
- حاصل على شهادة الدكتوراه في الهندسة الإنشائية / منشآت معلقة- من قسم هندسة البناء والإنشاءات- الجامعة التكنلوجية ببغداد عام ١٩٩٧م.
- عضو الهيئة التدريسية في قسم هندسة البناء والإنشاءات- الجامعة التكنلوجية ببغداد، ومحاضر سابق في قسم الهندسة المدنية وقسم هندسة البيئة في كلية الهندسة – الجامعة المستنصرية ببغداد.
- عضو الهيئة الاستشارية لمركز الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في الجامعة الإسلامية ببغداد.
- عضو المؤتمر العام لنقابة المهندسين العراقيين- الدورة ٢٥- .
- عضو جمعية المهندسين العراقيين بدرجة استشاري.
- له عدة بحوث في مجال الاختصاص منشورة في مجلات مرموقة داخل العراق وخارجه.
- مشترك في عدة مؤتمرات في مجال الاختصاص داخل العراق وخارجه.
- له عدة كتب في مجال الإعجاز القرآني بعضها منشورة داخل العراق وخارجه وأخرى قيد النشر.
- له عدة بحوث ومقالات في مجال الإعجاز القرآني منشورة في مجلات وصحف

مرموقة داخل العراق وخارجه.

- مشترك في عدة مؤتمرات وندوات ومحاضرات في مجال الإعجاز القرآني داخل العراق.
- مـشترك في عـدة حلقات مرئية تتعلق بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم عرضت في محطات تلفازية محلية وأخرى فضائية عربية.
- حاصـل عـلى عـدة كـتب شـكر مـن وزارات وهيـئات ومؤسسات علمية عديدة في العراق.
- مـصمم واستشاري لأكثر من ٢٠ عاماً في مشاريع مختلفة في العراق ودولة الإمارات العربية المتحدة.
- متزوج ولله الحمد عنده ذرية.

المحتويات

AL-QURᵓĀN
MANHAL AL-ᶜULŪM

(The Holy Qur'an fountain of sciences)

by

Dr. Ḫālid fāᵓiq al-ᶜUbaydi

DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
Beirut-Lebanon